الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس

معاصرو الادريسى

بينما كان الإدريسى يعمل فى صقلية ، كان جغرافيون آخرون يعملون فى نواح شتى من مملكة الإسلام ، ولكنهم كانوا يسيرون فى الجغرافية على النهج القديم ، ولم يقرأ أحد منهم شيئاً مما كتب ، لأن الإدريسى عمل فى ظروف خاصة جعلت وصول كتبه إلى معاصريه من المسلمين عسيرة ، بل منهم من لم يسمع به ، وظلوا يعملون سائرين على درب الماضين غير عالمين أن أخا لهم قد فتح فى الفن الذى أولعوا به فتحاً حاسماً خطا به قروناً كثيرة إلى الأمام .

وليس معنى ذلك أن أعمال أولئك المعاصرين قليلة القيمة أو لا تستحق عناء دراستها ، لأن المنهج الجغرافى التقليدى ، وإن بدا قليل الجدوى إلى جانب منهج الإدريسى ، إلا أن له فضائله وقيمته ، والمجيدون من السائرين عليه لهم قدرهم ودورهم فى تاريخ هذا العلم فى عالم الإسلام ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن بعضهم جمع صفات الدقة والأمانة ورُزق موهبة طيبة فى جمع المعلومات الجغرافية وكتابتها على طريقة البلدانيين أو الفلكيين والعجائبيين تبينا أن تاريخاً للعلم الجغرافى فى الأندلس لا يكمل إلا بالكلام على رجال مثل أبى القاسم بن خلف بن بشكوال واليسع بن عيسى الغافقى وأبى حامد الغرناطى وأبى بكر الزهرى وأمثالهم ، خاصة وقد امتاز بعضهم بخصائص الدقة والفهم لمطالب الوصف الجغرافى ، وتفرد بعضهم الآخر بالإبعاد فى الرحلة والسياحة فى بلاد كانت فى ذلك الحين فى حكم المجهولة والعودة إلى بلاد الإسلام بكل عجيب

الاشارات الجغرافية فى كتابات ابن الخطيب

ونصل إلى لسان الدين بن الخطيب وهو آخر من سنتعرض لهم بالكلام فى هذا التاريخ ، لا لأننا نقطع بأنه آخر أندلسى نعرف له إسهاماً فى الجغرافية والرحلات ذات القيمة الجغرافية ، بل لأننا ينبغى أن نقف بالكلام عند نقطة ما ، وليس لدينا بعد ذلك شيء أندلسى محقق فى الجغرافية إلا مختصر جيد لجغرافية الأندلس وتاريخه كتبه رجل نحسب أنه عاش بعد ابن الخطيب ، ولم نعثر على اسم المؤلف أو عصره ، فإن القسم التاريخى من الكتاب يقف عند نهاية هشام المعتد آخر خلفاء المروانية الأندلسيين فى حين أننا نقرأ بخط مخالف على ظهر غلاف الكتاب أنه يصل بالحوادث إلى نهاية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، وسنلم بذكره بعد أن نفرغ من ابن الخطيب .

ثم إن ابن الخطيب نهاية معقولة لمثل هذا التاريخ ، فهو دون شك آخر السلسلة الذهبية من أعلام الفكر الأندلسى ، وعنده ينتهى علم التاريخ وفنون الأدب فيه ، ولا نعنى بذلك أنه لم يظهر بعده فى الأندلس مؤرخ أو ناثر أو شاعر ، بل معناه أنه آخر من انتهى إليه التجويد فى هذه الفنون ، فقد قال الشعر الجيد فى الأندلس بعد موت ابن الخطيب أبو عبد الله محمد بن يوسف الشريحى المعروف بابن زمرك (٧٣٤—٧٩٦/١٣٣٣—١٣٩٣) وكتب فى التاريخ بعده كذلك أبو الحسن على النُّبَاهى المالقى (توفى ٧٩٤/١٣٩١) ولكن هذين — وأمثالهما كثيرون — يبدون وكأنهم أصداء مترددة بل متلاشية بعد خفوت

الكتب : نقد وعرض

لسان الدين بن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام . القسم الثالث الخاص بالمغرب . حققه ونشره بعنوان « المغرب العربي فى العصر الوسيط » الأستاذان الدكتور أحمد مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكتانى . نشر دار الكتاب العربي بالدار البيضاء ، ١٩٦٤

هذه خدمة جليلة تسدى لتاريخ المغرب ولتاريخ الفكر الأندلسى فى آن واحد ، فإن كتاب أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب يعتبر من عيون المراجع الخاصة بتاريخ المغرب من الفتح الإسلامى إلى أول عصر الموحدين . وقد كان الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب قد نشر منه جانباً من الجزء الخاص بإفريقية (تونس) وصقلية منذ سنوات طويلة فى مجلد ذكرى ميلاد ميكيلى أمارى ، وهو كتاب نادر يزداد الاطلاع عليه صعوبة مع الأيام ، فجاء الزميلان العبادى والكتانى ، ونشرا القسم كاملا محققاً على ثلاثة مخطوطات جديدة (بيانها فى صفحة د من المقدمة) بالإضافة إلى نسخة ح. ح. عبد الوهاب المطبوعة ، فأهديانا بذلك ذخراً عظيما من المادة التاريخية السليمة عن تاريخ أقطار المغرب العربى خلال العصور الوسطى .

ومن أسف أن الكتاب يقف بالكلام عند أوائل خلافة عبد المؤمن بن على وقد قال المحققان أن ذلك الانقطاع ربما رجع إلى وقوع النكبة التى انتهت بمقتل ابن الخطيب ، وهو تعليل طيب ، لأن عزم ابن الخطيب كان منعقداً على الوصول بتاريخ المغرب الأقصى إلى أيام مقامه الأخير هناك ، لكى يفيض فى الكلام على بنى مرين ويغدق المديح عليهم ، وقد كان ابن الخطيب فى هذه الفترة الأخيرة

أنبـاء

معهد الدراسات الاسلامية خلال سنة ١٩٦٣

وضع أساس مبنى المعهد الجديد بمدريد

فى خلال شهر يناير من تلك السنة تم وضع أساس مبنى المعهد الجديد ، وقد عهدت وزارة التعليم العالى إلى السيد الدكتور المهندس محمد نصرى كامل الأستاذ بكلية الهندسة بجامعة عين شمس بالقاهرة فى وضع مشروع هذا المبنى ، فوضعه على أساس احتياجات المعهد الحالية والمقبلة .

والمعهد الجديد تبلغ مساحة أرضه ١١٧٢,٩٩ متراً مربعاً ويقع على زاوية شارع أرماندو بالاثيو وفرنسيسكو دى أسيس مندث كاساريبجو الذى يتفرع من شارع لاهابانا عند أوله .

ولقد استقرت عطاءات البناء على شركة مبانى الكالا ، وهى سائرة فى العمل بشكل مرضى .

دروس اللغة العربية فى المعهد

بدأت دروس اللغـة العربية لموسم ١٩٦٣ — ١٩٦٤ فى مساء الأربعاء ١٦ اكتوبر سنة ١٩٦٣ ، وقد بلغ عدد الطلبة المسجلين ٩٩ طالباً قسموا على فصلين بحسب مستواهم فى اللغة العربية . وقام بالتدريس للفصلين السيد الدكتور محمود على مكى وكيل المعهد . وقد بلغ عدد طلاب الفصل الأول ٧٨ طالباً بينما بلغ

معهد الدراسات الاسلامية خلال سنة ١٩٦٤

دروس اللغة العربية فى المعهد

افتتح موسم تدريس اللغة العربية فى المعهد كما هى العادة فى ١٥ اكتوبر سنة ١٩٦٤ ، وقد قسم الطلبة المسجلون إلى فصلين بحسب مستواهم فى معرفة اللغة العربية :

الفصل الأول ٢٣ طالباً ويقوم بالتدريس فيه الدكتور حسين مؤنس .

الفصل الثانى ١٦ طالباً ويقوم بالتدريس فيه الدكتور أحمد مختار العبادى .

ويعطى طلبة كل فصل درسان فى الأسبوع .

المحاضرات التى ألقيت فى دار المعهد

— محاضرة للأستاذ الدكتور باسكوال مارين بيريث أستاذ القانون المدنى بجامعة مدريد عن «الاصلاح الزراعى فى الجمهورية العربية المتحدة ومقارنته بما تم فى ذلك الميدان فى اسبانيا .

وقد ألقيت هذه المحاضرة بدار المعهد فى مساء ٦ مارس سنة ١٩٦٤

— محاضرة للمستشرق الألمانى ويلهلم هونرباخ عن كتاب منتخبات جديد من تشبيهات شعراء الأندلس» وقد أثبت المحاضر أن مؤلف هذا الكتاب هو أبو عبد الله محمد بن الحسن المذحجى المعروف بابن الكتانى وقد عاش فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الهجرى وكان أستاذاً للعالم الأندلسى المعروف

ملخصـــــات

المقالات المنشورة فى القسم غير العربى من الصحيفة

د. محمود على مكى : دراسات عن التيارات الثقافية المشرقية
فى الأندلس وأثرها فى تكوينه الثقافى (ص ٧ — ١٤٠)

فى هذا المقال يتـابع الدكتور محمود على مكى نشر بحثه المطول عن هذا الموضوع ، وقد سبق أن نشرنا منه فى المجلدين الأسبقين من الصحيفة جزءً يتضمن ثلاثة الفصول الأولى .

ويبدأ الجزء الذى ننشره هذه المرة بالفصل الرابع — الذى خصصه المؤلف لتأثير العراق الثقافى على الأندلس — بدراسة الأحوال السياسية فى العراق منذ قيام العباسيين ، وما كان لهذه الأحداث من صدى فى الأندلس وأشار إلى محاولات العباسيين التدبير على بنى أمية الأندلسيين للخلاص منهم وفشل هذه المحاولات وذكر كذلك هيج الربض وإخراج عدد كبير من أهل قرطبة من الأندلس واستيلائهم على الاسكندرية ثم على جزيرة اقريطش ، وتكلم لهذه المناسبة عن علاقات بنى أمية الأندلسيين مع أباطرة الدولة البيزنطية ، واستمر فى دراسة هذه المحاولات وتلك العلاقات حتى نهـاية خلافة المعتصم العباسى فى سنة ٢٢٧ هـ/٨٤٢م . وأشار بعد ذلك إلى علاقات المودة التى ربطت مصر والمغرب والأندلس إلى بنى أمية الأندلسيين حتى قيام الخلافة القرطبية .

وتكلم بعد ذلك عن الأحزاب السياسية فى عراق ذلك العصر مثل الشيعة والخوارج ، ووقف طويلا عند حركات الخارجية فى المغرب وتكلم عن الأباضية .

طريف ، وأتيح لواحد منهم (وهو محمد بن أبو بكر الزهرى) أن يحتفظ لنا بنص أحد كتب الجغرافية التى كان يتداولها الملاحون والتجار وأهل الموانى ، وهى كتب عملية كانت تكتب شرحاً للخرائط التى كانوا يستعملونها ويعولون عليها ، وهى كتب تبدو لنا قليلة القيمة العامية إلى جانب ما مررنا ونمر به ، ولكنها تصور مفهوم الجغرافية عند هذه الطوائف من الناس التى كان أهل العلم يدرجونها فيما يسمونه بالعوام .

الجانب الجغرافى من ابن بشكوال

وقد يبدو غريباً أن نذكر أبا القاسم خلف بن بشكوال فى بحث خاص بالجغرافية والجغرافيين لأن ابن بشكوال مشهور بأنه فقيه محدث ، ولكنه كان إلى جانب ذلك مؤرخاً مجيداً ، وابن الأبار الذى أتانا بأوسع ترجمة لابن بشكوال يقول إنه كان « حافظاً حافلا اخبارياً ممتعاً تاريخياً مُقَيِّداً ذاكراً لأخبار الأندلس القديمة والحديثة ، وخصوصاً لما كان بقرطبة ، حاشداً مكثراً » . وعن طريق التاريخ اسهم ابن بشكوال فى الجغرافية ، وكانت الجغرافية لا تفترق عن التاريخ فى مفهوم الأندلسيين على ما قلناه .

وحياة أبى القاسم خلف عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال (٣ ذى الحجة ٤٩٤ — ٨ رمضان ٢٩/٥٧٨ سبتمبر ١١٠١ — ٥ يناير ١١٨٣) حياة عالم حق . عاش أربعاً وثمانين سنة هجرية إلا أشهراً أنفقها كلها منذ شب عن الطوق فى الدرس والبحث والقراءة والتأليف والتعليم . شيوخه عشرات من علية أهل العلم وجلة الفقهاء ، وأصحابه وأنظاره فى الشرق والغرب لا يقلون عن شيوخه عدداً أو مقاماً ، وتلاميذه أعاظم أهل العلم فى الأندلس من العقد الثالث من القرن السادس الهجرى إلى نهايته ، أما خلقه فكان مضرب المثل

عفّة ونزاهة وتصاوناً وقناعة وصبراً على التعلم والتعليم ، ولابن الأبار فى ترجمته له عبارة تصور خلقه أصدق تصوير ، قال : « وحدثنا عنه جماعة من شيوخنا الجلة ووصفوه بصلاح الدِّخله وسلامـــة الباطن وصحة التواضع وصدق الصبر للراحلين إليه ولين الجانب وطول الاحتمال فى الكبرة للاسماع رجاء المثوبة ، ولم يعرض فى تاريخه لما اراده أبو عبد الله النميرى وسواه منه ، ونفوا تركه عليه وأحبوا خوضه فيه من اجتلاب ما رآه أحق بالاجتناب » أى أنه تصاون عن أن يذكر فى كتابه (الصلة) مساوىء الناس وعيوبهم وسقطاتهم مما أحب أولئك الفقهاء أن يضمنه تراجمه ، لأن خلقه لا يرضى ذكر هذه النواحى التى لا يكاد يسلم منها أحد . ولم يتول ابن بشكوال من الوظائف إلا قضاء بعض نواحى إشبيلية نائباً عن أبى بكر بن العربى ، تولاه لفترة صغيرة ، وعَقَدَ الشروط فترة أخرى طلباً للرزق ، ثم ترك ذلك كله وانقطع للعلم وحده بقية عمره الطويل .

وقد كتب ابن بشكوال نحو خمسين كتاباً أورد أسماء بعضها ابنُ الأبار فى مادته الضافية عنه ، واستكملها بونس بويجس فى الفصل الوافى الذى أداره عليه معتمداً على ابن الأبار وابن خلكان وحاجى خليفة ، وهذه الكتب هى :

١ — كتاب « الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم » وهو أهم كتبه وأكثرها ذكراً فى المراجع ، وهو كتاب تراجم اكمل به كتاب « تاريخ علماء الأندلس » الذى ذكرناه لابن الفرضى ، وقد نشره فرنثيسكو كوديرا فى جزأين فى مدريد سنة ١٨٨٣

٢ — التاريخ الصغير فى أحوال الأندلس (ذكره حاجى خليفة برقم ٢١٦٥ من طبعة فستنفلد) .

٣ — أخبار قضاة قرطبة ، حاجى خليفة ، رقم ٢٢١

٤ — معجم مشيخته ، ذكره ابن الأبار فى مقدمة التكملة .

٥ — كتاب الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة ، ذكره ابن الأبار فى ترجمته لابن بشكوال وقال إنه فى عشرين جزءاً .

٦ — كتاب التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين ، ذكره ابن الأبار .

٧ — كتاب الغوامض والمبهمات ، ذكره ابن الأبار ، وقال عنه : « فى اثنى عشر جزءاً ، وقد اختصره شيخنا أبو الخطاب بن واجب ورتبه ترتيباً عجيباً ، واستحقه بذلك ، فحملناه عنه وسمعناه منه مختصراً » .

٨ — كتاب المحاسن والفضائل فى معرفة العلماء الأفاضل ، ذكره ابن الأبار .

٩ — ذيل الصلة . ورد ذكر هذا الكتاب فى بعض تراجم ابن الأبار فى التكملة ، ويبدو أن ابن بشكوال شرع فى كتابته بعد أن فرغ من الصلة ليستدرك فيه ذكر من فاته من الشيوخ ، ولم ينتشر ذكر هذا الكتاب ، بل لم يشر إليه أبو جعفر أحمد ابن الزبير فى كتابه الذى ألفه لنفس الغرض وأعطاه نفس الاسم .

ولكن المقَّرى أتى فى نفح الطيب بفقرات لابن بشكوال لا نعرف إلى أى كتبه تنتسب ، فهى فقرات طويلة ذات قيمة جغرافية كبرى ، مثال ذلك قوله :

« وذكر ابن بشكوال — رحمه الله — أن أبواب قرطبة سبعة أبواب : باب القنطرة إلى جهة القبلة ويعرف بباب الوادى ، وبباب الجزيرة الخضراء ، وهو على النهر .

وباب الحديد ، ويعرف بباب سرقسطة .

وباب ابن عبد الجبار ، وهو باب طليطلة ، وباب رومية ، وفيه تجتمع الثلاثة الرُّصُف التى تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طرَّكونه إلى أربونه مارة فى الأرض الكبيرة .

ثم باب طَلَبِيرة ، وهو أيضاً باب ليون .

ثم باب عامر القرشى ، وقُدَّامه المقبرة المنسوبة إليه .

ثم باب الجوز ، ويعرف بباب بطليوس .

ثم باب العطارين ، وهو باب إشبيلة .

وهذا التفصيل فى ذكر أبواب قرطبة وحدها لا يكون إلا فى كتاب كبير عن الأندلس كله أو عن قرطبة على الأقل . وسنرى من الفقرة التالية أن ذلك الكلام جزء من كلام غاية فى التفصيل عن قرطبة ، أى أننا أمام قطع من كتاب كبير إما فى صفة الأندلس أو فى صفة قرطبة وحدها ، وعلى الحالين فهو كتاب وصف جغرافى أو طبوغرافى داخلٌ فى موضوعنا ، ويؤيد ذلك ما يقوله ابن الأبار فى سياق كلامه عنه أنه كان : « حافظاً حافلا أخباريا ممتعاً تاريخياً مقيِّداً ذاكراً لأخبار الأندلس القديمة والحديثة ، وخصوصاً لما كان بقرطبة حاشداً مكثراً » وقوله إنه كان مقيداً وحاشداً ومكثراً يدل على أن كتب الرجل الأخرى كانت أكبر من كتاب الصلة الذى بين أيدينا ، وهو على غزارة مادته من صغار الكتب ، فأين يكون موضع هذه الفقرات الطويلة من كتبه التى ذكرناها ؟ أفى مقدمة التاريخ الصغير للأندلس أو فى أخبار قضاة قرطبة أو فى كتاب الفرائد المنتخبة والحكايات المستغربة ؟ لا نستطيع القطع بشىء ، لأن طرائق مؤلفينا القدامى فى انشاء كتبهم لم تكن تسير على نحو يمكننا من تصور ما تحتويه فى كثير من الأحيان . ولكن يغلب على ظننا أن هذه قطع من وصف مطول لقرطبة لم يصل إلينا اسمه ، وسقوط اسم كتاب كهذا لا يستغرب ، فقد كان الكثيرون من الشيوخ لا يرون أن كتب الجغرافية وما إليها مؤلفات لا تستحق الذكر ، وقد رأينا كيف أغفل الكثيرون ذكر المسالك والممالك بين كتب البكرى ، وسيتكرر هذا مع كتاب « الروض المعطار » لمحمد بن عبد المنعم الحميرى وغيره .

فإذا نظرنا فى نص القطعة التى أوردناها تبينا أنها من أنفس ما لدينا عن قرطبة ، وإذا نحن قارناها بما بين أيدينا من أوصاف هذا البلد فى عصوره الإسلامية زادت قيمتها وضوحاً ، فإن أحسن ما لدينا فى هذا الباب هو ما ذكره الإدريسى ثم ابن عبد المنعم الحميرى ، والثانى نقل عن الأول معظم المادة الطبوغرافية التى أوردها . فأما ما ذكره الإدريسى فهو مشكلة فى ذاته إذ أنه يقول إن قرطبة « فى ذاتها خمس مدن يتلو بعضها بعضا ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات ، وطولها من غربيها إلى شرقيها ثلاثة أميال ، وعرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود ميل واحد ، وهى فى سفح جبل مُطِل عليها ، يسمى جبل العروس ، مدينتها الوسطى هى التى فيها باب القنطرة[1] » ولا ندرى ما ذا عناه الإدريسى بهذه المدن الخمس التى يتلو بعضها بعضاً : هل يريد قرطبة وأرباضها ؟ إذن لماذا يقول إن عرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود ميل واحد ؟ وهذا ليس عرض قرطبة بأرباضها . . ثم ما هى هذه الأسوار الحاجزة التى تقوم بين كل مدينة ومدينة ؟ اننا لا نعرف إلا سوراً واحداً لقرطبة الإسلامية هو هذا الذى تقع فيه الأبواب التى ذكرها كلها ابن بشكوال وذكر بعضها الإدريسى .

ان ابن بشكوال هو الوحيد من مؤلفينا الذى ذكر أبواب قرطبة السبعة وحدد لنا أسماءها ومواقعها وما يؤدى إليه كل باب منها ، لأن قوله أن باب القنطرة كان يعرف أيضاً بباب الجزيرة الخضراء معناه أنه يشرع إليها ، وأن باب الحديد يعرف بباب سرقسطة معناه أنه يقع فى شمالى شرقى قرطبة ويؤدى إلى سرقسطة ، وباب ليون فى اتجاه طلبيرة ، أى أنه يقع فى شمال غربى البلد وهكذا .

---

(١) الإدريسى ، المغرب والأندلس ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ، الروض المعطار ، ص ١٥٧

ويستوقفنا بصفة خاصة كلامه عن باب ابن عبد الجبار وقوله : « وهو باب طليطلة وباب رومية ، وفيه تجتمع الثلاثة الرُّصف التى تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى اربونة مارة بالأرض الكبيرة » فهذه العبارة تكشف عن حقيقة كبرى ، وهى أن الطرق الرومانية القديمة كانت قائمة مستعملة على أيام العرب ، وابن بشكوال يكمل هنا المعلومات التى وصل إليها الباحثون الذين درسوا شبكة الطرق الرومانية فى اسبانيا .

ذلك أن ابن بشكوال عندما يقول عن باب ابن عبد الجبار أنه « باب طليطلة وباب رومية » إنما يريد أن هذا الباب يشرع عنده طريق طليطلة وطريق روما ، وعنده تجتمع « الثلاثة الرصف » وهى الطرق الرومانية القديمة Viae Romanae المعبَّدة المرصوفة ، ولهذا يسميها بالرُّصُف جمع رصيف ، ومن هنا نعلم أن الرصيف فى المصطلح الأندلسي يطلق على الطريق الرومانى القديم وعلى كل طريق معبد مرصوف أنشئ على هذا الغرار ، فرصيف قرطبة هو الشارع المرصوف الذى أنشأه الأمراء والخلفاء بين الجامع ونهر الوادى الكبير ومدوه ناحية الشرق إلى آخر ما كانت تنتهى إليه أرباض قرطبة الشرقية التى سيتحدث عنها ابن بشكوال فى فقرة نفيسة سنعرض لها بعد قليل .

وقد كانت قرطبة على أيام الرومان ملتقى شبكة مواصلات إقليم باطقة Bética أى حوض الوادى الكبير وما يليه جنوباً ، والمعلومات التى لدينا تذكر ستة رُصُف كانت تتفرع منها أو تمر بها ، أولها رصيف هرقل Via Herculea الذى سمى بعد ذلك رصيف أغسطس Via Augusta نسبة إلى ذلك الامبراطور ، ثم رصيفان رئيسيان يشرع أحدهما إلى طليطلة ، ومن طليطلة إلى سرقسطة وهناك يلتقى برصيف أغسطس ، والثـــانى يشرع إلى انطكيرة فمالقة ومنها إلى طركونة ثم برشلونة إلى أمبُرياش Ampurias وهناك يلتقى برصيف أغسطس .

والرصف الثلاثة الأخرى التى كانت تشرع من قرطبة يذهب أحدها إلى مدلين Medellén فالاشبونة والثانى يشرع إلى قرمونة واشبيلية فقادس أى أنه استمرار للرصيف الأغسطى ، والثالث يشرع إلى « صحراء » Zafra وبلاد صغيرة أخرى إلى غربها[١] .

وإذن فثلاثة من هذه الرصف التى تلتقى عند قرطبة كانت تشرع إلى روما سالكة مسالك مختلفة ، ولكنها تلتقى كلها عند أمبرياش ، ومنها تستمر فى غالة فشمالى إيطاليا فروما ، وتلك هى التى عناها ابن بشكوال هنا .

وابن بشكوال دقيق جداً عندما يصف هذه الطرق بـأنها تشق دائرة الأرض ، لأنها بعد أن تلتقى فى امبرياش تستمر إلى روما ومنها شرقاً حتى انطاكية . ولكنه عندما يقول إنها كلها تشرع من قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى أربونة مارة بالأرض الكبيرة إنما يعنى الرصيف الأغسطى وحده ، فهذا كان الطريق الرئيسى الذى يسير بهذا الاتجاه ويستمر إلى روما ومنها إلى انطاكية .

وقد حدد لنا ابن حوقل طرق التجارة الرئيسية التى كانت تلتقى عند قرطبة وعددها ستة وهى تقابل على وجه التقريب الطرق الرومانية الستة التى ذكرناها ، وهذه الطرق هى :

الأول من قرطبة إلى إشبيلية فقادس فالجزيرة الخضراء ، وعند إشبيلية يتفرع طريق آخر يذهب إلى شلب .

الثانى من قرطبة إلى طليطلة فسرقسطة فلاردة .

الثالث من قرطبة إلى غرناطة إلى مرسية فبلنسية فطرطوشة فلاردة .

الرابع من قرطبة إلى مالقة ماراً باستجه ثم إلى مرسية ثم يلتقى بالسابق .

---

(١) انظر عن ذلك الفصل الذى كتبه خوسيه رامون ميليدا :
José Ramón Mélida, *El Arte en España durante la Época Romana.*
فى كتاب :
Ramón Menéndez Pidal, *Historia de España*, tomo II, *España Romana*, Madrid, 1935, pp. 567-574.

الخامس من قرطبة إلى المعدن إلى قورية فسلمنقة فسمورة .

والسادس من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ماراً باستجه ومورور وشذونة [١] ، فأما الطريقان الأول والثانى فهما على الحقيقة طريق واحد يبدأ عند لاردة وينتهى عند قادس ، وهو الرصيف الأوغسطى .

والطريقان الثالث والرابع من هذه هما الرصيفان الرئيسيان اللذان ذكرناهما فى تعداد الرصف الرومانية الشارعة من قرطبة مع ملاحظة أن الطريقين العربيين كانا ينتهيان عند لاردة ولا يستمران إلى امبرياش ، لأن هذه الأخيرة كانت خارجة عن الأندلس الإسلامى وداخلة فى كونتية برشلونة ، كذلك لم تكن الطرق العربية الذاهبة إلى الشرق تستمر إلى برشلونة لنفس السبب ، وإنما كان منتهاها فى هذه الناحية عند طرطوشة ، وكانت هذه تقوم على الحدود بين بلاد الإسلام وبلاد النصرانية من هذه الناحية ، وإلى هذا ترجع أهميتها فى العصور الإسلامية ، وقد فقدت طرطوشة هذه الأهمية بعد سقوطها فى يد النصارى ، إذ انتقلت الأهمية إلى طركونة وبرشلونة .

وعبارة ابن بشكوال هذه هى الوحيدة فى كتب مؤلفينا خاصة بالرصف الرومانية واستعمال الناس لها فى العصور الإسلامية ، وهو يذكر بصراحة أنها تؤدى إلى روما وأنها تشق دائرة الأرض ، وربما يكون ابن بشكوال قد عرف أن ذلك الرصيف الاوغسطي يستمر بعد روما حتى يصل إلى انطاكية ، وربما يكون ذلك قد غاب عن علمه ، ولكن قوله إنه « يشق دائرة الأرض » يدل على أنه يعرف أنه طريق طويل يقطع الأرض من طرف إلى طرف : من الغرب إلى الشرق [٢] .

---

(١) ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، ج ١ ص ٤٦

(٢) كتب مانويل أوكانيا خيمنيث دراسة مطولة عن فقرة ابن بشكوال هذه الخاصة بأبواب قرطبة :

Manuel Ocaña Jiménez, *Las puertas de la Medina de Córdoba*, Al-Andalus, III, 1935, pp. 143-151.

وقد أورد المقرى فى « نفح الطيب » بعد هذه الفقرة فقرة أخرى تزيد عليها فى الأهمية بالنسبة لطبوغرافية قرطبة العربية ، ونصها : « وذكر أيضاً — أى ابن بشكوال — أن عدد أرباض قرطبة عند انتهائها فى التوسع والعمارة أحد وعشرون ربضاً ، منها :

القبلية بعدوة النهر (أى الجنوبية على الضفة اليسرى للوادي الكبير)

ربض شقندة .

وربض مُنْيَة عَجب .

وأما الغربية فتسعة :

ربض حوانيت الريحانى .

وربض الدقّاقين .

وربض مسجد الكهف .

وربض بلاط مغيث .

وربض مسجد الشفاء .

وربض حمام الإلبيرى .

وربض مسجد مسرور .

وربض مسجد الروضة [١] .

وربض السجن القديم .

وأما الشمالية فثلاثة : [٢]

ربض باب اليهود .

---

(١) أورد ابن الخطيب فى أعلام الأعلام بياناً بارباض قرطبة مطابقاً لبيان ابن بشكوال (انظر ص ١٠٣) وهو يسمى هذا الربض : ربض الروض المحدث .

(٢) ابن الخطيب يقول إن الأرباض الثلاثة التالية تقع « بالجهة الجوفية » ويريد بها ما يريده ابن بشكوال بالجهة الشمالية .

وربض مسجد أم سلمة .

وربض الرصافة[١] .

وأما الشرقية فسبعة :

ربض شَبُلاَر .

وربض فُرت بِرِّيل .

وربض البُرج .

وربض منية عبد الله .

وربض منية المُغيرة .

وربض الزاهرة .

وربض المدينة العتيقة .

قال : ووسط هذه الأرباض كلها قصبة قرطبة التى تختص بالسور دونها ، وكانت هذه الأرباض دون السور (أى خارج السور) فلما كانت أيام الفتنة صُنِع لها خندق يدور بجميعها وحائط مانع[٢] » .

وقد درس هذه الفقرة بما هى حقيقة به من عناية علماء أجلاء من طراز رافائيل كاستيخون وفرديناند زيبولد وليفى بروفنسال ومانويل أوكانيا خيمنيث وانتفعوا بها فى دراساتهم عن قرطبة العربية[٣] ، ونضيف إلى ما استخرجوه من هذا النص حقيقتين تهمان من يدرسون تاريخ قرطبة والمدن الأندلسية بصفة عامة :

---

(١) ابن الخطيب (أعلام ، ص ١٠٣) : ربض قوت راشه المنسوب إلى أم سلمة .

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ٢/١٣ — ١٤

(٣) انظر :

Rafael Castejón y Martínez de Arizala, *Córdoba Califal,* Córdoba, 1930.

Ibidem, *Guía de Córdoba,* Madrid, 1930.

C. F. Seybold, *Hispano-Arábica,* I, en la Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino, tomo III.

Lévi-Provençal, *L'Espagne Musulmane, au X° Siècle,* Paris 1932, pp. 195-236.

Ibidem, *Hist. de l'Espagne Musulmane,* III, pp. 356 sgg.

ومقال أوكانيا خيمنيث الذى أشرنا إليه فى الهامش قبل السابق .

الأولى أن الربض هنا ليس معناه الضاحية ، بل معناه الحى من أحياء المدينة ، وواضح أن هذه الأرباض كانت أول الأمر ضواحٍ لقرطبة العربية الأولى خارج أسوارها ، ثم امتدت المدينة شيئاً فشيئاً فدخلت الأرباض فى المدينة نفسها وأصبحت أحياء ، ومن هنا أصبح الربض مرادفا للحى .

والثانية أن قرطبة كانت تتكون فى الواقع من أربعة أقسام رئيسية : القسم الأول هو المدينة أو القصبة ، وهى المدينة القديمة وامتدادها إلى الشمال فشملت على الترتيب من الجنوب إلى الشمال ربض باب اليهود وربض مسجد أم سلمة وربض الرصافة ؛ والقسم الثانى هو « الجانب الشرقى » أو « المدينة الشرقية » إلى الشرق ويضم سبعة أحياء أو أرباض ؛ والقسم الثالث هو « الجانب الغربى » أو المدينة الغربية ويضم تسعة أرباض أو أحياء ، والقسم الرابع هو المدينة القبلية على الضفة اليسرى للوادى الكبير ويضم حيين أو ربضين هما شقندة ومنية عجب .

وقد أورد ابن الخطيب مثل هذا البيان فى « أعلام الأعلام » ، وواضح أنه أخذه عن ابن بشكوال دون أن يذكر ، والنص عنده أدق مما هو عند المقرى فى مواضع وأقل دقة فى مواضع أخرى ، ولا ندرى إن كان ذلك راجعاً إلى ابن الخطيب والمقرى أو إلى الناسخين ، وعلى أى حال فقد تابعنا نص المقرى لأنه ينص صراحة على أن هذا كلام ابن بشكوال .

ولكن رواية ابن الخطيب تنفرد بفقرة تلقى ضوءاً على ما عناه الإدريسى بقوله إن قرطبة « فى ذاتها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز . . . الخ » قال ابن الخطيب — نقلا عن ابن بشكوال فى الأغلب — فى كلامه عن القسم الأوسط من قرطبة : « ربض المدينة — القصبة العتيقة ، واسطة البلدة — وكان ينقسم على ربضين : الجامع وما حوله ربضٌ واحد يتولاه عريفُه ، ومحارسُه على حدة ، وربضٌ آخر بذاته ينفرد به أيضاً عريفه » أى

أن القسم الأوسط انقسم إلى حيين : القسم الجنوبى الملاصق للنهر ويضم الجامع وما حوله ، أى قلب قرطبة العتيقة ، ثم بقية المدينة العتيقة إلى الشمال وتضم أحياء أو أرباض مسجد أم سلمة (قوت راشه) وباب اليهود والرصافة ؛ وكان كل من هذين القسمين كأنه مدينة قائمة بذاتها له عريفه ومحارسه . واعتماداً على هذا يمكن القول بأن أقسام قرطبة الثلاثة الأخرى كانت كأنها مدن قائمة بذاتها لكل منها عريفه ومحارسه ، أى أن أقسام قرطبة الخمسة كانت فى وقت ابن بشكوال والإدريسى كأنهما خمس مدن ، لكل منها عريف ومحارس ، وربما كان لها أسوار أيضاً ، وهذا ربما كان تفسيراً معقولا لكلام الإدريسى .

هناك بعد ذلك ملاحظتان جانبيتان تهمان أولئك الذين يدرسون تاريخ قرطبة العربية : أولهما أن ابن بشكوال يذكر الجامع وما حوله فى هذه الفقرة دون إشارة إلى قصور الخلافة وكانت مواجهة له على الجانب الغربى للمحجة العظمى ، ولو كانت موجودة لأشار ابن بشكوال إليها هنا ، فقد كان بالنسبة لتخطيط قرطبة فى نفس أهمية المسجد الجامع ، وعدم الإشارة إليها هنا يدل على أنها كانت قد تهدمت وعدا الناس على أرضها والباقى من مبانيها ، ويؤيد ذلك الفرض أن الإدريسى أيضاً لا يشير إلى هذه القصور ، وثانيتهما أن البلد فَقَدَ وِحْدَتَه فلم يعد مدينة واحدة يشرف على الأمن فيها صاحب المدينة ، وإنما خمس مدائن متجاورة يشرف على الأمن فى كل منها عريف مستعيناً بعدد من الحراس ، والعريف فى الماضى كان نائب صاحب المدينة فى كل حى من الأحياء ، فأصبح الآن رأسا فى ناحيته ، فكأن التقسيم الذى شمل الأندلس كله شمل قرطبة كذلك .

وقد أورد المقرى فى نفح الطيب نقولا أخرى كثيرة عن ابن بشكوال من كتابه الذى قبس منه هاتين الفقرتين ، وهذه النقول تدل فى مجموعها على أنها أُخذت من كتاب فى الجغرافية والتاريخ ، أى كتاب يتكون من مقدمة

جغرافية طويلة ثم موجز تاريخي ، ومعظم هذه الفقرات يدور حول مسجد قرطبة الجامع وتاريخه وتطوره ووصفه [(١)] .

ويستوقفنا من هذه النقول واحد يقول : « وسئل ابن بشكوال عن قصر قرطبة فقال ... [(٢)] » لأن هذه العبارة تدل على أن ابن بشكوال كان يقرأ كتابه هذا فى درسه ، وفى أثناء الدرس سأله أحدهم عن قصر قرطبة فأدلى بالبيانات التى سنشير إليها بَعْدُ . حقيقةً أن إحدى مخطوطات « النفح » تجعل هذه العبارة « ولما وصف ابن بشكوال قصر قرطبة قال . . . » ولكن العبارة الأولى أقرب إلى المعقول ، لأن قصر قرطبة لم يكن على أيام ابن بشكوال إلا أطلالا ، فهو لا يصف شيئاً قائماً وإنما يُسأل عن شيء تهدم وزالت معالمه . ولما كان ابن بشكوال قد عرف هذا القصر فى أواخر أيام رونقه ، فقد كان ابن بشكوال فى مداخل شبابه أيام بلغت دولة المرابطين أوجها ، وكانت هذه الدولة قد أوقفت الفتنة وحركة النهب والتخريب التى سادت عصر الطوائف ، وأبقت بذلك على ما بقى من رواء القصور فى قرطبة وغيرها لفترة من الزمن . وربما كان عمال المرابطين هم الذين نظموا قرطبة على أساس خمس مدن لكل منها عريفها ومحارسها ، وعلى هذه الحالة رآها الإدريسى عندما زارها ووصفها فى « نزهة المشتاق » . ولما قام الموحدون على المرابطين قامت الفتنة من جديد فى الأندلس وعاد التخريب ، فأتى على البقية الباقية من القصور ، وكان ذلك كله فى حياة ابن بشكوال الطويلة ، ومن هنا كان قادراً على أن يحدث الناس عن القصر الذاهب وتاريخه وأقسامه على النحو الذى رواه المقرى فى نفح الطيب [(٣)] .

---

(١) هذه الفقرات تدور حول : الأحاديث النبوية فى فضـــل الأندلس (١/ ١٩٠) وجباية الأندلس أيام الناصر (١/ ١٩٦) وقصر قرطبــة (٢/ ١١) وزيادة المنصور ابن أبى عامر فى جامع قرطبة (٢/ ٨٤) ونص للخليفة الحكم المستنصر عن هذه الزيادة (٢/ ٩٨) وأصل موضع الجامع (٣/ ٩٩) ومصحف عثمان الذى كان فى المسجد (٢/ ١٣٥) .

(٢) نفح الطيب : ٢/ ١١

(٣) انظر نفح الطيب ، ٢/ ١١ — ١٣

اليسع بن عيسى بن حزم الغافقى

وننتقل من ابن بشكوال إلى فقيه آخر معاصر له هو اليسع بن عيسى ابن حزم بن عبد الله بن اليسع الغافقى الجيانى المتوفى فى القاهرة فى رجب ٥٧٥/ ديسمبر ١١٧٩ [(١)] ، ألف كتابا يسمى «المغرب (أو المعرب) فى محاسن المغرب» يكثر النقل عنه فيما تلاه من الكتب ، وعنه أورد المقرى فى النفح عدداً من النقول ذات الطابع الجغرافى .

ولا يقارن اليسع الغافقى بابن بشكوال فى علمه أو مكانه أو موضعه من الثقة ، فقد كان ابن بشكوال شيخ عصره فى الأندلس وعماداً من عمد تاريخ الفكر الأندلسى عامة ، أما اليسع فقد كان فقيهاً عاديا أصل بيته من جَيَّان وسكن أبوه المرية ، والأغلب أن اليسع ولد فيها أوائل القرن السادس الهجرى ، فقد ذكر أبو عبد الله التجيبى «واكثر خبره عنه» كما يقول ابن الأبار فى «التكملة» إنه «توفى بعد انصرافى عنه فى رجب سنة ٥٧٥ وكان مُسِنّاً» ودرس القرآن والحديث على أبيه ونفر من شيوخ بلده وغيرهم . ويذكر ابن الأبار أنه سمع البخارى من ابن هذيل سنة ٥٤٤/١١٤٩ — ١١٥٠ ، وابن هذيل هذا هو أبو المجد هذيل بن محمد بن هذيل الأنصارى الاشبيلى ، من تلاميذ ابن بشكوال (التكملة رقم ٢٠٢١ ص ٧١٦) . ويقول ابن الأبار فى التكملة أن اليسع لقي ببلنسية أبا حفص بن واجب وأبا إسحق بن خفاجة الشاعر ، وابن خفاجة توفى على أصح الأقوال فى ٢٦ شوال ٥٣٣/٢٦ يونيو ١١٢٩ [(٢)] ، مما يفهم منه أن اليسع لقى ابن خفاجة وسمع منه فى أواخر أيام

---

(١) ورد هذا التاريخ فى ترجمة اليسع فى التكملة ، وفى ترجمته فى «المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى» (وكلا الكتابين لابن الأبار) رجب ٥٩٥

(٢) راجع ترجمة ابن خفاجة فى المعجم فى أخبار أصحاب أبى على الصدفى لابن الأبار ، رقم ٤٤ ص ٥٩ — ٦٢ وخاصة الحاشية رقم ١ ص ٦٠ ففيها نص تعليق على إحدى نسخ ديوان ابن خفاجة يحدد تاريخ وفاته كما ذكرناه .

هذا الأخير ، وقبل ٢٦ شوال ٥٣٣ على أى حال . ونفترض أن اليسع كان إذ ذاك فى مطالع شبابه وأوائل دراسته ، لأنه سمع البخارى من ابن هذيل بعد ذلك باحدى عشرة سنة (سنة ٥٤٤) ، وليس هناك تجوُّز كثير فى افتراض أن اليسع ولد حوالى سنة ٥١٠/١١١٦ ، ويؤيد هذا الفرض قول أبى عبد الله التجيبى أنه رآه (فى مصر) فى رجب سنة ٥٧٥ (ديسمبر ١١٧٩) «وكان مسناً» ، فقد كانت سن اليسع إذ ذاك على افتراضنا فوق الخامسة والستين بقليل .

وقد هاجر اليسع من الأندلس إلى المشرق فى تاريخ لا نستطيع تحديده ، ولكنه بعد سنة ٥٤٤ ، ففى تلك السنة سمع من هذيل بن محمد بن هذيل الإشبيلى ، ونزل اليسع الأسكندرية ، ولابد أنه أقام فيها زمناً ، لأن ابن الأبار يقول إنه «استوطنها» ثم رحل إلى القاهرة ودخل فى خدمة صلاح الدين . ويرتبط دخول اليسع فى خدمة صلاح الدين بقيامه بدور هام فى حادث كبير من حوادث تاريخ مصر ، وهو قطع الخطبة للفاطميين والدعوة للعباسيين ، وما قام به اليسع هنا جدير منا بوقفة قصيرة .

ذلك أن ابن الأبار ينص فى الترجمتين اللتين اختص اليسع بهما فى «المعجم» و «التكملة» على أنه هو الخطيب الذى أقام أول خطبة للخليفة العباسى بمصر عندما قرر صلاح الدين — بأمر نور الدين محمود — أن يقطع الخطبة لبنى عبيد . وكان من نتائج ذلك أن حَظِى اليسع عند صلاح الدين ولقى منه كرامة كبيرة بعد ذلك ، قال ابن الأبار : «ورحل إلى المشرق واتصل بالملك صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب ، فاشتمل عليه وأجزل إحسانه اليه ، وأجرى له فى كل شهر ما يقوم به ، وكان يكرمه ويشفِّعُه فى حوائج الناس ، فابتنى بمصر داراً على شاطىء النيل ، وجعل لها اسطوانا يزار فيه ، حكى ذلك أبو عبد الله التجيبى شيخنا ، وكان قد لقيه بالأسكندرية فى سنة ٥٧٠ ، ثم لقيه بمصر ثانية بعد صدره من الحج» . قال : وذكر لى أنه أول من خطب للعباسية على منابر العُبيدية : صعد المنبر والأَغْزَازُ حوله وسيوفهم مصلتة خوفاً

من الشيعة أن ينكروا فيقوموا ، فلم يجسر أحد أن يخطب سواه ، فخظى بذلك . قال : وانحدرت فى النيل عائداً إلى الاسكندرية ، فتوفى بعد انصرافى عنه فى رجب سنة ٥٩٥ ، على ما بلغنى ، وكان مُسِنًّا[١] » ؛ وفى الترجمة الثانية فى « التكملة » يردد ابن الأبار نفس الكلام عن استيطانه الاسكندرية ثم يقول : « ثم رحل إلى مصر واشتمل عليه الملك صلاح الدين ورسم له جاريا يقوم به ، وكان يكرمه ويشفِّعه فى مطالب الناس لأنه كان أول من خطب على منابر العُبيدية عند نقل الدعوة العباسية[٢] ؛ تجاسر على ذلك حين تَهيبه سواه ، وكان فقيهاً مشاوراً مقرئاً محدِّثاً حافظاً نسابة من أبدع الناس خطاً ، وله تاريخ سماه « المعرب فى محاسن المغرب » ، وهو متهم فى هذا التأليف ، حدثنا عنه أبو عبد الله التجيبى واكثر خبره عنه ، قال وتوفى بعد انصرافى عنه فى رجب سنة ٥٧٥ وكان مسناً . قلت : وروى عنه ابن المفضل المقدسى وأبو القاسم الصفراوى وجماعة ؛ رأيت تاريخه[٣] » .

وإذن فقد كان هذا الشيخ الأندلسى الجَيَّانى اليسع بن عيسى بن حزم الغافقى هو الذى تصدى لاقامة الخطبة للعباسيين على منبر العبديين فى القاهرة عندما رهب غيره القيام بذلك ، ومن طريف ما يذكر هنا أن أبا المحاسن يوسف بن تغرى بردى يقول : « واختلفوا فى الخطيب ، فقيل إنه رجل من الأعاجم يقال له الأمير العالم ، وقيل : هو رجل من أهل بعلبك يقال له محمد ابن المحسِّن بن أبى المضاء البعليكى المقدم ذكره الذى توجه فى الرسلية من قبل

---

(١) ابن الأبار ، المعجم ، رقم ٣١٥ ص ٣٢٢ - ٣٢٣

ويلاحظ أن تاريخ ٥٩٥ واضح الخطأ ، فإن أبا عبد الله التجيبى رأى اليسع بن عيسى سنة ٥٧٠ ورآه مرة ثانية بعد صدوره من الحج ، ثم توفى اليسع بعد ذلك بقليل ، ويستبعد أن يحج التجيبى من سنة ٥٧٠ إلى سنة ٥٩٥ والأصح سنة ٥٧٥ كما ورد فى ترجمة اليسع فى التكملة .

(٢) كذا فى الأصل ، والأصح : إلى العباسية .

(٣) التكملة ، رقم ٢١١٢ ص ٧٤٤ — ٧٤٥

صلاح الدين إلى بغداد ، وقيل انه كان رجلا شريفاً عجمياً ، ورد من العراق أيام الوزير الملك الصالح طلائع بن رزّيك[1] » ، فاما أن الخطيب كان ابن أبى المضاء البعليكى فبعيد الاحتمال لأن ابن أبى المضاء كان رجلا معروفاً لا يخفى أمر قيامه بالخطبة على أحد لو أنه فعل ذلك حقاً ، ثم انه كان رسول صلاح الدين إلى الخليفة العباسى بعد أن تم الأمر ، ولو كان هو الذى خطب لما خفى الأمر على مؤرخ ثبت كأبى المحاسن ، ثم ان الأمر لم يكن يتطلب رجلا معروفاً ، بل رجلا جريئاً متفانياً فى سنيته ليقتحم هذه العقبة غير مُبالٍ بالخطر أو غير عارف بمداه ، وقد ولد اليسع وتربى فى بلاد اجتاحتها الأخطار وتهددها الغزو النصرانى ، فنشأ ثابت الجأش معتادا الثبات فى لحظة الخطر شديد العصبية لعقيدته السنية ، وقد وفد على مصر دون أن يتنبه أحد إلى مكانه أول الأمر ، ومن الطبيعى أن يكون أكثر من غيره ضيقاً بهذه الشيعية التى وجدها سائدة فى مصر ، فما كاد يحس أن صلاح الدين يطلب من يتصدى لالقاء أول خطبة باسم العباسيين حتى عرض أن يقوم بالعمل ، وقام به فعلا ، والغالب أن لهجته الأندلسية بدت للسامعين أعجمية شبيهة بنطق الايرانيين والخراسانيين ، فحسبوه رجلا من هذه النواحى ، وربما يكون رجال صلاح الدين قد كتموا اسمه خلال الأيام الأولى حرصاً على حياته ، فتضاربت الأقوال فى شأنه كما رأينا فى نص أبى المحاسن ، وما هو فى الحقيقة إلا اليسع ابن عيسى بن حزم الغافقى الجيانى .

والسؤال بعد ذلك : كيف وصل هذا الرجل إلى صلاح الدين ، أو كيف وقع اختيار هذا عليه ؟ وأمثال هذه الأسئلة تعسر الاجابة عليها من مادة التراجم الضئيلة التى تقدمها لنا معاجمنا ، ولكن لدينا البرهان على أن اليسع قام لصلاح الدين بخدمة جليلة وهى هذه الكرامة التى أولاه إياها بعد ذلك

(١) النجوم الزاهرة ، ٥/٣٥٥—٣٥٦

حتى كان يشفَع فى حوائج الناس لديه ، وهذا المال الذى أغدقه عليه حتى ابتنى داراً على النيــــل فيها اسطوان أى قاعة واسعة يقابل فيها الوافدين عليه . وهذا يمكن تعليله بما افترضناه فى الفقرة السابقة من أنه ربما يكون قد سمع أن صلاح الدين يطلب من يستطيع إلقاء أول خطبة باسم الخليفة العباسى ، فعرض أن يكون هو القائم بذلك ، ووافق صلاح الدين على ذلك ، وقـام اليسع بالمهمة وفتح لنفسه بذلك طريقاً واسعاً فى الحياة .

وقد نقل المقري وابن القطان عن اليسع بن عيسى الغافقى نقولا كثيرة بعضها فى الجغرافية وبعضها الآخر فى التاريخ ، وكلها فى الغالب من كتابه الآنف الذكر « المعرب فى محاسن المغرب » الذى قال عنه ابن الأبار أنه « متهم فيه » والشبهة هنا تنصب إما على مبالغة اليسع فيما ذكر من المعلومات عن الأندلس أو على أخطاء ظاهرة وقع فيها عند الكلام عن الموحدين وانكرها عليه مؤرخوهم ، ومنهم ابن القطان . فمن أمثلة المبالغة أو عدم التدقيق قوله ان طول جزيرة الأندلس « من أربونة إلى أشبونة ، وهو قطع ستين يوما للفـارس المجد ، وانتقد بأمرين : أحدهما أنه يقتضى أن أربونة داخلة فى جزيرة الأندلس ، والصحيح أنها خارجة عنها ، والثـانى قوله : « ستين يوما للفارس المجد » أعياء وافراط ، وقد قال جماعة « إنها شهر ونصف » انتهى كلام المقرى[١] .

ويورد المقرى بعد ذلك تعليقاً لابن سعيد يقول فيه : « وهذا يقرب إذا لم يكن للفارس المجد ، والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر ، وكذا قال الحجاري ، وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك ، فعملوا حسابا بالمراحل الجيدة ، أفضى إلى نحو شهر بنيف قليل[٢] » وبصرف النظر عن هذه

---

(١) نفح الطيب ، ١/١٢٥

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الاعتراضات ، فكلها غير دقيقة ، فإن هذا التعليق يدل على أن كتاب اليسع كان متداولا فى المشرق وموضع مناقشات واستدراكات ممن كتبوا عن الأندلس بعد ذلك .

ومن أمثلة المبالغة كذلك قول اليسع عند ذكره مدينة شِنْتْره (Cintra فى البرتغال حالياً) «من خواصها أن القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضى أربعين يوما من زراعته ، وأن التفاح فيها دَوْرُ كل واحدة ثلاثة أشبار واكثر . قال لى أبو عبد الله الباكوري ، وكان ثقة ، أبصرت عند المعتمد ابن عباد رجلا من أهل شنترة أهدى إليه أربعا من التفاح ما يُقِلُّ الحاملُ على رأسه غَيرها ، دور كل واحدة خمسة أشبار ، وذكر الرجل بحضرة ابن عباد أن المعتاد عندهم أقل من هذا ، فاذا أرادوا أن يجىء بهذا العِظَم وهذا القدر قطعوا أُصُلَها وأبقوا منه عشراً أو أقل ، وجعلوا تحتها دعامات من الخشب [1] » .

والمبالغة فى هذه الأقوال ظاهرة ، فإن القمح والشعير مهما كانت جودة الأرض وملاءمة الجو لا يمكن أن يحصدا قبل ثلاثة شهور فى شنترة أو غيرها ، ثم أين هى التفاحة التى دروها خمسة أشبار أى نحو ١٠٠ سنتيمتراً ؟ حتى فى أيامنا هذه ، وقد بلغ التفاح فيها أقصى ما وصل إليه فى التاريخ حجماً ووزناً لا يمكن أن يصل دور اكبر تفاحة اكثر من شبرين أى حوالى ٤٠ سنتيمتراً . ودليل المبالغة محاولة اليسع تأييد كلامه برواية عمن يسميه أبا عبد الله الباكورى من أنه رأى هذا التفاح العجيب عند المعتمد بن عباد ، والمعتمد انتهى أمره سنة ١٠٩١/٤٨٤ أى قبل مولد اليسع بخمس وعشرين سنة على الأقل ، والأغلب أن سن صاحبه الباكورى كانت تقارب سنه .

---

(١) نفح الطيب : ١/١٥٤ — ١٥٥

ومن أمثلة المبالغة أيضاً قوله إن الأندلس «لا يتزود فيها أحد ما حيث سلك لكثرة أنهارها وعيونها ، وربما لقى المسافر فيها فى اليوم الواحد أربع مدائن ، ومن المعاقل والقرى ما يحصى ، وهى بطاح خضر وقصور بيض[١]» ، فهذا كلام لا يصح ، إذ أنه مهما هطل المطر ونما الزرع لا يمكن أن يقال إن الأندلس بطاح خضر وقصور بيض ، ومن المعروف أن شبه جزيرة إيبريا حافلة بالمناطق الجرداء .

ومن أمثلة أخطائه فى التاريخ قوله أن من بين الهيئات الأساسية فى تنظيم الموحدين جماعة تسمى السبعين أو أهل سبعين ، ولم يرد لهذه الهيئة ذكر عند العارفين بنظام الدعوة الموحدية ، وقد علق على ذلك ابن القطان بقوله : «أما ما ذكره اليسع من أمر السبعين فلا أعرفه ولا أراه صحيحاً[٢]» .

والخلاصة أن اليسع بن عيسى بن حزم الغافقى لم يكن جغرافيّاً أصيلا محققاً ، ولكنه كتب فى جغرافية الأندلس على سبيل الدعوة لوطنه الذى خلفه وراءه فى حال من الاضطراب وترادف الأخطار جعلت الأمل فى انقاذه ضئيلا ، ولهذا بالغ فى وصف محاسنه ليحفز الهمم على السعى لاستنقاذه ، ولم ينفرد اليسع بهذا الطراز من الكتابة عن الأندلس ، فسنرى عليّا ابن سعيد المغربى يفعل هذا أيضاً ، نعم إن ابن سعيد لم يسترسل مع المبالغة إلى الحد الذى ذهب إليه اليسع ، ولكنه كان أيضاً داعية للأندلس انتدب نفسه للحديث عن وطنه بين أهل إخوانه من أوطان المسلمين مذكراً إياهم بما كان للأندلس من عز ومجد وما له من حقوق على المسلمين ، ولم يكن اليسع على علم واسع بجغرافية بلاده أو بتاريخ الغرب الإسلامى ، فاعتمد فى ذلك على ما وصل إلى يده من كتب وأضاف من خياله أشياء أخرى من طراز ما ذكرناه ، ومن أسف أن كتابه

---

(١) نفح الطيب : ١/١٩٤

(٢) نظم الجمان لابن القطان ، الجزء السادس بتحقيق الدكتور محمود على مكى ، تطوان ، ١٩٦٤ ، ص ٢٩

قد ضاع ، ولولا أن المقري — ذلك الجماع الحاشد — احتفظ لنا بفقرات من الكتاب لما كانت لدينا أى فكرة عن طبيعته وقيمته أو مكانه بين كتب الجغرافية والتاريخ .

لقد كان أمثال اليسع فى المشرق كثيرين جداً أحصينا منهم فى «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة» نحو مائتى رجل ، كلهم غادروا وطنهم الذى أشبه — ابتداء من القرن السادس — بسفين دهمته العواصف وسط البحر ، فأخذ يغرق شيئاً فشيئاً ، ونجا من استطاع من ركابه وحط على أقرب شاطئ ، ومضى يتحدث عما كان للسفين من جمال وما كان فيه من أعاجيب ، ولكن القليلين منهم اجتهدوا فى الدعوة الخالصة لانقاذ الأندلس ، وربما كان اليسع أقدر الجميع على القيام بجهد فى هذه الناحية بما كان له من المكانة والحظوة عند صلاح الدين ، وربما يكون قد فعل شيئاً من ذلك فقد كان رجلا مقداماً ، فيه ذلك الاندفاع إلى القول والعمل الذى تميز به الكثيرون من الأندلسيين ، ومن يدرى ؟ فربما كان لليسع أثر فيما لوحظ من اهتمام صلاح الدين بالجناح الغربى لمملكة الإسلام وتطلعه إلى التعاون مع الموحدين ؟

ومثل كتاب «المعرب عن أحوال أهل المغرب» هذا لدينا أسماء كتب أخرى كتبت على غراره ، حررها فى المشرق نفر من مهاجرة الأندلسيين أو المغاربة الذين هاجروا إلى المشرق أو استقروا فيه ، وعنها نقل كتّاب المشرق ومثال ذلك تلك المعلومات الكثيرة عن المغرب والأندلس التى يوردها أبو البركات محمد بن أحمد بن اياس المصرى (ت ٩٣٠/١٥٢٤) عن المغرب والأندلس فى كتابه «نشق الأزهار فى عجائب الأقطار[١]» ناسباً إياها «لبعض أهلها» ، فان معظم ما يورده ابن إياس فى هذا الباب مبالغات من طراز ما رأيناه فى كتاب اليسع ، وكذلك كتاب «مناهج الفكر ومباهج العبر» (أو مباهج الفكر ومناهج

(١) لم ينشر هذا الكتاب بعد ، ومخطوطاته كثيرة (انظر بروكلمان ، ملحق ٢ ص — ٤٠٥ — ٤٠٦ ، وينقل المقرى فى نفح الطيب عنه كثيراً مكتفياً بقوله : قال صاحب نشق الأزهار .

العبر) لجمال الدين محمد بن ابراهيم بن يحيى بن على الانصارى المعروف بالوطواط الكتبي الوراق (٦٣٢—٧١٨/١٢٣٣—١٣١٨) ، فهو أيضاً كتاب مبالغات وتهويلات ، وما يخص المغرب والأندلس فيه كثير ، ولم ينشر ذلك الكتاب بعد[١] ، ولكن المقرى أورد فى نفح الطيب مقتطفات كثيرة منه شبيهة بما أورد من كتاب اليسع بن عيسى الغافقى . وقول ابن إياس أنه أخذ هذه المعلومات عن « بعض أهلها » أى بعض أهل الأندلس يدل على أنه نقل عن كتب كثيرة فى هذا الشأن ألفها أندلسيون مهاجرون .

أبو حامد الغرناطى

ويختلف عن هؤلاء جميعاً رجل من مشاهير معاصرى الإدريسى من الأندلسيين ، وهو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسى الغرناطى[٢] .

---

(١) انظر بروكلمان ، تاريخ ٢/٥٤ وملحق ٢/٥٣

(٢) أوردت اسمه هنا كما ذكره هو بنفسه فى فاتحة كتابه « المعرب عن بعض عجائب المغرب » مخطوط أكاديمية التاريخ فى مدريد (رقم ٣٢ مجموعة جايانجوس) ورقة ١٤ ، وعلى هذه النسخة معولنا فيما سنذكر عن هذا الكتاب .

وقد وردت كنية مؤلفنا « أبو بكر » و « أبو محمد » و « أبو عبد الله » فى المراجع المختلفة ، ويغلب على الظن أن أبا حامد هى أصح الكنى ، فقد كان له بالفعل ولد يسمى حامد . وورد اسم أبيه عند حاجى خليفة عبد الرحمن ، ويبدو أن هذا تصحيف .

ومعولنا فى الكثير مما سنورد عن أبى حامد على المقدمة الضافية التى كتبها جابرييل فيران لتحقيقه لكتاب تحفة الألباب .

Cf. *Le Tuḥfat al-Albāb* de Abū Ḥāmid al-Andalusī al-Gharnāṭī; édité d'après les mss. 2167, 2138, 2170 de la Bibliothèque Nationale (de Paris) et le ms. d'Alger, par Gabriel Ferrand. Journal Asiatique, Juillet Septembre 1925.

وسنشير إلى هذا المرجع باسم « التحفة » .

واعتمدنا كذلك على الدراسة المستفيضة التى ضمنها سيزار دوبلر الكتاب الذى نشر فيه قطعة من « المعرب عن بعض عجائب المغرب » وهو :

César E. Dubler, *Abū Ḥāmid el-Granadino y su Relación de viaje por Tierras Eurasiáticas* (texto árabe, traducción e interpretación). Madrid 1953.

وسنشير إلى هذا المرجع باسم : المعرب — دوبلر ، وسنشير إلى ما نورد من المخطوط بعبارة : المعرب — مخطوط .

كان رحالة يدفعه إلى جوب الآفاق شوق لا يقارن إلا بهذا الذى دفع ابن بطوطة إلى رحلاته ، بل أربى على هذا الأخير فى ذلك ، إذ كانت له جرأة غير معهودة على اقتحام المخاطر والدخول فى بلاد بعيدة مجهولة الأحوال والألسن ولا يدخلها الغريب إلا على غَرر ، وأوغل فى تلك النواحى المرة بعد المرة وأطال التغرب ، وعاد إلى دار الإسلام فى كل مرة يحكى من الغرائب والعجائب ما لا يكاد يصدق ، واستمر فى ذلك الجهد المضنى حتى نيف على التسعين وهو فى رحلة ما يزال ، وخلف لنا طائفة من كتب فريدة فى بابها ، فهى ليست كتب رحلات شبيهة بما كتب ابن فضلان مثلا ، وليست كتب غرائب وعجائب كالذى سنجده فى كتاب أبى بكر الزهرى الذى سنعرض له بعد قليل ، وليست كتب جغرافية خالصة كتلك التى مررنا بها إلى الآن ، وإنما هى مزاج من ذلك كله : نلقى فيها الرحالة الطلعة القوى القلب ، والجغرافىَّ الدقيق البعيدَ الملاحظة ، والعجائبىَّ المغرب المسرف فيما يروى من أخبار المستبعدات وأوصافها ، وهو يؤكد أنه رأى الكثير من ذلك بنفسه أو اختبره بيده ، ولولا أننا نعرف أن المولعين بهذا الشأن فى تلك العصور كانت فيهم سذاجة فى التصور وإسراعاً إلى التصديق يجعلانهم يخادعون أبصارهم حتى ليتوهمون رؤية ما لا يرون أو يبالغون فى تصوير ما يرون حتى يجاوزوا به المعقول ، لولا هذا لقلنا أنه غير صادق فيما روى . وحال أبى حامد الغرناطى فى هذا هى حال أبى الحسن المسعودى وشمس الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء المقدسى فى الكثير مما ذكرا فى كتبهما ، وهما رغم ذلك من أهل الصدق والثقة فى حسابنا ، ونحن عندما نقرأ لأمثال هؤلاء أحاديثَ الخرافة والمستحيلات ونجدهم يؤكدون أنهم رأوا ذلك بعين رأسهم ندرك أنهم لشدة ولعهم بالعجيب الخارق وفرط إيمانهم بقدرة الله تعالى على كل شىء حسبوا أنهم رأوه أو أحسوا به كما وصفوه أو خيَّلوه لأنفسهم كما تصوروه ، وربما أحسسنا ونحن نقرأ لهم أن الرغبة فى تشويق السامعين والولع باستلفات الانتباه بحديث

الغرائب حملا الكثيرين منهم على زعم الرؤية وتوكيد المشاهدة ، فانساقوا فى قول ما قالوه عن حسن نية ورغبة ساذجة فى الامتاع والتسلية .

نقول هذا لأننا سنجد أحاديث أبى حامد الغرناطى حافلة بالغريب وما يخرج عن حد التصديق ، ثم نجد الرجل نفسه يؤكد أنه رأى ذلك بنفسه أو اختبره بيده ، وأبو حامد بعد ذلك رجل فاضل عاقل يستبعد منه الكذب والشعبذة والاسفاف إلى ما لا تقبله العقول أو الاستخفاف بسامعه وقارئه ، ولا تفسير لأعاجيبه وتهويلاته إلا ما ذكرناه ؛ ثم إن أبا حامد كان ابنَ عصره ، والعصر كان يقبل هذه الأحاديث ولا يستبعدها ، وفى هذه الحدود ينبغى أن نقرأ أبا حامد الغرناطى ونفهمه .

حياة أبى حامد الغرناطى ورحلاته

وحياة أبى حامد نفسها ربما كانت أغرب من كثير من الأعاجيب التى أوردها فى كتبه ، فهى حافلة بالحوادث والحركة والنشاط على نحو يندر أن نجد له مثالا ، وقد استخلص جابرييل فران مراحل هذه الحياة من أقوال المؤرخين ومن كتابات أبى حامد نفسه ، وأوردها فى المقدمة الضافية التى ساقها بين يدى تحقيقه « لتحفة الألباب » ، وعاد فحكاها فى صورة أدق وأوفى سيزار دوبلر فى مقدمة ما نشر من « المعرب من عجائب المغرب » معتمداً على ما ذكره أبو حامد فى ثنايا كتبه وما ذكره المقرى فى ترجمته الضافية له فى « نفح الطيب » ، وفيما يلى مراحل هذه الحياة الحافلة :

ولد أبو حامد فى غرناطة سنة ٤٧٣/١٠٨٠—١٠٨١ ، وقد نص هو على ذلك فى « المعرب » فقال : « ومولدى بالمغرب الأقصى بجزيرة تعرف بأندلس فيها أربعون مدينة ، ومولدى فى مدينة تسمى غرناطة » . وأعاد ذلك فى « التحفة » : « فإن بلدى بأندلس ، واسم بلدى غرناطة ، وهو بلد عظيم

كبير يقال إنه مدينة دقيانوس » . أما نسبته « القيسى » فليست كما قال فى المعرب (١٣) نسبة إلى قيس عيلان بن الياس بن مضر بن نزار ، بل إلى قرية قريبة من غرناطة تسمى قيس ، أما نسبته الأخرى « الأُقليشى » فإلى بلدة أقليش أو أقليج Uclés فى مديرية كونكة Cuenca حالياً ، وربما يكون قد قضى فيها سنوات من صبوته وشبابه الباكر ، فنسب إليها .

ولا ندرى شيئاً عن حياة أبى حامد حتى مغادرته الأندلس إلى غير رجعة حوالى سنة ٥٠٠/١١٠٦—١١٠٧ فى الغالب ، أى فى سن السابعة والعشرين ، ولا شك أنه درس على الشيوخ على نفس النظام الذى جرى عليه غيره من أبناء عصره ووطنه ، ولكننا لا نحسب أنه تعمق فى دراسة الفقه أو الأدب وما إليهما من فروع العلم الإسلامى ، لأننا لا نلمح فى كتبه ما يدل على تعمق أو استبحار ، بل نلاحظ قصوراً واضحاً فى الزاد الفكرى والعلمى ، ولكن الذى يستنتج من كتاباته أنه كان حاد الذكاء شديد التطلع دقيق الملاحظة حسن الحديث خفيف الروح ، ومَن كانت هذه خلاله تتفتح له الأبواب وتسهل أمامه الحياة ولا يحتاج إلى كد النفس وإرهاقها فى طلب العلم ، وحسبه من كل شىء طرف يسمر به فى المجالس ويتحدث به بين الناس .

وليس فى كتابات أبى حامد ما يشير إلى عودته إلى وطنه ، ويعلل سيزار دوبلر هذه الهجرة النهائية بسقوط بلده أقليش فى أيدى النصارى[1] . وقد

---

(١) يعلق دوبلر على هذا بقوله ان المقرى يقول ان أبا حامد كان فى الاسكندرية سنة ٥٠٨ هـ واعتماداً على ذلك افترض فيران (مقدمة التحفة ص ٢١) ان أبا حامد عاد إلى الأندلس ، وتابعه فى ذلك بروكلمان وجورج سارتون (وبذلك قال كراتشكوفسكى ، الأدب الجغرافى ، ص ٢٩٥) وذهب إلى مثل ذلك مينورسكى اعتماداً على ترجمة لحياة أبى حامد شبيهة بما يذكره المقرى عنه وجدها فى مخطوطة طشقند التى ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى ، وربما كانت هناك علاقة ما بين الترجمتين . ويقول دوبلر انه لا يستبعد إمكان وجود أبى حامد فى الاسكندرية سنة ٥٠٨/١١١٤—١٥ ، ومن الممكن أن يكون قد عبر البحر من هناك وزار بعض جزائره ثم عاد إلى الاسكندرية سنة ٥١٢ ، وربما يكون قد حدث خلط بين التاريخين (٥٠٨ و ٥١٢) ، ومن هنا جاء القول بان أبا حامد عاد إلى الأندلس والمغرب بين هذين التاريخين .

طاف أبو حامد بعد مغادرته الأندلس بنواحى المغرب الأقصى ، ووصل إلى سجلماسة ، وكانت مركزاً تجارياً عظيما على الحدود الشمالية للصحراء الكبرى . ولا شك أن أبا حامد وصل إلى هذا البلد ، فقد أعطانا معلومات دقيقة عن أصناف المتاجر التى تحمل من وسط إفريقية إلى هناك ، ووصف طريقة صنع السهام التى تستعملها قبيلة الكوكو ، وكانت من أقوى القبائل فى تلك الناحية .

ومن هناك انتقل أبو حامد إلى افريقية (تونس الحالية) . ومما يستوقف النظر أنه يخلط بين مدينتى تونس والقيروان ، وهو خلط يرجع — فى الغالب — إلى أن ما ذكره عنهما فى التحفة كتبه بعد ذلك بسنوات طويلة . وقد ذكر فى التحفة أيضاً (ص ١٣٨—١٣٩) ، أنه زار هناك قبر رجل صالح يقال له محمد المعلم ، والمراد به محرز بن خلف بن رزين المتوفى سنة ٤٢٣/١٠٣٢ ، وأخطأ الناسخ فكتب محمدا مكان محرز . وأخذ أبو حامد شيئاً من تراب قبره ، وكان الناس يتبركون به ويحملونه معهم إذا ركبوا البحر لتبعد عنهم الأنواء ، ويقص أبو حامد حكاية طريفة عن هذا الموضوع .

ويغلب أن أبا حامد غادر تونس إلى الاسكندرية بطريق البحر سنة ٥١١/ ١١١٧—١١١٨ ، ويحتمل أن يكون قد نزل أثناء هذه الرحلة بجزيرة سردانية ، فهو يقول فى التحفة (ص ١٠٤) : « وفى بحر الروم من الجزائر كثير جداً ، منها جزيرة تسمى بسردانية ، وهى عظيمة جداً ، فيها من الكفار خلق كثير شجعان ، والبحر الذى هم فيه يقال له بحر اللاذقية خلف قسطنطينية ، متصل بالبحر الرومى الذى قبلى بلد قسطنطينية » . وشاهد بنفسه جبل النار (بركان إتنا) ، ووصف خروج حِمم اللافا منه ، قال : « ويقال إنها جمر كبار كأعدال القطن ، يتقطع فيقع بعضها فى البر فيصير حجرا أبيض خفيفاً يطفو على الماء لخفته ، والذى يقع فى البحر يصير حجراً أسود مثقباً ، تحك به الأرجل فى الحمام . . . »

وفى نفس هذه السنة كان أبو حامد فى الاسكندرية وسمع العلم على أبى عبد الله الرازى وأبى بكر الطرطوشى . وفى الاسكندرية زار المنارة ووصفها وصفاً دقيقاً ، وقد كان أبو حامد من آخر من رآها بحالتها الكاملة من رحالة العرب وجغرافييهم ، ووصفه لها دقيق يدل على مشاهدة مباشرة وإن كان شديد الشبه بوصف البكرى إياها ، وأبو حامد يذهب إلى أنها من بناء ذى القرنين ، وهو يذكر تاريخها القديم ثم يصفها كما رآها ، ولا يكتفى بالوصف بل يرسمها بيده : « والنصف الأسفل الذى من عمل ذى القرنين : يدخل الإنسان من الباب الذى للمنارة ، وهو مرتفع عن الأرض مقدار عشرين ذراعاً ، يصعد عليه على قناطر مبنية بالصخر المنحوت على هذه الصورة التى أصورها . . . » (تحفة ، ص ٧١) وقد أورد الرسم بالفعل (ورقة ١٧ من المخطوط) وهو رسم لا بأس به ، وعيبه الكبير هو أن الرسم مسطح لا منظور ، وهذا عيب شائع فى التصاوير العربية والفارسية إلى ذلك الحين . وأبو حامد يؤكد أنه صعد المنارة ودخل غرفها مرات كثيرة أثناء وجوده فى الاسكندرية سنة ٥١١ هـ.

وفى الاسكندرية زار أيضاً معبداً يغلب أنه سيرابيوم الاسكندرية المشهور ووصفه وصفاً دقيقاً (تحفة ٧٢—٧٣) ، وعلى مثل هذه الصورة وصف ذلك المعبد جغرافيون ورحالة مسلمون آخرون[١] . وكرر أبو حامد نفس الكلام عن الاسكندرية فى المغرب (مخطوط ورقة ٤٥—٤٦ ا) وأضاف هنا أنه : « يأتى إلى اسكندرية خليج من ماء النيل ، ومن ذلك الخليج يشربون ويملأون منه صهاريج فى بيوتهم ، ويشربون أيضاً من ماء المطر ، يجمعون ماء المطر وماء العين (سبق أن وصف هذه العين وعجائبها) فى صهاريج فى بيوتهم . وليس فى الاسكندرية ماء إلا من النيل أو من المطر ، وماء العين الصدفية ماء يسير ليس بطيب » .

---

(١) أورد ذكر بعضهم فيران فى تعليق رقم ١ من نفس الصفحة من التحفة ، وكذلك جاستون فييت فى تعليقاته على ما نشر من خطط المقريزى ، ج ٣ ص ١٣١ هامش ٦

ومن الاسكندرية انتقل أبو حامد إلى القاهرة فى السنة التالية (٥١٢/ ١١١٨—١٩) وهو يسميها مصر (تحفة ٧٣ ، معرب ورقة ١٤٦ — ب) ويقول فى الأخير : « ودخلت مصر سنة اثنى عشر وخمسمائة وهى التى تعرف بالفسطاط التى بناها عمرو بن العاص » ، ويؤكد ذلك فى التحفة بقوله : « وفى مقابلة مصر الفسطاط ثلاثة [أهرامات] ، أكبر هذه الثلاثة . . . » وهو يطيل وصف جامع عمرو ويبالغ على عادته ، ولكنه لا يذكر اسم القاهرة ولا الجامع الأزهر كأنه لم يره ، وله فى أثناء ذلك ملاحظة تدل على استنكاره لدعوى الفاطميين فى نسبهم ، وربما يكون قد كتبها إرضاء للوزير عون الدين الذى ألف له الكتاب ، قال (ورقة ٤٦ ب) : « وذكر لى المصريون أن الأفضل ابن أمير الجيوش كان من أهل السنة ، وكان هو فى السنة التى دخلتُ مصر ، سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، بالحياة قاهراً المدعى الذى بمصر الذى يقول إنه من ولد اسماعيل بن جعفر ، ويكذب ، لأن اسماعيل بن جعفر مات صغيراً لم يبلغ الحلم...» والعبارة ذات أهمية خاصة ، لأن المعروف أن الخلاف بين الخليفة الفاطمى أبى علىّ منصور المعروف بالآمر بأحكام الله ووزيره الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى كان شديداً ، وأن العلاقات بينهما لم تزل تسوء حتى انتهت بمقتل الأفضل فى ٣٠ رمضان ٥١٥ ولكن سبب النفور بين الرجلين لم يكن الاختلاف فى المذهب (انظر النجوم الزاهرة ، ٥ / ١٧٠ وما بعدها) ، وإنما كان التنافس على السلطان وخوف كل منهما من الآخر ، ولا يمكن لهذا القول بأن الأفضل كان فى سنة ٥١٢ سنياً متحمساً لمذهبه قاهراً للآمر لهذا السبب ، إلا إذا كانت هذه أحاديث سمعها أبو حامد فى مجالس الناس فى مصر ، وعلى هذا الاعتبار تكون لها أهمية تاريخية .

وبالإضافة إلى جامع عمرو بن العاص وصف أبو حامد الغرناطى الكثير من آثار مصر وعجائبها كمقياس الروضة (٤٧ ا) وهو يقول إنه مسجد بناه أمير المؤمنين المأمون وسط النيل ، ولكنه يصف المقياس وصفاً دقيقاً ، ثم

يصف الفيضان ، ويستوقف انتباهه من مظاهر الفيضان أن الفيران والحيات والثعابين تخرج « من تلك الأرض وتدخل على الناس فى القرى ، والناس يقتلونهم ليلا ونهاراً أياماً كثيرة ، لأن أرض مصر من أكثر البلاد حيات وثعابين » ويقف هنا وقفة طويلة ليتحدث عن ثعابين مصر حديثاً مغرقاً فى المبالغة حتى ليصف الطريق الذى سار فيه ثعبان فى الرمال بأنه كان « مثل النهر عريضاً عميقاً » وأن عرضه كان ٢٠ ذراعاً . ثم يتحدث عن قصر فرعون على الضفة الغربية للنيل . ثم يتكلم عن خصوبة أرض مصر ، ويقول إنه رأى فيها البطيخ الهندى « فى كل واحدة منها مائة مَنّ ، يحمل اثنان منها على جمل قوى ، وهى حلوة طيبة عذبة جداً ، لم أشاهد فى الدنيا مثل ذلك » ، والمنّ المصرى كان وزنه إلى سنة ١٤١٤ ميلادية ٨١٢,٥ جراماً أما المن العراقى فوزنه على التقريب ٨١٦,٥ جراماً[1] ، ومعنى ذلك أن هذه البطيخة التى رآها بمصر وزنها أزيد من ٨١ كيلوجراماً بقليل ، وهى مبالغة تذكرنا بتفاحة اليسع ابن عيسى بن حزم الغافقى ومحيطها خمسة أشبار أى نحو ١١٠ سنتيمتراً .

ثم ينتقل إلى وصف التمساح (١٤٩) ثم يتحدث عن الأهرام (١٥٠) وهنا خرم فى المخطوط ينتقل الكلام فيه إلى اليمن ، ولكننا نجد بقية مشاهداته فى مصر فى التحفة (ص ٧٤ وما يليها) : فهو يتحدث هناك عن مسلة عين شمس ، وهو يقول إنها « منارة مربعة علوها مقدار ١٠٠ ذراع من الرخام المجزع الصافى ، قطعة واحدة محددة الرأس » ويصف بقايا المعابد التى كانت لا تزال قائمة إلى أيامه فى موضع المسلة .

وظل أبو حامد فى مصر حتى سنة ٥١٥/١١٢١—١١٢٢ (مقرى ، نفح ١/٥٥١) ونزل دمشق ودرّس الحديث بها ، وربمـا يكون قد زار فى أثناء ذلك بعلبك وتدمر إذ هو يصفهما فى كتابه ، ووصل بغداد سنة ٥١٦/١١٢٣—

(١) Cf. Walther Hinz, *Islamische Masse und Gewichte* (Leiden 1955) p. 16-17.

١١٢٤ (حاجى خليفة ٤/١٩٠ والمعرب ورقة ٢ ب) وأقام فى بغداد أربع سنوات على وجه التقريب .

ولأول نزوله بغداد عرف الوزير عون الدين الذى سيكون راعيه وملاذه من ذلك الحين ، وله ألف كتاب المعرب وقال فى فاتحته (١٢) « . . . ورأيت أن اسمى هذا المجموع بالمعرب عن بعض عجائب المغرب ، وان أجعله برسم خزانة مولانا الوزير العادل الزاهد المجاهد عون الدين ملك الجيوش صفى الامام ، معين الدولة ، مصطفى الخلافة ، سيد الوزراء ، صدر الشرق والغرب ، أبى المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعد بن حسن بن أحمد بن الحسين بن جهم بن عمرو بن هبيرة الشيبانى ظهير أمير المؤمنين . . . » ولم يكن يحيى بن هبيرة الشيبانى هذا وزيراً عندما دخل أبو حامد بغداد ، إنما كان من علية الناس ، ولابد أنه كان شاباً إذ ذاك ، لأنه سيتولى الوزارة للمقتفى فى ربيع الأولى ٥٤٤/أغسطس ١١٤٩ وسيظل فى الوزارة أيام المستنجد إلى جمادى الثانية ٥٦٠/مارس ١١٦٥ وسيعظم أمره حتى يلقب بسلطان العراق . وعبارة أبى حامد هذه تدل على أنه كتب «المعرب» بعد سنة ٥٤٤ ، وقد لقى أبو حامد من يحيى ابن هبيرة هذا كل اكرام حتى أنزله فى داره وفتح له أبواب مكتبته الزاخرة ، وظل إلى وفاته راعياً للرحالة الجغرافى مشجعاً له على الرحلة والتأليف مستمعاً إلى أحاديثه فى شوق ، مما كان له أبعد الأثر فى حياة أبى حامد وعمله فيما بعد .

وبفضل هذه الرعاية أتيح لأبى حامد أن يشبع نهمه العظيم للرحلة ومشاهدة البلاد الغريبة البعيدة ، ويصعب تتبع خطواته بعد ذلك ، لأن الرجل فى كتبه لا يصف رحلة متصلة الحلقات بل ينتقل من عجيبة فى ناحية إلى عجيبة مشابهة لها فى ناحية أخرى ، فبينما يتحدث عن منارة الاسكندرية ينتقل إلى الأندلس ليصف صنم قادس ، ولكنه لحسن الحظ أثبت تواريخ زياراته لبعض المواضع ورؤيته لبعض العجائب ، وهذه التواريخ تعيننا على تتبع بعض خطواته .

وبصفة عامة يمكن القول إنه اتخذ بغداد قاعدة لرحلاته ومعظمها فى هضبة إيران التى وصل إلى أقصاها شرقاً وفى بلاد التركستان ثم فى جنوبى روسيا وحوض الفلجا وشرق أوروبا ، وقد بلغ فى رحلاته إلى المجر ووصفها ، وفقرات « المعرب » التى يصف فيها ما شاهد فى تلك النواحى الأخيرة هى التى حددت مكانته كجغرافى أصيل زار بلاداً لم يزرها إلا القليلون قبله وأتانا عنها بتفاصيل غاية فى المتعة والفائدة والدقة ، نعم إن حديثه لا يخلو أبداً من حديث الخرافة والعجائب ، ولكن هذا كان وسيلة للتشويق والترغيب فى القراءة ، وإذا كان هو يرحل ليشاهد ويتأمل فقد كان قراؤه يقرأون للتسلية والتسرية عن النفس ، ولم يكن لأبى حامد بد من أن يرضى هذه الرغبة ، ثم أنه كان يعتقد فى صحة ما يحكيه .

وسنتتبع فيما يلى ما يمكن من خطواته بعد وصوله بغداد اعتماداً على التواريخ القليلة التى أوردها فى كتابيه المعرب والتحفة .

ففى سنة ٥٢٤ / ١١٣٠ أى بعد ثمانى سنوات من نزوله بغداد كان فى أَبْهَر فى إيران[١] ، ويذكر أبو حامد هنا حقيقة هامة وذلك حيث يقول « فالناس يحملون من بلاد الإسلام سيوفاً تتخذ فى زنجان وابهر وتبريز وأصفهان نصولا ، ولا يتخذون لها آلة ولا حلية ، إلا حديداً كما يخرج من النار ، ويسقون تلك السيوف سقياً عظيما ، حتى إذا علق السيف بخيط ونُقر بالظفر أو بشىء من حديد أو خشب يسمع له طنين دائم ، فذلك السيف هو الذى يحمل إلى يُورا » وهم شعب من الشعوب التى كانت خاضعة لبلغار الفولجا[٢] .

(١) حدد هذا التاريخ فيران فى مقدمة التحفة (ص ٢٢) وعلق على كلام أبى حامد شرحاً طويلا صحح فيه خطأ وقع فيه سلفستر دى ساسى فى ترجمته وتعليقاته على رحلة عبد اللطيف البغدادى .
Silvestre de Sacy, *Rélation de 'Abd Allatif*, p. 218

(٢) علق سيزار دوبلر على هذا القبيل من الناس بقوله ان الأرجح أن المراد هنا هم اليوراكيون السمويون Yuracos Samoyeaos لأن السمويين القدامى (بالألمانية Altsamoyeden كانوا قبيلا أعرق فى القدم ، ولم تبق منهم إلا بقايا فى شرق سيبريا . Cf. *Abū Ḥāmid*, 207 n. 2.

ومن هناك انتقل إلى أرْدَبيل ، وهو يتحدث بهذه المناسبة عن حجر كبير أسود موضوع فى ميدان البلد «أسود له طنين كالفولاذ ، له محك كمحك القلعى الرصاص ، وهو على صورة كلية البقرة فيه أكثر من مائتى مَن» ويقول ان هذا الحجر يستدر المطر ، وقد ذكر ذلك الحجر ووصفه بنفس الوصف جغرافيون عرب آخرون مثل الإدريسى وأبى الفدا وياقوت[1] وزاد أبو حامد فرسم هذا الحجر بيده رسماً طريفاً .

وحديث أبى حامد عن هذه النواحى النائية فى شرقى هضبة إيران وشمالها الشرقى حديث طويل حافل بالفائدة ، فهو يتحدث عن الأمم التى كانت تسكن عند دَرَبَنْدَا أو الدربند أو باب الأبواب وهو أقصى ما وصل إليه الفتح الإسلامي شرقاً أيام الأمويين ، ويذكر نظامها السياسى ، ويقف وقفة طويلة عند وصول مسلمة بن عبد الملك إلى هناك ، ويفصّل لنا أمر «سيف مسلمة» الذى تركه للناس هنـاك لتقوى قلوبهم على محاربة من يجاورهم من الأمم «فعملوا له محراباً من الصخر وأقاموه فى داخله على تل حيث كان نازلا (مسلمة) ، وهو الآن باق فى تلك الأرض يزوره النـاس» (تحفة ٨٤) ، ويقول إنه «بالقرب من دربندا جبل عظيم فى أسفله قريتان فيهما أمة يقال لها زريه كاران (بالفارسية ومعناه صناع الجلود) «يعنى صناع الدروع ، يتخذون الآلات جميعها للحروب من الدروع والجواشن والخوذ والسيوف والرمـاح والقسى والنشاب والخناجر وجميع أنواع آلات النحاس ، جميع نسائهم وأولادهم وبناتهم يتخذون هذه الصنائع كلها ، وليس لهم حرث ولا بساتين ، وهم أكثر الناس خيراً ومالا ، يقصدهم الناس بجميع النعم من جميع الآفاق ، وليس لهم دين ولا يعطون جزية» .

وقد أقام أبو حامد فى هذه النواحى المتطرفة فترات طويلة وتردد عليها المرة بعد المرة حتى ليذكر أنه دخل خوارزم ثلاث مرات (التحفة ، ص ٨٢) ، ومن

---

(١) التحفة ، ص ٨٢ وتعليق ١

الطريف أنه دخل خوارزم عن طريق بلاد البلغار وجنوب روسيا أى أنه عبر البحر الأسود من آسيا الصغرى إلى القرم ثم عبر بحر آزوف واتجه شرقاً حتى وصل إلى مصب الفولجا ثم انحدر إلى شرق إيران وخوارزم ماراً ببحر الخزر (قزوين)، وكأنما راقته هذه النواحى فأكثر الكلام عنها وعن عجائبها فى كتابَيْه التحفة والمعرب.

ولدينا بعض التواريخ عن إقامته فى هذه النواحى أو مروره ببعض بلادها، ففى سنة ٥٢٥ / ١١٣١ كان فى سَجْسين أو سقسين أو سخسين[١] عند مصب نهر إتِلْ وهو الفولجا، وهو يقص هنا (التحفة ١١٦—١١٧) حكاية طويلة طريفة تتلخص فى أن شيخاً فقيراً عثر على سوار من الذهب «وزنه أربعون مثقالا» ولم يعرف ماذا يصنع به، فطاف به فى كل ناحية يبحث عن صاحبه فلم يجده، فحار فى أمره، وسأل أبا حامد، فقال له أن يتصرف فيه فهو مال حلال، فرفض الرجل، وأخيراً قال أبو حامد: «افدِ به الأسرى من أيدى الترك، ففرح وقال: بارك الله عليك، فرَّجْتَ عنى كُرْبَه، فقلت: أوليس هنا من أهل العلم من يأمرك بمثل هذا؟ فقال: ها هنا من أهل العلم من يقول: أعطنا إياه، ونحن نعرف ما نصنع به، وإنما يريدون أكله!».

وأبو حامد يصف ناحية سجسين هذه وصفاً يعتبر اليوم من المراجع التى يُعتمد عليها فى تاريخ روسيا القديم بسبب ما يتضمن من المعلومات وما فيه من الدقة التى لا تصدر إلا عن معاينه، قال (المعرب ص ٣ من طبعة دوبلر): «ودخلت البحر إلى بلاد الخزر، فوصلت إلى نهر عظيم أكبر من الدجلة

(١) بلدة كانت قرب مصب الفولجا، يصفها جغرافيو المسلمين بأنها كانت نصفين، واحد على كل من شطى النهر. ويسميها بعضهم مدينة إتل وقد ورد ذكرها فى بعض المدونات الروسية باسم سكسينى. وقد زالت هذه المدينة اما بسبب مد نهر الفولجا وتغييره لمجراه أو بسبب تخريب المغول. وفى القرن الثالث عشر الميلادى نجد مكانها مدينة تسمى حاجى طرخان وهو تحريف لاسمها الأصلى طرخان خاقان، ومن تلك الصورة المحرفة جاء اسمها الحالى استرخان التى ينسب إليها الفرو المعروف. ومعنى سجسين باللغة الخزرية الموضع الجاف Cf: Dubler, *Abū Ḥāmid*, pp. 225-230

مرات أضعافاً مضاعفة ، كأنه بحر تخرج منه أنهار عظيمة (يريد نهر إتل وهو الفولجا) وعليه مدينة يقال لها سجسين ، فيها من الغُزّ أربعون قبيلة ، لكل قبيلة أمير على حده ، ولهم دور كبيرة ، وفى كل دار خركاه[١] عظيمة كالقبة الكبيرة ، تسع الواحدة مائة رجل وأكثر ، مغشاةً باللبود . وفى المدينة من أمم التجار والغرباء وأولاد العرب من المغرب آلاف لا يحصى عددهم ، وفيها جوامع يصلىّ فيها الجمعة فى الخزر ، وهم أمم أيضاً ، وفى وسط البلدة أمير من أهل بلغار ، لهم جامع كبير يصلى فيه الجمعة ، وحوله أمم من البلغاريين ، وجامع أيضاً آخر فيه أمة يقال لها أهل صُوَار[٢] ، وهم أيضاً كثيرون ، ويوم العيد يخرجون بمنابر كثيرة ، يصلى كل أمير بأمم كثيرة ، ولكل أمة قضاة وفقهاء وخطباء ، والجميع على مذهب أبى حنيفة ، إلا أولاد المغاربة ، فانهم على مذهب مالك ، والغرباء على مذهب الشافعى ، وداري الآن فيهم ، وأمهات الأولاد وأولادى وبناتى » .

ومعنى هذا أن أبا حامد استقر فى هذه النواحى زماناً حتى اتخذ أمهات أولاد وأنجب بنين وبنات ، وقد راقت له الاقامة هناك رغم ما لا يزال يشكو منه من شدة البرد : « الشتاء عندهم شديد البرد ، وبيوتهم فى الشتاء من خشب الصنوبر ، جذوع كبار بعضها فوق بعض ، وسقوفها وسطوحها من ألواح الخشب ، ويوقدون النـار ، ولها أبواب صغار مغشاة بجلود الأغنام بصوفها ، وداخلها حارة مثل الحمام ، والحطب عندهم كثير . ويجمد النهر حتى

---

(١) الخركاة خيمة كبيرة مستديرة أو خيمة ملكية على هيئة قبة
انظر J. A. Vullers, *Lexicon Persico-Latinum*, Bonnao 1864, I, 678-9.
ويذهب بعضهم إلى أنه من الفارسية القديمة خورنة ويستعمل ابن بطوطة اللفظ فى صورة معربة : خرقة . انظر : دوزى ملحق القواميس ، ١/٣٦٦ ودوبلر : أبو حامد ص ٣٤٩

(٢) قبيل من الناس مجهول الأصل كان يسكن الضفة الشرقية لدلتا الفولجا ، ينطق اسمهم أيضاً سواش وشواز ، وقد قرأ زكى وليدى اللفظ عند ابن فضلان صواز مقرباً إياه من هاتين القراءتين ، وكانوا مجاورين ومعاصرين لقبيل البرطاش الذى يكثر ذكره عند جغرافيينا .
Cf: Dubler, *Abū Ḥāmid*, p. 261

يصير كالارض ، تمشى عليه الخيل والعجل من البهائم جميعاً ، ويتقاتلون على ذلك الجمد ، ومشيت عرض ذلك النهر لما جمد فكان عرضه ألفى خطوة وثمانمائة ونيفاً وأربعين خطوة بخطوي ، سوى الأنهار التى تخرج من ذلك النهر» (مُعرِب ، دوبلر ، ص ٥ — ٦) .

وقد بقى أبو حامد هناك ثلاث سنوات ، فهو يذكر فى (التحفة ص ١٢٣) أنه لقى هناك سنة ٥٢٨/١١٣٣—١١٣٤ رجلا «من أهل جيلان ساحل طبرستان اسمه عبد الواحد بن على» ويقص من أمره حكاية عجيبة . وبعد سنتين أى فى سنة ٥٣٠/١١٣٥—١١٣٦ نجده فى مدينة بلغار[1] (التحفة ١٣٢) ولقى هناك «من نسل العاديين رجلا طويلا ، كان طوله أكثر من سبعة أذرع ، كان يسمى دنقى (أو دفعى أو وَنقى) كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الحمل الصغير ، وكان من قوته يكسر ساق الفرس بيده ، ويقطع جسده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل ، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً يُحمل على عجلة وبيضة لرأسه كأنها مرجل ، وكان إذا وقع القتال يقاتل بخشبة من شجر البلوط يمسكها كالعصا فى يده لو ضرب بها الفيل قتله ، وكان خيِّراً متواضعاً ، كان إذا التقانى يسلم علىّ ويرحب بى ويكرمنى ، وكان رأسى لا يصل إلى حقوه رحمه الله . ولم يكن ببلغار حمَّام يمكن أن يدخل فيها إلا حمام واحدة واسعة الأبواب ، فكان يدخل فيه . وكان من أعجب بنى آدم ، لم أشاهد قط مثله . وكان له أخت على طوله ، ورأيتها مراراً عدة فى بلغار ، وقال لى فى بلغار القاضى يعقوب بن النعمان أن هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها ، وكان اسمه آدم [وكان] من أقوى أهل بلغار ، ضمته إلى

---

(١) بلغار مدينة يذكر ابن فضلان أنها كانت حديثة البناء أيام زارها ، ثم ذكر ابن حوقل أنها قد صارت مدينة كبيرة أواخر القرن العاشر الميلادى ، وفى «حدود العالم» نقرأ أن بلغار مدينة سكانها من المسلمين فقط ويصفها أبو حامد بأنها مدينة عامرة ، ثم خربت بعد ذلك ، ويفهم من كتابات الجغرافيين بعد ذلك أنها كانت قريبة من قازان . وفى القرن الثامن عشر عثر على آثار بلغار قرب مدينة سيميرسك Simirsk الحالية . Cf: Dubler, *Abū Ḥāmid*, 230-231

صدرها فكسرت أضلاعه ، فمات [فى ساعته] » (التحفة ، ١٣٢ — ١٣٣) .

ولابد أن أبا حامد كان يعيش من التجارة فى أثناء مقامه فى هذه النواحى ، فإن اهتمامه باصناف المتاجر وأسعارها شديد ، نعم إنه لا يصرح بذلك ، ولكننا لا نتصور أن يقيم وينشئ أسرة وتكون له أمهات أولاد معتمداً على ما كان يمده به الوزير عون الدين . وهو يخلط ما يقدم من المعلومات التجارية بحديث العجائب ، لأن هذا الحديث هو العنصر الهام الذى يعجب سامعيه وقراءه . ومثال ذلك قوله عن بلاد البلغار[١] (المعرب ، دوبلر ، ص ٦ — ٧) : « وهذه الولاية شديدة البرد ، وفى هذا النهر من أنواع السمك ما لم أشاهد قط فى الدنيا مثله ، السمكة[٢] الواحدة حِمل رجل قوى ، ومنها نوعٌ السمكة حمل جَمَل قوى ، ومنها صغار أيضاً ، ليس فى السمكة شوك ولا عظم فى رأسها ، وليس لها أسنان ، كأنها إلية الحمل محشوة بلحوم الدجاج ، بل أطيب من لحم الحمل السمين وأعذب ، تَشْوِى هذه السمكة وتجعل فيها الأرز فتكون أطيب من لحم الحمل السمين ومن لحم الدجاج . تشترى هذه السمكة التى يكون فيها مائة مَنٍّ[٣] بنصف دانق ، ويخرج من بطنها دهن يكفى السراج شهراً ، ويخرج من معدتها من غِرَى[٤] السمك نصفُ مَن ، ويُقَدَّد فيكون أحسن من كل قديد فى الدنيا ، فى لون الكهرباء أحمر صافياً يؤكل مع الخبز كما هو ، لا يحتاج أن يطبخ ولا يغلى . والذى ينفق بينهم الرصاص الأبيض : كل ثمانية أمنان بالبغدادى بدينار ، يقطعونها قطعاً ويشترون بها ما يشاءون من

---

(١) المراد هنا بلغار الفولجا وكانت بلادهم تمتد حتى قرب كييف ، وتمتد جماعة منهم إلى حوض الدنيبر ، ويمتدون شرقاً إلى القوقاز .

(٢) حدد دوبلر هذا السمكة بأنها من النوع المعروف بالاستوريون Esturión واسمها العلمى Acipenser Stario L وهى تعيش فى مياه بحر قزوين . Cf: Dubler, *Abū Ḥānid*, p. 212

(٣) وزن المن البغدادى فى المتوسط ٨١٦,٥ جراماً حتى القرن السادس عشر الميلادى .
Cf: Walther Hinz, *op. Cit*, 17

(٤) غرى السمك ، يراد به ما يعرف بالبطارخ .

الفواكه والخبز واللحم ، واللحم عندهم رخيص ، بحيث يكون الغنم — إذا جاءت القوافل من الكفار — يكون الغنم الواحدة بنصف دانق ، والحمل بطسوج ، وعندهم أنواع من الفواكه لا يوجد أكثر منها ، وفيها بطيخ حلو فى الغاية ، ومن البطيخ جنس يمسك فى الشتاء » .

ومن ملاحظاته ذات القيمة العظيمة بالنسبة للتاريخ الطبيعى قوله فى المعرب (دوبلر ، ص ١٠—١١) : « ويوجد فى أرضهم (أى أرض البلغار) من عظام قوم عاد : السن الواحد عرضه شبران ، وطوله أربعة أشبار ، ومن طوله إلى منكبه خمسة أبواع ، ورأسه مثـل القبة العظيمة ، وهو هناك كثير » وهذه العظام التى لا تزال توجد إلى الآن ليست عظاماً آدمية وإنما هى عظام حيوانات منقرضة . ويقول أبو حامد بعد ذلك : « ويوجد تحت الأرض أنياب الفيلة ، بيض كالثلج ، ثقيل كالرصاص ، الواحد مائتا من وأكثر واقل ، لا يدرى من أى حيوان هو ، يقطع ويحمل إلى خوارزم وخراسان ، ويتخذ منه الأمشاط والحقاق وغير ذلك ، كما يتخذ من العاج . وهو أقوى من العاج لا ينكسر(١) » .

وفى هذه الناحية مات ابن لأبى حامد ، وهو يتحدث عنه عرضاً فى كلامه عن مشاهداته بمدينة بلغار (تحفة ١١٧ — ١١٨) : « وسمعت ببلغـار ، وهى مدينة فى آخر بـلاد الإسلام فى الشمال ، هى فوق سقسين باربعين يوماً ، يكون النهار فى الصيف عشرين ساعة والليل أربع ساعات [ويكون الليل فى الشتاء عشرين ساعة والنهار أربع ساعات] ويَشُدُّ البرد فيها حتى إذا مات لأحد ميّت لا يقدر أن يدفنه ستة شهور ، لأن الأرض تكون كالحديد ، ولا يمكن أن يحفر فيها قبر ، ولقد مات لى بها ولد ، وكان فى آخر الشتاء ، فلم أقدر على دفنه ، فبقى فى البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه ، وبقى الميت كالحجر » .

---

(١) المراد هنا عظام الماموث أو ما يسمى باسم Elephas antiquero ولا زال الناس يستخرجونها إلى الآن فى نواحى القوقاز وحول بحر قزوين ، وهى تعتبر من موارد الثروة هناك .
Cf: Dubler, *Abū Ḥāmid*, 205-206

ويذهب فيران (مقدمة التحفة ، ص ٢١) إلى أن أبا حامد زار فى ذلك الوقت ناحية بلخ (باكتريا Bactria) ولكن دوبلر (أبو حامد ، ص ١٢٩) لا يرى ذلك . وعلى أى حال فاننا نجد أبا حامد فى سنة ٥٤٥/ ١١٥٠—١١٥١ فى باشغِرد أو باشغورد وهو الاسم الذى يطلقه على المجر (تحفة ، ١٩٥—١٩٦) وهو يصف المجر هنا بقوله : «وهذا باشغورد أمم عظيمة ، وهى ثمانية وسبعون مدينة ، كل مدينة كأصفهان وبغداد ، وفيها من النعمة والرخاء ما لا يعد ولا يحصى ، وابنى الأكبر حامد فيها ، تزوج بامرأتين من بنات كبار المسلمين» وهو يطيل الكلام عن المجر فى (المعرب دوبلر ، ص ٢٨ وما يليها) وكلامه كله حافل بالفوائد التاريخية والجغرافية ، وقد أقام هناك ثلاث سنين ، وترك ابنه حامدا هناك . والتفاصيل التى يقدمها تلقى ضوءً على طبيعة عمله وحياته فى تلك البلاد ، وإليك بعض فقرات منه «فلما وصلت إلى بلاد أُنْقُورْية (يريد أونجريا وهى المجر ويكتبها الإدريسى أُنكَرْية وياقوت الهنكر) وفيهم أمة يقال لهم باشغرد[1] ، من أول ما جاء عن بلاد الأتراك ودخل بلاد الأفرنج[2] ، وهم شجعان ، لا عدد لهم ، وبلادهم التى تعرف بأنقورية هى ثمانية وسبعون مدينة ، كل مدينة لها حصون ورساتيق وقرى وجبال وعناصير وبساتين كثيرة ،

---

(١) تكتب كما ذكرنا باشغرد أو باشغورد ، والأولى تجعل الإسم من فصيلة الأسماء الفارسية المنتهية بـ «جرد» بمعنى مدينة ، والثانية تجعله من الألفاظ الفنيه التى منها بـ «جور» و «أجور» بمعنى قبيلة وكان اللفظ مستعملا فى صورتيه للدلالة على أقوى القبائل الهنغارية أيام قيام هنغاريا الكبرى Hungria Magna وهو الوقت الذى زارها فيه أبو حامد . وقد ذهب بعضهم إلى أن باشغرد هو الأصل البعيد لاسم مدينة بوخارست ، وهو مستبعد Cf. Dubler, *Abū Ḥāmid*, 233 n. 3 وقد ذكر أبو حامد أن أنقورية (ربما كانت صحة قراءة الإسم أنقارية) أكبر مساحة من بلاد الروم ، أى الدولة البيزنطية ، وقال أنها تقطع فى ٢٠ يوماً ، ولا مبالغة فى ذلك ، فقد كانت مملكة المجر قد وصلت إذ ذاك إلى أقصى اتساعها وامتدت من جبال الكربات إلى البحر الأدريانى ومن تاترا Tatra فى روسيا حتى اتصلت حدودها بحدود الدولة البيزنطية عند نهر مورافا ، أى أنها امتدت ما بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ كيلومترا طولا ومثلها عرضاً Cf. Dubler, *op. cit.*, p. 221

(٢) أى من أول القبائل الأسيوية هجرة إلى الغرب واستقراراً فى أراضى الدولة الرومانية .

وفيها من أولاد المغاربة[1] آلاف ، لا عدد لهم أيضاً ، وفيها من أولاده الخوارزميين آلاف لا عدد لهم أيضاً . وأولاد الخوارزميين يخدمون الملوك ، ويتظاهرون بالنصرانية ويكتمون الإسلام ، وأولاد المغاربة لا يخدمون النصارى إلا فى الحروب ، وهم يعلنون بالإسلام . ولما دخلت بين أولاد المغاربة اكرمونى ، وعلمتهم شيئاً من العلم ، وأطلقت ألسنة بعضهم بالعربية . وكنت أجتهد معهم فى الاعادة والتكرار فى فرائض الصلاة وسائر العبادات ، واختصرت لهم الحج وعلم الموارث حتى صاروا يقسمون المواريث . . . » وهو فى أثناء ذلك يروى لنفسه شعراً هو مجرد نظم مثل :

العلم فى القلب ليس العلم فى الكتب ولا تكن مغرماً باللهو واللعب

ثم يقول إنه علمهم صلاة الجمعة ويضيف « فعندهم الآن اليوم أكثر من عشرة ألف مكان يخطب فيه يوم الجمعة ظاهراً وباطناً ، لأن ولايتهم عظيمة » ولا ندرى إن كانت هذه الآلاف العشرة من المواضع التى تخطب فيها الجمعة نتيجة لنشاطه هو ، وعلى أى حال فالرقم ظاهر المبالغة .

ثم يقول : « أقمت بينهم ثلاث سنين ، لم أقدر أدخل إلى أربعة من المدائن ، وتلك الولاية (أى بلاد المجر) من رومية العظمى ، وفيها جبال يخرج منها الذهب والفضة ، وتلك البلاد من أكثر البلاد رخاء ونعمة ، يكون الغنم عشرين بدينار ، والحملان والجداء ثلاثين بدينار ، والعسل خمس مائة رطل

---

(١) ذكر أولئك المغاربة كثير فى النصوص العربية الخاصة ببلاد وسط أوروبا وشرقها حتى بلاد الدولة البيزنطية ، بل وجدت جماعاتهم فى القوقاز وشمال شرقي إيران ، ولم يدرس أحد إلى الآن هذه الظاهرة . والغالب أنهم بقايا الجماعات المغربية التى كانت تقوم بالغزوات على شواطىء أوروبا الجنوبية وتستقر فى مراكز توالى غزواتها منها : ومن هناك كانت تنتقل كوحدات متماسكة أو أفراداً متفرقين إلى داخل أوروبا وتعمل لحسابها الخاص أو تدخل فى خدمة الدول القائمة ، ويلاحظ من كلام أبى حامد أن الكثيرين من أفرادها كانوا قد نسوا اللغة العربية .

بدينار ، والجارية الحسناء بعشرة دنانير . وفى وقت الغزو تشترى الجارية الجيدة بثلاثة دنانير ، والغلام الرومى [. . .] (١) ، واشتريت جارية مولدة ، أبوها وأمها واخوتها بالحياة ، اشتريتها من سيدها بعشرة دنانير ، بنت خمس عشرة سنة ، أحسن من القمر ، سوداء الشعر والعين ، بيضاء كالكافور ، تعرف الطبخ والخياطة والرقْم ، واشتريت جارية أخرى رومية ، بنت ثمانى سنين بخمسة دنانير . . » ثم يروى أبو حامد كيف استطاعت هذه الصبية أن تستخرج « خمسة أقراص من الشمع الصافى كالذهب » من « حُبَّيْن مملوءين بالعسل شهداً بِشَمْعه » اشتراهما بنصف دينار . ثم يضيف « وجاء منها ولد ومات ، فاعتقتها وسميتها مريم ، ورَغِبت أن تجئ معى إلى سجسين ، فخشيت عليها من أمهات الأولاد الترك الذين فى سجسين » أى أن حياة أبى حامد هناك كانت رخية سعيدة يستمتع فيها بأطايب العيش عن سعه ، فيتزوج وينجب وقد تخطت سنه السبعين سنة ، ويتأهل فى بلاد المجر مع أن له نساء أخريات فى سجسين على مقربة من بحر قزوين . ولم يكن هذا حاله وحده بل شاركه فى ذلك ابنه حامد ، فهو يقول (المعرب ، دوبلر ، ٣٤) « وتركت ابنى الأكبر حامدا فيهم ، وهو من أول يوم تركته عمره نيف وثلاثون سنة ، وتزوج بامرأتين من بنات المسلمين المحتشمين ، ورزق أولاداً ، وهو شجاع فاضل ، كنت أعطيه على كل مسألة يحفظها فى حال صغره نصف دانق » .

وكانت لأبى حامد هناك مكانة رفيعة ، فكان أشبه بالرئيس الروحى للمسلمين هناك ، يتصدى للدفاع عنهم والوساطة بينهم وبين ملك باشغرد ، ويبدى ذكاء عظيما ، ومن أمثلة ذلك أنه كان قد حرم على المسلمين شرب الخمر وأباح لهم « الجوارى وأربعة من الحرائر » فانكر الملك ذلك وقال : « ليس هذا من العقل ، لأن الخمر يقوى الجسد ، وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر ؛ ودينُ

(١) بياض بالأصل .

الإسلام لا يكون على وقف العقل » (أى على ما يناقضه) فقلت للترجمان : « قل للملك : شريعة المسلمين ليست مثل شريعة النصارى ؛ والنصرانى يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ، ولا يسكر ، وذلك يزيد فى القوة ؛ والمسلم الذى يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر ، فيذهب عقله ، ويصير كالمجنون ، يزنى ويقتل ويكفر ، ولا خير عنده ، ويعطى سلاحه وفرسه ، ويضيع ماله فى طلب لذته ؛ وهم هاهنا جندك ، وإذا أمرته بالغزو لا يكون له فرس ولا سلاح ولا مال ، قد أهلكه فى الشراب ، فإذا علمت إما تقتله ، أو تضربه ، أو تطرده ، أو تعطيه خيلاً وسلاحاً يفسده أيضاً . وأما الجوارى والنساء ، فإن المسلمين يوافقهم النكاح لحرارة طباعهم ؛ وأيضاً فإنهم جندك ، فإذا كثر أولادهم كثر جندك » . فقــال : « اسمعوا من هذا الشيخ ، فإنه عاقل ، فتزوجوا ما شئتم ، ولا تخالفوه » . ذلك الملك خالف القسيسين ، واستبــاح الجوارى ، وذلك الملك يحب المسلمين » .

ومن أدلة المركز الكبير الذى وصل إليه عند ملك باشغرد أنه لما استأذنه فى الذهاب إلى سجسين اشترط عليه أن يترك ابنه حامدا عنده ، وأصحبه رجلا يسمى إسماعيل بن حسن « ممن كان يقرأ علىّ ، وهو من أولاد أمراء المسلمين الشجعان الذين يظهرون دينهم » وأعطاه الملك خطاب توصية إلى ملك الصقالبة « وختمه بالذهب الأحمر الذى فيه صورة الملك » وكان الملك قد طلب إليه أن يرسل له عدداً من «ضعفاء فقراء المسلمين والأتراك الذين يحسنون رمى النشاب» ، وقد فعل ذلك أبو حامد ، ويقول : « فجمعت لذلك الرسول جماعة من المسلمين الذين يرمون النشاب ، وأرسلت معهم تلميذاً من أصحابى ممن يحفظ شيئاً من الشريعة ، وقلت له : أَذْهَبُ إلى الحج وأرجع إليكم إن شاء الله على طريق قونية فلما ذهبوا إلى باشغرد ركبت البحر شهراً ، وقصدت أرض خوارزم ، وقد كنت دخلتها قبل ذلك » (المعرب ، دوبلر ، ٣٨ — ٣٩) .

ويبدو أن مقامه فى بلاد الصقالبة ، أى الروس لم يطل لأنه يتحدث عن مروره بها حديثاً سريعاً ؛ ولكن يبدو من كلامه أنه كان فى قاعدة ملكهم نفر من المسلمين فقد صحبه واحد منهم يسمى عبد الكريم بن فيروز الجوهرى ، كان هو الآخر قد اتخذ سجسين مركزاً لأعماله وترك فيها أهله ، وقد ترك عبد الكريم هذا زوجته فى سجسين ثم عاد إلى بلاد الصقالبة ، وعبر أبو حامد البحر الأسود فى شهر ، ودخل أرض خوارزم .

وصل أبو حامد خوارزم فى أواخر ٥٤٥/١١٥٣ ، ولم يطل مقامه هناك هذه المرة ، إذ خرج فى ٥٤٦/١١٥٥ إلى الحج ماراً ببخارى ومرو ونيسابور والرى وأصفهان والبصرة فى الغالب ، فأدى الفريضة ثم ذهب إلى بغداد حيث استقبله صاحبه الوزير عون الدين بن هبيرة وانزله فى داره . ولم يستقر أبو حامد فى بغداد طويلا ، لأنه كان يريد اللحاق باسرته وابنه حامد فى باشغرد ، فسأل عون الدين أن يتوسط له لدى مسعود الأول سلطان سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ليأذن له فى اجتياز بلاده إلى قونية ، ويفهم من نص التحفة (١٣٣ — ١٣٤) أنه سأل بعض الناس عن طريق قونية ، ولكنه لم يقم بهذه الرحلة ، ربما لأن سنه العالية قعدت به ، إذ أنه كان إذ ذاك فى الخامسة والسبعين من عمره . وقد ظل فى بغداد حتى سنة ٥٥٦/١١٦١

ويرجح دوبلر أن أبا حامد كتب «المعرب» مدوناً فيه رحلاته ومشاهداته فى سنة ٥٤٦/١١٥٥واهداه للوزير عون الدين . وفى سنة ٥٥٦/١١٦١ ذهب إلى الموصل حيث بقى عاما ، وهناك كتب «التحفة» استجابة لرجاء الشيخ معين الدين أبى حفص عمر بن محمد بن خضر الأردبيلى ، وهو مؤلف معروف ذكره بركلمان ونسب إليه كتاب «وسيلة المتعبدين» وقد فرغ أبو حامد من من كتابه «التحفة» كما تدل عبارة الختام فى ٣ ربيع الثانى ٥٥٧/٢٢ مارس ١١٦٢ — وفى ٢٠ رمضان من نفس السنة — نسخت منها نسخ كثيرة دفعة واحدة ، وبعد الفراغ من ذلك خرج إلى حلب فأقام فيها سنة ٥٦٠/

١١٦٥ ، ثم انتقل إلى دمشق حيث ادركته المنية فى سنة ٥٦٥/١١٦٩— ١١٧٠ فى الثانية والتسعين من عمره .

تلك هى حياة هذا الرحالة الطلعة الذى قضى عمره يجوب الأفاق ويرمي بنفسه فى المخاطر يدفعه إلى ذلك شوق عظيم إلى المجهول ورغبة لا تخبو فى الوقوف على غرائب هذا الكون الواسع وبدائع صنع الله فيه . وانه لما يستثير الاعجاب أن نرى ذلك الغرناطى الذى غادر بلاده على رأس المائة الخامسة وهو فى السابعة والعشرين من عمره يقطع القفار والبحار من سجلماسة فى أقصى مملكة الإسلام غرباً إلى بخارى فى أقصى شرقها ، ثم يغامر بنفسه فى بلاد خارج دار الإسلام باحثاً عن الجماعات الإسلامية المتناثرة فى مساحات شاسعة تمتد من بحر آزوفر إلى وسط سهل المجر عابراً بحر قزوين ثم يتخذ لنفسه داراً وأهلا فى سجسين إلى شماله ثم يصعِّد مع نهر الفولجا حتى يصل إلى مدينة بلغار عاصمة أمة البلغار ثم يوغل فى بلاد الصقالبة فيزور عاصمتهم وهى كييف فيكون بذلك أول رحالة علامة يصل إلى هذا البلد ويتحدث عنه بـــل يسترسل إلى شمالها فيزور جوركمان على نهر الدنيبير ثم يخترق الأرض إلى سهل المجر عابراً جبال الكربات ، وهناك يتخذ بيتاً وأهلا وينشر العربية بين جماعات المسلمين هناك ويعلمهم شرائع الإسلام ، ثم يعود خلال هذا الطريق الطويل حتى يصل بغداد ماراً ببخارى ومرو والرى . ولا يقعده الشَّيخ بعد ذلك عن الحج إلى بيت الله الحرام ، ويفكر بعد ذلك فى العودة إلى المجر ، ويتخذ الأهبة لذلك ، ولكن السن — ولها حكمها — تقعد به فيستقر فى الموصل ، ثم يمضى إلى دمشق حيث تـــلاقيه المنية .

هذا الشوق إلى استجلاء المجهول الذى نراه عند المسعودى والمقدسى ، والذى سيظهر فى صورة أوسع فى حيـــاة ابن بطوطة إنما هو جزء من ذلك النزوع العلمى الذى ملأ قلوب أمة العرب فى عصور النشاط والازدهار ، وهو مظهر من مظاهر الحيوية العربية الدافقة التى ملأت العصور الوسطى نشاطاً وعلماً ، فلم

يكن أبو حامد يرجو من وراء هذا العناء كله رزقاً ولا كسباً ، فقد كان له فى بغداد مكان مرموق ، وكان حريا بأن يقر مكانه قانعاً برعاية الوزير عون الدين بن هبيرة ، إذ كان أبو حامد على علم وفهم كفيلين بأن يمهدا له أسباب الرزق فى أى مكان يحل به فى بلاد الإسلام ، ولكن الشوق إلى العلم والمعرفة دفعه إلى هذا الجهد كله ، وجعل حياته أقرب إلى الاسطورة ، ومكن له من أن يضيف إلى تراث العرب الجغرافى شيئاً جديداً فريداً فى بابه ، رأينا نماذج منه فيما سبق ، وسنرى نماذج أخرى فيما يلى من ذلك البحث .

مؤلفات أبى حامد

لم يصل إلينا من كتب أبى حامد إلا كتابان هما «تحفة الألباب ونخبة الاعجاب» و «المعرب عن بعض عجائب المغرب» أما ما ورد ذكره من كتب له مثل «عجائب المخلوقات(١)» الموجود فى المكتبة البودلية ، والذى ينسبه إليه يونس بويجس فليس من تأليفه ، وإنما هو مجموع من أحاديث العجائب مستخرج من مؤلفات يوسف الوراق وابن البيطار والهروى وغيرهم . أمّا ما يرد فيه من أن الذى صنفه هو أبو حامد فغير ممكن لأن ابن البيطار توفى بعده بثلاثين سنة .

ومثل ذلك «كتاب تحفة الكبار فى أسفار البحار» الموجود فى مكتبة أكاديمية التاريخ فى مدريد ، فهو مجموع من حكايات الغرائب صنف فى زمن متأخر ونُسِب إلى أبى حامد الغرناطي ، وقد نسبه إليه يونس بويجس أيضاً .

---

(١) انظر : بروكلمان : ٦٢٩/١ والملحق : ٨٧٨/١ ، ويونس بويجس ، ص ٢٣٠ وتعليقات جايانجوس على ما ترجم من نفح الطيب للمقرى إلى الانجليزية (لندن ١٨٤٠) ج ١ ص ٢٥ وما يليها . انظر : سيزار دوبلر ، أبو حامد ، ص ١٣٢ ومقدمة جابرييل فيران لتحقيقه وترجمته الفرنسية لنص التحفة ، وقد سبق أن ذكرنا ذلك كله .

كتاب المعرب فى بعض عجائب المغرب

ذكرنا فيما سبق أن أبا حامد كتب هذا الكتاب بعد وصوله بغداد ٥٥٦/ ١١٦١ وأنه أهداه إلى الوزير عون الدين بن هبيرة . ويبدو من نص هذا الكتاب أنه أول ما كتب ، فليس فيه إشارة إلى كتاب سابق له .

وقد ورد ذكر هذا الكتاب بعناوين مختلفة فى المؤلفات التى أخذت عنه بعد ذلك ، وكذلك فى بعض نسخه ، ومن هذه الأسماء « نخبة الأذهان فى عجائب البلدان ، والمغرب عن بعض عجائب البلدان » وقد أخذنا هنا بعنوانه الوارد فى مخطوطة أكاديمية التاريخ بمدريد . وتوجد من هذا الكتاب إلى جانب تلك المخطوطة نسخة أخرى فى مكتبة جوتا برقم ١٥٣٥ (وقد درسها هارتويج ديربنور وكتب عنها مقالا فى La Revue Critique, 1882, I, 210, n. 3 وتناولها بالبحث كذلك مقالٌ نُشر فى : Bolletino italiano degli Studi Orientali, N S 315 ، وتوجد منه نسخة أخرى فى مكتبة جامعة كيمبردج (انظر ملحق الكتالوج تحت رقم ٨٥٣) ولكن مخطوطة أكاديمية التاريخ فى مدريد (مجموعة جايانجوس رقم ٣٢) هى أحسن نُسَخِهِ وأكملها .

والكتاب صغير الحجم ، عدد أوراقه بحسب مخطوطتنا ١١٤ ورقه من القطع الصغير ، ولكنه حافل بالمادة الطيبة التى تلقى ضوءً على معارف أبى حامد وتدل على توفره على دراسة الفلك والتقاويم المختلفة . وهو يبدأ بفاتحة قصيرة يذكر فيها الوزير عون الدين ويفيض فى مديحه ويقول إنه أهدى هذا الكتاب إليه ، ثم يبدأ بذكر اسمه ولقبه ومكان ولادته . وبعد ذلك مباشرة يدخل فى ذكر العجائب فيذكر كهفاً تحت الأرض إلى جوار مدينة لوشه (Loja) فيه سبعة نيام منذ الزمن القديم يشبهون أهل الكهف ، ثم ينتقل إلى جبل الثلج المطل على غرناطة ويتحدث عن كنيسة قرب هذا الجبل عندها

شجرة زيتون عجيبة تزهر وتثمر الزيتون ويتم نضجه فى يوم واحد من أيام الربيع ، ثم يقول عن الأندلس : «بَنَت الجن لسليمان عليه السلام مدينة النحاس ، دَورُها أربعون فرسخاً وعلو سورها خمسماية ذراع فيما يقال والله أعلم» ثم يذكر وصول موسى بن نصير إليها ، وكيف استحال عليه أن يقتحم أسوارها ، لأنه كلما صعد رجل من رجاله السور ضحك وألقى نفسه بداخلها ، ثم تبين له أخيراً أن «فى المدينة جناً يجزُّون من اطلع على المدينة والله أعلم» ثم يقول «وليس إلى ذكر ما جعله الله تعالى فى العالم من عجائب الأشياء سبيل ، والذى عاينا منها يسير من كثير» .

ولا يذكر أبو حامد عن وطنه الأندلس إلا أمثال هذه العجائب ، فهو يطيل الحديث عن مدينة النحاس والألواح العشرة التى إلى جانبها والبحيرة المجاورة لها ، وما وجد فيها موسى بن نصير من «حِباب من النحاس لها أغطية من الرصاص مختومة ، فأمر الأمير موسى ففتح منها حِب واحد ، فخرج من ذلك الحب فارس كأنه من الذهب ، وفرسُه ورمحه أيضاً من الذهب فى رؤية العين ، وطار فى الهوا وهو يقول : يانبى الله لا أعود ! وفتح حِبا آخر فخرج منه فارس على فرس بيده رمح كأنه لهب النار ، وطار فى الهوا وهو يقول : يانبى الله لا أعود . . ! » .

وهو عندما يقف بطليطلة يذكر قنطرتها ويقول إن الجن بنتها لسليمان عليه السلام ، ويذكر سرقسطة باسم «المدينة البيضاء» ، ويقول أيضاً إن الجن بنتها لسليمان «فيما يقال لا يدخلها حية ولا عقرب ولا شىء من الحشرات ، وفى رُستاقِها نوع من العنب وزن الحبة الواحدة عشرة مثاقل» فإذا عرفنا أن متوسط وزن المثقال ٤,٥ جراماً ، كان وزن حبة العنب هذه ٤٥ جراماً ، ثم يقول : «وأخبار هذه البلاد وما فيها كثير ، وإنما أذكر منها الشىء الذى لا يوجد مثله فى الدنيا فيما رأيت» ثم يذكر تفاح شنتره الذى ذكره اليسع ،

ويقول إن محيط التفاحة ثلاثة أشبار (حوالى ٦٠ سنتمترا) ويضيف هنا عبارة لها مغزاها : «والعاقل يعرف الجائز والمستحيل ، وقدرة الله ومقدوراته لا نهاية لها ، ولا سبيل إلى الاحاطة بها» ثم يعود إلى مدينة النحاس ، فيورد شعراً يقول إنه أرسل به إلى خوارزم شاه من بلاد الترك ، ويختتم هذا الشعر بقوله :

فى الأرض آيات فلا تكُ مُنْكِرا فعجائب الأشياء من آياته

ويتحدث بعد ذلك عن «البحر الأسود الذى يعرف ببحر الظلمات ، يحيط بأكثر بلاد الأندلس من ناحية مغرب الصيف والشتاء (كذا) وناحية الشمال . وفى آخر أندلس يكون مجموع (يريد مجمع) البحرين الذى ذكره الله تعالى فى القرآن» وهو يريد به مضيق جبل طارق ، وكلامه عن المحيط الأطلسى طويل ملخصه أنه يقسمه إلى بحرين : الأخضر وهو ما جاور الساحل ويصب فيه بحر الروم ، والبحر الأسود وهو ما بُعد عن الساحل ، ويقول إنه رأى فى ذلك البحر عجائب كثيرة منها حيوان بحرى يشبه أن يكون الأخطبوط ، وحيوان ملتصق بقاع البحر يبدو للرائى وكأنه عرجون عنب ، وسمكة أخرى كانت له معها حكاية طويلة لها ذنب مثل ذنب الحية ورأس مثل رأس الأرنب .

ثم يترك الأندلس ليتحدث عن عجائب جبل اللكام ، ثم عجائب جبل السَّراة فى بلاد العرب ، وجبل الراهون «الذى هبط عليه آدم عليه السلام من السماء بسرنديب ، جزيرة فى بحر الهند» ويذكر من عجائبه وآثار آدم فيه شيئاً كثيراً ، ثم يمضى فى ذكر جبال أخرى ويروى من عجائبها أحاديث أشبه بالخرافات .

ومن نهاية ورقة ١١٤ تتغير لهجة الكتاب تغيراً يستوقف النظر ، فأبو حامد يبدأ باباً عن «أوقات الصلاة ومعرفة الفَىء والزوال» ويريد بالفىء الظلّ وبالزوال تعامد الشمس ، وهو يبدؤه على طريقة المحدثين : حدثنا محمد بن عبد الله

الحضرمى قال : حدثنا هُدْبَه بن عبد الوهاب المروزى بمكة والحسين بن حرث قال . . . الخ » ثم يروى حديث نزول جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم وتلقينه إياه الصلوات فى مواقيتها .

ثم يُتبع ذلك بفصل عن « ذكر ساعات الليل والنهار فى الزيادة والنقصان » وهو يروى فيه عمن يسميه أبا العباس ويقول : « فالليل والنهار فى كل زمان عندنا ٢٤ ساعة والساعة ١٥ درجة ، وهى ٣٠ شعيرة ، وكل درجة ٦٠ دقيقة ، والدقيقة ٤٢ طَرْفَه ، فالليل والنهار ١,٨١٤,٤٠٠ طرفه على ما زعم أهل العناية بهذا الشأن » وهذا الحساب لا يصح إلا إذا قرأنا العبارة : « . . وكل شعيرة ٦٠ دقيقة » . ثم يصف بعد ذلك اختلاف الليل والنهار فى الطول والقصر بحسب شهور السنة ، وهو يحسب ذلك بالشهور الرومية والفارسية دون ذكر للشهور العربية ، والشهور الرومية عنده هى ما يسمى بالسريانية ، وهو لا يشير فى اثناء ذلك إلى شىء من تجاربه الشخصية ، فهو يقول مثلا قال : « أبو العباس : فأطول ما يكون النهار خمسة عشر (كذا) ساعة ، ويكون الليل حينئذ تسع ساعات » مع أنه سيقرر فى هذا الكتاب نفسه أن الليل فى بلاد الصقالبة ٢٠ ساعة فى الشتاء ، وهذا يدل على أنه أخذ هذه الفقرة كلها عن أبى العباس هذا ووضعها فى كتابه ، ودليل ذلك أنه يقول فى سياق الكلام : « فأنا مفسر ذلك على قدر أزمنتها إن شاء الله تعالى من يوم تأليفنا هذا الكتاب وذلك أول يوم من المحرم سنة ثمان عشرة وثلثمائة من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وعن أبى العباس هذا ينقل بعد ذلك أبواباً عن « الزوال ومقادير الظل فى البلدان » و « معرفة استخراج الزوال » و « معرفة ما مضى من ساعات النهار وما بقى » و « معرفة طلوع الفجر » و « معرفة دخول شهور الفرس » و « معرفة سنة الكبيس الرومى » و « معرفة سنة الكبيس العربى » و « شهور العرب » و « إذا أردت معرفة أيام الشهور » .

وفى أثناء باب عنوانه «معرفة أيَّات الستين» ينقطع الكلام فجأة فى آخر ورقة ٤٠ ا ، ويعود الحديث إلى مجمع البحرين ، ومعنى ذلك أن هذه الفصول الفلكية والتقويمية أقحمت فى الكتاب اقحاماً ، والغالب أن أبا حامد الغرناطى هو الذى أدرجها فى كتابه استجابة لرغبة الوزير عون الدين بن هبيرة ، ثم جاء الناسخ فبتر النص فى فصل منها وعاد إلى أحاديث العجائب .

وقد بحثت عن أبى العباس الذى أخذ منه أبو حامد الغرناطى هذه الفصول فلم أصل إلى بيان شافٍ ، ولكننى وجدت فى تحفة الألباب (ص ١٠٦) ذكراً لعجائبى يسمى أبا العبـــاس الحجازى وكان ممن أقام بأرض الهند والصين أربعين سنة ، وكان الناس يحدثون عنه بالعجائب ، فقلت له : يا أبا العباس ، إنى سمعت عنك أشياء كثيرة من العجائب ، والآن أريد أن أسمع منك شيئاً عن عجائب خلق الله تعالى ، وكان الشيخ الإمام محمد بن أبى بكر [محمد بن الوليد] الفهرى (يريد الطرطوشى) حاضراً ، فقـال أبو العباس : قد رأيت أشياء كثيرة ، ولا يمكن أن أحدث بها ، لأن أكثر الناس يحسبون أنها كذب ، فقال الشيخ الإمام أبو بكر : «يكون ذلك من العوام الجهال ، وأما العقلاء وأهل العلم فانهم يعرفون الجائز والمستحيل ، وذِكرُ عجائب خلق الله تعالى يستحبُّ التحدث بها إظهاراً لقدرة الله تعالى فى عجائب مخلوقاته» ، فقال أبو العباس : «دخلت جزيرة سرنديب ، وهى جزيرة عظيمة فى وسطها جبل الراهون الذى نزل عليه آدم عليه السلام . . .» فإذا ذكرنا أن كلام أبى حامد فى العجائب وقف عند ذكر عجائب الجبال ، وجبل الراهون هذا على وجه التحديد ، تبينا أن أبا حامد كان يتابع كلام أبى العباس الحجازى فيما ذكر من العجائب ، ثم استرسل فى النقل من كتاب له لم يذكر اسمه ، فجاء بهذه الفصول الفلكية والتقويمية ، ثم عاد إلى العجائب مرة أخرى . وربما كان كتاب أبى العباس هذا هو المشار إليه فى كتاب الأنساب للسمعانى منسوباً إلى من يسميه أبا العباس الصينى .

وفى سياق هذه العجائب يحدثنا أبو حامد عن « صفة البركان » فى جزيرة صقلية ، ويقول إنه مشرف على البحر الأخضر ، وكان أولى به أن يقول على بحر الروم ، ويطيل فى وصف البركان وما يخرج منه مِن حمم ، ويقول انه أقام فى البحر مقابل هذه الجزيرة خمسة أيام إذ « لم يكن لهم ريح » وفى اليوم السادس تحركت بهم السفينة إلى الاسكندرية ، ثم يذكر جزيرة مالطة ويقول إن فيها غنماً كثيراً مثل الجراد المنتشر ، ثم يذكر أنواع شتى من حيوانات البحر الأبيض مثـل السرطانات الكبيرة وسمك يعرف بخنزير البحر وآخر يسمى الكوسج وثالث يسمى بالحِبر بسبب ما يخرج من مرارته من مادة سوداء ، وأسماك أخرى ذات صفات وخصائص عجيبة منها واحدة تعرف بالمنـارة ، « فى طول المنارة الطويلة ، تخرج من البحر وتلقى نفسها على السفينة فتكسرها وتهلك من فيها . . . »

ومعظم هذه الأسماك التى يذكرها ليست مخلوقات خرافية ، بل من بينها أسماك معروفة يصفها أبو حامد بغاية الدقة . ومن سمكة المنارة ينتقل أبو حامد إلى ذكر الاسكندرية وبعض عجائبها ، وحديثه هنـا حديث رجل عرف الاسكندرية وشاهد عجائبها مثل المغارات والانفاق المعروفة بالكاتاكومب ، وقد دخل أبو حامد فى واحد منها ووصفه وصفاً طويلا ، ثم يتحدث عن منارة الاسكندرية ، ويرسم صورة لها كما شاهدها ، وأبو حامد من آخر الرحالة الذين شهدوا المنارة فى تمام هيئتها وقبل تهدمها ، وقد وصفها معاصره الإدريسى بمثل وصفه ، وكلامه هنا يعتبر وثيقة تاريخية لها أهميتها ، لأن المنارة تهدمت بعد ذلك وزالت معالمها .

ثم ينتقـل بعد ذلك إلى ذكر عجائب مصر ، وقد أشرنا إليها ، ثم يستطرد إلى ذكر النجم سهيل ويورد أشعاراً ورد ذكره فيها . ومن هنا يدخل فى فصول فلكية عن « نجوم القبلة السيارة من المشرق إلى المغرب منازل للشمس والقمر » وهو يطيل وصف كل صورة أو جريدة نجمية ويرسم هيأتها على وجه

التقريب . ويتحدث بعد ذلك عن « المجرة وكيف الاستدلال بها على القبلة » وعن « الرياح الدالة على القبلة » و « ذكر جهة البلاد إلى بيت الله الحرام » وكلامه فى هذه الفصول الأخيرة دقيق يمكن وصفه بأنه علمى ، خاصة وهو يستند فيه إلى علماء كثيرين .

وبعد ذلك يتحدث عن « صفات الأرضين وطولها وعرضها ، وكلامه هنا اسطورى صرف ، لأنه يتحدث عن الأرضين الست الواقعة تحت هذه الأرض التى ذكرناها » ويذكر عرضها وما يسكنها من أمم وأسماء هذه الأمم وكذلك السماوات السبع .

ومن هنا ينتقل أبو حامد إلى « ذكر طول الأرض وعرضها » فيعود مرة أخرى إلى الكلام الدقيق بحسب مفهوم تلك العصور عن الأطوال والعروض ، ويلى ذلك « ذكر طول بيت الله والمسجد الحرام » ناقلا عن جغرافيين وكتاب عديدين ، ثم يتحدث عن البحار ، طولها وعرضها « ناقلا عن أبى العباس الذى ذكرناه » ، وكلامه هنا يشبه كلام معظم جغرافيي العرب من مشارقة ومغاربة .

ويختم أبو حامد هذا القسم الجغرافى من كتابه بالكلام عن الأقاليم السبعة ناقلا عن أبى العباس أيضاً ، وأبو العباس هذا يأخذ بقول الفرس القدماء فى تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم أو كشورات ، وهى أقاليم إيرانشهر ، والصين والروم وافريقية والعرب والهند والترك ، أى أنها ليست الأقاليم الجغرافية النظرية التى أخذها العرب عن اليونان وأثبتها الإدريسى على خريطته ، بل هى أقاليم بمعنى النواحى ، وهو يتابع الفرس فى قولهم إن إقليم ايرانشهر يتوسط الأقاليم الستة الأخرى « وهى محدقة به وهذه صورتها . . » ومن أسف أن الناسخ أسقط الصورة ، ثم يقول بعد ذلك : « قال — أى أبو العباس الحجازى — : وقسموا هذه الأقاليم السبعة أربعة أقسام ، فجعلوا منها إقليم ايرانشهر ، وسموه قلب الأرض ، والقسم الثانى إقليم العرب والهند ، والقسم الثالث إقليم الصين والترك ، والقسم الرابع إقليم الروم وإفريقية » ثم يطيل الكلام عن

ايرانشهر ويقول إنه خير أقاليم الأرض جميعاً ، ويروى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان العلم معلقاً بالثريا لنالته رجال فارس » . ثم يتحدث عن الأقاليم السبعة واحداً واحداً .

وبعد ذلك يتحدث عن الجبال ، ولكن حديثه هنا ليس عجائبياً بل واقعى صرف فيه لمحات على طريقة المسالكيين فى ذكر المسافات والمراحل .

وصف أبى حامد لخوارزم وتركستان والقوقاز وجنوب روسيا وبلاد المجر

وبعد هذا الفصل يأخذ الكلام صورة وطريقة أخريين ، فإن أبا حامد يخصص بقية الكتاب (٩٧ — ١١٤) لوصف البلاد التى عاش فيها سنوات طويلة من عمره ، وهى البلاد التى سماها سيزار دوبلر ناشر ذلك القسم من الكتاب بالبلاد الأورو-أسيوية وتمتد المنطقة التى زارها أبو حامد ووصفها فى هذا الجزء من كتابه من خوارزم إلى سهل المجر ، وقد ذكرا أطرافاً من كلام أبى حامد عنها ، وهو كلام دقيق يعتبر من الأسانيد العلمية التى يمكن الاعتماد عليها فى التأريخ لهذه النواحى ووصف خصائصها الجغرافية سواء أكانت طبيعية أم بشرية .

وأبو حامد فى هذا الجزء من كتابه أصيل فى كلامه ، فهو يتحدث عما رأى وعاين ، ويصف الناس والأشياء كما رآهم ورآها ، وهو يقول ما يقول فى أسلوب بسيط يقرب أن يكون عامياً وساذجاً ينم عن صدق رغم ما فيه من مبالغات هنا وهناك ، كهذا الرجل الضخم الذى لم يصل أبو حامد إلى حَقْوِه ، والحقو أعلا الفخذ ، ولم يكن أبو حامد بالقصير أو الدحداح ، وإنما هو وسط فى طوله ، ومعنى هذا أن ذلك الرجل الضخم لابد أن طوله كان ثلاثة أمتار ونصف ! وما أراد أبو حامد قوله هو أن الرجل كان مسرفاً فى طوله ، ومثل ذلك قوله فى سياق مشاهداته فى بلدة غوركومان ، من كبار بلاد الصقالبة

(الروس) إذ ذاك ، وتقع إلى الشمال قليلا من كييف : « ورأيت يوماً فى أصل شجرة حيواناً يشبه العظاية بيدين ورجلين ، كأن الله تعالى أخرجها من الجنة ، كأنها عُمِلت من الياقوت الأحمر الصافى ، الذى ينفذ به البصر فى صفائه ، ومن الذهب المجلىّ الصافى الذى ما شاهدت فى الدنيا مثله ، كأنها منظومة بصنعة وتأليف ، وتحيرت فى حسنها ، فأحاط أصحابى بها على الخيول ، وهى تنظر بعينين كأن السحر فى عينيها ، وتدير رأسها إلينا يميناً وشمالا ولا تتحرك ، ولا تبالى بنا البتة » ، والمراد هنا نوع من السَّلَمَنْدر Salamander ، ولم يصب دوبلر عندما قال (ص ٣٥٦) بأن المقصود هنا حيوان خيالى ، لأن أبا حامد لم يزد على أن وصف عظاية شمالية شديدة الحمرة وصفاً شاعرياً . ومثال ذلك أيضاً قوله فى وصف الثيتل : « وفى باشْغُرد (المجر) بقر وحشية كبار أمثال الفيلة ، جلد الواحد منها حِمل بغلين قويين ، ورأسه حمل عَجَلَه ، يصطادونها وتسمى الثيتل ، وهى من أعجب الحيوان طيب اللحم ، سمين ؛ وقرونها كبار طوال مثل أنياب الفيلة » (معرب ، دوبلر ، ص ٣٤) ، والمراد هنا الثيتل المجرى المعروف علمياً باسم Bos taurus وقد انقرض الآن ، وقد رآه فى القرن السادس عشر الرحالة هيربنشتاين Herbenstien وصوره تصويراً دقيقاً لا يخرج عن كلام أبى حامد[1] .

وليس أدل على دقة أبى حامد فى هذا الجزء من كتابه من ذلك الوصف المتقن لما يسمى بالاسكى Ski وهى ألواح الانزلاق على الثلج . (معرب ، دوبلر ، ص ١٦ — ١٧) ، قال : « والطريق إليهم (أى إلى بلاد اليورا[2]) فى

(١) Cf. Dubler, *Abū Ḥāmid*. 207.

(٢) ذكر هؤلاء اليورا البيرونى ونفر من جغرافيي المسلمين ، وهم مذكورون فى حولية كييف الروسية باسم يوجرا Jugra وتحدث عنهم ا. فيشر فى تاريخ سيبريا .

J. E. Fischer, *Siberische Geschichte*, 2 vols., St. Petersburg, 1768, I, 177 ff.

وذهب دوبلر (ص ٢٦٩) إلى أنهم من شعوب سيبريا القديمة — وربما كانوا الأجور Ogor أو الاستياكوس أو الوجول Woguls أو اليوراك Yorak من فروع الساموبين — وانهم هربوا قبل زمن أبى حامد بقرون كثيرة أمام البدو الطورانيين وأقاموا فى النواحى الباردة الممتدة شمال شرقى الفولجا .

أرض لا يفارقها الثلج أبداً ، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً ينحتونها ، طول كل لوح باعٌ وعرضه شبرٌ ، مقدّم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعـان من الأرض ، وفى وسط اللوح موضع يضع فيه الماشى رجله ، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيورا من جلود قوية يشدونها على أرجلهم ؛ ويقرن بين اللوحين التى تكون فى رجليه بشندال طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه فى يده الشمال ، وفى يده اليمنى عصى بطول الرجل ، وفى أسفل العصى مثل كرة من الثياب ، محشوة بصوف كثير ، مثل رأس الإنسان ، خفيفة ؛ يعتمد على تلك العصى على الثلج ويدفع العصى خلف ظهره ، كما يصنع الملاّح فى السفينة ، فيذهب على ذلك الثلج بسرعة ، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحد أن يمشى هناك البتة ، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبد البتـة ، وأى حيوان مشى عليه يغوص فى ذلك الثلج فيموت فيه ، إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب ، فإنه يمشى عليه بخفة وسرعة . والثعالب والأرانب فى تلك البـلاد تبيَضُّ جلودها حتى تكون مثـل القطن ، وكذلك الذئاب أيضاً ، تكون فى ناحية بلغار تبيض جلودها فى زمان الشتاء » . وليس فى الدقة على هذا من مزيد ، بل أن أبا حامد رسم هذه الألواح بيده زيادة فى الايضاح .

ولا يطيل أبو حامد الكلام فى جهة من الجهات مثـل إطالته فى الكلام عن خوارزم ؛ وقد وصف هذا الاقليم الكثيرون من جغرافيينا ، ولكن كلام أبى حامد أحفل ما لدينا بالفائدة لأنه لا ينفق الوقت فى تعداد المدن والمسافات بينها ، بـل يهتم بالناس وهيئتهم وأعمالهم والأرض وحاصلاتها ومتاجرها ، ويقص ما اتفق له من العجائب وغريب الحكايات هناك ، وهى ليست عجائب خرافية ، بل أشياء تشبه ما نقرؤه فى كتب « صدق أو لا تصدق » المعاصرة ، فهى طرائف لا عجائب . وبوَصف خوارزم يختم كتابه هذا وعبارته هنا جديرة بالذكر قـال : « وإنما ذكرت بعض ما شاهدته على طريق الاختصار ، ولو شرحت لأطال الكتاب ، والاختصار فيه كفاية . ولولا هؤلاء الأئمة الفضلاء

الذين سألونى ورغبوا فى جمع هذه الجملة لما تصديت لهذا المجموع ، إذ لست أرى نفسى أهلا للتأليف .

وخرجتُ من باشغرد سنة ثلاث وخمسين ؛ وخرجت من سجسين إلى خوارزم سنة أربع وخمسين ؛ وخرجت من خوارزم طالباً للحج فى ربيع الأول سنة خمس وخمسين فى شوال [(١)] . . . ؛ وحججت وعدت إلى بغداد . وقد أعاننى المولى الوزير عون الدين ، جلال الإسلام ، صفى الإمام ، شرف الأنام ، معز الدولة ، مجير الأمة ، تاج الملوك والسلاطين ، سيد الوزراء ، صدر الشرق والغرب ، مصطفى الخلافة ، ظهير أمير المؤمنين ـ أدام الله بنعمته كَبْتَ أعادى دولته ـ وأوصل إلى من خلعه الشريفة وماله وإفضاله ما أعجز عن عده وحصره ؛ وأخذ لى كتاباً من حضرة الخلافة — أدام الله على العالمين فى مشارق الأرض ومغاربها ظلها ، وكبت بالذل والصغار أعداءها — وكتب إلى صاحب قونية ابن الملك مسعود — رحمه الله — ليكون طريقى عليه إلى باشغرد ، لعل الله تعالى يسهل بالوصول والاجتماع بالأهل والأولاد ؛ وما ذلك على الله بعزيز ، وهو عليه يسير ، وهو على كل شىء قدير » .

وإذن فأبو حامد فى هذا الكتاب ليس جغرافياً صرفا أو عجائبياً خالصاً ولا رحالة فحسب ، إنما هو ذلك كله ، وقد أخطأه التوفيق فى نظم الكتاب ، فانتقل انتقالا سريعاً من مبحث لمبحث ومن أسلوب لأسلوب ، وحشد فى الكتاب فصولا كثيرة نقلها عن أبى العباس الحجازى دون أن يحسن الربط بينها وبين سياق الكتاب ، ولا يُعَلَّل إقحام هذه الفصول إلا بأحد أمرين : أما أن الوزير عون الدين طلب إليه ذلك أو أن أبا حامد أراد ألا يكون كتابه كله حكايات ونوادر وعجائب ، فضمنه بعض المباحث العلمية التى يحتاج

(١) هنا شىء سقط من الناسخ واختل السياق بسقوطه ، وتستقيم إذا أضفنا شيئاً مثل : [فوصلت الحجاز] فى شوال .

إليها الناس ، وهو فى هذا يجمع بين المفيد واللطيف كما يُقال ، ولو أنه قصر كتابه على مشاهداته فى البلاد الأورو-أسيوية وأطال فى ذلك كيف شاء لكان هذا الكتاب كله وثيقة جغرافية إجتماعية تاريخية ذات قيمة لا تقدر ، ولكن الأدب الجغرافى العربى على أيامه كان قد أخذ يتحول إلى أدب عجائب وغرائب ، ولم يعد الناس يطلبون كتباً جغرافية صرفة كتلك التى ألفها أعلامُ المسالكيين والبلدانيين ، وإنما أصبح الناس على أيام أبى حامد يطلبون كتب تسلية وترويح عن النفس وإزجاء للفراغ ، ولم يكن لأبى حامد مفر من أن يصب كتبه على هذا القالب .

وأبو حامد من أوائل من اتجهوا بالعلم الجغرافى العربى هذه الوجهة العجائبية ، وقد أسرف الناس بعد ذلك فى هذا الباب حتى غدت كتبهم وكأنها صفحات من ألف ليلة ، ولم يشذ عن ذلك إلا أمثال أبى الفدا وياقوت ، فأما الأول فقد كان أميراً يؤلف لنفسه وهو فى سعة من العيش ، فلم يكن بحاجة إلى أن يطلب تسلية قارىء أو يلتمس إطراف وزير أو أمير ، وأما ياقوت فمن طلائع الموسوعيين المنهجيين ، وهو عالم متبحر جمع فأوعى ، فاقتدر على النجاة من التيار العام واستطاع الابتداع . أما أبو حامد فكان رجل رحلة وحركة وشوق إلى المشاهدة والتنقل لا يكاد يتسع وقته لجمع علم غزير أو الانكباب على تأليف كبير ، ومن ثم فقد كتب ما تيسر له استجابة لطلب راعيه وتَمَشِّياً مع ما كان الناس يستحبونه من أحاديث المستحيلات ، وهو نفسه يعتذر عن سوء تأليفه ويقول « لست أرى نفسى أهلا للتأليف » ولو وفق إلى ما وفق إليه ابن بطوطة من رجل مثل ابن جُزَى يأخذ عنه حديثه ويدونه ويصوغه فى قالب جميل لكانت مؤلفاته أحسن وأشمل ، أما وهو مشغوف بالرحلة مشغول بأهله الذين فرقهم فى نواحى الأرض ، فلم يكن يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل ، وهو مشكور عليه ، وله مكانه الذى لا ينكر بين جغرافيينا .

كتاب تحفة الألباب ونخبة الاعجاب

كتب أبو حامد هذا الكتاب بعد « المُعرب » بسنتين ، فقد فرغ منه فى ٣ ربيع الثانى ٥٥٧/٢٢ مارس ١١٦٢ بعد خروجه من بغداد واستقراره فى الموصل فى كنف صديقه الشيخ معين الدين أبى حفص عمر بن محمد ابن الخضر الأرْدَبِيلى مؤلف كتاب « وسيلة المتعبدين »[1] الذى يثنى عليه أبو حامد ثناء طويلا فى فاتحة الكتاب ويقول : « ولم يزل أيده الله وأبقاه ، ومن المكاره وقاه ، يحثنى كلما كنت ألقاه أن أجمع ما رأيته فى الأسفار من عجائب البلدان والبحار ، وما صح عندى من نقلة الأخبار والثّقاة الأخيار ، فأجبته إلى ذلك ، وإن لم أكن هنالك[2] ، لِعُزُوب الفِطَن ، وضيق العطن ، وبعدِ الأهل والوطن ، وتشتت الأحوال ، وركوب الأهوال ، وطول الاغتراب والبعد عن الأحباب ، ومساورة العذاب . أسألُ الكريم المجيب ، أن يمن علىّ بالفرج القريب ، « ويرحم الله عبدا قال آمينا » ، ورأيت أن أسمى هذا المجموع « تحفة الألباب » وأرتبه على مقدمة وأربعة أبواب . فالمقدمة للبيان والتمهيد ، والأبواب لتتمة المقصود :

الباب الأول : فى صفة الدنيا وسكانها ، من إنسها وجانها .

الباب الثانى : فى صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان .

الباب الثالث : فى صفة البحار وعجائب حيواناتها ، وما يخرج منها من العنبر والقار ، وما فى جزائرها من أنواع النفط والنار .

الباب الرابع : فى صفة الحفائر والقبور ، وما تضمنت من القفار إلى يوم النشور .

---

(١) انظر بروكلمان ، ملحق : ١/٧٨٣ — ٧٨٤

(٢) أى : وإن لم أكن أهلا لذلك .

ليكون ذلك سبباً للاعتبار وداعياً إلى الفرار من دار البوار إلى دار القرار ، جعلنا الله وإياكم من الفائزين ، وأدخلنا برحمته فى عباده من الصالحين » .

وإذن فقد كتب أبو حامد كتابه هذا وهو يتطلع إلى العودة إلى المجر ليلقى أهله وأحبابه ، وقد تشتت ذهنه واستبد به حنين الشيخ إلى أهله وولده ليقضى معهم آخر أيامه . وقد كانت سن أبى حامد إذ ذاك ٨٤ سنة هجرية ، وهى سن تؤيد ما ذكره فى خطبة الكتاب ، وكلامه يُشعر بأنه كان يحس أن أمنيته لن تتحقق ، ولهذا فهو يرجو القارىء أن يقول «آمين» لكى تتيسر الأسباب لأبى حامد للعودة إلى باشغرد التى كانت قد أصبحت له وطناً ، وخلف فيها ابنه حامداً .

وإذا كان أبو حامد صادقاً فى تصوير حاله النفسية واعتذاره عن قلة تماسك الكتاب « بعزوب الفطن وضيق العطن » إلا أنه فاته أن تجربته الأولى فى التأليف نفعته عند ما أمسك القلم ليكتب كتابه الثانى ، فقد كتب كتابه الأول (المعرب) دون خطة أو ترتيب ، وقال انه « فى بعض عجائب المغرب » ثم لم يلبث أن خرج الأمر عن يديه فمضى يجمع الغرائب من كل مكان فى الدنيا ، وأعوزته مادة طيبة فأستعار فصولا من كتاب سابق ، ثم ارتد إلى عجائب المغرب ، ولم يدخل فى موضوع أصيل ذى قيمة مبتكرة إلا فى الأوراق العشرين الأخيرة من الكتاب كما ذكرنا .

أما فى كتابه الثانى فقد وضع للكتاب خطة قبل أن يكتبه ، وجعله — بناء على هذه الخطة — تمهيداً وأربعة أبواب ، والتزم هذا التقسيم فى كتابه التزام مؤلف يكتب فى موضوع محدود واضح أمامه ، ولا عجب والحالة هذه أن يلقى هذا الكتاب قبولا أكثر مما لقية كتابه الأول ، وأن يكون سبب ذيوع اسم أبى حامد وتواتر ذكره فى المؤلفات التى كتبت بعده .

ومخطوطات هذا الكتاب كثيرة توجد فى مكتبات باريس ولينينجراد والمتحف البريطانى وجوتا والجزائر ، وفى مكتبة باريس الأهلية وحدها خمس

مخطوطات منه ، ولقد لقى من عناية المحدثين مثل ما لقى من تقدير القدماء ، فعكف على دراسته نفر كبير منهم ، ونشروا منه قطعاً ، وترجموا قطعاً أخرى إلى لغات أوروبيه شتى ، ونشره كاملا جابرييل فيران فى سنة ١٩٢٥ وعلق عليه شروحاً ضافية ذات قيمة علمية كبرى (١) .

وقد اهتم أولئك العلماء بأبى حامد لأنه من أوائل من اتجه بالعلم الجغرافى العربى نحو ما يسمى بعلم الكون أو الكوزمولوجية Cosmology فى الإنجليزية وعلم وصف الكون أو الكوزموغرافية Kosmographie - Cosmography فى

---

(١) Gabriel Ferrand, *Le Tuhfat al-Albāb* de Abū Ḥāmid al-Andalusī al-Garnātī, *Journal Asiatique,* Juillet - Septembre 1925.

وقد أورد فيران فى مقدمة تحقيقه للتحفة بياناً وافياً بكل الأبحاث التى تمت عن أبى حامد إلى سنة ١٩٢٥ . وأهم من درس أبا حامد وكتاباته إلى ذلك التاريخ ثلاثة : دورن الروسى وجيورج ياكوب وفرين الألمانيان .

وقد نشر دورن Dorn معظم ما كتب عن أبى حامد فى :

Mélanges Asiatiques tirés du Bulletin de l'Académie Impériale des Sciences de Saint Pétersbourg. المجلدات ٦ — ٨ فيما بين سنتى ١٨٦٩ و ١٨٧٣ ومقالاته فى هذا المجموع تدور كلها حول ما كتبه علماء المسلمين عن البلاد الشمالية وروسيا بصفة خاصة . ويهمنا منها ما نشره فى المجلد السادس (ص ٦٨٥ — ٧١٨) والمجلد السابع كله فهو يتضمن مختارات من تحفة الألبـــاب وترجمتها إلى الألمانية بعنوان :

Über zwei für das Asiatische Museum Erworbene arabische Werke.

ونشر فى نفس المجلد نص كتاب يسمى « مختار من مختصر تحفة الألباب لمجالسة الأحباب » وهو مختصر للتحفة عمله محمد بن عاصم بن عبيد الله بن محمد بن ادريس الأندلسى الرندى .

وفى مقال آخر فى نفس المجموعة عنوانه .

Auszüge aus vierzehn morgenländischen Schriftstellern, betreffend das Kaspishe Meer und angränzende Länder Mélanges, VI, 685-716.

ويلى ذلك فى نفس المجلد :

Die jetzigen Kubätschi, Eine Erläuterung aus Abū Ḥamid el-Andalusīs Nachrichten über diesen Volksstamm (p. 717-740).

أما جيورج ياكوب Georg Jacob فدراساته التى يدور البحث فى أثنائها عن أبى حامد فهى :

—*Der Nordisch - Baltische Handel der Araber im Mittelalter,* Leipzig, 1887.

—*Studien in arabischen Geographen,* Heft I, Berlin 1890; Häfte II, III, IV, Berlin 1892

وانظر أيضاً : A. Seippel, *Rerum Normannicarum Fontes Arabici,* Oslo, 1896-1928.

وبحث سيزار دوبلر المستفيض عن أبى حامد الغرناطي ، وقد سبق أن ذكرنا عنوانه كاملا .

الألمانية مع شىء من علم حركات الوحدات الكونية والبحث عن أسبابها وتعليل مظاهرها ، وهو ما يسمى بالكزموجونية Cosmogony . وقد اتجه المسلمون من زمن مبكر بهذا العلم نحو عجائب الكون ، ووصلت إليهم كتابات اليونان فى هذا الصدد من طاليس الملطى Thales of Miletus (حوالى القرن السادس قبل الميلاد) إلى بطلميوس الأسكندرى أو القلوذى كما يسمى فى الكثير من كتبنا ، وهو تعريب لاسمه الكامل Claudius Ptolemaeus ، ووصلت إليهم كذلك آراء الفرس والهنود فى هذا الباب ، وتناولها مفكر واسع العلم والذكاء كأبى الحسن المسعودى من وجهة النظر الكوزموجرافية و الكوزموجونية معاً ، واجتهد فى وصف المظاهر الكونية وتعليلها بما عرف عنه من النفاذ واصالة التفكير ، وتناول الموضوع من زاويته العلميـة الفلكية الرياضية أبو الريحان البيرونى .

وفى العصر الذهبى لعلم الجغرافية عند المسلمين خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين انصرف الناس عن الكوزموجرافية إلى وصف الأرض نفسها وتحديد علاقتها بالكون فى كلام مقتضب لا يتطرق إلى حديث العجائب ، ولكن العلم الجغرافى كله اتجه خلال القرن السادس وما يليه وجهة عجائبية صرفة ، أى أن هم الناس اتجه إلى البحث عن عجائب الكون والأرض والمخلوقات ووصفها والمبالغة فى ذلك الوصف على اعتبـار أن ذلك إظهار لقدرة الخالق سبحانه وتعالى على خلق المعجزات والعجائب وما لا يحيط به عقل البشر . وقد كتب المسلمون فى ذلك كثيراً جداً ، ومعظم ما كتبوه خرافى بعيد عن التصديق مما كان يلائم عقلية هذه العصور ، ولم يشذ عن هذا الانحدار بعض الشىء إلا قليلون مثل القزوينى فى كتابه « عجائب المخلوقات » والدميرى فى « حياة الحيوان الكبرى » ومن فى طبقتهما .

وعلى الرغم من أن أبا حامد الغرناطى كان رحالة جواب آفاق ، شهد من الأرض المعمورة إذ ذاك قدراً يبلغ النصف أو يشف قليلا ، وكان قديراً

بهذا على أن يكتب وصف رحلته على النحو المفيد الممتع الذى وصف به ما زار من البلاد الأورو-أسيوية ، وعلى الرغم من اطلاعه الواسع فى الجغرافية والفلك ، وكان قديراً لهذا على أن يكتب كتاباً جيداً فى الجغرافية ، إلا أن ظروفه الخاصة واتجاهه الذهنى نحو أحاديث العجائب غلبت على ما ألف ، ثم إنه بطبعه لم يكن بصاحب بحث أو صبر على الكتابة والتدوين ، إنما كان محدثاً بارعاً يُطْرِف سامعيه بعجائب ما رأى وشاهد ، وإذا كان قد كتب فقد فعل ذلك مستجيباً إلى طلب أصحابه ومن اتصل بهم ، فدون — على رغمه — ما أحبوا أن يدونه ، ومن ثم فقد قصر كلامه تقريباً على الناحية العجائبية من وصف الكون ، فكان بهذا من أوائل من اتجهوا بالعلم الجغرافى نحو الكوزموجرافية العجائبية ، فبينما كان معاصره الإدريسى يتجه بالجغرافية وجهة علمية سليمة ويضع أسس الجغرافية كما ينبغى أن تدرس ، اتجه هو بالعلم تلك الوجهة الأسطورية التى لم تبق فيه من الجغرافية إلا اسمها ، والحسنة الوحيدة لهذا الاتجاه أنه قدم للقصاص الشعبيين مادة واسعة من أحاديث الخرافة صبَّت بعد ذلك فى تيار الأدب الشعبى وظهرت فى حكايات ألف ليلة وما ماثلها .

واتجاه أبى حامد هذا الاتجاه أمر مؤسف حقاً ، لأنه مما يؤلم أن تجد رجلا قادراً على عمل شىء ثم يعمل ما هو دونه ، وقد كان الرجل قادراً على أن يضيف إلى ثروة العلم الجغرافى العربى شيئاً كما رأينا فى تلك الصفحات القليلة التى عرضنا مادتها ، وقد رأى أبو حامد أضعاف ما كتب وعمر نحو ثلاثين سنة زيادة على الإدريسى . ولكننا نتعزى فنقول إنه كان ابن عصره ، والناس فى كل زمان ومكان أبناء عصورهم إلا أن يكونوا أفذاذاً كالإدريسى وابن بطوطة وابن خلدون والمقريزى وياقوت الحموى ومن إليهم ممن خرجوا على حكم زمانهم وساروا بشعلة العلم العربى خلال ظلام عصورهم . والتيار الذى جعل الجغرافية فى يد أبى حامد علم عجائب ، هو نفس التيار الذى جعل الكثير من كتب التاريخ مدائح ملوك ودواوين الشعر مجموعات محسنات وتزاويق لفظية ،

وهو الذى مسخ أسلوب النثر سجعاً عقيما وجعل كتب الأدب مجموعات مختارات معظم ما فيها هزيل ، وكتب الفقه مختصرات وشروحاً على مختصرات . من هذه الزاوية نستطيع أن نقدر أبا حامد ونضعه فى مكانه الذى يرضاه له الإنصاف .

يبدأ أبو حامد مقدمته بترتيب العقول درجات « فعقول الملائكة والأنبياء أكبر [من عقول جميع العلماء ، وعقول العلماء أكبر] من عقول [جميع] العوام فى الدنيا ، وعقول العوام أكبر من عقول النساء ، وعقول النساء أكبر من عقول الصبيان ، وبقدر هذا التفاوت يقع الانكار لأكثر الحقائق من أكثر الناس لنقصان العقل ، لأن الذى يعرف الجائز والمستحيل يعلم أن كل مقدور بالاضافة إلى قدرة الله تعالى قليـــل ، فالعاقل إذا سمع [عجباً] جائزاً استحسنه ولم يكذب قائله ولا هَجَّنَه ، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهد قطع بتكذيب وتزييف قائله ، وذلك لقلة بضاعـة عقله وضيق باع فضله . . » (التحفة ، ص ٣٧) وهذا الكلام أشبه بالاعتذار عن غرابة ما سيروى بعدُ فى الكتاب من غرائب ، ثم يضرب مثلا للعجائب التى لا يصدقها إلا من عرف شأنها فيقول : ومن شهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد ، وكذلك حجر [عرة] الماس(١) الذى يعجز عن كسره الحديد ويكسره الرصاص ، ويثقب اليواقيت والفولاذ ولا يقدر على ثقب الرصاص يعلم أن الذى أودعه هذا السر قادر على كل شىء . . » . وأبو حامد هنا ينقل ما سمع من غيره دون أن يتكلف عناء اختبار ما يقول ، ولم يكن هذا الاختبار عليه عسيراً ، وإذا التمسنا له عذراً فى مبالغاته عند الكلام عن حجر المغناطيس فأى عذر له فى القول بأن الرصاص يكسر الماس ، وكان فى استطاعته أن يجرب ذلك بنفسه ؟

ثم يبدأ الباب الأول « فى صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها » فيقول : اعلم وفقك الله أن الدنيا عبارة عما فى ذلك القمر من الهواء والبحار

---

(١) هكذا ورد أيضاً عند القزوينى (عجائب المخلوقات ، ١/٢٣٦) .

والأرض وما عليها وما تحتها وما يحيط بها ، والمعمورة منها فيما يقال مسيرة مائة عام من ناحية الشمال مع ما يقارب ذلك من المشرق والمغرب ، وما سواه من الأرض ليس فيه آدمي لقرب الشمس وميلها على ما سوى الشمال ، وشدة سلطانها على ما سوى الشمال ، فإن الشمال بارد يابس ومغربه بارد رطب ومشرقه حار يابس . . . » وهذا كلام يستغرب من رحالة ساح فى معظم الأرض وقطع المسافة من سجلماسة إلى غرمكان شمالى كييف ، ولكنه هنا ناقل لا منشىء أو ناقد ، وتلك من خصائص عصر الانحدار : النقل دون مناقشة ودون استخدام العقول التى أفاض أبو حامد الكلام عنها فى المقدمة .

ثم يتحدث عن يأجوج ومأجوج ، وينتقل إلى أمم السودان فيتحدث عنهم حديثاً هو خليط بين المعقول وغير المعقول ، ونضرب صفحاً عن غير المعقول ، فهو كثير ولا محل له فى هذا البحث ، ونقتصر على أمثلة من المقبول الذى يمكن أن نخرج منه بشىء : « . . وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صوراً ، سُبْطُ الشعور لهم عقول وفهم ، ويحجون إلى مكة ، وأما فاوة وقُوقُو ومَلِيّ وتكرور وغدامس فقوم لهم بأس وليس فى أرضهم بركة ولا خير ، ولا دين لهم ولا عقول ، وأشرهم قوقو : قصار الاعناق فُطس الأنوف حُمر العيون كأن شعورهم حب الفلفل ، وروائحهم كريهة كالقرون المحرقة ، يرمون بنبل مسمومة بدماء حيات صفراء لا تلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السهم من عظمه ، ولو كان فيلا أو غيره من الأفاعى . . » وقد كان أبو حامد حريا بأن يقول كلاماً أحسن وأدق من هذا ، فقد كانت هذه الأمم كلها معروفه المسلمين ، وقد كتبوا عنها كلاماً أحسن من ذلك بكثير .

ويتحدث بعد ذلك عن جلد جيد من جلود الماعز يؤتى به من بلد السودان ويصف خصائصه وصفاً طيباً ، ثم يتحدث عن حيوان اللمط وجلده الذى تصنع منه الدروع اللمطية ، واللمط نوع من الوعول شبيه بالبقر وإن كان

أقـل منه حجماً ، أبيض الشعر أسود الظفر سريع العدو وشهرته ترجع إلى جلده الذى كانت تصنع منه الدروع اللمطية التى اشتهر بها المرابطون . ومن مؤلفينا من يذهب إلى أن لمطة قبيلة من صنهاجة (١) .

ثم يتكلم عن بعض أمم السودان ، فيثنى على أهل زبلع ، وينتقل إلى جزيرة العرب فيقول كلاماً غريباً لا ندرى كيف استجاز قوله عن جزء من الأرض معروف للمسلمين مثل جزيرة العرب : « عند صنعاء أمة من العرب قد مسخوا كل إنسان منهم نصف إنسان ، له نصف رأس ونصف بدن ويد واحدة ورِجل واحدة يقال لهم وبار ، هم من ولد إرم بن سام أخى عاد وثمود وليس لهم عقول ، يعيشون فى الآجام [و] فى بلاد الشحر على شاطىء بحر الهند والعرب تسميهم النسناس ويصطادونهم ويأكـــلونهم ، وهم يتكلمون العربية [ويتناسلون] ويسمون بأسامى العرب ، ويقولون الأشعـار . . . » ثم يروى لهم شعراً ! .

ويمتدح أبو حامد بلاد الهند والصين امتداحاً طويلا ويقول عن أهلها إنهم أهل « الملك العظيم والعدل الكثير والنعمة الجزيلة والسياسة الحسنة . . . » ويذكر أنهم من أعلم الناس ، ويختم كلامه عن الصين بقوله : « ويحترمون التجار من المسلمين غاية الاحترام ، ولا يؤخذ منهم أعشار [فى بيع أو شراء] ولا مكس ، فياليت ملوك المسلمين اقتدوا بمثل هذه السياسة الحسنة ، فهم كانوا أحق بها ، ولكن ذلك للحكمة الالهية ، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الدنيا سجن للمؤمن ، والسجن موضع الضيق والخوف ، ولا يكون ذلك إلا مع عدم العدل وكثرة الظلم والجور وقلة المال والحصب حتى يتحقق فى حق المؤمن السجنُ فى الدنيا . . » (ص ٥٠) .

---

(١) انظر تعليق فيران الطويل على هذا اللفظ ، ص ٢٤٨ تعليق ١

ويختم الباب — بعد حديث قصير عن الجان — بكلام عن الأرض والجبال والبحار « التى أحاط بها جبل قاف » وهو هنا لا يشير ولو من بعيد إلى كروية الأرض أو نظام الأفلاك ، كأنه رأى أن يهمل كل ما وصل إليه علماء المسلمين قبله مفضلا عليه كلاما خرافياً أخذه من مبالغات القُصَّاص وشطحات الصوفيين ، ولا عجب فهذا الكتاب مُهدى إلى رجل صوفى .

أما الباب الثانى « فى صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان » (ص ٥٥ وما يليها) فمعظمه أحاديث خرافة لا يستوقفنا منها إلا حديثه عن صنم قادس ومجمع البحرين (وهو عنده مضيق جبل طارق) ومنارة اسكندرية ، وهو هنا ينقل ما قاله فى « المعرب » حرفاً بحرف ، ويسترسل فى النقل فيذكر عجائب البنيان فى مصر بما فى ذلك من منارة عين شمس والأهرامات و « مدينة فرعون » وبربا أخميم ، وكل ذلك وارد أيضاً فى « المعرب » ؛ ثم يتحدث عن بعض عجائب البنيان فى الشام : حصن بعلبك ومدينة حمص ومدينة تسمى اللجاة فى حوران ، وينتقل إلى العراق فيذكر « تل عَقْرَقُوف » ويصف إيوان كسرى أو طاق كسرى وصفاً دقيقاً يدل على مشاهدة ، ولا عجب فى ذلك فهو يذكر أنه دخل إلى هذه الناحية من مدينة أبهر سنة ٥٢٤ ونزل عند القاضى أبى السَّرِى بن عطاء بن اسحاق الشيرازى ، وهو يذكر هذا الشيخ بعد قليل باسم أبى اليسر عطاء بن نبهان ، ويقول إنه كان من أصحاب الشيخ الامام أبى إسحاق الشيرازى ، وقد روى له هذا الشيخ ابنُ عطاء من عجائب البنيان فى فارس شيئاً كثيراً .

ثم يتكلم عن أردبيل وبلاد دربندا ، وقد أشرنا إلى كلامه عن هذه النواحى ، ويختم الكلام عن خوارزم وسخسين وما حولها معيداً ما ذكره فى المعرب .

والباب الثالث « فى صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما فى جزائرها من النفط والنار » (ص ٩١ وما يليها) يبدأ بكلام معقول

عن البحار بحسب نظرية أهل العصور الوسطى : « اعلم أن البحر المحيط — الذى أحاط بالدنيا والأرض فى وسط البحر كالكرة فى غدير ماء ، وهو البحر الأسود الذى يعرف ببحر الظلمات — لا تدخله السفن ، وبحر الهند خليج منه ، وبحر الصين خليج منه ، وبحر القلزم (البحر الأحمر) خليج منه ، وبحر الروم خليج منه ، وبحر اللاذقية (الحوض الشرقى من البحر الأبيض) خليج منه ، وبحر فارس خليج منه ، يمتد بعضه إلى البصرة وعبادان وسيراف وكرمان والبحرين [وجزيرة قيس] (هى جزيرة كيس فى الخليج الفارسى) والدَّيْبُل (ميناء صغير كان إلى جنوب بومباى على ساحل الهند) إلى [بلاد الحبشة إلى الزنج وإلى] سرنديب والصُّولْيان (ساحل كروماندل) ، وكل هذه البحار التى ذكرتها وما لم أذكرها إنما أصلها من البحر الأسود الذى يقال له البحر المحيط ، وأما بحر الخزر (بحر قزوين) وبحر خوارزم (بحيرة آرال) وبحر اخلاط (بحيرة وان) وبحر أرميه (البحر الميت) والبحر الذى عنده مدينة النحاس (غير محقق وقد ذهب جودفروا ديمومبين إلى أن المراد به بحيرة تشاد) وغير ذلك من البحار الصغار فهى منقطعة عن البحر الأسود ، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد ، وإنما هى [ماء له] مادةٌ من الأنهار الكبار ، وأكبرها بحر الخزر » ثم يتكلم بعد ذلك عن المحيط الأطلسى (الذى يسميه البحر الأسود) وعلاقته ببحر الروم و « مجمع البحرين الذى بينهما » كلاماً سبق أن ذكره فى المعرب ويسترسل فى ذكر أسماك عجيبة كثيرة سبق أن ذكر بعضها فى « المعرب » أيضاً .

ويتحدث عن جزائر بحر الروم فيذكر سردانية وصقلية ومالطة . وينتقل إلى جزائر بحر الهند والصين ، وهنا يذكر لقاءه مع الشيخ أبى العباس الحجازى الذى ذكرناه ، ويروى عنه خبر جبل الراهون فى جزيرة سرنديب . ويسترسل فى الرواية عنه ، ولكنه لا يروى فى هذه المرة فصولا عن الفلك والمواقيت بل أحاديث خرافة نراها كلها بعد ذلك فى « ألف ليلة » ، مثل الدهن الذى إذا ادَّهن به أحد لم تؤثر فيه السيوف حتى يغتسل « ومن شرب من ذلك

الدهن عشرة دراهم ولا يأكل لبناً ولا ما يتخذ من اللبن لم يضره الحديد البتة » ودهن آخر أعطاه إياه ملك الصين إذا دُهن به جرح زال ألمه والتحم فى وقته قبل أن يخاط فتق مثله ، ويروى أبو العباس هذا أن ملك الصين أهدى الأفضلَ بن أمير الجيوش شيئاً كثيراً من تحف بلاده . ثم يقول أبو حامد أن أبا العباس هذا اتخذ حمامات وخانات ودكاكين وأن له سبعة أولاد من سبعة أنواع من الجوارى : صينية وهندية وحبشية وسرنديبية وصوليانية من جزيرة الصوليان . . . وكان أولاده يتكلمون بالسنةٍ جماعةً ، وكان بعضهم يأنس بى وأعطانى من العود الفائق ومن ورق الصين أنواعاً زرقا وحمرا(١) [كلها] عليها تصاوير [الصين] بِذَهب أحسن من الديباج الرومى » (ص ١٠٧ — ١٠٨) .

وبعد ذلك ينتقل أبو حامد إلى الحديث عن طائر الرخ « الذى يكون فى جزائر بحر الصين » (ص ١٠٩ — ١١٠) ، وقد نقل كلامه الدميرى فى حياة الحيوان الكبرى وقرر انه ينقل عن الجاحظ وأبى حامد ، وكلام هذا الأخير قريب جداً مما نجده فى قصة السندباد فى ألف ليلة .

ويتحدث عن الكركدن ، وهو الصورة الأسطورية التى يرسمها العجائبيون لوحيد القرن أو الخرتيت ، وهى مأخوذة عن كتابات أهل الصين والهند ، واللفظة نفسها أصلها سنسكريتى : خَضْجَدَنْتَا ثم حُرِّفت إلى كَرْكَدَن أو كَرْكَنْد ، ومعناها « الحيوان ذو السن على هيئة الحربة » وتصاوير الكركدن فى الرسوم الصينية القديمة شديدة الشبه بالتفاصيل الغريبة التى يحكيها عنه أبو حامد وغيره من كُتَّابنا ، مما يدل على أنهم لم يكونوا يخترعون وإنما ينقلون ما يروى لهم دون محاولة تحقيقه أو التفكير فى امكانه على الأقل ، فإن القول بأن جناح الرخ ١٠٠٠ باع يحتاج إلى تفكير ، لأن الباع متران ، أى أن جناح هذا الطائر طوله كيلومتران ، وهذا أمر أظن أن أحداً لا يتصوره مهما

(١) انظر الترجمة الفرنسية للتحفة ، ص ٢٦٧ ، تعليق ١

اتسع خيـاله ، وكذلك القول بأن طول الكركدن ١٠٠ ذراع ، والذراع ٥٦ سنتيمتراً على وجه التقريب ، فطول هذا الحيوان ٥٦ متراً . والطريف أن أبا حامد يذكر بعد ذلك حمار الوحش ويصفه وصفاً دقيقاً كما هو فى الحقيقة وقد يكون حمار الوحش عجيبة فى نظر أبى حامد ، ولكنه لا يوضع فى نفس المستوى مع الرخ والكركدن أو الطاووس البحري الذى يصفه (ص ١١١) وصفاً شاعريا : « وقال لى رجل شريف يعرف بالهارونى من ولد هارون الرشيد أنه كان فى بحر الهند فرأى طاووساً قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر وأجمل ألواناً ، فكبّرنا لحسنه ، وجعل يسبح فى البحر وينظر إلى نفسه وينشر أجنحته وينظر إلى ذنبه ساعة ، ثم غاص فى البحر » وقد نقل هذا الخبر الأبشيهى فى المستطرف عن أبى حامد ، وقال إن هذا رواه عن أبى العباس الحجازى ، ولا ذكر لأبى العباس هنا عند هذا الأخير .

ثم يذكر طيراً مصريا فى هيئة العقاب يعيش على سمك النيل ، ويقول إنه يصيح فى الجو « الله فوق الفوق ! بكلام فصيح يسمعه النـاس من بُعد وهو نوع كثير على نيل مصر » (ص ١١٢) والغالب إنه يريد الكروان ، والناس فى مصر يقولون أنه ينشد فى السماء « الملك لك لك ياصاحب الملك » وما نسمعه على الألسنة فى مصر إنما هو بداية الاسطورة التى استقرت فى كتب العجائبيين على هذه الصورة .

وينتقل إلى بحر الخزر ، وهو بحر عَرَفَهُ وركب مياهه ، فيذكر بعض عجائبه ويقف طويلا عند منطقة البترول قرب باكو . وقد تحدث عن هذا البترول المسعودى (مروج الذهب ، ٢/٢١) : « والروس انتهوا إلى ساحل النَّفـاطة من مملكة شروان المعروفة ببَاكُه » ، ولكن أبا حامد يفصل الأمر تفصيلا طيباً : « وفى مقابلة هذه الجزيرة على جانب البحر أرض سوداء كالقِير ينبت فيها الحشيش ، وفيها أنواع من الوحوش ، ويخرج من تلك الأرض السوداء القير والنفط الأبيض والأسود ، وهى قريبة من باكوه من عمل

شروان ، ويظهر فى الليـل فى تلك الأرض والجزيرة نار مثل نار الـكبريت زرقاء ، تشتعل ولا تحرق الحشيش ولا حرارة لها ، وإذا نزل عليها المطر زادت واشتعلت وعلت ، يراها الناس من بعيد ، وليس لها فى النهار أثر . . . » وهو كلام واضح عن البترول والغاز الطبيعى ، لولا ما فيه من القول بأن نار الغـاز الطبيعى لا حرارة فيها وأنها تنطفئ فى النهار ، والحقيقة أنها دائمة الاشتعال ، ولكن لهبها الأزرق لا يرى فى ضوء الشمس .

ثم يصف نهر إتل (الفولجا) ويكرر الكثير مما قاله فى المعرب ويضيف عجائب أخرى مثل السمكة الآدمية ، ووصْفُها عنده شبيه بوصف جِنِّيَّة البحر فى ألف ليلة .

وينتقل إلى الباب الرابع « فى صفـات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام إلى يوم البعث والنشور (ص ١٢٠ وما بعدها) ، وهنا يعيد ذكر كهف لوشه Loja قرب غرناطة الذى وصفه فى المعرب ، ثم يشير إلى عذاب الظالمين فى قبورهم ، ويذكر على سبيـل المثال حكاية واحد من الظـالمين فى بلدة غرناطة بنى لنفسه « قبراً من الرخام ذا قُبَّة جميلة ، فتقطع ذلك الرخام واسودَّ واحترق واسودت القبة من الدخان الذى يخرج من قبره حتى صارت كالأتون ، ولم يدفِن أحدٌ بقربه ميتـاً ، وكنت أذهب مع الناس إلى قبره للاعتبار ، ونأخذ من سواد دخان قبره كما يؤخذ من الأتون السوادَ ، وهذا عذاب ظاهر ، وأمثاله [فى الدنيا] كثيرة » وهو يسمى هذا الظالم قِراح ، وإذا كان ولا بد أن نصدق أبا حامد فلا بد أن ناساً أحرقوا قبر هذا الرجل بعد موته فصار القبر إلى هذه الصورة ، لأن قبور الظالمين لو كان يصيبها هذا حقاً لرأينا من هذا القبر ألوفاً .

ويورد بعد ذلك أمثلة كثيرة من عجائب عذاب الظالمين فى قبورهم منها واحد يدور على عذاب أبى جهل منسوب إلى عبد الله بن عمر ، وينتقل إلى عجائب القبور فى مصر ، وهو باب أكثر مؤلفونا الكلام فيه ، ثم ينتقل إلى

« المغرب الأعلى قريب من القيروان » وهو يريد هنا ما يعرف بافريقية ، وهى تونس فيذكر « قبر محرز المعلم » ، ثم يعود إلى مصر ، ومصر أم العجائب كما يقولون ، فيروى حكاية رجل يسمى عفان وقعت له قصة طريفة مع عبد زنجى له ، والحكاية طويلة ، وقد انتقلت برمتها إلى ألف ليلة . ثم يختم الكتاب « بحكايات عجيبة فى أمر أمير المؤمنين على بن أبى طالب وظهور قبره بعد الثلاثين وخمسمائة فى ناحية بلخ » .

وقد أورد فيرّان بعد ذلك قطعة من « التحفة » وجدها فى مخطوط الجزائر وليس لها وجود فى مخطوطات باريس ، وهى تدور حول وصف القسطنطينية ، ومن الغريب أن أبا حامد يسميها رومية العظمى . وفى نهاية القطعة يتكلم عن باشغرد (يكتبها باشغورد) ويعيد كثيراً من الكلام الذى سبق أن ذكره فى المعرب حرفاً بحرف تقريباً .

وفى هذه القطعة يمر بذكر الأندلس قائلا : ومما فى جزيرة الأندلس أن ابن حازم ذكر فى رسالته التى وضعها فى وصفها وذِكر خصائصها وطبائع أهلها أن أرضها شامية فى طيبها ، تهامية فى اعتدالها واستوائها ، أهوازية فى عظم جباياتها ، عدنية فى منافع سواحلها ، صينية فى معادنها ، هندية فى عطرها وذكائها ، وأهلها عرب فى العزة والانفة وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والنزاهة عن الخضوع ، هنديون فى فرط عنايتهم بالعلوم وحبهم لها ، بغداديون فى ظرافتهم ونظافتهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم ولطافة أذهانهم ودِقّة أفكارهم ، نَبطيون فى استنباطهم المياه ومعاناتهم للغراسة وتركيب الشجر والفلاحة ، صينيون فى اتقان الصناعة العملية وأحكام المهن الصُّوَرِية ، تركيون فى معاناة الحروب ومعالجة آلاتها والنظر فى مهماتها(١) .

---

(١) التحفة ، ص ١٩٩ — ٢٠٠

وظاهر أن ابن حازم المذكور هنا هو ابن حزم ، لأنه هو الذى كتب الرسالة المعروفة فى فضل الأندلس ، ولكن نص الرسالة كما احتفظ به المقرى لا يضم هذه العبارة ، وهذا طبيعى ، لأن هذه العبارة على الحقيقة لأبى عبيد البكرى ، ولكن نصها كما أورده المقرى فى النفح وابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعطار ، وكما قارنه ليفى بروفنسال بأصله فى القطع الباقية عن الأندلس من المسالك والممالك للبكرى (١) لا يصل إلى كماله كما أورده أبو حامد الغرناطى ، ولا يمكن القول بأنه أضاف إليه من عنده ، فأسلوب هذه القطعة أعلى بكثير من أسلوب أبى حامد ، ولا يبقى بعد ذلك إلا أحد فرضين : إما أن مخطوط المسالك والممالك مختصر للكتاب الأصلى بدلالة هذه القطعة الباقية ، وإما أن واحداً من الناس تناول نصه بالتحسين والتزويق ، وعلى هذه الصورة رآه أبو حامد ونقله ناسباً إياه إلى ابن حزم ، ولم يكن الرجل كما رأينا ذا ميل إلى الكتب ومطالعتها أو ذا معرفة بكلام ابن حزم ونص رسالته ، فأورد الكلام كما هو دون تدقيق كبير ، وهذا مثال واضح من طريقته فى النقل عن الأصول وايراد النصوص .

وينتقل بعد ذلك إلى عجائب بلد اسمه حمص فى ناحية كرمان ثم إلى بلاد التبت فيقول إن من أقام فيها ، « اعتراه سرور لا يدرى ما سببه ، ولا يزال مبتسما ضاحكا حتى يخرج منها » .

وبعد أن يمر بعجائب كثيرة فى بلدان شتى يأتى بفصول قصار (ص ٢٠٧ وما يليها) تتضمن أحكاماً موجزة عن البلاد ، وهذه الأحكام أشبه بالحِكَم فالهند « بحرها دُرٌّ وجبلها ياقوت وشجرها عود وورقها عطر» وكرمان « ماؤها وَشل وثمرها دقل (٢) وعودها بَهَل » . . . وطريف منه قوله « والشام عروس بين نساء جلوس ، ومصر هواؤها راكد وحرها متزايد ، تطوِّل الاعمار وتسوِّد الأبشار » .

---

(١) نفح الطيب ، ١/١٢٥ ، الروض المعطار ، ص ٣

(٢) الدقل أردأ أنواع التمر (لسان العرب) .

ثم يقول : « فصل : ونذكر خصائص البلاد العملية ، فيقال حكماء يونان وأطباء جنديسابور وصاغة حران وحاكة اليمن وكُتّاب السواد » ، ثم : « فصل : ونذكر خصائص البلاد فى الأحجار ، فيقال فيروج (فيروز ؟) نيسابور وياقوت سرنديب ولؤلؤ عمان وزبرجد مصر وعقيق اليمن وجزع ظَفار ونجاد[1] بلخ ومرجان افريقية » ثم : « فصل : نذكر خصائص البلاد فى الحيوانات ذوات السموم ، فيقال : أفاعى سجستان وثعابين مصر وعقارب شهرزور وحرارات الأهواز وبراغيث ارمينية وفأر أرْزَن ونمل ميافارقين وذباب ندفافان (يصححها فيران فى الهامش تل فافان) و « فصل : ونذكر خصائص البلاد فى الملابس ، فيقال برود اليمن وقُصُب مصر وديباج الروم وخز السوس وحرير الصين وأكسية فارس وحُلل اصبهان وسقلاطون بغداد وعمائم الأُبلّة ومُسَيَّر الرَّى ومُلَحَّم مرو » وهذه الضروب من النسيج كلها واردة مشروحة فى معجم الملابس العربية لدوزى .

ويستطرد أبو حامد فى هذه الفصول القصار التى تعتبر من أحسن ما فى كتابه ، وكلها نُقول عن ناس يصرح باسمائهم حيناً ويغفلها حيناً آخر ، ويطيل النقل عن الجاحظ دون أن يذكر من أى كتبه يأخذ .

هذا هو كتاب تحفة الألباب ، وهو كما يرى خليط عجيب من المفيد وغير المفيد ، من الواقعى والاسطورى ، مما يدخل فى نطاق العلم وما يدخل فى نطاق علم العوام والقصص الشعبى ، ولكنه فى مجموعه كتاب كوزموجرافية ، أى تصوير لعجائب الكون والأرض بصفة خاصة . وهذه هى الصورة التى أعطاها أبو حامد لعلم الجغرافية ، وهو نفسه لم يدرك أنه يكتب فى هذا العلم ولا ذكر اسمه مرة واحدة ، ولكنه صاغ مادة كان يمكن أن تكون جغرافية فى هذا الأسلوب ، ووضع بذلك نموذجاً سيحتذيه الكثيرون بعده مثل « تلخيص الآثار وعجائب

(١) صحته البجادى أو البيجاذق وهو حجر كريم كان معروفاً فى العصور الوسطى . انظر تعليق فيران ، ص ٢٠٩ هامش ٢

الواحد القهار » للباقوى ، و « نُخْبة الدهر فى عجائب البر والبحر » لمؤلف مجهول و « كتاب جامع الفنون وسلوة المحزون » لمجهول أيضاً ، و « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » لابن الوردى ، و « نزهـة القلوب » لحمد الله المستوفى و « المستطرف من كل فن مستظرف » للابشيهى ، وأحسن هذه الكتب جميعاً هما « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد » لزكريا بن محمد بن محمود القزوينى ثم « حياة الحيوان الكبرى » للدميرى .

وهذه كلها (فيما عدا الثلاثة الأخيرة) كتبت للتسلية لا للعلم ، فكل ما فيها من أدب وتاريخ وجغرافية لم ينظَر فيه إلا لجانب الطرافة والعجب ، والقطع الجغرافية فيها عجائبية الطابع ، وهى تعطينا فكرة عن تصور الناس للجغرافية فى عصور الاضمحلال ، وإذا كان الجغرافيون الأُوَل قد كتبوا فى « صورة الأرض » فان الغالب ابتداءً من أيام أبى حامد ومن سار على طريقته هو « تصور الأرض » ، تصوُّرُها فى هيئة أعاجيب وغرائب ، وهذا التصور ناتج من غلبة الجهل وهبوط الهمم وقلة التطلع ، وهو قائم على الخوف من الشرور الكثيرة التى امتلأت بها الأرض فى تصور أهل عصور أخذ الركود يخيم عليها شيئاً فشيئاً ، ويستثنى من ذلك أولئك الأفذاذ الذين أشرنا إلى بعضهم ، أولئك الذين خرجوا على نطاق عصورهم وحافظوا على شعلة العلم والنور والحضارة والدنيا من حولهم ظلام .

ونضيف إلى هذا الكلام عن أبى حامد حُكما عاما أصدره عليه آخر من درسوه قبلنا وهو سيزار دوبلر ، فقد قال فى آخر مقدمته الضافية للقطعة التى نشرها « من المعرب فى عجائب المغرب » : « وسنختم هذا الكلام بمقارنة ، ونسأل : ما هى الغاية من كتاب أبى حامد ؟ إن المؤلف ليس علاَّمة ولا يقول إنه علامة ، ومن هنا فانه لا يرمى إلى هدف تعليمى ، والأمر الوحيد الذى طلبه هو تسلية جمهوره ، ومن هنا جاء اهتمامه الدائم بتقديم استطراد

بعد آخر ليزهى بحشد مجموعه المتنوع اللطيف من الحكايات والأقاصيص . ولكن ألم يكن هذا الهدف الرئيسى نفسه هو الذى رمى إليه هيرودوت بأساليب مشابهة قبل أبى حامد بخمسة عشر قرناً ؟ [١] » .

« فإن مؤلف هاليكارناسوس [٢] لا يَنْفَكُّ يُدخل فى صلب كتابه حكايات معترضة لا تزال تستثير اهتمام مطالعِه إلى الآن بسبب ما تضمه من الفائدة الواقعية . لقد اشتهر الرجل أكثر بأوصافه الأثنولوجية ، ولكن هناك نقطة من كتابه تنتهى عندها هذه الحكايات المعترضة ، وذلك عند ما يستبد به الحماس الوطنى وهو يقص أخبار حروب اليونان والفرس . وهذه الفقرات التى تدور حول تلك الحروب وما تضمنه كتابه من اشارات اثنوجرافية تفيض بالحقائق ، هذان العنصران هما الذان جعلا الناس يلقبونه بعد موته بأبى التاريخ . ولكن هيرودوت رغم كل الحقائق الكبيرة التى يعرضها لم يكن هدفه التعليم أو إثارة الحماس ، إنما كان هدفه الأخير هو امتاع جمهوره فترة من الزمن . وهيرودوت لم يكن إلا القصاص الشرقى فى ملابس اغريقيه ، إذ أنه فى عصره كما كان الحال فى أيام أبى حامد بلغ هذا التصوير الساذج لروحية الشعب درجة أدبية رفيعة المستوى » .

« ودون أن نحاول — بصورة عامة — أن نقارن هيرودوت بصاحبه المسلم الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، نقول إنه ليس من العسير أن نلاحظ بين الاثنين وجوهاً ظاهرة من الشبه : كلاهما ضمَّن كتاباته فقرات ذات قيمة تقريرية كبيرة لا تنكر ، وكلاهما لجـأ إلى الاستطرادات كوسيلة أسلوبية ، وكلاهما يستحوذ على اهتمام جمهوره بمهارة القصاص الشرقى المعروفة فى كل العصور . وهناك أكثر من ذلك ، فإن كلام هيرودوت عن صور الحكم (٣/ ٨٠ وما يليها)

---

(١) Dubler, *Abū Ḥāmid*, p. 140.

(٢) المراد هنا هيرودوت .

— الذى ينتهى بمناقشة حامية حقيقية — مشهور بما ينطوى عليه من روح هيلينى خالص ، ولكنه مشهور أيضاً بما فيه من تشويق بسبب تلك الصورة الأدبية الجديدة ذات الطعم الشرقى التى يتضمنها . وكان هيرودوت أول من استعمل هذا الأسلوب فى العالم القديم ، ثم أعقبه فى ذلك مقلدون كثيرون من أمثال توكيديد وبُولِيبْيوس وتاكيتوس وغيرهم من المؤرخين اللاتين ، وهذه الطريقة نفسها يستخدمها أبو حامد عندما يروى محادثته مع ملك المجر ، ولن نناقش الآن ما إذا كانت هذه المحادثة حقيقية أم لم تكن ، ولكننا سننظر إليها كما هى : مناقشات مع ملوك فى موضوع الدين ، وهذه المناقشات كثيرة فى الأدب الشرقى فى العصور الوسطى ، وخاصة فى مجال التحدث بفضائل عقيدة المؤلف . وإذا كانت مسألة صورة الحكومة أو نظام الحكم مهمة بالنسبة لهيرودوت فقد كان لمسائل الدين نفس الأهمية فى العصور الوسطى ، وأبو حامد — وهو رجل عارف باهتمامات عصره — يلجأ إلى نفس الطريقة الأسلوبية ، وهى طريقة الحديث مع ملك فى الموضوع الذى يهم قراءه » .

« ولكن هيرودوت لم يستطع أن يتخطى عصره ونطاق ثقافته ، وكتابُه الرئيسى لا يستطيع ولا يصل إلى تحقيق ما أراد منه . ولقد تمسك اليونان القدماء بحقهم فى كتابه ، وأصبح هذا الكتاب الملئ بالاستطرادات — والذى لم يكن يرمي من ورائه إلا لتسلية سامعيه — جزءً من الثرات القومى الهيلينى . أما أبو حامد ، وهو رجل دقيق الملاحظة ، فقد فهم عقلية جمهوره على صورة أحسن مما وفق إليه هيرودوت ، وأصبحت كتاباته فى نطاق الأدب العربى طليعة لغيرها ، وقدمت للناس شيئاً من تفاصيل حكايات ألف ليلة ، وهذه الحكايات كانت خـلال العصور الوسطى المساهَمة الأساسية التى قدمها الفكر الإسلامى للأدب العالمى (١) » .

---

(١) Dubler, *Abū Ḥāmid*, 139-141

وقد أفرد اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى لأبى حامد فقرات طويلة من كتابه الجامع « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » استصفى فيها كل ما كتب عنه منذ أيام دِرْبلو d'Herbelot ، ولكنه لم يقرأ دراسة دوبلر ، لأنها ظهرت بعد وفاته بسنتين ، ولهذا نجده يقول أن مادة أبى حامد عما زار من البلاد الأورو-أسيوية تنتظر بحثاً خاصاً .

وختم كرتشكوفسكى كلامه عن أبى حامد بعبارة غاية فى الأهمية نَسوقُها فيما يلى كما وردت فى الترجمة العربية البديعة التى قام بها الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم (١) :

« ومن المستحيل تجاهل الغرناطى فى تاريخ الأدب الجغرافى ، فهو قد اكتسب شهرة عريضة لدى جمهرة القرّاء ، لأن المنهج الذى ابتدعه فى الجمع بين معطيات واقعية دقيقة وضروب من العجائب مختلفة فى وحدة كوزموغرافية قد راق كثيراً للأجيال التالية . وقد اتسعت قراءة مصنفه واستنساخه بصورة ملحوظة ، كما حفظ لنا شذرات كبيرة منه كوزموغرافىّ القرن الثالث عشر القزوينىّ واستعمله كل من ابن الوردى وابن إياس فى بداية القرن السادس عشر ، ولم يقف عدد من نقلوا عنه عند حد الجغرافيين وحدهم بل تعداه إلى غيرهم ، فرجع إليه عالم الحيوان الأديب الدميرى (القرن الخامس عشر) وصاحب المجموعة الأدبية الذائعة الصيت الأبشيهى فى القرن الخامس عشر . وقد خمن أبو حامد تخميناً صحيحاً حاجة الأجيال القادمة إلى هذا الضرب من المؤلفات ، فمنذ ذلك الحين أصبح نمط الكوزموغرافيا بما يلازمه من عنصر الغرائب محبباً إلى الطبقات الشعبية بشكل خاص ، وليس فى مقدورنا بطبيعة الحال أن نعتبر هذا النمط خطوة تقدمية فى ميدان العلم ، اللهم إلا إذا استثنينا نقاطاً معينة فيه » .

(١) اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ترجمه من اللغة الروسية إلى العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٩٤ — ٢٩٧ ، ومن أسف أن هذا الكتاب القيم فى ترجمته العربية الرفيعة لم يصل إلى إلا أثناء الكتابة عن أبى حامد الغرناطى .

كتاب « الجغرافية » المنسوب إلى محمد بن أبى بكر الزهرى

وكتابات أبى حامد تؤدى بنا إلى الكلام على كتاب فى « الجغرافية » شبيه بها فيما تورد من حديث العجائب ، بل هو يغرق فيها إلى درجة تصل بنا إلى القصص الأسطورى الموغل فى الغرابة الذى نجده فى ألف ليلة ، وينفرد هذا الكتاب عن غيره من كتب الجغرافية بميزات تجعل له مكاناً فريداً فى ذلك البحث الذى نتولاه ، وهو كتاب « الجغرافية » المنسوب إلى محمد بن أبى بكر الزهرى .

ولا نملك أى معلومات ذات قيمة عن الزهرى هذا . بل إن اسمه غير وارد فى أى من مخطوطاته الكثيرة ، ولهذا ظل الكتاب معروفـاً إلى حين قريب باسم « مخطوط المريّه المجهول المؤلف El Anónimo de Almería » ثم استطعنـا بعد ذلك نسبته إلى الزهرى عن طريق بعض النقول التى أوردها المقرى عنه فى نفح الطيب ، ولم نجد لهذا المؤلف ذكراً فى كتب التراجم والتاريخ التى بين أيدينا ، وكل ما نعلم هو أنه كان حيًّا قبيل سنة ٥٤٥/ ١١٥٠ — ١١٥١ وهى السنة التى هُدمت فيها منـارة قادس المعروفة فى كتبنا باسم صنم قادس ، فإن محمد بن أبى بكر الزهرى يقول إنه رآها قبل هدمها ، ثم حدثه بعض معارفه بخبر هذا الهدم ووصَفه له ، ومعنى هذا أنه من أهل النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، وأنه كان معاصراً للادريسى وأبى حامد الغرناطى وابن بشكوال ، ولا نعرف عنه غير ذلك . وقد تناول النُسَّاخ مخطوطاته بالزيادة فى مواضع كثيرة ، فأضافوا عبـارة « أعادها الله للاسلام » عند ذكر بلاد سقطت فى القرن السابع الهجرى ، وأضافوا كذلك ملاحظات ترجع إلى عصور متأخرة ، وهذا هو الذى جعل ميكيلى أمارى يظن أن الكتاب ألف فى القرن الثامن أو التاسع الهجريين .

والمشاكل المتعلقة بهذا الكتاب ومؤلفه كثيرة ، ولم نستطع رغم البحث الطويل الوصول إلى حلول مقبولة للكثير منها . وأولى هذه المشاكل هى الاختلاف الكبير بين نصوص ما لدينا من مخطوطاته ، ففى بعضها فقرات لا توجد فى البعض الآخر ، وقد يختلف السياق بينها كذلك ، أما الاختلاف فى رسم الاعلام الجغرافية وغير الجغرافية فلا يكاد يسلم منه إلا عدد قليل جداً منها .

وثانية هذه المشاكل هى طبيعة الكتاب نفسه كما يشرحها مؤلفه فى فاتحته ، فهو يقول : « قال مؤلف هذه الصفوة : أما بعد حمد الله تعالى ، فقد نسخت هذه الجعرافية[1] من جعرافية نسخت عن جعرافية القرازى (فى نسخ أخرى القمارى والفزارى) التى نسخت من جعرافية أمير المؤمنين عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، التى اجتمع على عملها سبعون رجلا من فلاسفة العراق ، وضعوا هذه الجعرافية فى صفة الأرض (نسخ أخرى : فى صفة صورة الأرض) . . . » ، ومعنى هذا :

١ — أن المؤلَّف الذي بين أيدينا « صفوة » أى مختصر .

٢ — أن المؤلِّف نسخ هذا المختصر الجغرافى من كتاب جغرافى نُسخ بدوره عن مؤلف آخر لرجل اسمه القرازى أو الفزارى أو القمارى .

٣ — وأن هذا الأخير نسخ جغرافيته عن جغرافية وضعها للمؤمون سبعون عالماً من فلاسفة العراق .

وإذن فأصل هذه الجغرافية يرجع آخر الأمر — على قول المؤلف — إلى جغرافية عملها للمأمون نفر من العلماء كما يزعم ، ولسنا نجد فى أى مرجع من مراجعنا إشارة إلى أن شيئاً مثل هذا صُنع للمأمون ، لأن الذى صنع هو الزِّيج الممتحن ، والزيج ليس جغرافية وإنما هو جدول رياضى يبنى عليه الحساب

(١) هكذا ورد رسم هذا اللفظ بالعين المهملة فى كل مخطوطاته ، وسنعلق على ذلك فيما بعد .

الفلكى والرياضى لأطوال المواقع وعروضها[١]، وحسابُ ما يقابل كل درجة من درجات دائرة الفلك بالأميال ، والزيج المتحن هو الجدول المُخْتَبَر أو المحقَّق الذى أمر الخليفة المأمون (١٩٨ — ٢١٨/٨١٣ — ٨٣٣) بعمله ليتحقق من صحة وقوع كل بلد من البلاد على العرض والطول الواردين فى الكتب ، ولكى يضبط مقدار ما يقابل كل درجة من المساحة الأرضية بالأميال ، وقد وصف لنا علىّ بن يونس المصرى الطريقة التى اتبعها الفلكيون فى هذا العمل بتدقيق كبير ، فى حين أن ابن خلكان عندما تعرض للزيج الممتحن فى ترجمة محمد بن موسى ابن شاكر الرياضى وقع فى أخطاء جسيمة بيَّنها كارلو نالّلينو بتفصيل كبير فى كتابه عن علم الفلك عند العرب[٢]. وإذا نحن تأملنا طريقة عمل هذا الزيج كما وصفها على بن يونس والنتيجة التى أدى إليها تبينا أن الزيج الممتحن كان فى الحقيقة جدولا بالأطوال والعروض وما يقابل كلا منها من بروج الفلك وما يقع على كل منها من البلاد وتقدير المسافات بين هذه البلاد بعضها ببعض اعتماداً على الأرصاد الفلكية وما يقابل قياساتها من مسافات على الأرض .

فإذا نحن تأملنا كتابا مثل « صورة الأرض من المدن والجبال والبحار والجزائر والأنهار الذى استخرجه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى من كتاب

---

(١) جاء فى كتاب « علم الفلك ، تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى تأليف كارلو نالّلينو (طبع بالعربية فى روما سنة ١٩١١ وأعادت نشره مكتبة المثنى فى بغداد سنة ١٩٦٣ ، ص ٤٢) : « ولفظ زيج أصله من اللغة البهلوية التى كان الفرس يستخدمونها فى زمن الملوك الساسانيين ، وفى هذه اللغة « زيك » معنـــاه السدى الذى ينسج فيه لحمة النسيج ، ثم اطلقت الفرس هذا الاسم على الجداول العددية لمشابهة خطوطها الرأسية بخيوط السدى — فهذه الكتب تشتمل على جميع الجداول الرياضية التى يبنى عليها كل حساب فلكى ، مع إضافة قوانين عملها واستعمالها مجردة فى الأغلب عن البراهين الهندسية — ومنها الزيج الصابى لمحمد بن جابر بن سنان البتانى المطبوع برومة فى ثلاثة أجزاء وكتب أخرى عديدة .

(٢) أورد كارلو نالّلينو فى كتابه المذكور فى التعليق السابق أوفى نصين باقيين لدينا عن الطريقة التى اتبعها الفلكيون الذين عهد إليهم المأمون فى عمل ذلك القيـاس الدقيق ، أولهما وارد فى كتاب الزيج الحاكمى الكبير لابن يونس المصرى المتوفى سنة ٣٩٩ / ١٠٠٩ (نسخة خطية فى مكتبة لايدن رقم ١٠٥٧ من فهرست مخطوطات هذه المكتبة ، جـ ٣ ص ٨٨) والثانى وارد فى وفيات الأعيان لابن خلكان (ترجمة رقم ٧١٨ من طبعة جوتنجن) .

جغرافيا الذى ألفه بطلميوس القلوذى[١] » تبينا أنه جدول من هذا الطراز يبدو للناظر غير الخبير بمؤلفات العرب فى علوم الأوائل أو ترجماتهم لها أنه زيج لا جغرافية ؛ وفى مراجعنا خلط كثير بين مفهومى الزيج والجغرافية ، ومثال ذلك ما نجده فى القطعة الباقية لنا من زيج الفزارى كما أوردها المسعودى فى مروج الذهب ، قال : « .. فرأينا أن نختم هذا الباب بجوامع من مساحة مسافات الممالك وما بينها من القُرب والبعد على حسب ما رواه الفزارى صاحب كتاب الزيج والقصيدة فى هيأت[٢] النجوم والفلك وبالله القوة : زعم الفزارى أن عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ٣٧٠٠ فرسخ ومن باب الأبواب إلى جدة ٦٠٠ فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ٣٠٠ فرسخ ، ومن مكة إلى جدة ٣٢ ميلا . عمل الصين فى المشرق ٣١٠٠٠ فرسخ فى ١١٠٠٠ فرسخ . عمل الهند فى المشرق ١١٠٠٠ فرسخ فى ٧٠٠٠ فرسخ . عمل تِبتْ ٥٠٠ فرسخ فى ٢٣٠ فرسخاً[٣] ... الخ » فهذه تحديدات جغرافية لا جداول فلكية ، وإذا كانت بقية زيج الفزارى[٤] على هذه الصورة ، فهو

---

(١) نشر هذا الكتاب هانز فون مزيك فى لايبسك سنة ١٩٢٦ وأعيد طبعه سنة ١٩٦٢ بطريقة الأوفسيت فى مطبعة الرابطة فى بغداد سنة ١٩٦٢ ، ومن حسن الحظ أن الذين أعادوا الطبع نشروا المقدمة الألمانية كما هى ، فنص الكتاب لا يفهم بدونها ، ويتضح من قراءة هذه المقدمة أسباب الأخطاء التى وقعت فى هذا الكتاب اثناء عمليات النسخ المتوالية ، فإن درجات الطول والعرض واردة فيه بالحروف لا بالأرقام ، ولكل حرف قيمته العددية ، فيكفى أن يصحف الناسخ حرف الحاء إلى حرف الجيم أو حرف اللام إلى حرف الكاف حتى تختلف القيمة العددية .

(٢) كذا فى الأصل كما نشره باربييه دى مينار فى باريس سنة ١٩١٤ ج ٤ ص ٣٧ وما يليها وربما كانت صحته هيأة أو هيئات النجوم .

(٣) مروج الذهب للمسعودى ، بتحقيق باربييه دى مينار ، ج ٤ ص ٣٧ وما يليها .

(٤) هناك خلاف فى حقيقة اسمه : ابراهيم بن حبيب أو ابراهيم بن محمد ، وذهب القفطى فى أخبار الحكماء إلى أنهما رجلان ، وأثبت كارلو ناللينو أنهما رجل واحد وقع التصحيف فى اسمه (علم الفلك ، ص ١٥٦ وما يليها) والغالب أن الفزارى عاش أيام المنصور ، ولكن الفقرة التى نقلها المسعودى عنه تشير إلى أشياء وقعت فى أيام هاروت الرشيد وما بعده بقليل ، كإشارته إلى « عمل إدريس الفاطمى » وقد بدأ حكم الأدارسة فى المغرب الأقصى سنة ٧٨٩/١٧٢ ، فيحتمل أن يكون المسعودى قد اكمل النص من مراجع أخرى .

فى الحقيقة جغرافية لا زيج ، والحق أن الخط الفاصل بين الزيجات (وهى التقاويم الفلكية) وكتب الجغرافية الأولى التى اتبعت مناهج الفرس واليونان (وهى تقاويم البلدان) لم يتضح إلا للقلائل من أهل العلم فى عصورنا الماضية ، وفى هذا يقول ج. هـ. كرامرز فى مادة «جغرافية» فى ملحق الطبعة الأولى من دائرة المعارف الاسلامية (ص ٦٨) : «وأخيراً ، فإن مصطلح الزيج الذى كان يطلق على الجداول الفلكية والجداول الجغرافية التى تتضمن الأطوال والعروض ، يمكن أن يعتبر أثراً من آثار ذلك العلم الفارسى الايرانى (فى تاريخ العلم عند العرب[١]) » . ومن رأى كرامرز أن كتاب صورة الأرض للخوارزمى زيج على الحقيقة ، ومعظم أجزائه يبدو فى صورة جدول أو زيج ، لأن الخوارزمى كان فلكياً ، وكتابه ليس ترجمة حرفية لكتاب بطلميوس المسمى Γεωγραφικὴ ὑφήγησις (المرشد إلى صورة الأرض) وإنما تضمين للمادة البطلمية فى صورة جداول تتخللها معلومات جغرافية عن البلاد الإسلامية .

وهذا الخلط بين مفهوم الزيج والجغرافية ناشئ عن ارتباط موضوعَىْ الفلك والجغرافية عند المسلمين فى أوائل اشتغالهم بالعلم الجغرافى ، وهو ناتج أيضاً عن أخذ الكثيرين منهم بآراء الهنود والفرس فى علم الفلك[٢] وعن الخلط بين موضوعَىْ كتابَىْ بطلميوس فى الفلك (المجسطى)[٣] وفى الجغرافيـة (أشرنا إليه مراراً) .

---

(١) يشير كرامرز هنا إلى القطعة الباقية لنا من زيج الفزارى التى ذكرناها آنفا .

(٢) انظر عن ذلك كتاب نفيس أحمد ، جهود المسلمين فى الجغرافية (ترجمة فتحى عثمان) الفصل الرابع ، ص ١٤٤ وما بعدها .

(٣) المجسطى اسم ابتكره علماء العرب لكتاب بطلميوس الرئيسى فى الفلك ، وقد شكله حاجى خليفة فى كشف الظنون المجسطى ، وقال انه لفظ يونانى معناه الترتيب «أصله ماجستوس ، لفظ يونانى مذكر ومؤنثه ماجستى» ثم قال : «وأما المجسطى فمعناه «الأعظم» فى لغتهم . هكذا قرأته فى كتاب أمروز كالبينو (يريد Ambrsoius Calpinus) أما البيرونى فيشير إليه باسم سينطاسيس ، ويفسر هذا بأنه «الفكر فى ترتيب المقدمات» ، والبيرونى هنـا أدق ، لأن اسم الكتاب الأصلى μεγιαλη σύνταξις μαθηματική ميجالى سونتاكسيس ماثيماتيكى (التحليـل الرياضى الكبير) ولم يرد =

من هنا يغلب على ظننا أن جغرافية المأمون التى يشير إليها الزهرى فى فاتحة كتابه يقصد بها « الزيج الممتحن » الذى عُمل للمأمون ، إذ ظنه صاحب هذه « الصفوة » (الموجز) كتابَ جغرافية . أما قوله أنه نسخ هذه الجغرافية من جغرافية نسخت من جغرافية القزارى (أو القرازى أو القمارى) التى نسخت من جغرافية أمير المؤمنين المأمون ، ففيه خلط كثير ، إذ أننـــا لا نسمع عن جغرافى أو فلكى يسمى القرازى أو القمارى بعد المأمون أو فى أيامه ، فلم يبق إلا الفزارى الذى ذكرناه ، وقد عاش قبل عصر المأمون فلا يتأتى أن ينقل عن شىء صنع له .

ولكننا سنرى أن النص الذى بين أيدينا لا يمكن أن يكون منقولا عن زيج أو كتاب من كتب الجغرافية الأولى التى كان العرب يؤلفونها فى عصر المأمون أو قبله ، بل هو لا يمكن أن يكون منقولا عن كتاب واحد وضع فى زمان معين ، وإنما هو أشتات متفرقة بعضها متقدم وبعضها متأخر ، بعضها علم وبعضها حديث خرافة ، بعضها طريف وبعضها لا قيمة له ، وربما يكون السبب فى هذا التصنيف الهجين أن هذا النص شرح لخريطة جغرافية كما هو الحال فى سلسلة كتب أطلس الاسلام ، أو أن هذا النص قام أساساً على المعلومات الجغرافية والفلكية الموجزة التى توجد فى المؤلفات الجغرافية العربية المترجمة الأولى ، ثم أضيفت إليه معلومات وتفصيلات أخرى من أصول وطبائع شتى .

= الكتاب فى أى نسخة من نسخه اليونانية باسم مجستى μεγιστη وذهب كارلو نالينو إلى أن العرب نحتوا اسم المجسطى من الاسم الأصلى للكتاب (علم الفلك عند العرب ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣) والمهم لدينا أن ذلك الاسم الذى ابتكره العرب لازم الكتاب عندما ترجم إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية فعرف باسم Almageste . وهذا الكتاب يتألف من ثلاث عشرة مقالة معظم موضوعاتها داخل فى نطاق المفهوم الإغريقى للجغرافية مثل : البرهان على كروية السماء والأرض ؛ وثبوت الأرض فى مركز العالم ؛ وميل فلك البروج ، واختلاف عروض البلدان ، وما إلى ذلك (راجع التفصيل فى كتاب الفلك عند العرب ، ص ٢٢١ وما يليها) ومن هنا جاء الارتباط الوثيق بين الفلك والجغرافية عند معظم الجغرافيين فى العصور الوسطى .

أما لفظ « نَسَخَ » الذى يستعمله صاحب المخطوط فلا يمكن أن ينصب إلا على هذه الخريطة ، لأن قِطعاً منه من كلام الزهرى نفسه ، وقطعاً أخرى ترجع إلى فترات قريبة من عصره ، فلا يمكن لهذا أن يكون منسوخاً بالتواتر مرات كثيرة حتى يرجع إلى عصر المأمون أو قبله . وسنرى من دراستنا لطبيعة الكتاب والغرض الذى رمى إليه مؤلفه أن الخريطة كانت الجزء الأساسي فيه ، ولهذا فقد كان لابد لهذا المؤلف من أن يجمع مادة عن كل ناحية وردت فيها ، ويضيف إلى ذلك ما كان لابد منه من مادة عجائبية تشوق القراء وتكون من أسباب رواج كتابه وتداوله بين الناس .

وربما استطعنا أن نقول إن هذه الاضافات من عمل ناس آخرين غير المؤلف الأول : أضاف كل منهم إلى مادة الكتاب ما أراد حتى وصل إلى الصورة الهجينة التى نجده عليها ، وقد ترامى إلى نفسى الشك فى وقت من الاوقات فى أن يكون اسم المؤلف مُلَفَّقا ، لأن له طابع الأسماء المصطنعة التى توضع على بعض الكتب لمجرد نسبتها إلى شخص خالص العروبة ، يوحى جرس اسمه بأنه من العلماء الأجلاء ، وهذا مجرد ظن على أى حال .

والعبارة التى تأتى بعد ذلك فى خطبة الكتاب عظيمة الأهمية ، قال بعد ذكر الجغرافية التى وضعها « سبعون من فلاسفة العراق » للمأمون : « وضعوا هذه الجغرافية على صفة الأرض (فى نسخ أخرى : على صفة صورة الأرض) ، فإن قال قائل : هى على غير الحقيقة ، فالجواب على ذلك أن الأرض كُرِّيَّة والجغرافية بسيطة ، ولكن وضعوها كما وَضعوا الاسطرلاب وهيئات الكسوف ، وكذلك بسطوا الجغرافية ليعلمَ الناظرُ بذلك أجزاءَها وحدودَها وأقاليمها وجميعَ بحارها وأنهارَها وجميعَ بلادها ومعمورَها وقفارَها وحيث تقع كل مدينة من مدائِنها فى مشرقِها ومغربِها ، وفى جميع أجزائها وأصقاعها ، وينظرَ الناظرُ مكان أعاجيبها ، وما فى كل جزء منها من الأعاجيب المشهورة فيها والمبانى الموصوفة بالقلام (كذا فى الأصل ، وربما كانت صحتها بالكلام أو بالقدم) فى أقطارها ،

إذ اشتملت هذه الجغرافية على جميع أقطار الأرض وما فيها من الخلائق على صفاتها وصورتها وألوانها وأخلاقها وما يأكلون وما يشربون فى جميع بلادهم من الحبوب والفواكه ، واختلاف أرزاقها ، وما فى كل صقع منها مما ليس فى غيره من جميع الأرزاق ، وما يجلب لكل صقع منها من التحف والطرف والطيب والعطر والأمتاع والسلع مما فى البر والبحر ، وما فى جميع أقطار الأرض من الحيوان المذكور المشهور بالخواص والأعاجيب والسموم القاتلات والمانع لذلك ، وما فى برها وبحرها على ما وصفه الحكماء المتقدمون والفلاسفة الماضون ، مع ما ذكرتُ فى هذه الجغرافية من مساحة الأرض وطولها وعرضها ، وما قالت الفلاسفة فى تكسيرها وعَدِّ فراسخها وأميالها ، وما فى كل جزء من ذلك ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، وهو المعين والموفق للصواب ، لا رب غيره ولا معبود سواه » .

وقبل أن نناقش هذه العبارة التى تتضمن منهج الكتاب وغايته نلاحظ ما يلى : ان المؤلف يستعمل لفظ جغرافية فى معنى صورة الأرض أى خريطة الدنيا كمانقول اليوم ، ويذهب الباحث الايطالى جريفينى — فى دراسة سنعرض لها بعد قليل — إلى أن هذا الاستعمال خاص بأهل الغرب الإسلامي دون المشارقة ، فان هؤلاء يقولون « جغرافيا » دون اداة التعريف ، وهم يعنون بذلك كتاب بطلميوس ، ومثال ذلك ما يقوله الخوارزمى من أنه استخرج كتاب صورة الأرض من « كتاب جغرافيا الذى ألَّفه بطلميوس القلوذى » ، فلفظ جغرافيا هنا هو عنوان كتاب بطلميوس ، كما يقال كتاب المجسطى ، ومن أمثلة استعمال اللفظ على هذه الصورة فى المشرق قول المسعودى : «وقد ذكر الفيلسوف فى الكتاب المعروف بجغرافيا صفة الدنيا ومدنها وجبالها . . . » و « وذكر فى جغرافيا أن ابتداء بحر مصر والروم من بحر الأصنام ، أصنام النحاس . . . » و « وهذه البحار كلها مصورة فى كتاب جغرافيا بأنواع من الأصباغ مختلفة المقادير والصور . . (١) » ،

(١) هذه الأمثلة واردة فى مروج الذهب ، طبعة أوروبا ، ج ١ ص ١٨٣ — ١٨٥ ، ونجد أمثلة مشابهة فى كتاب التنبيه والاشراف للمسعودى أيضاً ، ص ١٣ و ١٢٧ و ١٢٩

ثم تطور استعمال اللفظ بعد ذلك ، فنقرأ فى رسائل اخوان الصفاء : « الرسالة الرابعة فى جغرافيا ، يعنى صورة الأرض والأقاليم ، من رسائل اخوان الصفاء صان الله اقدارهم (١) » أى أنه أصبح يدل على وصف صورة الأرض ، ولكنه ظل يُسْتَعْمَل دون أداة التعريف . وعند الإدريسى — وهو معاصر للزهرى — نجد اللفظ مستعملا مع أداة التعريف ، فهو يقول : « الكلام على صورة الأرض المسماة بالجغرافيا كما سماها بطلميوس ووصفها به » ، أى أن لفظ « جغرافيا » عنده يدل على صورة الأرض ، أى خريطة الدنيا ، ووصفها . أما ياقوت فيقول : « ... فأما مَن قصد ذكر العمران فجماعة وافرة منهم من القدماء والفلاسفة والحكماء أفلاطن وفيثاغوس وبطلميوس وغيرهم كثير من هذه الطبقة ، وسموا كتبهم فى ذلك جغرافيا ، سمعت من يقوله بالغين المعجمة والمهملة ، ومعناه صورة الأرض ، وقد وقفتُ لهم منها على تصانيف عدة جُهلت أكثر الأماكن التى ذُكرت فيها وأُبهم علينا أمرها لتطاول الزمان فلا تُعرف (٢) » ، وغريب أن نجد ياقوت بعد ذلك لا يذكر كتاب جغرافيا لبطلميوس ، بل يذكر المجسطى فحسب ، وكلامه عن الرجل نفسه مضطرب ، وهو ينسب إليه أعمالا تنسب إلى اراتسثنيز (٣) . ولا ذكر للفظ جغرافيا فى كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى (٤) . أما ابن خلدون فيستعمل اللفظ مرة كاسم لكتاب بطلميوس ومرة أخرى بمعنى خريطة الدنيا .

---

(١) رسائل اخوان الصفاء (الفاهرة ١٨٨١) ، ص ٩٢

(٢) ياقوت ، معجم البلدان (طبعة الخانجى) : ١/٧

(٣) نفس المصدر : ١/١٦ — ١٧ ، وانظر الترجمة الانجليزية للفصول التمهيدية من معجم البلدان التى قام بها وديع جويدة ، وقد أشرنا إليها فى تعليقاتنا ، ص ٢١ — ٢٦ والحواشى .

(٤) محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى الكاتب : مفاتيح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢ ، راجع الفصل الثانى من الباب السادس (ص ١٢٥ — ١٣٠) : « فى ذكر الافلاك وتركيبها وأحوال الكواكب فيها وهيئة الأرض وأقاليمها » .

ومعظم مؤلفينا يكتبون جغرافيا بفتح الجيم أو كسرها وأقلهم بضمها ، وهذه الصور كلها مقبولة لأن لفظ γεωγραφια اليونانى يمكن أن ينطق بضم الجيم وفتحها وكسرها أيضاً ، وقال كارلو نالليتو فى كتاب ==

واستعمال لفظ جغرافيا للدلالة على خريطة الدنيا (صورة الأرض) أو الخريطة مع وصفها يعيننا على تفسير السطور الأولى من خطبة كتاب الزهرى وتعرُّف طبيعته ، فهو يقول إنه نسخ جغرافيته عن جغرافية نسخت عن جغرافية الفزارى التى نسخت بدورها من جغرافية (كذا) المأمون . فالكلام هنا يدور حول صورة الأرض — أى خريطتها — التى رسمها ، وقد حرص على إيراد إسنادها لكى يعلم القارئ أنها منقولة بالتواتر عن أصول موثوق فيها ، وقد خانه التوفيق فى ذلك رغم حسن نيته ، فإن علماء المأمون لم يرسموا له خريطة ، والفزارى عاش قبل المأمون ، أى أن الخريطة التى وصلت مع إسنادها إلى الزهرى كانت خريطة وضعها أحدهم ونسبها إلى علماء المأمون ، ثم نقلت عنها خريطة نسبت إلى الفزارى ، وعن هذه نسخت أخرى ، وهذه الأخيرة هى التى نسخها الزهرى . ومن أسف أن خريطة الزهرى ضاعت ، ولكن العبارة تدل على أنه كانت هنـاك خرائط للدنيا كثيرة متداولة لا تعرف نسبتها ، وهذه حقيقة لها أهميتها فى تاريخ علم الخرائط عند المسلمين .

ثم يقول الزهرى بعد ذلك : « فإن قال قائل : هى — أى صورة الأرض — على غير الحقيقة ، فالجواب على ذلك أن الأرض كرية والجغرافية بسيطة ،

= الفلك عند العرب (ص ٢٧٨ تعليق ١) : « زعمت علماء العرب فى العراق والشام ومصر أثناء القرون الوسطى أن جغرافيا اسم من الأعلام الأعجمية ، فما عرفوه أبداً بأداة التعريف ولا قيدوه فى كتب اللغة . راجع الشواهد على ذلك التى أوردتها فى المجموعة المطبوعة لتخليد ذكر المستشرق الايطالى الشهير ميخائيـــل أمارى *Centenario della nascitá di Michele Amari*, Palermo, 1910, p. 422. ومثال آخر فى ص ١٦٣ (سطر ٧) من كتاب الدر المنتخب فى تاريخ حلب لمحمد بن الشحنة المطبوع فى بيروت سنة ١٩٠٩ » والشواهد التى يشير إليها نالينو هنا واردة ضمن مقال E. Griffini المنشور فى كتاب الذكرى المئوية لميلاد ميكيلى أمارى المذكور هنا ، وعنوان المقال : *Nuovi Testi Arabo-Siculi*, I, 365. وهو مقال طويل عظيم القيمة ، يتضمن نصوصاً عربية عن صقلية لم يوردها أمارى فى المكتبة الصقلية أو أوردها برواية تختلف عن رواية جريفينى . وفى هذا المقال قطع من كتاب الزهرى واردة تحت رقم ٤ من النصوص الجديدة ، وعنوان هذه القطع :

Estratti dalla Geografia di Az- Zuhri o Anonimo di Almeria, p. 416 sqq.

ثم أضاف ملحقاً عن لفظ جغرافية انتفعنا به كثيراً هنا ، وسنرجع إليه فيما يلى من البحث مشيرين إليه باسم : Griffini, *Nuovi Testi*

ولكن وضعوها كما وضعوا الاسطرلاب ووضعوا هيئات الكسوف ، وكذلك بسطوا الجغرافية ليعلم الناظر بذلك أجزائها وحدودها وأقاليمها . . . الخ » وهذه العبارة لا تفهم على حقيقتها إلا إذا فسرنا لفظ « وضعوا » بأنه « رسموا » فهو يريد أن يقول : فإذا قال قائل إن هذه الجغرافية — أى خريطة الأرض أو رسمها أو صورتها — لا تتفق مع الحقيقة ، لأن الأرض كرية فى حين أن الجغرافية مبسوطة مسطحة على الورق ، قلنا : هذا صحيح ، ولكن العلماء رسموا صورة الأرض بسيطة — أى مبسوطة — مسطحة على الورق ليعلم الناظر بذلك أجزاءها وحدودها وأقاليمها . . . الخ ومعنى هذا أن الجغرافيا عنده هى الخريطة المسطحة للأرض ، أى ما يعرف بالبْلاَنِيسْفِير .

ويبدو من الفقرة الأخيرة من خطبة الكتاب أن معنى لفظ جغرافية عنده يشمل الخريطة ووصفها أو شرحها كذلك ، وربما تصور أن الخريطة لا تتم إلا إذا كان معها شرح مفصل لما فيها ، فهذه الفقرة تقول : « . . . مع ما ذكرتُ فى هذه الجغرافية من مساحة الأرض وطولها وعرضها ، وما قالت الفلاسفة فى تكسيرها وعَدِّ فراسخها وأميالها ، وما فى كل جزء منها ، والله أعلم بحقيقة ذلك . . . » .

وهذان المفهومان للفظ جغرافيــة (خريطة أو خريطة مع شرحها) كانا موجودين فى الغرب الإسلامى ، فقد ورد فى المعجم العربى اللاتينى المعروف بالفوكابوليستا لفظ جعرافية (بالعين المهملة) مرتين ، الأولى فى صفحة ٨٠ : جَعرافِيَّة وأمامه لفظ mapa أى خريطة ، والأخرى فى صفحة ٤٦٩ : جَعْرَفِيَّة وأمامه mapamundi (١) أى خريطة الدنيا ، وابن خلدون يستعمل لفظ جغرافيا فى

(١) Vocabulista in arabico وهو قاموس عربى لاتينى ، لاتينى عربى وضع فى القرن الثالث عشر ليستعين به رجال الدين الاسبان فى التبشير بالمسيحية بين من وقع تحت سلطان ملوك إسبانيا النصرانية من المسلمين ، وألفاظ القاموس تدل على أنه وضع فى بلنسية ، ويظن أن مؤلفه هو الراهب المبشر رايموندو مارتين الذى تحدثنا عنه فى « تاريخ الفكر الأندلسى » . وقد نشره سكياباريلى فى فلورنسا سنة ١٨٧١ ، اقرأ عنه مقدمة ناشره وخاصة ص ١٩ و ٢٠ وملحق القواميس العربية لدوزى ، ج ١ ص ١٠ من المقدمة ، وتاريخ المستعربين للأب سيمونيت ، ص ١٧٠ وما بعدها .

فى كتابه من المعلومات ، وسيختفى هذا الاضطراب عندما يفرغ الزهرى من معنى خريطة ، وأضاف : وقد ذكر ذلك كله بطلميوس فى كتابه والشريفُ فى كتاب رُجار ؛ ويقول ابن خلدون فى «المقدمة» : «وصوروا فى الجغرافيا جميع ما فى المعمور من الجبال والبحار والأودية ، واستوفوا من ذلك مالا حاجة لنا به لطوله ، ولأن عنايتنا فى الأكثر إنما هى بالمغرب الذى هو وطن البربر ، وبالأوطان التى للعرب من المشرق ، والله الموفق(١) » .

ويلاحظ أن الزهرى يكتب دائماً جعرافية بالعين المهملة ، وكذلك نجد اللفظ فى الفوكابوليستا وفى المخطوطات الجيدة من مقدمة ابن خلدون ، وهذا ليس مجرد تصحيف(٢) ، وإنما كان رسماً معروفاً لهذا اللفظ فى كثير من الكتب الأندلسية خاصة ، وقد رأينا ياقوت يقول إنه سمع من يقوله — أى لفظ جغرافيا — بالغين المعجمة والمهملة ، وأكد ذلك دوزى وأتى بأمثلة كثيرة على ذلك فى معجمه(٣) .

وبقية خطبة كتاب الزهري تعرفنا بمفهوم العلم الجغرافى عنده ، وهو مفهوم واسع يتناول كل المعلومات الخاصة بالأرض وما عليها ومَن عليها وعلاقة الأرض بالكون وموقعها من الفلك وما إلى ذلك ، أى كل ما يدخل فى نطـــاق الجغرافية الفلكية والطبيعية والبشرية ، وواضح أن سياق الكلام فى الخطبة غير قويم ، فهو ركيك كثير التكرار مضطرب النسق ، مما يدل على أن المؤلف كتب هذه الخطبة لكى يضمِّنها — فى صورة عامة — كل ما سيورده

(١) ابن خلدون ، المقدمة (بولاق) ، ص ٤٠

(٢) أورد جريفينى فى مقاله الآنف الذكر (ص ٤٢٥) صوراً كثيرة لتصحيف لفظ جغرافيا على يد الناسخين ، وبعض هذه الصور يدل على أن الكثيرين من ناسخى الكتب فى العصور المتأخرة لم تكن لديهم أى فكرة عن رسم هذا اللفظ ومعناه ، فقد كتب واحد منهم «كتاب جفر الأنباء (يريد جغرافيا) لبطلميوس» وكتب آخر : قال صاحب كتاب معارفنا (يريد جغرافيا) . وفى بعض الأحيان كان بعض مؤلفى هذه العصور يعرفون اللفظ ، ولكنهم لم يعرفوا كيف يرسموه ، فقد عمل رجل أرمنى من تونس يسمى مقرديج الكسيح مختصراً لكتاب نزهة المشتاق ، ورسم اللفظ هكذا : «كتاب الجكرافية الكلية ، أى صورة الأرض وما فيها ، قد التقطها من كتاب نزهة المشتاق الفقير مقرديج الكسيح الأرمنى ، غرضه منها تبجيل الصانع الخلاق وإفادة الاخوان» .

(٣) انظر ملحق القوامس ، ١/١٩٨ — ١٩٩

المقدمات ويدخل فى صلب كتابه ، مما يحمل على الظن بأنه كتب الخطبة بعد أن فرغ من الكتاب ، وكتبها معجلا دون تدقيق كثير ، وهى لهذا أضعف ما فى الكتاب واقل ما فيه دلالة على قيمته . وهذا كله بالاضافة إلى التصحيفات الكثيرة فى النص ، فعلى كثرة مخطوطاته لا نجد واحداً منها سليماً من التصحيفات الكثيرة التى لا يخلو منها سطر ، واسم العَلَم الواحد يرد فى كل نسخة بصورة ، وقد اعتمد كل من دوزى وأمارى وهنرى باسيه وجريفينى على ما تيسر له من المخطوطات فى نشر ما حاجه من نصوص الكتاب ، ورجعنا هنا إلى مخطوط بسكوال جايانجوس المحفوظ فى مكتبة أكاديمية التاريخ فى مدريد ، وراجعنا عليه القطع المنشورة مع مفارقاتها ، فتبينا أن النسخ جميعاً فى مستوى واحد من الدقة — أو قلتها بتعبير أدق — بحيث لا تفضل واحدة منها الأخريات فى شىء(١) . وهذه التصحيفات من النوع الكثير الوقوع فى المخطوطات

(١) احصى رينيه باسيه فى مقدمة القطعة التى نشرها من جغرافية الزهرى المخطوطات الموجودة إلى أيامه (سنة ١٩٠٣) وعددها ستة ، واحد فى مكتبة جامعة الجزائر برقم ٢٠١٦ ، وهذا المخطوط منسوخ عن آخر بجامعة الزيتونة ؛ ومخطوط كان يملكه الشيخ عظوم التونسى واستنسخ منه رينيه باسيه نسخة لنفسه ؛ ومخطوط بالمكتبة الوطنية فى الجزائر تحت رقم ١٢٥٥ ؛ ومخطوط بالمكتبة الأهلية فى باريس برقم ٢٢٢٠ (مخطوطات عربية) ، والمخطوط رقم ٣٥ من مجموعة جايانجوس (وهى موجودة حاليـاً فى مكتبة أكاديمية التاريخ فى مدريد) ، والمخطوط رقم ٢٥٧٤٣ (اضافات) بمكتبة المتحف البريطانى . ويضاف إلى هذه ترجمة اسبانية ترجع إلى منتصف القرن الخامس عشر ، محفوظة فى مكتبة القصر الملكى فى مدريد . وقد نشر الجزء الخاص بجغرافية اسبانيا من هذه الترجمة فى مجلة جمعية مدريد الجغرافية سنة ١٨٧٩ ، ص ٧٠٣ وما يليها . ونشرت من جغرافية الزهرى قطع صغيرة فيما يلى :

Amari, *Biblioteca arabo-sicula*, 1855, p. 158 sqq.

الجزء الخاص بصقلية اعتماداً على مخطوط المكتبة الأهلية فى باريس .

Dozy, *Recherches*, 3.º ed. 1881, II, appendice XXXV p. LXXX IX.

القطعة الخاصة بأعمدة هرقل اعتماداً على مخطوط المتحف البريطانى .

Lerchundi y Simonet, *Chrestomatía Arabigo-Española*, Granada, 1881, pp. 44-45.

قطعتان قصيرتان خاصتان بجبل شلير وشجرة زيتون عجيبة قرب حصن يشكر فى

Houdas et René Basset, *Mission Scientifique en Tunisie*, II.e partie, Alger 1883, p. 154 sqq.

قطعة خاصة بالسوس الأقصى اعتماداً على مخطوطات باريس وتونس والجزائر والقيروان =

التى نسخت فى العصور المتأخرة ، وربما يكون هذا أيضاً هو الذى حدا بأمارى إلى القول بأن الزهرى نفسه عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى[1] .

ومثل هذا الكتاب لا ننتظر أن نجد فيه مادة جديدة أو تصوراً للأقاليم يمتاز بالدقة وحسن الفهم وسعة المعلومات كما وجدنا عند مَن سبقوا الزهرى وكما سنجد عند بعض من أتى بعده ، إنما هو رجل استهواه العلم الجغرافى ، فقرأ فيه بعض ما تيسَّر له من الكتب من تأليف المسعودى وابن الجزار ورجل يسميه « صاحب التاريخ » (وأظن أن المراد به أحمد بن محمد الرازى ، لأننى وجدت اشارة إليه على هذه الصورة فى مختصر مجهول المؤلف لجغرافية الرازى وتاريخه) ثم وصلت إلى يده خريطة مجهولة النسبة ، فنسخها ثم وضع كتابا فى شرحها معتمداً على ما أشرنا إليه من قراءاته ، وسماها معاً كتاب الجغرافية ، وهو هذا الذى وصل إلينا .

وجدير بالملاحظة أن هذا الرجل كتب كتابه فى المرية ، وقد رأينا أنها كانت موطن العذرى ، وإليها ذهب البكرى ولقى العذرى وأخذ عنه ، وكان لهذا أثره فى توجيهه نحو الجغرافية والتأليف فيها ، فكأنَّ هذا البلد كان مركزاً للدراسات الجغرافية فى الأندلس ، أو كانت فيه على الأقل جماعة تعنى بهذا العلم وتجد بين يديها مادة صالحة لدراسته ، وليس هذا بغريب فإن المرية كانت قد أصبحت خلال القرن الخامس الهجرى من أعمر بلاد الأندلس وأوفرها نشاطا

= R. Basset, *Documents géographiques* sur l'Afrique Septentrionale, Paris 1898, chap. II, pp. 14-30.

وهى ترجمة فرنسية للقطعة المنشورة عن السوس الأقصى . انظر :

René Basset, *Extrait de la Description de l'Espagne, tiré de l'ouvrage du Géographe Anonyme d'Almeria*, Homenaje a Codera, Madrid 1904, p. 619 sgg.

وراجع عن كتاب الجغرافية للزهرى ، بروكلمان ، تاريخ ١/٤٧٦ وملحق ١/٨٧٦

(١) ذكر أمارى ذلك فى الفقرة رقم ٥٤ من الفقرات الخاصة بمراجع المكتبة الصقلية ، وقد وردت هذه الفقرة فى ص ٦١ من المقدمة .

وحيوية ، ثم إن العلم الجغرافى الجديد ظهر فى موانى البحر الأبيض كما ذكرنا ، إذ كانت حاجة الملاحين إلى المعلومات الجغرافية كبيرة وعنايتهم بها كبيرة ، ويضاف إلى ذلك أن أولئك الملاحين كانوا من مصادر هذه المعلومات بما يأتون به من الأخبار والبيانات عن البلاد التى يبحرون إليها ويمرون بها ، وكانت المرية إذ ذاك قد أصبحت ميناء الأندلس الاسلامى الأكبر ومركز الاتصال البحرى مع المغرب والمشرق الاسلاميين ، بل منها كانت تصدُر المتاجر الذاهبة إلى غانة وغيرها من بلاد افريقية الغربية كما يقول العذرى ، ومن ثم فمن الطبيعى أن تكون مركزاً تتجمع فيه المعلومات عن شتى البلاد ، ولابد أن « الجغرافية » أى الخريطة التى وصلت إلى يد الزهرى — وانتسخها واتخذها أساساً لكتابه — كانت واحدة من الخرائط الكثيرة المتداولة بين أيدى ملاحى المرية ومن يفد عليها من التجار من كل حدب وصوب .

نقول إننا لا ننتظر أن نجد فى هذا الكتاب شيئاً من الخصائص الأصيلة التى وجدناها عند من مررنا بهم من جغرافِيِّى الأندلس مثل إحاطة الرازى بصفة شبه الجزيرة وصدق تصوره لنواحيها وأقسامها ، ودقة العذرى وعلمه ، وسعة علم البكرى ومنهجه العلمى ، وعبقرية الشريف الإدريسى ، وما إلى هذه من الخصائص التى اجتهدنا فى ابرازها ، لا ننتظر هنـا من ذلك شيئاً لأن خطبة الكتاب نفسها تدل على فهم محدود لمعنى الجغرافية وعِلْمٍ قليل بما عداها ، فإن الأسلوب مفكك غير مترابط ، والكلام ركيك لا تكاد تستقيم فيه عبارة ، والمعلومات مرسلة دون تدقيق أو محاولة تعليل ، ويبدو لى أن المؤلف — إن وُجد ، ونحن لا نعلم عنه إلا اسمه — كان رجلا بسيطاً من العاملين فى البحر أو التجارة ، فان طريقته فى الكلام لا تحمل أى خاصة من خصائص التأليف العربى التقليدى ، ويتضح هذا بصورة ملموسة إذا نحن أخذنا وصفَه لبلد من البلاد كالأندلس مثلا ، فنجد أنفسنا أمام سياق يصعب تتبعه ، وليس سرد

ذلك إلى رداءة المخطوط الذى نتابعه ، بل إلى أصل الكتاب نفسه ، فقد جمع رينيه باسيه ستة من أحسن مخطوطاته الموجودة ليستطيع أن ينشر مقتطفات من وصفه للأندلس ، واجتهد فى الوصول إلى أحسن قراءة مقبولة لكل كلمة وأضاف اسفل كل صفحة المفارقاتِ الواردة فى النسخ الأخرى حتى بلغت أرقام التعليقات بين الأربع والعشرين والثلاثين فى كل صفحة ، والنتيجة بعد هذا كله نص متعب مجهد يحار الانسان فى فهمه ، وإليك مثلا من ذلك الفقرة الأولى من ذلك الوصف :

« ذِكر الصقع الثالث من هذا الجزء الخامس من معمور الأرض ، وهى بلاد الأندلس ، وفيها من العجائب ما نذكره إن شاء الله .

اعلم أرشدنا الله وإياك أن بلاد الأندلس هى من بلاد الشام وهى آخر صقع من أصقاع الشام .

« وطول هذا الصقع من المشرق إلى المغرب على ساحل البحر من الجبال المسماة بجبال أطريجوش إلى الطرف المسمى بطرف الأغر إلى أشبونة إلى البحر الأعظم إلى أول جبال الشارات — وهى تسعون فرسخاً — إلى أول الجبال على قريب من جزيرة طريف التى من الجبال المعروفة بجبال الصوف ، وهى كورة تاكورنة وهى ثلاثمائة . وعرضها فى المغرب من طرف الأغر إلى أشبونة على البحر الأعظم إلى جبال الشارات تسعون فرسخاً ، وذلك من الأيام تسعة أيام . وعرضُها فى المشرق من جبال أطريجوش إلى الموضع المعروف ببرتقال ، وهو المدخل إلى بلاد نبارة ثمانون فرسخاً ، وهى من الأيام ثمانية أيام » .

« وهذا الجبل المعروف بأطريجوش هو الفاصل بين بلاد الأندلس وبلاد الأفرنج ، وهذا الجبل يأخذ من الشمال إلى الجنوب حتى يدخل فى البحر ، وهو المعروف بطرف اليهودى ، فى هذا الجبل ثمار كبار عظيمة من الصنوبر والطخش والبقس ، وفيه أشجار يستظل تحتها ألف فارس فلا يظهرون . ومن هذا الجبل يجلب عود البقس إلى بلاد الأندلس وبلاد المغرب . وفى هذا

الجبل معدن الأثمد القرطاجنى ، ومنه يجلب إلى بلاد المشرق . وفى هذا الجبل نحل كثير يجمع منه عسل كثير ، حتى لا يمكن أن يكون فى بلاد الأرض أكثر منه عسلا . وفى هذا الجبل الحصن الذى لا يوجد فى الأرض معقل مثله ولا أكثر منه منعاً » .

فهذه الفقرة على قصرها تحوى من المشاكل والعبارات التى لا تفهم ما يحتاج حله وتفسيره وفهمه إلى صفحات بعد صفحات من المناقشات والفروض ثم لا ينتهى الأمر بعد ذلك إلى شىء حاسم ، وهى بعد ذلك غير وافية ولا متناسقة ، فان ثلثها يدور حول الجبل الذى يسميه أطريجوش ، والترجمة الاسبانية القديمة التى أشرنا إليها فى تعليق سابق ترسمه جبل Targios وليس هناك جبل بهذا الاسم فى شبه الجزيرة ، أما رينيه باسيه فيترجمه بجبال اشتُريس les Monts d'Asturies ، وقد رجع فى ذلك إلى الرسم اللاتينى لهذا الاسم Asturicus أى أن الاسم كان ينبغى أن يرسم فى العربية اسْطُرِيجُوس لا اطريجوش أو أطوجيوش أو أطرجيش كما ورد فى النسخ المختلفة لهذا المخطوط ؛ والمؤلف يطلق هذا الاسم على جبال البرت أو جبل الأبواب أو جبال هيكل المعروفة عادة باسم جبال البرانس ، ولم نقرأ فى أى كتاب آخر أنها تسمى جبال اشتريس ، لأن ما يطلق عليه هذا الاسم يسمى فى الحقيقة جبال كنتبرية ، والإدريسى يسميها جبال شِيبه Auseba ، وفى حين أن الإدريسى يفرق بين جبال شيبة هذه وجبال البرت نجد مؤلفنا يجعلها جبالا واحدة ويمدّها دفعة واحدة من جليقية إلى ساحل البحر الأبيض ويقول إنها كلها تتجه من الشمال إلى الجنوب ، وهو قول يدل على أن مراجعه والخريطة التى كان يعتمد عليها لم تكن من مستوى علمى جدير بالثقة ، وربما كانت من هذه الخرائط والدفاتر التى كان الملاحون والتجار والسُّفَّار يحملونها ويتبادلونها ، فإذا صح هذا كانت لهذا الكتاب أهمية خاصة إذ أنه يطلعنا على نوع الخرائط والمعلومات التى

كان أولئك الناس يعتمدون عليها والأسماء التى يطلقونها على الأعلام الجغرافية ، وتصورهم للاتجاهات ومواقع البلاد .

ومما يؤيد هذا الرأى اهتمام المؤلف بالحاصلات من زراعية وغير زراعية ومصادرها وإلى أى جهات كانت تصدر ، وقد رأينا مثلا من ذلك فى القطعة التى أوردناها فى صفة الأندلس ، فان ثلث المادة — على قصرها — يدور حول ثمار ما يسميه بجبل أطريجوش وما فيه من الخيرات ، ومن دلائله أنه يسمى جبال رندة (la Serranía de Ronda) « بالجبال المعروفة بجبال الصوف وهى كورة تاكورنة » ، وتاكورنة هى تاكُرُنّا وهو الاسم الذى كان يطلق على كورة جبلية صغيرة جنوبى الوادى الكبير قاعدتها رندة[1] ، وقوله أن هذه الجبال معروفة بجبال الصوف يراد به أنها منطقة يجلب منها الصوف ، وهى إشارة ذات أهمية تجارية تذكرنا بما رأيناه عند الإدريسى من قوله اقليم البصل واقليم البلوط واقليم الزيتون ، وهى أيضاً تسميات تجارية لا جغرافية ، وقد أخذها الإدريسى من أفواه التجار ، وكان اعتماده فى الحصول على المعلومات عليهم عظيماً .

ومما يؤكد ذلك أن المؤلف يعقب هذه الفقرة السابقة بفقرة عن عمران الأندلس ووفرة الخيرات وكثرة المدن فيه ، وهذه الفقرة كسابقتها منقوصة فى أكثر من موضع من مواضعها ، مختلة السياق فى الكثير من عباراتها حتى ليبدو من غير المقبول نشرها على الصورة التى نشرها بها رينيه باسيه ، ومن حسن الحظ أننى عثرت على أصلها ، أو الأصل الذى اقتبست منه ، فى متحف النقول الأندلسية وهو نفح الطيب للمقري ، ومن أسف أنه صدرها بقوله : « وقال بعض المؤرخين » فضيع علينا بذلك فرصة كانت معينةً على كشف النقاب عن أصل كتابنا هذا ، وتلك حالنا مع تراثنا الأندلسى الذى نجمع شوارده وأوابده بكل

(١) الغالب أن تاكرنا اسم آخر لكورة رندة . انظر عنها الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى ، ص ٦٢ رقم ٦٣ وص ٧٨ من الترجمة الفرنسية وهامش رقم ٣

ميسور من الجهد والصبر ، وما دمنا لا نعرف إن كان « بعض المؤرخين » هذا هو مؤلفنا أو الأصل الذى نقل عنه ، فسأورد فقرات المخطوط وأكملها بما عند المقرى بين حواصر ، حتى يستبين القارئ مقدار ما فعل المؤلف بالأصل الذى أخذ عنه ، أو ما أصاب نصه على أيدى النقلة والنساخ :

«وبلاد الأندلس بلاد حسنة الهواء طيبة الماء طولها ثلاثون(١) يوماً [وعرضها تسعة أيام و] يشقها أربعون نهراً [كباراً] ولا يوجد هذا فى معمور الأرض إلا فيها ، [وبها من العيون والحمامات والمعادن مالا يحصى] وهى أبرك بقاع الأرض وأكثرها نسلا ، وذلك لأنها صقع صغير فيه ثمانون مدينة من القواعد الكبار ، وأزيد [من ثلثمائة] من(٢) المدن الصغار [وفيها من الحصون والقرى والبروج ما لا يحصى كثرة حتى قيل : إن عدد القرى التى على نهر إشبيلية أثنا عشر ألف قرية] ، وليس فى معمور الأرض صقع أعمر(٣) منه [يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعا من يومه إلا فى الأندلس ، ومن بركتها أن المسافر] لا يمشى فيها فرسخين دون ماء [أصلا] ولا يمشى ثلاثة فراسخ إلا وجد فيها [الحوانيت فى الفلوات والصحارى والأودية ورءوس الجبال تبيع] الخبز الكثير [والفواكه والجبن واللحم والحوت] والزيت والزبيب والتين [وغير ذلك من الأطعمة] فى الحوانيت(٤) .

وإذن فنحن أمام نص مختصر عن أصل ، وواضح أن المؤلف أساء الاختصار ، إذ لا يعقل أن يكون جميع كتّاب النسخ الكثيرة التى بين أيدينا قد وقعوا فى نفس الأخطاء أو فى أخطاء من نفس النوع ، فاستخرج نصاً سقيماً

---

(١) فى نسخة الأصل التى اعتمد عليها باسيه : أربعون ، وفى نسخة المكتبة الأهلية فى باريس : ثلاثون ، وكذلك فى نفح الطيب وفى الترجمة الاسبانية القديمة : tryenta .

(٢) فى نفح الطيب (١/٢١٠) : من المتوسط

(٣) فى الأصل : أصغر ، ولا يستقيم به المعنى ، وصوابه ما أثبتناه .

(٤) وردت العبارة فى الأصل مضطربة السياق فقومتها على قدر الاستطاعة .

مضطرباً ، ولكنه واف بحاجات جماعات معينة من الناس ، جماعات لا تهتم بسلامة الأسلوب واستقامة السياق ، وإنما تهتم بمعلومات خاصة تهمها فى شئون عيشها ، وهذه المعلومات تدور فى الغالب حول الحاصلات والمنتجات وما تشتهر به الناحية أو البلد من المتاجر والصناعات وما لها من الفضائل وما فيها من العجائب . وهذه الجماعات — فيما نظن — هى جماعات التجار والملاحين والسُّفار . وقد يكون الأصل الذى استُخرج منه هذا المختصر هو كتاب الزهرى نفسه ، وفى هذه الحالة لا تكون النسخ التى بين أيدينا إلا نسخاً للمختصر ، وقد تؤيد هذا الفرض كثرة النسخ التى وجدناها منه ، فلدينا ستة مخطوطات على الأقل ، ولم نجد من أى كتاب جغرافى آخر ما يقارب هذا العدد إلا نزهة المشتاق للادريسى ، وهذه النسخ الكثيرة تدل على أن الكتاب كان — على ركاكته واضطراب سياقه — كثير التداول عظيم النفع لطوائف من الناس حرصت على اقتناء نسخ منه ، وهذه الطوائف لا يمكن أن تكون من أهل العلم أو طلاب المعرفة أو المعنيين بالجغرافية ، فهؤلاء لا يعجبهم مثل هذا النص ولا يحرصون على اقتنائه ، ولو حرص هؤلاء على اقتنائه والانتفاع به لوجدنا نقولا منه فيما تلا ذلك من الكتب ، ولحرص أصحاب التراجم على اثبات شىء عن صاحبه ، ولكننا لا نجد منه إلا هذه النقول اليسيرة التى أوردها المقرى ولم نعثر لصاحبه على أثر فى أىّ من مراجعنا .

وعلى أى حال فنحن أمام طراز من الكتابة الجغرافية يختلف فى طبيعته وغايته عما مررنا به من طُرُز التأليف فى ذلك العلم : طراز شعبى ، إذا جاز أن نستعمل هذا الوصف فى مقابل ما يسمى فى اللغات الأوروبية vulgarisation ، طراز مبسط يجمع المادة الجغرافية التى تهم أهل الأسواق ، ومن ثم فليس فيه تدقيق علمى ولا تقسيم منطقى ولا عناية بأسلوب الكتابة ، لأن ما يهم أهل الأسواق من المادة الجغرافية هى الزروع والحاصلات والمواد ذات القيمة التجارية ثم أحاديث العجائب ، وتضاف إلى هذه بعض المعلومات العامة عن هيئة الأرض

ومكانها فى الكون وبحارها وجبالها وأنهارها الرئيسية مع تعريف بسيط لكل منها ، ثم تقسيم الأرض إلى أقسام كبيرة ، تسمى فى مخطوطنا أجزاء وهذه إلى أصقاع ثم إدراج عدد من البلاد والنواحى فى كل صقع ، ويعقب ذلك الكلام على الأصقاع واحداً واحداً دون تقيد شديد بهذا المنهج ، فقد يسمى الجزء إقليماً وقد يسمى الصقع بلداً ، وقد لا يقسم جزء إلى أصقاع ، بل قد تهمل بلاد بأسرها ، لأن المهم ألا يسقط من الحساب بلد مشهور يقصده المسافرون والرحالة والتجار ، ولا يُغفل أمر عجيبة لها شهرة بين الناس ، ولا يُنسى ما يهم التجار من شئون الحاصلات والصناعات وما يجلب من كل بلد وما يصدَّر إليه . هذا المزاج من المفيد والطريف ، من النافع والعجيب هو الذى يعطى ذلك الكتاب طابعه الفريد بين ما لدينا من كتب الجغرافيـــة الأندلسية ، وهو الذى حببه إلى الناس فأقبلوا على نَسخه وتداوله ، ومن الطريف أن الناسخين لم يتكلفوا جهداً فى التدقيق فى رسم الأعلام وضبط المسافات ، فقد كانوا يعرفون أنهم ينسخون لناس لن يجهدوا أنفسهم فى تحقيق النسخة أو مقابلتها على غيرها ، إنما هم تجار وملاحون لا يعنيهم فى كثير أن تكتب «يابل» بالياء أو «الأهوار» بالراء ، لأن بابل هذه مضت لشأنها وأصبح حديثها حديث أساطير ، والأهواز بعيدة فى بلاد فارس لا يكاد يقصدها من حوض البحر الأبيض قاصد من التجار ، إنما التدقيق يكون فيما يتصل بهذا البحر وموانيه وجزائره وسواحله ، وما يتصل به من بحار أهمها بحر القلزم وموانيه ، هنا نجد النص دقيقاً فى رسم الأعلام وفى ايراد التفاصيل ، لأن البحر الأبيض كان مجمع التجارة والتجار ، والمرية — بلد المؤلف — كانت على عصره من أكبر موانيه ، وحديثه عنها لذلك حافل بالفائدة ، وهو يضيف إلى معلوماتنا عنها فوق ما أضافه العذرى كما سنرى .

ومن هنا فإن أضعف أجزاء الكتاب هى فصوله الأولى الخاصة بالمقدمات العامة عن هيئة الأرض وموضعها فى الفلك وما إلى ذلك ، لأن هذه مباحث

علمية لا يهم قراء مثل هذا الكتاب إلا خلاصتها . وكلام المؤلف هنا عام غير دقيق ، وهو لا يحرص على تعليل شىء حِرْصَ ابن رستة مثلا على تعليل ما يذكر من ظواهر ، لأن ابن رستة كتب لنوع آخر من القراء : كتب لأهل العلم ، فهو يحرص لهذا على أن يخاطبهم بمنطقهم ، أما كتابنا فيقول مثلا تحت عنوان : فى ذكر الأرض وصفتها ودَوْرها واسقاعها (بالسين) وفراسخها وأميالها :

« قالت الحكماء : اختلف تخالف الناس ممن سلف وحدَّث أن الأرض كورة ومنهم من قال إنها سطح فلا يقوم لها برهان ، غير أنه تعلق بقوله عز وجل « والأرض بعد ذلك دحاها » ، وتأويل هذه الآية لا يفهمها إلا أهل العلم ، ولولا أن الله بِمَنِّه دحى (كذا) الأرض ما استقر عليها أحد ، وهو قوله عز وجل « لتسلكوا منها سبلا فجاجا » ؛ وأما من قال إن الأرض كورة فله فى ذلك البراهين الواضحة والدلائل البينة ، منها جريُ الماء الذى على الأرض واختلاف الناظر فى الفلك ، وقِصَر الليل وطول النهار ، وإيـلاج بعضه فى بعض ، واختلاف دَرَج المطالع . ولو كانت الأرض سطيحة لم يكن فى الفلك من هذا كله شىء ، ولكان الليـل والنهار على حد واحد طول الدهر . واختصرنا الكلام فى هذا ، إذ ليس هذا موضعه » [ورقة ١ ظهر] . وواضح أننا لسنا أمام كلام اختصره صاحبه لضيق المجال كما قال ، بل نحن أمام كلام مبتور سىّء الصياغة ، وربما فهم مؤلفه براهين كروية الأرض كما ذكرها ، أما القراء ، فلا نظن أن أحداً منهم فهم برهانا واحداً منها كما أتى بها المؤلف .

ومن هذا الطراز قوله بعد ذلك : « اتفق جميع الفلاسفة وكل من عيَّن مساحة الأرض أن الأرض ٢٤٠٠٠ فرسخاً ، وهى من الأميـال ٧٢٠٠٠[١] ، وإنما أُخذ ذلك من تسمية كورة الأرض من كورة الفلك ، وذلك أن كورة

---

(١) الفرسخ ٣ أميال ، والميل العربى كيلومتران تقريباً ، أى أن الفرسخ ستة كيلومترات تقريباً .
Cf: Walter Hinz, Islamische Masse und Gewichte, pp. 62-63

الأرض تدور بها كورة الفلك ، وفى الفلك ٣٦٠ درجة ، تقطع الدرجة ٧٥ ميلا ، وذلك ما يمشى الماشى ما بين اليوم والليلة ، كما تقطع الشمس درجة فى اليوم والليلة ، فيكون دَوْرُ الأرض على هذا الحساب ٢٧٠٠٠ ميل[١] ، وذلك ثلاثة أثمان التكسير على اقرب التقريب » (ورقة ١ ب و ٢ ا) .

ثم يزيد الموضوع خلطاً بعد ذلك فيقول : « وإذا كان تكسيرها ٢٤٠٠٠ فرسخاً كان ٢٧٠٠٠ ميلا (!) وَجَب أن يكون قطرها ٩٠٠٠ ميل ، وذلك ثلث الدَّور على أقرب التقريب ، والله أعلم بذلك كله » !

وإليك تقسيم الأرض بحسب ما جاء فى ذلك الكتاب :

« فصل ، فلنذكر الآن أجزاء الأرض .

اعلم أرشدنا الله وإياك أن الأرض تنقسم على سبعة أجزاء :

الأول منها : بلاد الصين وبلاد السند وبلاد الهند .

والجزء الثانى : بلاد اليمن وبحر القلزم ومصر إلى أول بلاد الشام .

والجزء الثالث : بلاد العراق .

والجزء الرابع : أرض فلسطين وذواتها .

والجزء الخامس : بلاد الشام وذواتها .

والجزء السادس : بلاد العرب وذواتها .

والجزء السابع : بلاد السودان وذواتها (ورقة ٢ ا) » .

واين بقية الأرض ؟ بل أين الأندلس ، وهو وطن المؤلف ؟

انه يضعه بعد ذلك فى الجزء الخامس ، لأنه فيما يلى من الكلام يقسم كل جزء إلى أسقاع (يريد أصقاع) إلا الجزء الأول ، فهو غير مقسم عنده ، وهذه الأصقاع عنده تقسيمات غير دقيقة ، فالجزء الثانى مثلا ثلاثة أصقاع :

---

(١) سبق أن قال ان دور الأرض ٧٢٠٠٠ ميل ، لأنه افترض أن مساحتها (!) ٢٤٠٠٠ فرسخ ، ثم ضرب هذا فى ثلاثة . وطول الميل العربى كيلومتران فى المتوسط ، والفرسخ ثلاثة أميال أى ٦ ك. م. ، والبريد ٤ فراسخ أى ٢٤ كيلومترا تقريباً .

« الصقع الأول حده من ساحل مدينة عدن ومدينة صنعاء إلى أرض السحارة[(١)] وأرض تهامة إلى جزيرة العرب ، وبها البيت الذى فرضه الله تعالى قبلة ، وفرض الحج إليه .

الصقع الثانى من الجزء الثانى حده من مكة إلى القلزم إلى حيز مدينة بايل (أيله ؟) إلى أرض مدين إلى بلاد الشام فى الشمال . وحده فى الغرب مدينة تيمة (تيماء ؟) .

« الصقع الثالث : اعلم أرشدنا الله وإياك أنه صقع كبير فيه من المدائن مدينة مصر ، ولم يذكر الله ، عز وجل ، من مدائن الأرض [مدينة] باسمها إلا مصر ، فقال تعالى : « اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم » وقال تعالى « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » وهذه المدينة قديمة البناء ، وقد سكنها كثير من الجبابرة والفراعنة والعمالقة من القبط والروم وغيرهم ، وهذه المدينة لها خَمْسُ صُوَر : إما بيضاء فِضِّية ، وذلك عند انتهاء النيـل[(٢)] عليها ، وإما حمراء مِسْكِيَّة ، وذلك وقت الزيادة ، وإما سوداء عنبرية ، وذلك عند هبوط النيل عنها ، وإما خضراء زمردية ، وذلك عند كمال نباتها ، وإما صفراء ذهبية ، وذلك عند حصاد غرسها » (ورقة ٢٤ ب) .

ثم يلى ذلك كلام طويل عن عجائب مصر يصل إلى ورقة ٣٢ ب .

« الجزء الثالث ثلاثة أصقاع ، الأول حَدُّه أرض فارس ، وهناك من المدائن مدينة غرانة . . . حتى يصل إلى اصبهان والأهواز .

الصقع الثانى ، من هذه المدينة (الأهواز) إلى مدينة سرمين وفيه بغداد .

الصقع الثالث ، حده فى المغرب إلى بلاد غانة[(٣)] إلى بلاد خراسان إلى بلاد

---

(١) واضح أن المراد هنا : الصحراء ، وهذا الرسم يصور النطق الدارج للفظ على ألسنة الناس فى الأندلس .

(٢) يريد : عندما يبلغ فيضان النيل منتهاه .

(٣) فرغانة ؟

التبت ، إلى حد أرض بابل ، إلى سحارى (كذا وصحتها صحارى) القيطوم . . »

وعلى هذه الوتيرة يستمر المؤلف فى الكلام حتى نهاية التقسيم ، وقد يذكر أن الجزء الرابع مثلا ينقسم إلى ثلاثة أصقاع ، ثم يذكر اثنين وينسى الثالث .

وهذه النقول تعطى القارئ فكرة عن المستوى العلمى لهذا الكتاب ، إذا صح أن نتطلب فى مثله مستوى علمياً ، لأن هذه الناحية من بناء الكتاب شديدة الاضطراب يصعب ضبطها ، وأسلوب المؤلف كما رأينا قلق غير متصل ، يصل إلى البلاغة أحياناً كما رأينا فى الكلام على مدينة مصر ، ويسف إلى العامية أحياناً أخرى كما رأينا فيما أوردناه من النماذج ، ومصنِّفه يعتمد دائماً على حسن ظن قارئه وتسامحه فى الضبط والحساب .

أما إذا تعلق الأمر بميناء من موانى البحر الأبيض التى يهم التجار والملاحين شأنها ، فإنه يتكلم عنها كلاماً غاية فى الفائدة ، وأحسن مثل لذلك كلامه عن مدينة المرية . قال (ورقة ١٦٨) « وهى مدينة عظيمة على ساحل البحر الرومي ، وهى من بنيان معاوية بن محمد الأمير[١] ، وهى مرسى الأندلس ، وإليها تقلع مراكب المشرق والاسكندرية ، وهى قيسارية الأندلس ودار صناعتها ، وفيها كان يُعمل الديباج المحكم الصنعة من المدُبَّجات المعروفة بالبغداديات ، وثياب السندس الأبيض ، وهو ديباج أبيض كله لا يخفى على أحد من صناعته شىء ، وفيها استُنبط ثياب السُّنة المعروف بالُخلدى ، وليس فى ثياب الجزيرة (كذا وربما كانت صحته الحرير) انصع منه ولا اتم جمالا ، ولذلك سميت بهذا الاسم الذى هو مشتق من الخلد ، وفيها كان يصنع كل شىء حسن من الأثاث من جميع الاشياء » .

وهذا كلام دقيق واضح الفائدة ، يضيف إلى معلوماتنـــا عن صناعة النسيج فى الأندلس مادة جديدة ، وربما كان السبب فى ذلك أن المؤلف نفسه

(١) كذا فى الأصل ، والصحيح عبد الرحمن بن الامير محمد ، وهو عبد الرحمن الناصر ، وقد اختط المرية فى سنة ٣٤٤/٩٥٥

من المرية ، فمعلوماته عنها دقيقة محددة . ونقول ذلك لأن المعلومات التى يقدمها الزهرى عن غير المرية من موانى البحر الأبيض أقل من ذلك تحديداً وتفصيلا ، والسبب فى ذلك — فيما نحسب — أن الرجل كان مشغولا أبداً بحديث العجائب ، فلا تكاد تخطر بباله عجيبة فى مدينة أو إلى جوارها حتى يقطع الكلام ويسترسل فى الكلام عنها ، ثم ينسى أن يكمل ما استطرد عنه ، ومثال ذلك أنه يقول عن مدينة اشبونه « وهى على آخر النهر المعروف بتاجُه عند وقوعه فى البحر ، وفى هذه المدينة الموضع الثانى الذى يوجد فيه الذهب ، وسيأتى ذكر الموضع الثالث ، إن شاء الله تعالى . وهذه المدينة كثيرة الأرزاق من الزرع والحبوب وغير ذلك ، وفى هذه المدينة تفاح كالتفاح الأرمينى دور التفاحة ثلاثة أشبار وأكثر وأقل ، وبين هذه المدينة ومدينه طَلَبيرة تكون القنطرة العظيمة المعروفة بقنطرة السيف ، وهى من عجائب الأرض ...[١] » وهنا يستطرد فى وصف هذه القنطرة إلى آخر المادة .

ولولا هذه الاستطرادات لكان الجزء الذى كتبه عن الأندلس من أكثر ما لدينا فائدة ، لأن له فى أثنائه ملاحظات لا تخلو من طرافة ، مثال ذلك انه يقول عند ذكر نهر الوادى الكبير (ورقة ٥٨ ا) « وليس فى الأندلس نهر باسم عربى إلا هذا النهر ، وكذلك جبل الأندلس الذى [يطل] عليها (أى على قرطبة) يسمى

---

(١) انظر القطعة التى نشرها رينيه باسيه ، فى كتاب تكريم فرنثيسكو كوديرا وقد سبق أن ذكرناه ، ص ٦٣٨ — ٦٣٩ ويلاحظ أنه يشير هنا إلى تفاح شنتره الذى تحدث عنه اليسع الغافقى وأبو حامد الغرناطى ، وإنه لما يدعو إلى الدهشة استمرار أولئك الرجال فى ترديد غرائب مثل هذه دون أن يكلف واحد منهم نفسه عناء التفكير أو الاختبار البسيط ، فان التحقق مما إذا كان من الممكن أن يكون دور تفاحة ثلاثة أشبار (حوالى ٦٠ سنتيمترا) أو خمسة أشبار (١٠٠ سم) أمر ليس بالعسير ، ولكن عبودية النقل والولع بالغرائب جعلت مثل هذه العبارة يتردد فى كتاب بعد كتاب . ويذكر المؤلف هنا طلبيرة وهذا وهم وصحة الاسم طبيرة Tavira ، ميناء على الشاطىء الجنوبى للبرتغال . وعلى الطريق من الأشبونة إليها تقع قنطرة السيف Alcacer do Sal على ٨٩ ك. م. جنوب غربى الاشبونة ، ولا زالت هذه القنطرة قائمة إلى الآن على نهر سادو Rio Sado الذى يمر بالبلدة المنسوب إليها .

بجبل العروس ، وليس فى الأندلس جبل يسمى باسم عربى إلا هذا » والملاحظة غير دقيقة ، لأننا نجد بين أنهار الأندلس وجباله كثيراً مما يحمل اسماء عربية ولا يزال يحملها إلى الآن مثل الوادى الأبيض (Guadalaviar) والوادى الأحمر (Gualamar) ووادى الارز (Guadalhorce) ووادى المدينة (Guadelmedina) وجبل الثلج (Sierra Nevada) وجبال المعدن (Sierra de Almaden) وقمة أبو الحسن (Mulhacén) وغير ذلك كثير . ورغم هذا فان ملاحظته جديرة بالتقدير ، فقد تكلم على قدر علمه ، والمهم انه أبدى ملاحظته طريفة .

ومن ملاحظاته التى تستوقف النظر قوله فى الكلام عن قرطبة (١٥٩) : « وكذلك فى اسفل قرطبة — اعادها الله دار إسلام[١] — على الوادى الكبير [توجد إشبيلية وتسمى][٢] عروسة مدائن الأندلس ، لأن عليها تاج الشَّرَف[٣] ، وفى عنقها سبيكة[٤] النهر ، وهذا النهر ليس فى معمور الأرض اتم حسناً منه ، لأنه يضاهى الدجلة والفرات ونيل مصر ووادى الأردن الذى بالشام فى الحسن والجمال » .

ثم يقول : « وعلى مقربة من هذه المدينة بخمسة عشر فرسخاً[٥] أو نحوها عين الزاج ، ولا يوجد هذا الزاج فى معمور الأرض ، وإذا ما اسود يخرج من عين ، وينعقد منه على ضفتى هذه العين الزاج وغيره ، وهذه العين فى

---

(١) لا تدهشنا هذه العبارة هنا فهى إضافة من النساخ فيما بعد ، ومثل هذا كثير فى مخطوطات أخرى من ذلك الكتاب .

(٢) سقطت هذه العبارة من الأصل .

(٣) الشرف ، ويسمى إلى الآن Ajarafe أو Aljarafe هو الأراضى المرتفعة غربى الوادى الكبير وإلى الشمال الغربى من اشبيلية ، وإقليم الشرف مشهور بزيتونه .
انظر ، الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى ، ص ١٠١ — ١٠٢ والترجمة الفرنسية ، ص ١٢٤ وتعليق ٤

(٤) فى الأصل سمك ، ولا معنى له هنا .

(٥) الفرسخ ، كما ذكرنا ، ٦ ك. م. تقريباً .

آخر شَرَف إشبيلية . . . ومن هذه الشرف يجلب الزيت إلى بلاد الروم وبعض بلاد الأندلس وإلى جميع بلاد المغرب وافريقية ، وإلى أرض مصر والاسكندرية ، وربما بلغ منه إلى اليمن قليـــل ، وهذا الزيت أطيب زيت المعمور كله وأوْدَكُه[١] ، وذلك أن كل زيتون بجميع الأرض لا يبقى أكثر من سنة واحدة ، ويعفّن ، ولا يخرج منه زيت ، وزيتون هذا السّقع (يريد الصقع) يظل تحت الأرض عشرين سنة وثلاثين سنة وأكثر من ذلك ، فيكثر زيته ويخرج . . . »[٢] ويقول بعد ذلك (١٦٠ ا) : « وبالغرب من إشبيلية على نحو الفرسخ معدن التراب[٣] الذى يعمل منه النَّبل ، ولا يوجد هذا التراب فى الأندلس إلا فى هذا الموضع ، ومنه يجلب إلى جميع بلاد الأندلس للطباعين ، ومن عجب هذا التراب أنه ينبت كما ينبت الطَّفل » .

وهذه الملاحظات ذات القيمة الاقتصادية كثيرة جداً فى الكتاب ، وهى تؤيد ما ذهبنا إليه من أنه مجموع صنف للتجار والملاحين ، وواضح أنه لا يهتم بشىء قدر اهتمامه بالحاصلات وعيون الثروة ، وهذه هى التى تهم أولئك الناس فى المكان الأول .

ومن أحسن فقرات « جغرافية » الزهرى عن الأندلس تلك التى يتكلم فيها عن غرناطة ، فهى لا تدل فقط على أنه عاش فى هذا البلد زمناً وعرف ما فيه معرفة تامة بل تكشف عن حقيقة هامة ، وهى أن الكثير من منشآت

(١) فى الأصل : كلها وأودكها ، وصوبته للسياق . وأودكه أى أكثره مادة دهنية ، لأن الودك هو الدهن .

(٢) قارن بذلك ، الروض المعطار ، ص ٢١ و ١٠١

(٣) يريد تراب الحديد ، والمقصود الأحجار التى تحوى معدن الحديد وهى كثيرة فى الجبال الواقعة شمال إشبيلية وتمتد بعد ذلك شمالا بغرب وكانت تعرف عند جغرافيينا باسم جبال المعدن ، واسمها الحالى سيرا مورينا Sierra Morena أى الجبال السمراء ، وفيها إلى اليوم مناجم حديد ، ولا تزال توجد هناك إلى اليوم بلدة كبيرة تسمى المعدن Almaden تقع على بعد ١١٨ ك.م. شمالى قرطبة فى مديرية ثيوداد ريال ، والمراد بالطباعين هنا الحدادين الذين يطبعون النبال والسيوف أى يصنعونها .

غرناطة المنسوبة إلى بنى الأحمر كانت قائمة فيها قبل أن يتخذها محمد بن يوسف ابن الأحمر عاصمة ويشرع فى تحصينها وتعميرها فى سنة ٦٣٠/١٢٣٢ — ١٢٣٣ ؛ فان الزهرى كان فيها حوالى سنة ٥٤٥/١١٥٠ — ١١٥١ لأنه شهد منارة قادس قبل هدمها فى هذه السنة ، ثم حَدَّثَهُ بأمر هدمها واحد من الذين حضروا ذلك ، أى بعد سنة ٥٤٥ . وحتى إذا فرضنا أن ذلك كان فى شبابه ، فانه يستبعد أن يكون قد عاش إلى ما بعد سنة ٦٣٠ ورأى منشآت محمد بن يوسف بن الأحمر فيها ، فلم يبق إذن الا القول بأن غرناطة التى عرفها ووصفها هى غرناطة قبل بنى الأحمر . وإليك وصفه لها ، نثبته لما له من الأهمية (ورقة ٦٤ ب) : « ومدينة غرناطة على النهر الكبير المسمى بوادى شِنِّيل ، يشق وسطها ، ومنه يؤخذ الذهب الأحمر الذى ليس فى الأرض أطيب منه ، وهو الموضع الثالث من الأندلس الذى تقدم ذكره ، والذهب الذى يؤخذ فى هذا النهر انما هو ورقه ، وأكثر ما يوجد هذا الذهب فى وسط المدينة فى الموضع المعروف بالبردوية[1] [عند] باب القنطرة المعروفة بقنطرة الحرائين والقنطرة المعروفة بقنطرة القاضى فى مصب الخندق المنصب من جبل السبيكة ما بين الحمرة[2] ومَرُور[3] . وقد يوجد فى باب الوادى وأسفله يسير من الذهب . وهذا الذهب إذا جُمع فانه يَنْباع

(١) كذا فى الأصل ، ولعل صحته البنيده أو باب البنيدة وهو أحد أبواب غرناطة القديمة التى لا زالت آثارها باقية إلى اليوم إلى جوار باب البيرة وباب زايدة Bib Ceida فى شمال غربى غرناطة إلى الشمال من حى البياسين .

(٢) الحمرة أو باب الحمرة هو الرسم العامى للاسم الأصلى للباب الرئيسى من أبواب الحمراء ، وهو يلى الباب المعروف بباب الشريعة ، ويسمى هذا الباب الآن باسم بويرتا دل بينو أى باب الخمر ، ولا علاقة لهذا الباب بالخمر ، وإنما هو باب الحمرة حرفت إلى الخمرة وترجمت إلى البينو . وكان المظنون أن هذا الباب من انشاء بنى الأحمر ، ولكن يرى من هذا النص أنه كان موجوداً قبلهم .

(٣) كذا فى الأصل ، والأصح مورور والمراد ربض مورور إلى شمال غرناطة ، وكان عنده باب مورور ، نسبة إلى مدينة مورور وهى اليوم Morón . وباب مورور كان يسمى إلى عهد قريب باب الشرق Bib Axarc ثم سمى باب الشمس Puerta del Sol .

مثقاله بزايد على جميع الذهب بالرُّبع والخمس فى القيمة . وهذا النهر يدخل غرناطة من ناحية الجوف ، ويخرج قبليها ما بين القصبتين[١] على باب محكم الصنعة على البناء ، قد علق عليه رُقُقٌ مصفحة . وفى جوف هذا الباب بابان صغيران لاستقاء الماء وقت الحرب ، ولا يوجد مثل هذا الموضع فى الأندلس إلا فى غرناطة . وهذا النهر يشق غرناطة بشطرين ، قد بنى عليه أربع قناطر عالية البناء ، يجوز الناس عليها من النصف الواحد إلى النصف الثانى ، وهذه المدينة كثيرة البرودة والثلج ، ليس فى بلاد الأندلس أكثر منها برداً . ومن هذه المدينة يجلب الكتان والحرير إلى جميع بلاد الأندلس وبلاد المغرب ، ومن أحد عجائب هذه المدينة أن فيها طلسما من اللاطون . . . »

وقد بينا فى تعليقاتنا أهمية بعض ما تكشف عنه هذه الفقرة عن غرناطة قبل بنى نصر ، وهى من هذه الناحيــة وثيقة غاية فى الأهمية بالنسبة لمن يدرسون تاريخ غرناطة ، ولا يتسع المقام هنا للكلام بتفصيل عن كل الحقائق التى تكشف عنها هذه الفقرة .

وللمؤلف فى أثناء كلامه عن الأندلس ملاحظات عظيمة الفائدة ، وهذه الملاحظات تقع فى حديثه عن النواحى التى زارها وعرفها ، وقد رأينا حديثه عن المرية وغرناطة ، ومثل ذلك أيضاً حديثه عن صنم قادس ، وهى المنــارة الكبيرة التى يقال انها كانت قائمة على ساحل البحر قرب قادس ، وتعرف فى الروايات اللاتينية باسم Colunnae Herculis أى أعمدة هرقل ، وذِكرُها كثير فى مراجعنا الأندلسية ، ولكن الزهرى رآى تلك المنارة قبل هدمها سنة ٥٤٥/١١٤٩ — ١١٥٠ ووصفها بغاية الدقة كما رآها ، ثم حدثه بعض أصحابه بأمر هدمها ، والفقرة عظيمة الأهمية ، لأنها تدل على أن الزهرى كان حَيًّا فى ذلك الحين ،

---

(١) أى القصبة القديمة على التل الذى يقوم عليه حالياً حى البياسين ، وكانت هذه القصبة تسمى قديماً حصن الرمان ومنه جاء اسم غرناطة للبلد كله ، ولم يسم بالبياسين إلا بعد هجرة نفر من أهل بياسة Baeza إليه وسكناهم فيه . وهذه العبارة تدل على أن القصبة الجديدة وهى قصور الحمراء اليوم كانت قائمة قبل بنى نصر .

وأنه كتب كتابه بعد سنة ٥٤٥ بقليل ، وقد نشر دوزى هذه القطعة بأكملها وعلق عليها (الأبحاث ، جـ ٢ ملحق ٣٥ ص ٨٩ من الملاحق العربيـــة) مما يعفينا من إيرادها هنا ، ولكننا نجتزىء منها بفقرة تدل على دقته فى وصف ما شاهد ، وننشرها بحسب ما ورد فى مخطوطة أكاديمية التاريخ فى مدريد ، رقم ٣٥ ورقة ٦٠ ا وما يليها مراجعةً على ما نشره دوزى بناء على مخطوط المتحف البريطانى ورقة ٦٩ ب وما يليها) : « وكانت فى هذه المدينة (قادس) المنارة العجيبة ، وكان ارتفاعها مائة ذراع ، وكانت مربعة مبنية بالكذّان الأحرش المحكم النجارة معقَّدة فى أعمدة النحاس الأحمر ، وكان فى رأس هذه المنارة مربَّع ثانٍ قدر ثُلث الأول ، وكان فى رأس هذا المربع الصغير شكل مثلث محدود له أربعة أوجه ، على كل وجه من المربع الصغير وجه من المثلث ، ففى رأس تحديد المثلث رخامة بيضاء مربعة من شبرين فى شبرين ، وعلى تلك الرخامة مثال صورة ابن آدم من أبدع ما يكون من الاتقان وأحسن ما يكون من الانشاء ووجهه لناحية المغرب مما يلى البحر ملتفتاً على ناحية الشمال ، قد مدَّ ذراعه الشمال وقبض أنامله وأشار بسبابته على فم الخليج الخارج من البحر الأعظم المسمّى بالزقاق المعترض بين طنجة وبين جزيرة طريف ، كأنه يُرِى السالكَ ، وقد أخرج يده اليمنى للبر تحت لحافه وقبضها ، وفى يده عصى كأنه يشير برميها إلى البحر . وزعم كثير من الناس أنه مفتاح ، وهم فى ذلك على باطل من القول ؛ قال المؤلف لقد رأيته مراراً ولم أر فى يديه مفتاحاً ، وانما يظهر فى يديه شبه عود صغير لبعده من الأرض . ولقد أخبرنى من حضر هدم الصنم — وكان من العرفاء الذين حضروا تلك المنارة — أن الذى كان بيده عصى طولها اثنا عشر شبراً وفى رأسها شكاشف كالفرجلة وسيأتى ذكر هدم هذه المنارة فى موضعه ، ومنذ هدمت هذه المنارة انقطع دليلها ، وكان هدمها سنة أربعين وخمسمائة[1] فى أول الفتنة

(١) كذا فى الأصل ، والصحيح ٥٤٥ ، وسيذكر المؤلف هذا التاريخ فيما بعد .

الثائرة ببلاد الأندلس ، هدمها على بن عيسى بن ميمون ، حين شاع فى جزيرة قادس أن ذلك التمثال من الذهب ، فلما قلعه وجده من اللاطون ، وقد غسل بالذهب الطيب ، فجُرِّد عنه ١٢٠٠٠ دينار من الذهب ، فبطلت حركته من البحر . . . »

ومن الأخبار الشبيهة بهذه فى الكتاب خبر « البيلتين » اللتين صنعهما أبو القاسم بن عبد الرحمن بن رز ليسجل بهما أيام الشهر القمرى يوما يوما عن طريق ما يدخلهما من ماء نهر تاجة بتأثير المد الذى يتـــابع تطور القمر . والبيلة هى الحوض ذو البالوعة (بالإسبانية pila) ، وقد بنى ذلك المهندس العربى هاذين الحوضين داخل غرفة ابتناها فى الماء ، وجعل ثقبى الحوضين على سطح الماء بحيث إذا مَدَّ النهر وعلا الماء دخل منه فى الحوضين بقدر ما علا ، وإذا جزر نقص من ماء الحوضين بقدر جزر ماء النهر ، وقد نقلها عنه المقرى مع بعض التعديل (١) وشوَّه اسم المهندس ، فرأينا أن نأتى بها هنا على تواليها ، لأنها نموذج من أحسن صفحات هذا الكتاب وأقربها إلى روح العلم . وقد أورد الزهرى خبر هاتين البيلتين فى الفصل الذى اختص به طليطلة ، وهو يتضمن معلومات طيبة لها قيمتها ، ولهذا فسنورده كله ونعلق عليه بما يسمح به المقام ، وسنأخذ بأحسن ما يتراءى لنــا من قراءات المخطوطات ، تاركين مفارقاتها لمن يريد أن يتتبع ذلك فى فقرات نص الزهرى كما نشره رينيه باسيه فى مجلد تكريم كوديرا .

« فصل : وكذلك من أعظم بلاد الأندلس مدينة طليطلة وهى مدينة عظيمة قد أحدق بها النهر المسمى بنهر تاجه وهى من بنيان الخزر وقيـل أنها من

---

(١) نشر هذه الفقرة ضمن ما نشر من وصف الأندلس من جغرافية العذرى رينيه باسيه فى مجلد التكريم المهدى إلى فرانثيسكو كوديرا (سبق أن أوردنا عنوانه) ، ص ٦٣٢ — ٦٣٤ وأورده المقرى فى النفح ، ١/١٩١ — ١٩٢ وعن لفظ بيلة انظر رحلة ابن جبير ، بتحقيق وليـام رايت ، (جامع المفردات) ص ١٨ و Simonet, Glosario de Voces Ibéricas y Latinas, p. 438

بنيان القوطيين ، وهى كانت دار ملكهم ودار ملك الروم من بعدهم ، وأصح الروايات أنها كانت من بنيان الخزر الذين كانوا فى مدة ابراهيم عليه السلام وقال ابن الجزار فى كتاب عجائب البلدان : أنه سكن فى هذه المدينة ابن النمرود وهو فرعون ابراهيم عليه السلام حين ولاه أبوه بلاد المغرب ، ومنها خرج إلى ساحل قرطجنة بكورة تدمير فى الأندلس ، وسيأتى ذكرها فى موضعها إن شاء الله تعالى . ومن عجائب طليطلة أن القمح يبقى فيها سبعين سنة وثمانين سنة لا يتسوس وهى كثيرة الزرع والضرع » .

« وفيها العجب العجيب الذى ما صُنع فى الدنيا مثله وهما البيلتان اللتان صنعهما أبو القاسم بن عبد الرحمن المعروف بابن رز ، قال : وذلك أنه عفا الله عنه لما سمع بذكر الطلسم الذى بمدينة أرين من أرض [الهند] الذى ذكر المسعودى أنه يدور باصبعه مع الشمس من طلوعها إلى غروبها كما تقدم ذِكره فى عجائب الهند ، صنع هو هاتين البيلتين ، وهما فى خارج طليطلة فى بيت فى جوف النهر الأعظم فى الموضع المعروف بباب الدباغين ، فمن عجائب هاتين البيلتين أنهما تمتلئان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه ، وذلك أنه إذا كان الوقت الذى يُرى فيه الهلال يخرج فيهما شيء من ماء ، فاذا أصبح كان فيهما رُبع سُبعهما من ماء ، فاذا كان آخر النهار انكمل فيهما نصف سبع ، فلا يزال كذلك يزيد بين اليوم والليلة نصف سبع حتى تنكمل سبعة أيام وسبع ليال فيكون فيهما نصفهما ، ثم يزيد كذلك نصف سبع فى كل يوم وليلة حتى ينكمل امتلاؤهما بكمال القمر ، فاذا كان فى ليلة خمس عشرة وبدأ القمر فى النقصان نقصتا بنقصان القمر فى كل يوم وليلة نصف سبع ، حتى يكون من الشهر أحد وعشرون يوماً واحدى وعشرون ليلة فينقص منهما نصفهما . ولا يزال كذلك ينقص كل يوم وليلة نصف سُبع ، فاذا كان من الشهر تسعة وعشرون يوماً لا يبقى فيهما شيء من الماء . وإذا تكلف أحد حين يكون فيهما الماء دون امتلاء وجلب لهما الماء وملأهما ابتلعتا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما

شىء من الماء الا ما كان فيهما فى تلك الساعة ، فهذا ماء داخل وماء خارج [١] ، وكذلك لو تكلف أحد عند امتلائهما أن يفرغهما حتى لا يبقى فيهما شىء ثم ازاح يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملأهما فى ساعة واحدة ، فهما أعجب وأشنع ، وان كان الصنم الذى بمدينة أرين الذى تقدم ذكره عجيباً فهذا أعجب منه ، لأن ذلك فى نقطة الاعتدال من الفلك والأرض بالموضع الذى لا ينقص فيه ليل ولا نهار ، وأما هاتان البيلتان إنما هما بالموضع الذى ينقص ليله ويزيد نهاره خارجاً عن الاعتدال ، فهذا أغرب من ذلك الصنم والله أعلم » .

« وكانت هاتان البيلتان فى بيت واحد ، فلما اتصل خبرهما بملك طليطلة الادفونش أراد أن يبحث عن حركاتهما فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من حيث يأتى إليها المـاء ، وكيف حركاتها ، فانبطلت حركة الواحدة وكان قلعها وفسادها فى عام ثمانية وعشرين وخمسمائة ، وكان سبب فسادهما حنين بن ربوة اليهودى المنجم لعنه الله ، الذى جَلب حَمام الأندلس كلها إلى طليطلة فى يوم واحد ، وكان ذلك فى عام سبعة وعشرين وخمسمائة ، وأخبره أن ولده سيدخل قرطبة ويملكها ، فاراد اليهودى أن يكشف حركة البيلتين فقـال أنا أقلعهما وأردهما كما كانتا وأحسن ، وأردهما تمتلئان بالنهار وتحسران فى الليل ، فلما قلعهما لم يقدر على ردهما ، وإنما أراد أن يسرق من صنعتهما ، فبقيت الواحدة معطلة والثانية باقية على حالها » .

وواضح أن الزهرى نقل هذه الفقرة برمتها من كتاب ابن الجزار الذى أشرنا إليه ، فان الكلام فيها علمى متسق صادر عن فهم صحيح لتركيب هاتين البيلتين وقائم على علم وثيق بالفلك ، ولا نسبة مطلقاً بين هذه الفقرة وأمثالها وتلك الفقرات الخرافية المهلهلة معنى وأسلوبا التى أتينا بنماذج منها ، وإنه لمن الغريب حقاً أن يجتمع الردىء جداً والجيد جداً بين دفتى كتاب واحد ، فهذا

---

(١) يريد : وذاك ماء خارج .

ليس تأليفاً أو تصنيفاً وإنما هو حشد احتطاب بِلَيْلٍ يؤيد ما افترضناه فى أمر هذا الكتاب ، وهو أنه مجموع من المعلومات احتطبها صاحبها من أى مصدر تيسر له : من أفواه الرحالة وأخبار التجار وأقاصيص السُّفَّار وحكايات السُّمَّار مع صفحات من كتب قيمة وأخرى غير قيمة . جُمعت كلها دون تكلف ترتيب أو تنسيق وسيقت شرحاً لخريطة مما كان المـــلاحون وأهل الرحلات يستعينون به ، وانصرف الاهتمام فيها إلى التجارات والمحصولات وما إليها مما يهم التجار وأهل الأسواق والملاَّحين .

ونخرج من هذا بأن كلام الزهرى عن الأندلس مقبول لا يخلو من الفوائد على الجملة ، وقد حفظ لنا قطعاً كثيرة من كلام ابن الجزار عن شبه الجزيرة ، ولا شك أن كتاب ابن الجزار هذا كان من أحسن ما كتب عنها . ونص كتاب الزهرى يزيد فى بعض فقراته فائدة على نص ابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعطار ، ولا شك أن نشره كاملا يضيف إلى معلوماتنا الجغرافية عن ذلك البلد .

أما كلامه عن غير الأندلس فيتفاوت من حيث القيمة ، فهو يجيد الكتابة — على طريقته — عن مصر والشام وجزيرة العرب ، وهذه الجودة تقل شيئاً فشيئاً كلـما اتجه نحو الشرق ، حتى إذا وصل إلى الصين لم نجد إلا حديث خرافة ، ولكن الزهرى يحرص دائماً على إيراد المعلومات التي تهم التجار ما أمكنه ذلك ، فهو يقول عن خراسان (١٣٨) « ومن هذه المدينة تجلب الثياب المعروفة بدبيقان ، وهى ثياب رقاق من القطن مرقومة بالذهب وألوان السندس الملون بأحسن الصِّباغ ، وهذه الثياب لا توجد فى غير هذه المدينة ، ومنها تجلب إلى أقطار الأرض » وأمثال هذه المعلومات القيِّمة تقـل فى حديثه عن بعض البلاد كالهند مثلا ، فان كلامه عنها سلسلة من أحاديث الخرافة والعجائب ، كأنما صرفته هذه الأعاجيب عن منهجه فمضى يتحدث عن الأفاعى والطيور العجيبة والغيلان المفترسة والأحجار السحرية والأشجار الغريبة فلم يعد يذكر منهجه إلا لماماً . ومن أمثلة عجائبه هنا قوله عن شجرة السيرج : « وهو

شجر طيار كبار ، تثمر فى كل عام فى شهر نيسان بجوز كبار ، وإذا كان شهر يونيه جمعت تلك الجوز ، وأخرج منها أطيار فى شكل الزرازير ، يطبخونها ويأكلون لحمها » (٩ ب) . ويلاحظ استعماله الأشهر السريانية والرومانية هنا ، مما يدل على أنه يُثبت ما سمع كما هو ، ولكنه لا ينسى الحاصلات والمعادن أبداً ، فهو مثــلا يتحدث عن جزائر السند ، ويذكر إحدى جزرها ويقول (ورقة ١١٩ ا) : « وفيها معدن الحديد ، ومنها يجلب إلى بلاد الهند والصين . كذلك يجمع فيها كثير من الذهب ، ويوجد فيها كثير من اللبان وكثير من الشيطرح (؟) » ، ثم يقول بعد ذلك « واختصرنا بلاد السند ، إذ ليس فيها أعجوبة تذكر ، فلنذكر الآن ما يأكلون من الحبوب والفواكه ، وأخلاق أهلها وصفاتهم وأديانهم وشرائعهم » ثم يذكر بعد ذلك كلاماً هو أوغل ما يكون فى الغرابة والبعد عن التصديق ! ، ويختمه بقوله : « وأكثر طعامهم القطانى وقليل من القمح ، وربما بلغ إليهم أحياناً زيت الزيتون ، وإنما زيتهم زيت الشمس وزيت الشحم ، وعندهم من الفواكه الكمثرى وعين البقر وقليل من التفاح ، ولكن يجلب إليهم كثير من التمر من بلاد العراق والزبيب من بلاد اليمن ، ويجلب إليهم من بلاد الحبشة كثير من طعامهم الذى يزرعونه عندهم على النيل[1] مثل الفول وغير ذلك » . وهكذا يجمع الرجل بين ما يشوق التاجر والملاح وما ينفعهما : حديث العجائب وحديث المتاجر .

والخلاصة أن حديث العجائب فى هذا الكتاب جزء من صلبه وتكوينه ؛ وعجائبه تتراوح بين عجائب المنشآت والصنعة — ما هو ممكن منها وما هو غير ممكن — وعجائب الأرض والمخلوقات من الطراز الذى رأينــاه عند أبى حامد الغرناطى ومن طرز أخرى شبيهة بما نقرأ فى ألف ليلة ، وهذه العجائب تكثر فى النواحى البعيدة التى لا يعرف الناس عنها كثيراً مثل نواحى خط الاستواء

---

(١) كذا فى الأصل ، والغالب أن المراد : على طريقة الرى كما هو الحال فى وادى النيل .

والهند والصين ، فهو يذكر فى خط الاستواء حيواناً شبيهاً بالقرد يسمى الزمردة « ذات سم زعاف يقتل من ساعته » (ص ٢ ب — ١٣) ، ثم يذكر طير الرخ ، ويضيف إلى ما نعرف من عجيب خلقه أنه يأكل بفمين ، ومن الطريف أنه يقول بعد ذلك : « وذكرت الحكماء فى هذه الأرض ما لا تقبله العقول ، واختصرنا ذكرها لبعدها عن الوجود ، والله أعلم » !

ثم ينسى أنه قال ذلك ، ويمضى فى الحديث عن جنوب خط الاستواء ويقول : « فمن نشأ وخُلق تحت الأبراج الشمالية فلا يستطيع دخول النصف الجنوبى ، لأنه يتغيب عليه الهواء ، ويرجع رأسه إلى ناحية الأبراج الجنوبية وقدماه إلى الناحية الشمالية ، وذلك بضد ما خلق فيه من الهواء ، وإنما يدخل النوبة والحبشة[1] فى هذا الموضع على خط الاستواء على ما تقدم ذكره لأنهم نشأوا ما بين الجنوب والشمال ، فهواؤهم ممتزج بعضه ببعض ، فلذلك يدخلون فى هذه الأرض عشرين فرسخاً ونحوها ، ثم يغلب عليهم الهواء ويقتبلون (يريد ينقلبون) فى الأرض ، فلا يمشون فى الأرض لذلك كله » .

وتكفى هذه العجيبة ، فإن الكتاب ملئ من أمثالها ، والزهرى حريص على إيرادها فى كل فقرة من كتابه تشويقاً لقارئه وامتاعه بهذه الأحاديث التى أصبحت بعد أبى حامد الغرناطى جزء من الجغرافية ، بل أصبحت هى الجغرافية كلها فى كثير من الأحيان .

أبو بكر بن العربى وميلاد أدب الرحلات فى الأندلس

ونختم هذا الفصل عن معاصرى الإدريسى بالكلام عن ناحية من نواحى نشاط الفقيه الأندلسى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربى المعافرى (٤٦٨ — ٥٤٢ / ١٠٧٦ — ١١٤٨) نَبَّهَ إليها أغناطيوس كراتشكوفسكى فى

(١) يريد أهل النوبة والأحباش .

كتابه الجامع عن تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، وهذه الناحية هى مؤلفات ابن العربى فى وصف رحلته إلى المشرق ، وحديثه عما زار من البلاد ومن لقى من العلماء .

وقد أصاب العلامة الروسى عندما قال إن ابن العربى « أول من وضع الأساس لهذا الفن حسب علمنا »[١] لأن ما وصل إلينا من أوصاف رحلات ابن العربى هو بالفعل أقدم ما وصل إلينا من ثمرات هذا الفن فى الأندلس ، وقد يكون غيره قد سبق إلى ذلك ، ولكن شيئاً من ذلك لم يصلنا على أى حال .

وقد كتب ابن العربى وصفاً مفصلا لرحلاته سماه « ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة » لم تصل إلينا منه إلا فقرات فى كتب شتى سنشير إليها ، وذكر أطرافاً من أخبار رحلته ومن لقى من العلماء فى خطبة كتابه المسمى « قانون التأويل فى تفسير القرآن » ، وقد ضاع هذا الكتاب أيضاً ، وليس لدينا منه إلا نقول ؛ ثم استخلص من « ترتيب الرحلة » بضع رسائل شبه رسمية كتبها إلى الخليفة المستظهر يتحدث إليه فيها عن أفضال المرابطين وخدماتهم للإسلام ، ورسائل أخرى كتبها له محمد بن محمد بن محمد بن جهير وزير المستظهر ، وخطابات أخرى يرد تفصيلها فيما بعد ، وجمعها كلها فى رسالة نستطيع أن نسميها « شواهد الجلة والأعيان فى مشاهد الإسلام والبلدان[٢] » وهذه الرسالة هى التى وصلت إلينا كاملة تقريباً .

ولسنا فى حاجة إلى أن نقف طويلا عند حياة أبى بكر بن العربى ، فقد أجملنا خطوطها الرئيسية فى « تاريخ الفكر الأندلسى » ، وعَرَضَها عرضاً سريعاً كراتشكوفسكى فى كتابه ، وتحدث عنه يونس بوبجس فى كتابه مع تفصيل مشكور ، وجمع كل المادة الموجودة عن حياته محب الدين بن الخطيب

---

(١) اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ١/٢٩٨

(٢) استخلصت هذا الاسم من عبارة وردت فى السياق وسيجىء ذكرها .

فى مقدمته الحافلة لكتاب «العواصم من القواصم» لابن العربى (القاهرة ١٣٢٧) وأحصى كذلك كل مؤلفاته وأعماله .

وسنورد هنا ما لابد لهذا البحث من معرفته من حياة ابن العربى الحافلة بالحركة والأحداث . ولد فى اشبيلية فى ٢٢ شعبان ٤٦٨/ابريل ١٠٧٦ وكان أبوه عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربى (٤٣٥ — ٤٩٣/١٠٤٣ — ١٠٦٩)[(١)] من علماء اشبيلية المعروفين وإليه يرجع الفضل فى توجيه ابنه نحو العلم والدراسة . أما أمه فقد كانت من بيت من بيوت العلم والرياسة فى اشبيليـــة ، فكان أخوها الحسن بن عمر بن الحسن الهوزنى (٤٣٥ — ٥١٢) «فقيهـــاً مشاوراً عاليـا فى روايته ، ذاكراً للأخبار والحكايات ، حسن الايراد لها»[(٢)] ، أما أبوها عمر بن الحسن بن عمر بن عبد الرحمن بن عمر الهوزنى (٣٩٢ — ٤٦٠) فكان عالمـاً ، ولكنه تطلع إلى السياسة ونافس المعتضد بن عباد فى الاستئثار بالسلطان ، ولم يستطع الثبات أمامه ، فقتله المعتضد «بيده ، ودفنه بثيابه وقلنسونه ، وهيل عليه التراب داخل القصر»[(٣)] . ويبدو أن تلك النهاية المحزنة كان لها أثر على البيت كله ، فاستكان أفراده لبنى عباد على نفور وكراهة . ومن الثـابت على أى حال أن خال أبى بكر بن العربى وهو أبو القاسم الحسن بن عمر الهوزنى كان من الساعين فى القضاء على بيت بنى عباد ، ومن المحرضين ليوسف بن تاشفين على ذلك ، حتى خُلع المعتمد بن عباد ونفى إلى أغمات .

وفى هذه السنة بالذات ، وبعد أن صارت اشبيلية فى ملك المرابطين كانت سن أبى بكر بن العربى ١٦ سنة ، فخرج به أبوه فى رحلة حج ودراسة وسماع إلى المشرق ، وخلال هذه الرحلة إلى المشرق نلاحظ أن أبا بكر بن العربى

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٦٣٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٣١٥

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٦٠

كان متفتح الذهن واعياً لما يمر عليه من بلاد وناس ، وسيدون بعض ملاحظاته عن رحلته هذه فى « ترتيب الرحلة » وفى بعض فقرات « قانون التأويل » ، ثم فى « شواهد الجلة والأعيان » ، ونلاحظ عليه فى هذه السن الباكرة حماساً للمرابطين وتقديراً عظيماً لهم .

لم تكن رحلة الأب والابن بالبحر يسيرة ، فقد ألجأتهما الأنواء إلى الرسو فى ميناء بجاية ، وكان فى ذلك الحين مرسى صغيراً لم تمض على إنشائه سنوات ، فقد اختطه سنة ٤٥٧ / ١٠٦٥ محمد بن البَعْبَع أمير البحر لتميم بن المعز ابن باديس الزيرى ، ورغم ذلك فقد كان فيه نفر من العلماء سمع منهم أبو بكر وأبوه ، وهو يذكر بصفة خاصة أبا الحسن على بن محمد بن ثابت الحداد الخولانى المقرئ ويقول عنه « فكنت أحضر عليه كتابه المسمى بالاشارة وشرحها من تأليفه » . ثم انتقلا إلى المهدية فى أواخر ٤٨٥ / ١٠٩٢ وهناك لقى ابنُ العربى الامام أبا عبد الله محمد بن على المازرى (٤٥٣ — ٥٣٦ / ١٠٦١ — ١١٤١) وسمع عليه .

ومن المهدية رحل أبو بكر مع أبيه بالبحر إلى الاسكندرية ، ولكن البحر كان أقسى عليهم هذه المرة مما كان فى المرة السابقة ، فثارت عاصفة حطمت السفينة ، وكاد ابن العربى وأبوه يغرقان ، ولكنهما استطاعا الوصول إلى الشاطئ فى أسوأ حال ، وسيصف ابن العربى ذلك فى « قانون التأويل » وكان خروجهما من البحر فى موضع من ساحل طرابلس تسكنه بيوت من بنى كعب بن سُليم ، فأكرمهم رئيس أولئك السُّلَمِيِّين ، ثم واصلا السير إلى الاسكندرية .

لم يطل مقام أبى بكر وأبيه فى الاسكندرية ، بل اتجها إلى القاهرة فوصلاها قبل نهاية سنة ٤٨٥ / ١٠٩٢ وكان الخليفة إذ ذاك هو المستنصر والدعوة الفاطمية على أشدها وعلماء السنة يسترون مجالسهم لاسماع تلاميذهم ، فكان ابن العربى يذهب إلى القرافة الصغرى قريباً من قبر الامام محمد بن إدريس الشافعى ليسمع دروس القاضى أبى الحسن على بن الحسين بن محمد الخلعى

(٤٠٥ — ٤٩٢) وكان كبير مشايخ الشافعية فى وقته حتى كان يلقب بمسند[(١)] مصر . وسمع فى مصر أيضاً من أبى الحسن على بن شرف ومهدى الوراق ، وأبى الحسن بن داوود الفارسى[(٢)] .

ثم انتقـل أبو بكر بن العربى إلى بيت المقدس ، وهناك لقى أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشى الفهرى المعروف بابن أبى رَنْدَقه (٤٥١ — ٥٢٠ / ١٠٥٩ — ١١٢٦) وهو أندلسى مثل ابن العربى ، ولم يكن قد استقر بعد فى الاسكندرية ، وقد أفاد ابن العربى كثيراً من دروس الطرطوشى وسمع ما كان يدور أثناءها من المناقشات وشارك فيها ، واستلفت انتباهَه بصفة خاصة موضوعُ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو موضوع ظل يشغل بال ابن العربى من ذلك الحين ، لأن علماء الأندلس كانوا يشعرون بعد ضياع الخلافة وتفرق بلادهم أن من واجبهم رعاية قومهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما بيناه فى دراستنا عن « شيوخ العصر فى الأندلس » وسيكتب ابن العربى عن ذلك الموضوع كثيراً فى كتبه . ومن الموضوعات التى أثيرت فى مجالس الطرطوشى موضوع فضل الصحابة على[(٣)] غيرهم ، وربما كان هذا هو الذى أوحى إلى ابن العربى فيما بعد كتابه المسمى « العواصم من القواصم » .

وأقام ابن العربى فى بيت المقدس ثلاث سنوات سمع فيها إلى جانب الطرطوشى دروس ابن الكازرونى ، وقال فيه « كان يأوى إلى المسجد الأقصى ، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات ، ولقد كان يقرأ فى مهد عيسى (أى فى بيت لحم) فيُسمع من الطور ، فلا يقدر أحد أن يصنع شيئاً دون قراءته إلى الاصغاء إليه[(٤)] » . وتجول ابن العربى بعد ذلك فى نواحى فلسطين وزار وادى موسى ووصفه فيما بعد .

(١) السبكى ، طبقات الشافعية ، ٣/٢٩٦

(٢) محب الدين الخطيب ، مقدمة العواصم من القواصم ، ص ١٤

(٣) محب الدين الخطيب ، ص ١٥

(٤) نفس المصدر والصفحة . وقد رواها محب الدين على هذه الصورة ، ومن الواضح أن العبارة فى حاجة إلى تقويم .

ثم انتقل إلى دمشق وسمع على نفر من شيوخها ، ودخل بغداد حوالى سنة ٤٩٠/١٠٩٧ فى أوائل خلافة أبى العباس أحمد المستظهر بالله بن المقتدى[(١)] (٤٨٧ — ٥١٢/١٠٩٤ — ١١١٨) .

وقد طالت إقامة ابن العربى فى بغداد ، وسمع من شيوخها إذ ذاك ما بين شافعية وحنبلية ومعتزلة ، ودارت بينه وبينهم محاورات كانت بعيدة الأثر فى تكوينه الذهنى والفقهى . ويذهب محب الدين بن الخطيب إلى أن ابن العربى لقى فى بغداد محمد بن تومرت ، وهذا غير معقول قطعاً ، لأن ابن تومرت بدأ رحلته إلى المشرق سنة ٥٠٠ أو ٥٠١/١١٠٦ — ١١٠٧ ، ولا يمكن أن يكون قد وصل إلى المشرق قبل سنة ٥٠١ ، وفى هذا الوقت كان الغزالى قد ذهب إلى طوس حيث توفى سنة ٥٠٥/١١١٢[(٢)] . وفى سنة ٥٠١ كان ابن العربى قد عاد إلى اشبيلية منذ ثمان سنوات ، ومع هذا فَسَيُسْأَل ابن العربى فى محضر عبد المؤمن بن على إن كان قد لقى ابن تومرت فى بغداد ، وسيضطر الشيخ إلى أن يجيب إجابة مبهمة ، ولكنه لن ينجو من عقابيلها ، لأن عبد المؤمن كان يريده أن يقرر أمام الناس أنه رأى ابن تومرت بين طلاب الغزالى ، فاخلف ابن العربى ظنه .

فى بغداد ندب ابن العربى نفسه لمهمة سياسية خدمة للمرابطين ، فكتب خطاباً إلى الخليفة المستظهر يعدد فيه فضائل يوسف بن تاشفين ويرجوه تأييده ،

---

(١) يذهب محب الدين الخطيب (مقدمة القواصم من العواصم ، ص ١٦) إلى أن ابن العربى دخل بغداد فى خلافة المقتدى ، وقبل خلافة المستظهر بسنتين ، وهذا غير ممكن ، لأن المقتدى توفى سنة ٤٨٧ / ١٠٩٣ ومعنى ذلك أن ابن العربى دخل بغداد سنة ٤٨٥ ، وهى السنة التى خرج فى ربيع الأول منها من اشبيلية ، وقد وصل إلى مصر قرب نهاية هذا العام ، ثم رحل إلى بيت المقدس وقضى فيه ثلاث سنوات ، ثم انتقل إلى دمشق وقضى فيها وقتاً ، ثم دخل بغداد بعد ذلك ، ولهذا قلنا انه دخلها حوالى سنة ٤٩٠ ؛ هذا إلى أن أول رسالة كتبها ابن العربى إلى الخليفة المستظهر مؤرخة فى رجب ٤٩٠

(٢) راجع مناقشة التواريخ فى : Ambrosio Huici Miranda, *Historia política del Imperio Almohade,* Tetuán 1956, p. 27-32.

ونص هذه الرسالة بين أيدينا ، وهو لا يشير إلى أن أحداً كلفه بذلك ، والخطاب مؤرخ فى رجب ٤٩٠/يونيو ١٠٩٧ ثم أخذ كتابا من محمد بن محمد ابن جهير وزير المستظهر إلى يوسف بن تاشفين يمتدحه ويؤيده ويقول فيه : « ولقد بالغ هذا الفقيه وولده (ابن العربى وأبوه) فى الثنـاء على الأمير ، وأطنب فى وصف ما يعتمده من لزوم قوانين العدل والانصاف ومجانبة طرق العسف والاعتساف » وهذه العبارة تدل على أن هدف ابن العربى وأبيه من انتداب نفسيهما لهذه المهمة كان التقرب من المرابطين ، والوصول إلى مكانة طيبة فى دولتهم .

وقد أورد ابن العربى بعد ذلك فى « شواهد الجلة » خطاباً قال إن الغزالى حَمَّله إياه فى تأييد المرابطين ، والخطاب كما يدل عليه أسلوبه وطريقته لا يشبه الغزالى فى شىء ، فهو يدعو للخليفة المستظهر بالله دعوة صريحة وهو يستعمل مصطلحاً ديوانياً ، وهو مسرف فى رضاه عن المرابطين ، وأبو حامد كان رجلا معتدلا متزناً بعيداً عن ذلك كله . وعندما لقى ابنُ العربى الطرطوشىَّ فى الاسكندرية وهو فى طريق العودة إلى الأندلس ، حمل منه خطاباً طويلا فى تأييد المرابطين أتى بنصه أيضاً فى نفس الكتاب .

وقد دفع ابن العربى إلى ذلك طموحه إلى الوظائف وتطلعه إلى المكانة فى دولة المرابطين ، وقد كان غنيـــاً عن ذلك بعلمه ومكان بيته ، ثم إن السلطان فى أندلس ذلك الحين كان قد هان وخلا من كل رونق ، ولكن ابن العربى كان بطبعه رجلا طموحاً إلى الوجاهة والمكانة بين الناس ، وسيصل بالفعل إلى ما كان يطمع فيه أيام المرابطين ، ولكن مركزه سيتحرج عندما ينتقل الأمر إلى الموحدين .

ولا يمكن أن يكون ابن العربى قد أطال السماع من أبى حامد الغزالى ، فان ابن العربى عندما وصل إلى بغداد كان الغزالى قد بارحها واعتزل فى دمشق ليؤلف كتاب احياء علوم الدين ، ثم حج وعاد إلى بغداد ، وهنا لقيه ابن

العربى وأخذ عليه ، ثم غادر الغزالى بغداد إلى دمشق ، ثم خرج سائحاً إلى بيت المقدس ومنها إلى الاسكندرية ، ولهذا ، فإننا نستبعد أن يكون ابن العربى قد لقيه مرة أخرى فى صحراء الشام كما ذكر فى رحلته .

وبعد أن عاد ابن العربى إلى الأندلس انصرف إلى التدريس والتأليف حتى سنة ٥٢٨/١١٣٤ عندما دعاه تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين والى اشبيلية لأبيه علىّ بن يوسف بن تاشفين إلى تولى القضاء ، فتولاه عن جدارة وقدرة شهد له بها كل الناس ، ولكنهم أخذوا عليه اهتمامه الزائد بالوالى وحرصه على لقائه حتى أن أحد السامعين عليه — وهو أبو عبد الله الإشبيلى — انقطع عن حضور دروسه ، وسئل فى ذلك فقال : « كان يدرِّس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان » .

وكان ابن العربى حازماً فى قضائه لا يجامل أحداً ، فنفر منه بعض الناس وحملوا عليه ، ثم إنه ندب نفسه للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد ابتُلى المرابطون وولاتهم بطائفة من صغار الفقهاء كان لهم أسوأ الأثر فى سير الأمور فى الدولة ، فسعى نفر من هؤلاء بابن العربى عند تاشفين بن علىّ بن يوسف ورجاله ، ويبدو أن ابن العربى كان مبغضاً لهؤلاء الفقهاء شديداً عليهم ، ونحن نستنتج ذلك من موقفهم مما تعرض له من إصلاح سور اشبيلية ، فقد خرج عن شيء من ماله ودعا الناس إلى التبرع بجلود الأضاحى لاستخدام ثمنها فى ذلك العمل الجليل ، وتمكن بهذا من إصلاح السور . ولكن تصديه لهذا الأمر فتح الباب لنقده والتأليب عليه ، فوثب به نفر من العامة وأرادوا اقتحام داره ، وكان ذلك قبل سنة ٥٣٦/١١٤١ — ١١٤٢ لأنه تكلم عن الحادثة فى « العواصم من القواصم الذى ألفه فى ذلك التاريخ ، قال بعد أن ذكر مأساة استشهاد الخليفة عثمان (ص ١٣٧ — ١٣٨) « ولقد حكمتُ بين الناس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لم يكن يُرى فى الأرض منكر ، واشتد الخطب على أهل الغصب ، وعظم على الفَسَقَة الكَرْب ، فتألبوا وألبوا ،

وثاروا إلىّ . فاستسلمت لأمر الله ، وأمرت كل من حولى الا يدفعوا عن دارى ، وخرجت على السطوح بنفسى ، فعاثوا علىّ وأمسيت سليب الدار ، ولولا ما سبق من حسن المقدار لكنت قتيل الدار » . وقد نُهبت كتب ابن العربى فى ذلك الحادث ، ثم صُرف عن القضاء وانتقل إلى قرطبة ، وفرغ للتدريس والتأليف .

وعاد ابن العربى بعد ذلك إلى اشبيلية بعد موت على بن يوسف بن تاشفين سنة ١١٤٢/٥٣٧ — ١١٤٣ فى الغالب ، ولكنه لم يعد إلى القضاء ولم يتول عملا ما ، وفى هذه الأثناء كان الصراع بين المرابطين والموحدين فى المغرب قد وصل إلى ذروته ، وانتهى بمقتل تاشفين بن على بن يوسف قرب وهران فى سنة ١١٤٤/٥٣٩ ثم الاستيلاء على مراكش وقتل أبى إسحاق ابراهيم بن تاشفين آخر أمراء المرابطين فى شوال ٥٤١/مارس ١١٤٧ .

ولم يكد الأمر يستقر للموحدين حتى فكر ابن العربى وطائفة من علماء اشبيلية وشيوخها فى الوفود على عبد المؤمن بن علىّ فى مراكش لتقديم ولائهم ، وكانت اشبيلية قد أصبحت فى الحقيقة عاصمة الأندلس بعد تضعضع أمر قرطبة نتيجة لفتن الفترة الأولى من عصر الطوائف ، وقد أورد صاحب « الحلل الموشيه » بياناً باسماء رؤساء الوفد ، وبمقارنة تواريخ ميلادهم نستنتج أن أبا بكر ابن العربى كان أكبرهم سناً ، فقد كان إذ ذاك فى الرابعة والسبعين من عمره ، وربما كان أكثرهم اهتماماً باظهار الولاء للموحدين ، فإن علاقته بالمرابطين كانت معروفة للناس أجمعين ، وهذه رسائله فى « شواهد الجلة » أكبر دليل على ذلك ، وكذلك كانت علاقته بتاشفين بن على بن يوسف حديث الناس . وربما كان أفضل لهذا الشيخ الجليل لو قعد مكانه وليجر القضاء بما يريد ، ولكن ابن العربى كان كما ذكرنا قلقاً لا يهدأ ، والأغلب أن الذى دفعه إلى تجشم عناء هذه الرحلة هو الخوف من أن تظن الدولة الجديدة به سوءً ، فنهض يحمل

عبء سنواته ومضى يلتمس الأمان غير عالم أنه كان يمضى بقدميه نحو ما خاف منه ، وسبحان مَن جعل مصائر الخلق وراء أستار الغيوب .

وصل الوفد الإشبيلى إلى مراكش واستقبله عبد المؤمن بن على ، وكان أول المتكلمين أبا بكر بن العربى ، ثم أعقبه أبو بكر بن الجد ، وكان بعدُ شابا ، ثم التفت عبد المؤمن إلى أبى بكر بن العربى وسأله إن كان قد لقى محمد بن تومرت فى مجلس الغزالى ، فأُحرج الشيخ إذ كان لابد — إذا أراد السلامة — أن يقول إنه لقيه ، ولو أنه قرر الحقيقة وقال أنه لم يره فى مجلس الغزالى لكانت العافية وخيمة ، وربما أدى الأمر — بعد عقابه — إلى أن يقال إن ابن العربى هو الذى لم يلق الغزالى ولا رآه ، والقول قول السلطان ! فتحيل الشيخ للخلاص وقال : « لم ألقه هناك ولكنى سمعت الناس يتحدثون عنه ، وكان الشيخ — أى الغزالى — يقول : لا ريب فى قرب ظهوره[1] » ، ولم تأت الاجابة على وفق ما أراد عبد المؤمن ، فصرف الوفد ولكنه لم يأذن له فى مغادرة مراكش ، فظلوا هناك تسعة شهور ، ثم أذن لهم فى العودة إلى بلدهم ، وخرجوا عائدين ، فإذا هم على مسيرة يوم من فاس أدركت المنية الشيخ أبا بكر بن العربى ، ويذهب النباهى إلى أنه مات مسموماً[2] ، فحمل إلى فاس ، وووري التراب فى ٧ ربيع الأول ٥٤٣/ ٢٧ يوليو ١١٤٨ ودفن خارج باب المحروق بتربة القائد مظفر .

كتابات ابن العربى فى الرحلات

تلك كانت حيـــاة أبى بكر بن العربى . قرابة ٧٥ سنة هجرية حافلة بالدرس والتأليف والرحلات والحوادث والمتاعب ، وقد جرَّ هو على نفسه الكثير

---

(١) الحلل الموشيه ، ص ١٢٣ — ١٢٤

(٢) النباهى ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٩٥

منها ، لأنه كان إلى جانب صفاته التى ذكرناها متكلماً جَدِلا عنيف القول لا يكاد لسانه يسكت ، وكان منافساً لغيره طامحاً إلى الجـاه فى زمان مائل وفتن لا تكاد تنقطع ، فكثرت متاعبه وكثر القائلون فيه .

ولكن مثل هذه الحياة تشحذ الذهن وترهف الفهم ، وبالفعل كان أبو بكر بن العربى آية فى الذكاء وسرعة الخاطر وحضور البال وسرعة الحفظ ، وقد استوعب فى حياته علماً كثيراً وألف كثيراً وكتب فى أسلوب شائق يتروح بين التصنع إذا سجع والسلاسة إذا أرسل نفسه على سجيتهـا ، وقد أحصى محب الدين الخطيب مؤلفات ابن العربى ، وأثبت خمسة وثلاثين كتاباً لم يصل إلينا منها إلا القليل ، ومعظم هذه المؤلفات رسائل صغيرة مثل « شرح حديث جابر فى الشفاعة » و « حديث الأفك » و « شرح حديث أم زرع » وبعضهـا مطول فى أجزاء مثل « عارضة الأحوذى فى شرح الترمذى » وقد وصل إلينا وطبع فى القاهرة ، واعتماداً على ما وصلنا من كتبه نستطيع القول أن الرجل كان غزير المـادة فى تأليفه ، بدليل ما نجده من فيض المعارف والمعلومات فى كتاب صغير مثل « العواصم من القواصم » وهو كتاب فى فضائل الصحابة والدفاع عنهم واستبعاد وقوع الخطأ منهم ، (نشره محب الدين الخطيب مع تعليقات ضافية فى القاهرة سنة ١٣٧١) . ومن حسن الحظ أن ابن العربى كان من أولئك الذين يميلون إلى الحديث عن أنفسهم ، فلا تكاد تسنح فرصة أثناء الكلام فى أى موضوع إلا استطرد إلى الحديث عن نفسه أو عن شىء وقع له ، ويبدو أن الرجل كان مبتلى بالأعداء والخصوم ، فهو فى دفاع عن نفسه أبداً ، وكانت كتبه هى وسيلته فى هذا الدفاع ، ومن المعروف أن نصوص الكثير جداً من كتب شيوخنا القدامى إنما هى روايات تلاميذهم ، كتبوها والشيخ يتلو ويشرح ، فكان التلاميذ يثبتون كل شىء — ما فى الموضوع وما هو خارج عنه — والكثير مما لدينا من كلام ابن العربى عن نفسه إنما هى استطرادات أثناء الدروس دفعت إليها الرغبة فى الدفاع عن النفس ، واندرجت

بعد ذلك فى النصوص وأصبحت جزء منها ، فظفرنا بهذا بمعلومات عظيمة القيمة عن الرجل وأحواله .

وسنرى مثلا واضحاً من ذاك فى خطبة رسالة « شواهد الجلة » التى سنوردها بعد قليل ، بل هذا واضح فى خطبة عارضة الأحوذى ، قال : « وفى علم علام الغيوب انى أحرص الناس على أن تكون أوقاتى كلها مستغرقة فى باب العلم ، إلا أنى مُنيتُ بِحَسَدة لا يتقون[١] ومبتدعة لا يفهمون ، قد قعدوا منى مزجَر الكلب يبصبصون ، والله أعلم بما يتربصون « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا إنا معكم متربصون » بيد أن الامتناع عن التصريح بفوائد الملة والتبرع بفوائد الرحلة لعدم المنصف أو مخافة المتعسف ليس من شأن العالمين . . . »[٢] .

كتاب ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة

لم نعثر إلى الآن على هذا الكتاب ، وما لدينا منه نقول فى كتب سنشير إليها ، ولكننا وجدنا إشارة طيبة إليه فى خطبة « شواهد الجلة » تعطينا فكرة عن ذلك الكتاب وما فيه . قال ابن العربى بعد ديباجة قصيرة : « أما بعد فإن الداخل فى طلب العلم كثير ، والسعيد قليل ، وعدم الإنصاف خطب جليل ، وكم من حاضر بِعَرَفَة من غير معرفة ، ونازل بمنى وما نال مُنى[٣] ، وكم من قارىء فى بغداد ، خرج وما قُرِى بزاد ، فالشجر يوجد والثمر يعدم ،

(١) فى الأصل المطبوع : لا يفتنون ، ولا معنى له هنا ، وأرجح أن الصحيح ما أثبته .
(٢) عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى لابن العربى ، القاهرة ١٩٣١ ، ٣/١
(٣) إذا لاحظنا أن ابن العربى لم يؤد فريضة الحج — كما يستنتج من المعلومات التى لدينا إلى الآن — فهمنا هذه العبارة على أنها تعريض بمن حجوا ولم يستفيدوا من حجهم .

والأجسام تفنى والأرواح تتقدم ، والقشر عام واللب خاص . وقد شاهدت من طلبة العلم بافريقية ومصر والشام والساحل والعراق والحجاز ما لا يأتى عليه الاحصاء ، ولا يُنال بالاستقصاء ، جميعهم يأمل الغاية وما حصل عليها ، ويقصد النهاية وما انتهى إليها ، وخلع ثياب الوطن ، واستظهر على الغربة واستوطن ، يجتهد بزعمه وهو لا يعلم كيف ولا أين ، ويرجع بعد طول المغيب بخفى حنين ، ومنهم من يأخذ العلم بدبيب ، ويقنع منه بأدنى نصيب ، فيعود بباعٍ قصير وناظر غير بصير إن رمى عنه فغايته الأعمش ، أو بوحث فليله ليلُ أعمى وأعطش ، ومنهم من يعتمد من العلوم فناً ، ويرى غيره دونا(١) ، فلا عليه حصل ، ولا به حفل ، ومنهم من يدخلها عاثراً لا ينتعش ، وأملس لا ينتقش(٢) ، ومنهم من يدخلها لمحَ بارق ، وقبَس طارق ، وعجالةَ راكب أولى خطى برقه وخمد نفسه وقبره عجالته(٣) . ولما سبق خير القضاء برحلتى إلى تلك المشاهد الكريمة ، وحلولى فى تلك المقامات العظيمة ، دخلتها والعمر فى عنفوانه ، والغصن مائس بأفنانه ، والكتاب مختوم بعنوانه ، ومعى صارم لا أخاف نبوته ، وحصان لا أتوقع كبوته ، أب فى الرتبة وأخ فى الصحبة ، يسند ويعين ، ويسقى من النصيحة بماء معين ، وزوى الله بفضله عن قلبى كل بطاله ، وكشح عن فؤادى كل إهالة ، فجنيت من كل شجرة زهرة ، ووعيت من كل صنف درره ، وكشفت عن كل خفاء غوره ، وافتقرت من كل فن فقرة ، حسبما فسرته وأوضحته ، وشرحته وبينته ، وقررته ونزَّلته ، فى كتاب « ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة » ، وذكرت فيه لقاء الأعيان لنا ، وسِيَر الفضلاء معنا ، ولحظهم لجانبنا بناظر التعظيم ، ومقابلتهم

---

(١) الأصل دهرنا ، وقد صوبناه . (٢) كذا فى الأصل ، والعبارة قلقة .

(٣) ورد نص رسالة « مشاهد الجلة » ضمن مخطوط صوره الدكتور محمود على مكى من مكتبة القرويين فى فاس ، واستخرج معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد منه نسخة لمكتبته ، وهذا المخطوط هو الذى أخذ منه الأستاذ ليفى بروفنسال نص كتاب مفاخر البربر ، ويبدأ نص « مشاهد الجلة » فيه من ص ١١٣ ب وينتهى فى ص ١٤٩ ب ، والقطع التى أوردناهــا فى ص ١١٣ ا و ب . ويقوم الدكتوران مكى والعبادى بإعداد هذا المخطوط للنشر الآن .

ورودَنا بالتجليل والتكريم ، ووعدنا لهم على غاية الرضى والتسليم ، وانقلابنا عنهم بصفة المرتضى ، واتبعناهم جملا من طرائفهم ونتفاً من فوائدهم ، مما تتأرج به اصائل الأيام ، ويجلو نوره ديجور الظلام ، وكان ذلك أمراً يطول النظر فيه ، ويذهل الشادى بخواتمه عن مباديه ، فاستخرت الله تعالى على تجريد هذه الأوراق ، بشواهد الجلة والأعيان ، فى مشاهد الإسلام والبلدان[1] لنا بمزية التعظيم والتوقير ، وتسجيلهم لنا بتحصيل العلوم على غاية التوفير ، حتى يظهر البون ، ويتبين أن الله تعالى يختص من يشاء بالعون ، ويتحقق الحسود الناقص المتقصى لما حولى ، ليغض بزعمه منى ، أنه فاسد الفطرة خاسر الصفقة مقبح الوجه مستحق النَّجْـه ، وجعلته مراتب على حسب الوقت الذى حصل فيه كل نوع منه » .

وإذن « فكتاب ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة » رسالة كتبها ابن العربى لغرض معين ، وهو الحديث عن رحلته المشرقية وما درس فيها وما أفاده من هذا الدرس ومن لقى من العلماء والأعيان .

وواضح أن دافعه الأول إلى كتابة كتابه هذا هو الدفاع عن نفسه ضد خصومه الكثيرين وإظهار امتيازه على غيره ممن درس فى المشرق وبيان ما حصله من العلوم فى المدة القصيرة ، ثم تفصيل ما قام به من مجهودات إيجابية الربط بين الخلافة العباسية ودولة المرابطين ، وذلك هو ما أشار إليه ابن خلدون عندما قال إن يوسف بن تاشفين بعث « عبد الله بن محمد بن العربى المعافرى الإشبيلى وولده القاضى أبا بكر ، فتلطفا فى القول وأحسنا فى الابلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس ، فعقد له ، وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولا بأيدى الناس ، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من

---

(١) هذه هى العبارة التى اقتبسناها عنواناً لهذه الرسالة ، وهى ليست عنوانها على الحقيقة ، وإنما فعلنا ذلك تيسيراً للاشارة إليها .

الأقطار والأقاليم ، وخاطبه الامام الغزالى والقاضى أبو بكر الطرطوشى يحضانه على العدل والتمسك بالجد ، ويفتيانه فى شأن ملوك الطوائف بحكم الله [(١)] » .

ولم يقرأ ابن خلدون كتاب « ترتيب الرحلة » ، قراءة إمعان ، لأنه لو كان فعل ذلك لرأى بوضوح أن يوسف بن تاشفين لم يبعث عبد الله بن العربى (الأب) وابنه أبا بكر ليخاطبا الخليفة العباسى فى أمر توليته على المغرب والأندلس ، وهذا هو المعقول ، لأن عبد الله العربى (الأب) لم يكن كبير فقهاء الأندلس أو اشبيلية فى ذلك الحين ، بل لم يكن من كبارهم ، إذ كان هناك كثيرون يفوقونه مكانة وعلماً ، فكانوا لهذا أولى منه بأن يُنْدَبوا لهذه المهمة إذا كان ولابد أن يندب لها فقيه ، وأما ابنه فكان فى السابعة عشرة من عمره ، وهى سن لا تؤهل صاحبها لمثل هذه السفارة ، ثم إن يوسف بن تاشفين لم يكتب إلى الخليفة العباسى طالباً التولية على المغرب والأندلس ، وإنما الذى كتب هو ابنه على بن يوسف كما هو واضح من رسالة من الخليفة المستظهر العباسى ، سبق أن نشرناها [(٢)] ويصدق ذلك أيضاً على ما ذهب إليه ابن خلدون من أن الغزالى والطرطوشى افتيا يوسف بن تاشفين فى أمر ملوك الطوائف ، فهما فى الحقيقة لم يفتيا بشئ فى هذا الشأن ، وهذان خطاباهما — إذا صحا — فى « شواهد الجلة » يؤيدان ما نقول تأييداً صريحاً .

الحقيقة إذن أن عبد الله العربى وابنه ندبا نفسيهما لهذا العمل تبرعاً ورغبة فى اكتساب المكانة لدى المرابطين وسنرى مصاديق أخرى لذلك فى سياق ما يلى من الكلام .

والقطع التى لدينا من « ترتيب الرحلة » قليلة ، ولكن هذا القليل يدل على تيقظ والتفات وملاحظة ، ومن أسف أن الكثير من النقول التى لدينا لا تعيّن

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ٦/١٨٨

(٢) انظر مقالنا « سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الأندلس » صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ عدد ١ — ٢ ص ٥٥ وما يليها ، ووثيقة المستظهر واردة فى ص ٦٦ — ٦٨

مصدر النقل ، ولكن الفقرة التالية التى رواها المقرى فى نفح الطيب (٢/٢٤٢ — ٢٤٣) منقولة عن « ترتيب الرحلة » (نقلها بشىء من الاختصار ابن العربى نفسه ، كما يرى فى آخرها) وربما يكون المقرى أخذها من « قانون التأويل » : « وشاهدت المائدة بطور زيتاً مراراً ، وأكلت عليها ليلا ونهاراً ، وذكرت الله فيها سراً وجهاراً ، وكان ارتفاعها أشفَّ من القامة بنحو الشبر ، وكان لها درجان قبلى وجنوبى ، وكانت صخرة صلوداً لا تؤثر فيها المعاول ، وكان الناس يقولون : مُسخت صخرة إذ مُسخ أربابُها قردة وخنازير ، والذى عندى أنها صخرة فى الأصل ، قطعت من الأرض مَحَلاًّ للمائدة النازلة من السماء ، وكل ما حولها حجارة مثلها ، وكان ما حولها محفوفاً بقصور ، وقد نُحتت فى ذلك الحجر الصلد بيوتٌ أبوابها منها ومجالسها منها ، مقطوعة فيها ، وحناياها من جوانبها ، وبيوتُ خَدَمَتِها قد صوِّرت من الحجر كما تُصور من الطين والخشب ، فإذا دخلتَ فى قصر من قصورها ورَدَدْتَ الباب ، وجعلتَ من ورائه صخرةً مقدارَ ثُمن درهم لم يفتحه أهل الأرضِ للصوقه بالأرض ، وإذا هبَّت الريح وحثَت تحته التراب لم يُفتح إلا بعد صب الماء تحته والإكثارِ منه حتى يسيل بالتراب وينفرج منفرج الباب ، وقد بار بها قومٌ بهذه العلة ، وقد كنت أخلو فيها كثيراً للدرس ، ولكنى كنتُ فى كل حين اكنس حول الباب ، مخافةً مما جرى لغيرى فيها ، وقد شرحتُ أمرها فى كتاب ترتيب الرحلة باكثر من هذا » .

وطور زَيْتَا هذا (ياقوت ٦/٦٨) « جبل مشرف على المسجد (مسجد القدس) وفيما بينهما وادى جهنم » وهو إذن ليس وادى موسى كما ظن محب الدين بن الخطيب . ويسمى أيضاً بجبل الزيتون وهى الترجمة العربية لطور زيتا ، وعلى رأسه مسجد بُنى ذكرى لمقام عمر بن الخطاب فى هذه البقعة عدة أيام ، وبين الجبل ومسجد القدس يمتد واد فيه حدائق وكروم وغيران للرهبان وكنيسة

بنيت على قبر السيدة مريم ، وفيه كذلك بناء قديم يسمى قبر أبْسَلُوم يسميه العامة طَنْطُور أو بيت فرعون ، وقد وصفه ناصرى خسرو بتفصيل(١) . وأغلب الظن أن ابن العربى خلط بينه وبين وادى موسى ، فإن الوصف الذى يذكره ينطبق أكثر على هذا الأخير .

والقطعة التالية أيضاً من « ترتيب الرحلة » ، رواها المقرى فى النفح (٢/ ٢٣٩) قال : « منها ، أنه حكى دخوله بدمشق بعض بيوت الأكابر وأنه رأى فيه النهر جارياً إلى موضع جلوسهم ، ثم يعود إلى ناحيـة أخرى ، فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام فى النهر المقبـــل إلينا ، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا ، فلما فرغنا ألقى الخدم الأوانى وما معها فى النهر الراجع ، فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم هذه الناحية ، فعلمت السر ، وإن هذا لعجيب ، انتهى بمعناه » وهو عجيب حقاً ، أن يبلغ الحرص على ستر الحريم والتفنن فى الحيلولة بين الرجال ورؤيتهن إلى هذا المبلغ .

ولكن معظم مادة ابن العربى فى « ترتيب الرحلة » تدور على الشيوخ وما دار بينه وبينهم وطرائف مما سمع منهم ، وهو هنا بعيدٌ عن التواضع كما رأينا فى خطبة « شواهد الجلة » ، وقد ذكر المقرى أنه نُقِل عنه أنه قال : كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به أنا والقاضى أبو الوليد الباجى ، أو كلاما هذا معناه ، أو قال : لم يرحل غيرى وغير الباجى ، وأما غيرنا فقد تعب ، أو نحو هذا مما لم تحضرنى عبارته الآن »(٢) ، ولا ندرى لماذا أختص أبا الوليد الباجى وحده بهذا التكريم ، مع أن الذين رحلوا إلى المشرق قبله وقبل ابن العربى وأتوا بأكثر مما أتيا به كثيرون جداً ، ولكنه كان بطبعه رجلا حديد اللسان

(١) Guy Le Strange, *Palstine under the Moslems,* (1890) 218-220

(٢) أزهار الرياض للمقرى ، ٣/٦٣

قاسياً على غيره بقدر ما كان رفيقاً بنفسه ، مغالياً فى تقدير نفسه بقدر ما كان مسرفاً فى غمط اقدار الآخرين ، فكانت المساءة إلى الغير تصدر عنه فيضَ الخاطر وعفوَ اللسان والقلم دون أن يقدر موقعها وما تسببه للغير من ألَم ، وهذا يفسر لنا سببَ كثرة خصومه وحرصهم على أذاه ، وفى هذه العبارة الماضية مثل واضح لذلك ، فقد أهان المئــات من الشيوخ وأهل الفضل اسوأ اهانة بجرة قلم ، وهل هناك آلم من قوله « لم يرحل غيرى وغير الباجى ، وأما غيرنا فقد تعب » ؟ .

وملاحظاته فى رحلته لا تقتصر على ذكر الشيوخ وما سمع منهم ، بل فيها طرائف لغوية وفقهية وأشيـاء أشبه بالنوادر ، فمن الطراز الأول قوله : « سمعت الشيخ فخر الإسلام أبا بكر الشاشى ، وهو ينتصر لمذهب أبى حنيفة فى مجلس النظر ، يقول : يقال فى اللغة العربية لا تقرَب كذا — بفتح الراء — أى لا تتلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تدْنُ من الموضع »(١) ومن النوع الثانى قوله : « سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء بن عقيل يقول : انما تَبِـعَ الولدُ الأُمَّ فى المالية وصار بحكمها فى الرق والحرية ، لأنه انفصل عن الأَب نطفة لا قيمة له ولا مالية فيه ، ولا منفعة مبتوتة عليه ، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها ، فلذلك تبعها ، كما لو أكل رجل تمراً فى أرض رجل ، وسقطت منه نواة فى الأكل ، فصارت نخلة ، فإنها مِلك صاحب الأرض دون الآكِل باجماع من الأمة ، لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها ، وهذه من البدائــع »(٢) ، ومن النوع الثالث قوله : « وكان يقرأ معنا برباطِ أبى سعيد على الامام دانشمند (يريد الغزالى) من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية ، فربّـك أعلم به ، ومع طول

---

(١) نفح الطيب ، للمقرى ، ٢/٢٤٣

(٢) نفح الطيب ، للمقرى ، ٢/٢٤٨

الصحبة عقلنى الحياء عن سؤاله ، وبودى لو كاشفتُه عن حاله »[١] . ومن هذا النوع أيضاً قوله : أخبرنى المهرة من السحرة بأرض بابل أنه من كتب آخر آية من كل سورة ويعلقها لم يبلغ إليه سحرنا ، قال : هكذا قالوا ، والله تعالى أعلم بما نقلوه »[٢] .

وواضح أن مثل هذا الكتاب لا يمكن أن ينال رضى شيوخ عصر ابن العربى ، بسبب ما فيه من زهو وتفاخر أولا ، وبسبب ما قرره فيه من نشاطه السياسى وتداخله مع رجال الدولة فى بغداد وسعيه إليهم ، ثم بسبب هذه الحكايات والنوادر التى ترد فيه ، قال معاصره القاضى أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبى : « ولكثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته ورواياته أكثر الناسُ فيه الكلام ، وطعنوا فى حديثه »[٣] . ولكن كل ذلك لا يقلل من أهمية كتاب « ترتيب الرحلة » فهو أول وصف رحلة يكتبه أندلسى ، ومعنى هذا أن أبا بكر بن العربى هو مبتكر هذا الفن فى الأندلس ، نعم إن أبا حامد الغرناطى كتب شيئاً قريباً من هذا ، ولكنه لم يصف رحلته ، ولم يُعيِّن مراحلها أو « مراتبها » بحسب مصطلح ابن العربى فى كتابه . لقد تعود الناس قبل ابن العربى أن يكتبوا « برامج » شيوخهم ، أى يذكرون اسماء من لقوا من الشيوخ وأخذوا عنهم وما أخذوه عن كل منهم ، ولكن هذه البرامج خالية من الوصف والملاحظة أو النظر إلى أى شئ خلا الشيوخ والكتب والروايات ، أما أبو بكر بن العربى فقد كتب رحلة حقاً ، ووصف مراحلها ومن لقى فى كل مرحلة ، نعم إنه لم يصل فى ذلك إلى شأو ابن جبير ، ولكنه دون شك السابقة التى سيحتذيها أمثال ابن رشيد والعبدرى .

---

(١) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٩

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٥٠

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٣٦

كتاب قانون التأويل

المشهور أن هذا الكتاب فى التفسير ، وربما كان ذلك صحيحاً ، لأن ابن العربى كتب فى الحديث وشرحِه كثيراً ، وكان لابد أن يكتب شيئاً مطولا فى التفسير . وربما كان هذا الكتاب مكملا لكتابه « أحكام القرآن » .

والذى يهمنا من هذا الكتاب تلك الملاحظات ذات الطابع الوصفى أو الجغرافى التى نقلها عنه من أتوا بعده ، وهذه الملاحظات كثيرة ، وبعضها فقرات طويلة تصف شيئاً مما حدث له فى الرحلة . ويلاحظ أن كل الفقرات التى لدينا مقتبسةً من هذا الكتاب مصوغةٌ فى قالب السجع من الطراز الذى رأيناه فى خطبة « شواهد الجلة » ولهذا غلب على ظننا أن هذه الفقرات مقتبسة من خطبة « قانون التأويل » لأن خطب الكتب — وإن كانت تفسيراً — تجرى فى قالب السجع ، أما التفسير نفسه فلا يمكن أن يكون سجعاً ، ومن المستبعد أن يكون ابن العربى مسترسلا فى شرح آية فى نثر مرسل ، ثم يقطع الكلام ليقص شيئاً فى سجعات .

والغالب أن أبا بكر بن العربى جعـــل مقدمة « قانون التأويل » وسيلة ليقص أطرافا من رحلته وليذكر بعض من لقى من الشيوخ وما سمع منهم تدليلا على سعة علمه واصالة مصادره . وأهم فقرة بقيت لدينا من ذلك الكتاب هى تلك التى يذكر فيها غرق سفينته بعد أن ركب البحر من المهدية فى طريقه إلى الاسكندرية ونجاته (مع أبيه) ونزوله فى مكان من شاطئ طرابلس تنزل به بطون من كعب بن سليم ، والقطعة طويلة رواها المقرى فى أزهار الرياض (٣/٨٩ — ٩١) ونفح الطيب (٢/٢٣٧ — ٢٣٩) وابن غازى فى « التكميل » والرهونى فى « حاشيتـــه على رسالة خليل » والشيخ مخلوف فى « شجرة النور الزكية » (١/١٣٧) ومحب الدين الخطيب فى مقدمة « العواصم من القواصم »

(١١ — ١٢) ، ولهذا فسنجتزئ منها بقطع يسيرة . قال : « وقد سبق فى علم الله تعالى أن يَعظُم علينا البحر بزَولِهِ ، ويغرقنا فى هوله ، فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر ، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بنى كعب بن سُلَيم ، ونحن من السغب على عطب ، ومن العرْى فى أقبح زى ، قد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة هيأتها[١] ، ودسمت الأدهان وبرها وجلدتها ، فاحتزمناها أُزُرا ، واشتملناها لِفَافاً ، تمجُّنا الأبصار ، وتخذلنا الأنصار ، فعطف أميرهم علينا ، فأوينا إليه فآوانا ، وأطعمنا الله على يديه وسقانا . . . » ثم يصف بعد ذلك كيف أنه اقترب فى هذا الزى من أمير بنى سليم هؤلاء ، فوجده يلعب بأعواد الشاه (الشطرنج) مع صاحب له ، فبدر منه ما أفهم القوم أنه يفهم هذه اللعبة ، ثم ما زال يشير على الأمير بما يفعل حتى فاز على صاحبه « فقالوا : ما أنت بصغير ! » ، ومن الطريف أنه يصف نفسه فى أثناء ذلك بقوله : « إذ كنت من الصغر فى حد لا يُسمح فيه للأغمار . . . » ولا ندرى كيف يكون هذا وقد كان إذ ذاك فى الثامنة عشرة من عمره .

ثم يصف بعد ذلك كيف شرح للأمير معنى كلمة « رب » فى بيتٍ للمتنبى ، فأعجب به إعجابــاً عظيماً : « وأقبلوا يتعجبون منى ، ويسألوننى كم سنى ، ويستكشفوننى عن سِرى ، فبقَرْت لهم حديثى ، وذكرت لهم نجيثى . . » وختم الحكاية بقوله : « فانظر إلى هذا العلم الذى هو إلى الجهل أقرب ، مع تلك الصُبابة اليسيرة من الأدب ، كيف انقذا من العطب ! وهذا الذكر يرشدكم إن عقلتم إلى المطلب . . » .

والقصة كلها مبالغ فيها ، إذ كيف استطاع هو وأبوه أن يواصلا الرحلة إذا كان كل ما معهم قد غرق وضاع حتى خرجوا من البحر فى حال « من العرى فى

---

(١) كذا فى طبعة ليدن ، وقد قرأها محيي الدين عبد الحميد « منيئتها وقال فى الهامش أن المنيئة الجلد أول عهده بالدباغ .

اقبح زى » ؟ ثم كيف يكون لشيخ بنى سليم « بياذقة » وحراس ؟ وكيف يكون من الترف بحيث يرسل إليهم « كل خوان بأفنان وألوان » ؟

ومن ملاحظاته فى هذا الكتاب وصفه للقائه للغزالى ، قال : « ورد علينا دانشمند (يريد الغزالى) فنزل برباط ابن سعد بأزاء المدرسة النظامية ، معرضاً عن الدنيا ، مقبلا على الله تعالى ، فمشينا إليه ، وعرضنا أُمنيتنا عليه ، وقلت له : أنت ضالتنا التى ننشد ، وإمامنا الذى به نسترشد ، فلقينا لقاء المعرفة ، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة ...(١) » ، وقد وصف فى فقرة أخرى لقاء ثانياً للغزالى ، قال : « رأيت الغزالى فى البرية ، وبيده عكاز ، وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوه ، وقد كنتُ رأيته فى بغداد يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم ، يأخذون عنه العلم ، فدنوت منه وسلمت عليه ، وقلت له : ياإمام ، أليس تدريس العلم ببغداد أحسن من هذا ؟ فنظر إلىّ شزراً وقال : لمـا طلع بدر السعادة فى فلك الارادة (أو قال : فى سماء الارادة) وجَنَحَتْ شمس الوصول فى مغارب الاصول :

تركتُ هوَى لَيْـــلَى وسُعْدَى ... وعُدت إلى تصحيح أول منزلِ
ونادت بىَ الأشواق مَهْـلاً فهذه ... منازلُ من تهوى ، رويدك فانزلِ
غزلْتُ لهم غزلاً رقيقاً ، فلم أجد ... لغزلى نسجا ، فكسَّرت مغزلى (٢)

وهذا الخبر بادى الصنعة ، فهذه صورة للغزالى لا يعرفها أحد ممن يعرفونه حق المعرفة ، ولكن ابن العربى كان صاحب أخبار وحكايات وروايات غريبة كما قال أبو الفضل عياض اليحصبى ، ولم يكن هو الآخر بخير منه فى هذا المجـال ، وفى « ترتيب المدارك » ما هو أغرب مما ابتكره ابن العربى فى فاتحة « قانون التأويل » .

---

(١) المقرى ، أزهار الرياض ، ٣ / ٩١
(٢) ابن العماد ، شذرات الذهب : ٤ / ١٣

ومهما يكن الأمر فإننا لا نستطيع إصدار حكم نهائى على كتابات ابن العربى فى الرحلات معتمدين على هذه القطع القليلة منها ، والمهم لدينا — وهو ما يعنينا هنا — أن الرجل فى حماسه للدفاع عن نفسه وإعلاء شأنه بدأ فى تاريخ الفكر الأندلسى شيئاً جديداً ، وهو أدب الرحلات ، وسيعقبه فى هذا الطريق من بعده كثيرون سيصل واحد منهم وهو ابن جبير إلى أن يكتب أجمل وأصدق وصف رحلة فى تراث الفكر الأندلسى كله .

* * *

هؤلاء هم أهم معاصرى الإدريسى من أهل الأندلس ممن كتب فى الجغرافية أو خلف شيئاً يدخل فى بابها . سار بعضهم على الدرب القديم قبله ، وانحدر بعضهم بالعلم الجغرافى إلى مستوى القصص وأحاديث الخرافة ، وادخل بعضهم الآخر فى الفكر الأندلسى شيئاً مبتكراً ، واشتركوا جميعاً فى شىء واحد : هو أنهم واصلوا تقليد الاهتمام بالجغرافية والكتابة فيها ، وهذا فى ذاته شىء جدير بالذكر والتقدير . ولم يكن من المنتظر أن يتأثر نفر منهم بالإدريسى ، فقد كان معاصراً لهم يكتب فى بلد خارج عن دار الإسلام ، ولن تذيع كتبه بين المسلمين إلا بعد أجيال ، لأن الكتب التى كانت تروج لوقتها فى تلك العصور كانت كتب علوم الدين والفقه والأدب ، أما الجغرافية وما إليها ، فكانت هوايات لا يعنى بنقل كتبها إلا أصحابها ، وما كان أقلهم ! هذا إلى أن دنيا الأندلس كانت قد مالت وتوالت عليه المحن ، وإنه لمن الغريب بعد ذلك كله أن يظل فيه من يعنى بالعلم ، فضلا عن الجغرافية وما إليها .

من نقد جارح فى بعض الأحيان فمرجعه إلى أنهم عاشوا وعملوا فى أيام ظالمة وظروف غير رحيمة جعلت العنف وطول الأظافر أدوات لازمة للنجاة من الهلاك أو الفقر والخمول فى معركة البقاء ، وقد انقضت تلك العصور ، وذهب هؤلاء وأولئك مع أمس الدابر ، ونحن حريون بأن نأخذ الرجل منهم بكلامه ما لم يقم على عدم تحريه الصدق دليل مقبول .

وفى العصر الذى نؤرخ فيه للجغرافية الأندلسية فى هذه السطور ، وهو عصر ما بعد الشريف الإدريسى ، من منتصف القرن السادس إلى منتصف السابع الهجريين (منتصف الثانى عشر إلى منتصف الثالث عشر الميلاديين) نرى مثالا حياً من أمثلة حياة الرحلة المتصلة وتواتر الأسفار والتعرض للمهالك فى سيرة أمير جغرافيِّ المشرق الإسلامى على الاطلاق وهو ياقوت الحموى الذى عاصر ، ضمن ما عاصر ، زحف التتار المخرب على عالم الإسلام واقترابهم رويداً رويداً من مرو التى كان يعمل فيها عندما تواترت الأنباء بزحف التيار التترى المخرب نحو الغرب ، فمضى يقطع الأرض أمامهم ناجياً بنفسه من الخطر حتى دخل الموصل خالى الوفاض ، لا كتب ولا مال ولا أوراق ، ثم ساعفته المقادير فعاد إليه الأمن فى ظل الوزير ابن القفطى فى حلب ، وهناك استقر وكتب معجمه الجغرافى الخالد ، وهو ديوان الجغرافية العربية الأكبر وكنزها الذى يمثل صرحاً من صروح العبقرية العلمية البشرية فى كل العصور .

ولم نفتقد ظاهرة الطرافة فى الشخصية أو سيرة الحياة عند أحد ممن مررنا بهم من أعلام الجغرافية الأندلسيين إلى الآن ، فقد رأينا — مثلا — قاسما بن أصبغ البيانى الفقيهَ المحدث يترك الفقه ردحاً من الزمن ليعمل فى شىء كان فى ذلك الحين أبعد ما يكون عن ولاية الفقهاء ، وهو الاشتراك مع مواطنه المسيحى حفص بن ألبر فى ترجمة كتاب هروشيُش من اللاتينية إلى العربية ، ورأينا أبا عبيد البكرى يخرج من موطنه جزيرة شلطيش هارباً مع أبيه إلى اشبيلية ، ثم يتنقل فى الأندلس من غرب إلى شرق حيث يلتقى بالعذرى فى المرية

ويأخذ عنه ، ويستقر أخيراً فى اشبيلية ويفرغ للتأليف فى الجغرافية ؛ ورأينا الشريف الإدريسى وما فى حياته من عجب خارج عن المألوف ، وأبا حامد الغرناطى الذى أشبه — بما طوّف ورأى وتعرض له — أن يكون سندباد بحر وبر معاً ، ثم أبا بكر بن العربى وما ملأ نفسه من قلق وطموح ؛ وهذه مجرد أمثلة تحدونا إلى القول بأن الجغرافىّ فى تلك العصور كان لابد أن يكون مغامراً جرئ القلب خفيف الحركة طُلَعَةً يحفزه إلى طلب المعرفة شوق إلى المجهول لا يأذن له فى ركون أو استقرار ، وإذا كانت الرحلة فى قافلة محروسة وعلى درب مطروق مغامرةً فى تلك الأعصر ، فما بالك برحلة الرجل وحيداً أو مع دليل لا تؤمن غدراته ؟ ثم كيف يكون الانسان جغرافياً فى تلك العصور إلا إذا أقدم على ذلك المرة بعد المرة ؟ إذ لم تكن هنــاك كتب وافية بالغرض فى هذا الباب ، وكان لابد للراغب فى الاتيان فيه بجديد من أن يترك أمان بيته إلى مخاوف الدروب والطرقات ومعاطب ركوب البحار على سفن يصدق عليها قولهم : الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود . وإذا كان الدافع إلى طلب العلم هو ذلك القلق المبارك الذى يدفع الانسان إلى أن يعلم ويعرف ويستكشف ، فأننا مع جغرافيينا أمام ناس هم نماذج لهذا القلق الخيِّر الكشاف ومع طلائع فى ركب الانسانية فى سيرها الآبد فى مخاطر المجهول .

ولم نورد هذا المثل هنا لمجرد اتصال السياق ، بل لأنه يعبر أصدق تعبير عن شعور أبى الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني صاحب الرحلة المشهورة التى ننتقل إلى دراستها الآن ، فهو القائل :

البحرُ مُــرُّ المذاقِ صعب — لا جُعِلَت حاجتى إليــه
أليس ماءً ونحنُ طين ؟ — فما عسى صبرُنا عليه ؟[1]

---

(١) رحلة ابن جبير بتحقيق الدكتور حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥) ص ٣٠٦ ، وهى طبعة جيدة اعتمد فيها على طبعة وليــام رايت (لندن ١٨٥٢) التى اعاد طبعها مصححة منقحة دى خويه سنة ١٩٠٧ وقد حقق حسين نصار بعض قطع الرحلة على نقول منها فى عدد كبير من الكتب أورد بيانها فى صفحة ز من مقدمته .

وقد قال ابن جبير هذين البيتين — وهما من ألطف ما وصل إلينـا من شعره — فى سياق وصفه الممتع لرحلته بالبحر الحافلة بالمتاعب والمخاطر والآلام من عكا إلى صقلية فى طريقه إلى الأندلس ، وهو وصف يصور لنـا دون مبالغة ما كان الناس يكابدونه إذ ذاك من الأهوال فى ركوب البحار حتى على الطرق البحرية المألوفة إذ ذاك كطرق البحر الأبيض .

وكلام ابن جبير عن أهوال ركوب البحار وتربص الموت للسفن فى كل لحظة يكشف لنا عن حقيقة لابد لنا من تناولها قبل الفراغ لهذا الرحالة المبدع ومن عاصره أو أتى بعده ممن اشتغل بالجغرافية والرحلات من الأندلسيين .

ذلك أن ما وصـل إليه الإدريسى والبيرونى وأبو حامد الغرناطى ومن سبقهم من العلم بالأرض وما عليها ومَن عليها هو أقصى ما كان يستطاع الوصول إليه بوسائل الرحلات وآلات قياس الابعاد والارتفـاعات وتحديد الأوقات ومعرفة الاتجاهات التى عرفها الناس إلى ذلك الحين ، ولكى يصل الناس إلى معلومات جغرافية أكثر أو أحسن أو أدق كان لا بد من وسائل وأدوات أحسن وأدق مما كان لديهم ، فإن مراكب تلك العصور لم تكن تستطيع عبور البحار إلا على الاخطار التى وصفها ابن جبير فى رحلته الصغيرة نسبياً والتى سبقه إلى وصفها على نطاق أوسع أبو الحسن على المسعودى ، فقد كانت سفناً صغاراً غير متقنة الصنع يتسرب داخلها الماء باستمرار ، ولا تستطيع أن تقطع فى أمان إلا رحلة الأسبوع أو نحوه فى بحر ساكن كصفحة المرآة ، وأقلّ زيادة فى المدة وأيسر نوء فى البحر أو أقل خطأ فى الاتجاه كان معناه الهلاك . وهذه السفن كانت اقصى ما يستطيع بُنَاتها صنعها فى هذه الأعصر وظروفِها السياسية العامة ، فإن سفن التجارة كان يبنيها فى العالم العربى أفراد من الناس لا تصل رؤوس أموالهم إلى أن تعمِّر من السفن أكثر مما عمرت ، وكانت هذه السفن معرضة للمعاطب من العواصف والأنواء وشُعَب البحر ومتلصصته فى كل مرحلة من مراحل رحلاتها ، وحتى فى مرافئ بلادها لم تكن فى أمان من حكامها

أنفسهم ، إذ كانت يدهم على التجار والمتاجر ثقيلة ، ولم يكن هناك أهون عليهم من مصادرة تاجر أو الالحاح عليه بالمغارم والمطالب ومطالبته بالهدايا الغالية والألطاف النفيسة فى كل حين ، ولم يُعْنَ واحد من حكام القرن الهجرى الرابع وما بعده بأصلاح مرفأ أو بنـاء دار صناعة أو حراسة ميناء أو تأمين تجار فيما عدا أشياء قليلة قام بها الأمويون وأهل البحر والتجارة فى الأندلس ، ولهذا لم يكن أى تاجر أو ملاح ليغامر بجزء كبير من ماله فى عمارة سفينة ضخمة ينتظرها القدر المحتوم على أيدى الانواء أو الرياح أو المتلصصة أو الحكام ، ونتيجة لهذا ظلت السفن صغيرة غير متقنة الصنع قصارى ما تستطيعه بضع رحلات فى امد قصير ثم تتلاشى ، بل سنرى أن سفن البحر الأحمر كانت تبنى لرحلة واحدة ، وكان صاحبها يحسب حسابه على أن يسترد تكاليف بنائها فى هذه الرحلة الواحدة . ونتج عن ذلك أن التجارة البحرية فى ذاتها ظلت محدودة حجماً ومدى ، بل هى أخذت تتضاءل عما كانت عليه مـع استمرار ضعف الحكومات وعجزها عن القيام بمسئولياتها حيال شعوبها وطمعها المتزايد فى أموال الرعية .

ومثل هذا يقال عن تجارة البر ، فقد ظلت تقوم على قوافل سيئة الحراسة لا تقطع مرحلة من الأرض إلا بعد دفع إتاوة باهضة لأصحابهـا ، ولا تدخل بلداً إلا انقض عليها المكاسون والعشارون كالصقور يمدون أيديهم حتى فى ملابس الناس ويغرسون الابر الطويلة فى أمتعتهم بحثـاً عن ذهب أو فضة أو أى شيء تجبى عليه ضريبة ، وهذه كلها حقائق يصفها لنا ابن جبير بأحسن بيان ومن هنا فلم يكن هناك طريق إلى تجارة ذات شأن إلا إذا كانت فى خدمة الحكام مباشرة أو بمشاركتهم للتجار فى المكاسب دون المغارم ، وهذه هى بعض الأسباب الأساسية فى هبوط أمر التجارة والتجار فى مملكة الإسلام كلها من أول العصر العباسى الثـانى ، وهو هبوط يسير متوازياً مع الهبوط السياسى وفسادِ نظم الحكم وغلبةِ الأتراك على أدوات الحكم وما استتبعه ذلك من ضياعٍ

لشئون الرعية وميلٍ لميزان العدالة وتخلخلٍ للأمن وانحدارٍ للمستوى الاجتماعى كله تبعاً لذلك .

وأهم ما يعنينا هنا من عقابيل هذا الانحدار السياسى الاقتصادى أن تجارة البحر الأبيض خرجت من أيدى المسلمين جملة ، وأن الطرق الكبرى التى كانت عامرة بالرحالة والسفار والقوافل فى العصور الأولى فَقَدت الأمان والحراسة وخلت من السابلة إلا من قوافل الحج ، وقد تعودنا أن نربط بين ضياع تجارة البحر الأبيض من أيدى المسلمين واضمحلال أساطيل الدول الإسلامية فيه ، ولكن الحقيقة أن العلاقة بين هذا الاضمحلال وضياع التجارة علاقة غير حقيقية ، لأن الذين انتزعوا سيادة طرق البحر من أيدى المسلمين لم يكونوا أقوى منهم سياسياً أو عسكرياً ، ودولة النورمان التى قامت فى صقلية منتصف القرن الخامس الهجرى « الحادى عشر الميلادى » لم تكن أقوى من دول الفاطميين والأيوبيين والمرابطين والموحدين ؛ وكذلك الجمهوريات الإيطالية التى ورثت من المسلمين أمواه ذلك البحر لم تكن — بداهة — تضاهى تلك الدول الإسلامية قوة وثروة ، ولكنها كانت كلها دولا جديدة ، للحكم فى نظرها مفهوم آخر نستطيع أن نصفه بأنه كان جديداً فى تلك العصور .

فأما دولة النورمان فقد بيَّنا فى كلامنا على الإدريسى وفى بحثنا عن « أدارسة صقلية[(١)] » أنهم كانوا قوماً أذكياء أقاموا دولتهم فى صقلية على رضى الناس عنهم وتأييدهم إياهم وتقديمهم إلى النورمان أحسن ما لديهم من القوى والملكات والخبرات ، فخدمهم فى الجزيرة العرب والبيزنطيون والصقليون ، ولم يتدخل ملوك النورمان — وخاصة رُجار الثانى منهم — فى عقائد الناس أو ثقافاتهم أو شئونهم الخاصة إلا بالقدر الذى اضطرت إليه روح العصر ، فسعد الناس فى ظلهم وانتفعوا هم بهم ونشطت التجارة وانتظمت الملاحة بين موانى

(١) نشر فى مجلة المجمع العلمى العراقى ، مجلد ١١ (١٩٦٤) .

دولتهم وغيرها سواء أكانت فى بلاد النصارى أو المسلمين . وأما الجمهوريات الإيطالية فكانت — كما بينه سيسموندى فى كتابه الذائع الصيت عنها — طلائعَ أولى لفلسفة الحكم فى العصور الحديثة ، فسواء أكنا فى البندقية أو جنوة أو بيزا أو أمَالْفى فنحن أمام جماعات من التجار والملاحين تشترى من أمراء نواحيها حرية العمل فى مدينتها ومساحة ضيقة من الأرض حولها فى مقابل ضريبة سنوية تؤديها لأولئك الحكام . وما يكاد الاتفاق يتم حتى تتحول موانى أولئك التجار إلى مراكز كبرى للتجارة والنشاط البحرى فتقوم فيها دور الصناعة والمخازن والأسواق والمصارف ، وتبنى السفن وتمضى فى كل سبيل ، وينشىء التجار وأهل الصناعة والمال مجلساً للحكم مهمته الرئيسية حماية الأموال والمتاجر والسفن وحفظ حقوق التجار والملاحين ، وبفضل هذه الحماية تربو الثروات ويثرى البلد وينشىء أهله القصور الجليلة والمخازن الضخمة والأرصفة الواسعة والحصون والأسوار ووسائل الدفاع والأساطيلَ المحاربة لتعقُّب متلصصة البحر الذين نسميهم عادة بالقراصين . ويطمع الأمراء المجاورون فى هذه الثروات الكبرى ولكن الجمهوريات التجارية ترد مطامعهم بجيوشها وتحصيناتها وينتهى الأمر بتلك الجمهوريات التجارية إلى أن تصبح دولا مستقلة أو تدين بطاعة اسمية لهذه الدولة أو تلك ، ومنها ما كان يدخل فى طاعة الدولة البابوية جملة للاستظلال بحمايتها الروحية .

والمهم بالنسبة لموضوعنا هنا أن طبيعة تكوين هذه الجمهوريات أدت إلى تقدم الفنون البحرية جميعاً تقدماً كان له فيما بعد أكبر الأثر فى تطور التاريخ العام ، فقد ارتقى فن بناء السفن بفضل وجود رؤوس الأموال القادرة على إنشائها ، ووجد الموهوبون من بُنَاتِها من يؤجرهم على عملهم فأجادوا وأبدعوا ، ولم يبخل التجار عليهم بالمال لأنهم آمنون على السفن أولا ثم واثقون ثانياً من أنهم سيجنون من ورائها الأرباح الكبرى ، فنشأت سفن كبيرة متينة قادرة على القيام بالرحلات البعيدة والصمود للأمواج والأنواء ، وعلى سُكَّانات هذه السفن قام

ربابنة مهرة قادرون على الملاحة فى البحار الواسعة يعاونهم ملاحون ذوو دربة وجرأة وجلد ، وهؤلاء وأولئك جمعوا عن البحار والأرضين معلومات دقيقة وافية وأدلوا بهـا إلى رجال مهروا فى رسم الخرائط فى تلك الموانى الإيطالية وموانى الجزائر الشرقية (البليار) فنشأت الخرائط البورتولانية أو المرفئية التى تحدثنا عنها فيما سبق ، وبعبارة موجزة : وقفت تلك الموانى الإيطـالية بفنون البحر على أبواب التحول العظيم الذى قاد إلى حركة الكشوف الجغرافيـة الكبرى ، ونتج عن هذا التحول العظيم فى فنون البحر تطورٌ واسع المدى فى المعلومات الجغرافية . أى أننا نشهد فى الواقع ميلاد علم الجغرافية كما نعرفه اليوم فى اثناء هذا التطور البعيد المدى الذى اجملناه فى سطور ، وهذه حقيقة شرحها بأجلى بيان الجغرافىّ الفرنسى فِيدَال دى لابلاش فى مقدمته المبدعة لكتاب « الجغرافية العالمية » . وحركة الكشوف الجغرافية فى حقيقتها إن هى إلا نتيجة مباشرة لتقدم فنون الملاحة وأدواتها واتساع المعلومات الجغرافية ، وثمرةٌ لتطور فلسفة الحكم فى بعض البلاد الأوروبية على الاساس الذى أشرنا إليه فى كلامنا عن قيـام الجمهوريات الإيطالية[١] . ونحن عندما نقول إن كريستوفر كولومبوس كشف العالم الجديد ننسى أنه ما كان يستطيع الوصول إلى شىء من هذا لولا العلم الذى تجمع بين يديه عن الأرض وما فيها — وأساس الجزء الرئيسى فى هذا العلم عربي كما بينا فى كلامنا عن أبى عبيد البكرى — ولولا بنَّاء السفن

---

(١) انظر عن تفاصيل هذا التطور الحاسم فى تاريخ أوروبا :

K. Bűcher: *Dìe Entstehung des Volkswirtschaft,* 7°. Auflage, Tűbingen, 1910.

A. Dopsch, *Wirtschaftlische und Soziale Grundlagen der Europäischen Kulturentwicklung aus der Zeit von Kaisar bis auf Karl den Grossen.* Wien, 2°. Auflage, 1923-1924, 2. Bände.

A. Schaube, *Handelsgeschichte der romanischen Vőlker des Mittelmeersgebiets bis Zum Ende der Kreuzzűge.* Műnchen - Berlin, 1906.

H. Pirenne, *Un Contraste économique: Mérovingiens et Carolingiens,* dans Revue Belge de philologie et d'histoire, tome I (1922) et II (1923).

Ibidem, *Les Villes des Moyen Age.* Essai d'histoire economique et sociale (Bruxelles,1927.

C. W. Previté Onten, *The Shorter Cambridge Medieval History* Cambridge, 1953), II, 1076 sqq.

الذى استطاع أن ينشئ له « السانتا ماريا » و « لا نِينْيَا » و « لا بِينْتَا » وهى كل أسطوله الذى غيَّر به وجه الأرض والتاريخ ، وكذلك لولا الحاكم الذى فهم كلامه ولمح احتمالات الثروة والقوة التى كان يتحدث عنها ، فأفرغ عليه الأموال وحشد له الملاحين المهرة ومكن له من أن يصمد فى البحر ثلاثة أشهر سويا حتى يصل إلى الشاطئ الموعود ، ولا يشوب ذلك أنه كان يحسب أنه وصل إلى شاطئ الهند أو الصين كما قرأ عند أبى عبيد البكرى ، فقد كان هذا أسعدَ خطأ فى التاريخ ، وهو كذلك خطأ قام على صواب كثير . وفى سياق هذه المعانى نقول إنه لم يكن مجرد مصادفة أن الشريف الإدريسى لم يجد مكاناً يعمل فيه ويبدع إلا فى بلاط النورمان وأن أبا الحسين بن جبير الذى سنتحدث عنه بعد قليل قام برحلته الأولى — وهى أهم رحلاته — من المغرب إلى المشرق — ذهاباً وعودة — على سفن جنوية .

وجدير بنا أن نطيل الوقوف عند هذا التطور البعيد المدى لأسباب كثيرة تتصل بموضوع دراستنا هنا ، ونكتفى منها هنا باثنين : الأول أننا سنرى أن ابن جبير سيلاحظ بعض مظاهره فى مروره ببعض بلاد النصرانية ، والثانى أن معرفة تفاصيله توضح لنا السبب فى أننا لم نستطع — رغم توفر العلم والربابنة القادرين فى بـــلادنا — أن نقوم بحركة الكشف الجغرافى أو نسهم فيها ونغادر غياهب عصورنا الوسطى فى الوقت الذى غادروا عصورهم الوسطى فيه .

فإلى جانب هذا التطور الذى شهدناه فى الجمهوريات البحرية الإيطاليـة كانت أوروبا كلها تمر بحركة تطور عميق واسع المدى بدأ من أوائـــل القرن العاشر الميلادى ، فقد كان المجتمع الأوروبى قد تحول شيئاً فشيئاً عقب الغزوات الجرمانية — وحتى نهاية القرن التاسع الميلادى — إلى مجتمع زراعى مقفل شبيه بالمجتمع المصرى والشامى تحت حكم المماليك والأتراك العثمانيين ، فسيطر أمراء الاقطاع — وعلى رأسهم الملوك — على مصائر الأمم وشئون الناس ، وسيَّروا شئون الحكم على نحو يجعلهم — مع من عاونهم من كبار رجال الدين —

المتمتعين وحدهم بخيرات البلاد كلها ، فاضمحلت المدن فى أوروبا كلها (عدا الأندلس) وتلاشى الكثير منها ، وتوقفت التجارة الكبيرة فى داخل القـارة الأوروبية وفى موانيها القائمة على البحر الأبيض على الخصوص . ثم بدأت دول جديدة تقوم على انقاض الاقطاع من القرن الثامن الميلادى فصاعدا ، وبعد تجارب عديدة فيما يعرف الآن بفرنسا على وجه خاص ، تبين الملوك أثناءها أن إقامة الدول على سواعد أمراء الاقطاع ومقاتليهم لا يسمح لها إلا بعمر قصير ومدى من اتساع الرقعة وقوة البِنْيَة محدود ، وأن دولة من الدول لن تقوى ويشتد ساعدها ويدوم لهـا السلطان إلا إذا تخلصت من الاعتماد على أمراء الاقطاع والأشراف ورجال الدين . فاتجه الأذكياء الواعون من الملوك إلى التجار والصناع من أهل البلاد يستعينون بهم فى صراعهم مع الاقطاعيين ، فمنحوا جماعات التجار والصناع فى المدن حقوقاً وضمانات ، وأذنوا لهم — لقاء اتاوات مالية — فى تحصين هذه المدن وتسيير شئون الحكم فيها كما يشاءون ، فبدأت المدن تتنفس من جديد ، وأدار أصحابها من التجار حولهـا الأسوار وأنشأوا القوات العسكرية ، ووضعوا — على أساس الوثائق التى أصدرها الملوك لهم — تشريعات جديدة مدنية أهم ما تحرص عليه هو تحصين المال والمتجر والمصنع وتأمين أهلها ، وقامت النقابات واجتهد رجالها فى المحافظة على أصول صناعات أعضائها وتثبيت قواعد أخلاق عملية جديدة ، فاستقوى أمر هذه المدن سريعاً كما حدث فى الموانى الإيطالية ، وزادت أسوارها حصانة وجيوشها قوة ، وخلف أسوار المدن هذه ولدت أوروبا الحديثة بعقليتها العملية الواضحة وبصناعاتها الجيدة المتقنة وبثرواتها الكبيرة القادرة على تدعيم بنيان الممالك التى ترضى عنها ، وبفضل قوانينها المدنية التى جعلت مفهومات الرومان والبيزنطيين فى هذا الباب أثراً من آثار الماضى ؛ وبدأت الشعوب الأوروبية المختلفة تظهر بسماتها وخصائصها ، وبعبارة مختصرة : فى هذه المدن ولدت أوروبا الجديدة وكانت النهضة الكبرى التى غيرت وجه التاريخ ، وأما القول بأن هذه النهضة بدأت فى إيطاليا بسبب

انتقال علماء الدولة البيزنطية إليها فكلام لا يثبت لأقل تفكير ، وأبسط ما يهدمه هو أن نسأل : إذا كان عدد قليل من أولئك العلماء البيزنطيين هم الذين اشعلوا قبس النهضة فى ايطاليا ، فكيف لم يشعلوها فى بلادهم نفسها ، وكانوا هناك أكثر واقدر ، وبلادهم أولى بهذا الخير الذى أفاضوه على بلاد الآخرين ؟ الحق أن النهضة الأوروبية كلها ولدت فى هذه المدن والموانى ، ولم يتنبه أهل النهضة إلى علوم اليونان والرومان إلا بعد زمان طويل . هذا كله كان يحدث أثناء عصور الحروب الصليبية ، وبعدها سارت النهضة بخطوات أسرع وأكبر ، فى حين لم تلبث الشعلة التى توهجت عندنا على أيام الاتابكة ثم نور الدين وصلاح الدين وقضت على الخطر الصليبى أن أخذت تخبو تحت وطأة الأيوبيين المتأخرين ومن تلاهم من المماليك ، ثم سكنت الرياح فى مملكة الإسلام وانتشرت ظلال عصور طويلة من الركود فى كل ميدان ، وأغلقت الأبواب والنوافذ ورسخت قواعد مجتمع زراعى مقفل فقير زادته نظم الحكم القائمة إذ ذاك فقراً وركوداً .

وفى مثل هذه الظروف السياسية والاجتماعية لم يكن من الممكن أن يتقدم العلم الجغرافى ، لأن المعلومات الجغرافية لا تتحصل إلا من الرحلة والمشاهدة ودراسة المظاهر الطبيعية والاجتماعية فى شتى البلاد ، إذ الجغرافية — ربما دون سائر العلوم — علم لا يزهر ويثمر إلا فى جو طلق رحيب يأذن فى الحركة المتصلة دون قيد ، ولا غرابة والحالة هذه فى أننا سنمر فيما بقى من هذا البحث برجال موهوبين فى هذا الفن حقاً مثل ابن جبير وعلى ابن سعيد وأبى محمد العبدرى وابن عبد المنعم الحميرى وابن الخطيب ولكنهم لن يأتوا بجديد من المعلومات وإن جوّدوا فى فنون الرحلات والرسائل المختصرة أو المعاجم الجغرافية ، والذنب فى هذا ليس ذنبهم ، إنما هو ذنب الظروف التى عاشوا فيها وحكمت عملهم وحددت مداه ، فلا شك فى أن رجلا مثل على بن سعيد كان حقيقاً

بأن يضيف إلى العلم الجغرافى شيئاً عظيماً لو لم تحكمه وتحدد اتجاهات ذهنه ونشاطه ظروف لا تعين عالماً فى هذا الفن على التجديد أو الابتكار .

بيد أن هناك ظاهرة فتحت باباً واسعاً للأمل فى التجويد والابتكار أمام المشغوفين بالرحلة القادرين على الملاحظة والاستنتاج ، وهى إقبال الناس على أدب الرحلات بعد هذه البداية الطيبة التى قام بها أبو بكر بن العربى ، فمن منتصف القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى — نجد أنفسنا أمام سلسلة طيبة من كتب رحلات ذات قيمة كبرى قام بتأليفها أندلسيون ومغاربة ، وقد كانت الرحلة إلى المشرق أمراً تقليدياً عند الأندلسيين والمغاربة من فجر تاريخهم الإسلامى ، ولكن — لأمر ما — لم يدوّن أحد منهم وصف رحلته وما شاهده فيها قبل ابن العربى ، ولعل بعضهم دوّن وصف رحلته وضاع هذا الوصف ضمن ما ضاع من كنوز العلم الأندلسى ، وعلى أى حال فنحن لا نجد إشارة إلى وصف رحلة لأندلسى قبل أبى بكر بن العربى ، والطريف أن وصف الرحلة التالى له — رحلة ابن جبير — طفر بفن وصف الرحلات فى تاريخ الفكر الأندلسى طفرة وصلت به إلى قريب من القمة التى وصل إليها هذا الفن فى الأدب العربى كله ، فبعد رحلة ابن جبير نصل إلى القمة عند ابن بطوطة ، ولكل من هذين الرجلين مكانه فى تاريخ الأدب الجغرافى العالمى ، وبعدهما مباشرة يجئ الإيطالى ماركو پولو ، وهو من البندقية ، احدى الجمهوريات الايطالية التى أشرنا إليها ، ولانتقال زعامة فن الرحلات فى الأدب العالمى من أيدينا إلى أيديهم — كما هو واضح — مغزاه ومعناه فيما يتصل بانتقال زعامة العلم الجغرافى وفنونه إلى الغرب نتيجة لما شرحناه[١] .

(١) رجعنا فى هذا الموجز إلى :
Kimble, G. H., *Geography in the Middle Ages*, 1938.
Bagrow, L., *Geschichte der Karlographie*, Berlin, 1951.
Beazley, C. R., *Ihe Dawn of Modern Geography*, III, 1906.

أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى

وابن جبير ، صاحب هذه الرحلة الجليلة الشأن هو أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى ، ولد فى بلنسية أو شاطبة فى ١٠ ربيع الأول سنة ٥٤٠/ ٣١ أغسطس ١١٤٥ فى بيت عربى أندلسى عريق يرجع نسبه إلى رجل من رجال طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيرى ، ودرس أول الأمر فى بلده ثم فى غرناطة ، ويبدو أن أباه هاجر بأسرته إليها للعمل فى دواوين الموحدين ، ومن الثابت على أى حال أنه — الأب — كان فى خدمة عمال الموحدين على غرناطة ، وقد سار ابنه محمد بن أحمد بن جبير الكنانى فى هذا الطريق ووصل إلى أن يكون كاتباً لأبى سعيد بن عبد المؤمن بن على عامل الموحدين على غرناطة ، ومن البديه أن تكون له مكانة ممتازة عند هذا الأمير بفضل علمه الواسع باللغة والآداب والفقه وقدرته على نظم الشعر .

وكل هذا لم يكن — كما قال كرتشكوفسكى بحق — ليصل بابن جبير إلى الشهرة أو يجعل له مكاناً ممتازاً فى تاريخ الفكر العربى ، لأن هذا الضرب من الفقهاء كان كثيراً فى الأندلس وبقية العالم الإسلامى ، ولكن مصادفة لم تكن فى الحسبان — إذا صدقنا القصة التى تحكى حولها — بعثته على الخروج إلى المشرق لأداء الفريضة ، فإذا برغبته لطلب العلم تتجدد فيمضى يسمع على الشيوخ فيما يمر به من بلدان ، وإذا هو يتكشف عن رجل دقيق الملاحظة صائب النظر طُلَعَة إلى المعرفة مشغوف بتسجيل ما يرى فى أسلوب سهل صادق يبعث على الثقة ، وإذا به نتيجة لذلك كله يخلِّف لنا وثيقة من أجمل وأصدق ما خلف الرحالة العرب يصل بها دفعة واحدة إلى قرابة القمة التى وصل إليها فن تدوين الرحلات فى تاريخنا الفكرى .

أما القصة التى يحكون عن سبب رحلته فمرجعها ذلك الجمّاعة الحاشد أحمد ابن محمد المقّرى ، وملخصها أن هذا الأمير أبا سعيد بن عبد المؤمن استدعى

الشيخ محمد بن أحمد بن جبير ليكتب عنه كتاباً وهو على شراب ، فأراد أن يمزح مع الشيخ فمد له يده بكأس من النبيذ ، فاعتذر عن قبولهـــا وأبى واسترجع ، وعز على هذا الأمير أن تُرَد دعوته فاقسم على ابن جبير — تحت تأثير الخمر طبعاً — أن يشرب منها سبعاً ، فخاف الرجل وشربها اتقاء لما هو أسوأ ، فمـلأ الأمير له الكأس سبع مرات دنانير — بتأثير الخمر أيضاً — فازمع ابن جبير الحج بهذه الدنانير تكفيراً عما شرب من الاثم ، وأيّاً ما كان موضع هذه الأقصوصة من الصحة فهى لا تخلو من دلالة على خلق الأمير والشيخ معاً ، فأما هذا الأمير فكان رجلا سهلا محدود الملكات ذا ميل إلى الدعة والاستمتاع كعامة أولاد عبد المؤمن بن على فيما عدا ابنه أبو يعقوب يوسف الذى ورث الملك من بعده ، وأما الشيخ ابن جبير فقد كان رجـلا متديناً سليم الطوية حسن التصرف فى الأمور ، فان الحج بالدنانير كان كفيلا بمحو السيئة ، ثم هو يريحه من هذا الأمير برهة من الزمان ويفتح أمامه باباً للفرجة والعلم والحركة هرباً من ركود الحياة فى غرناطة إذ ذاك .

وواضح لمن يطلع على وصف رحلته أنه قرر قبل السفر أن يكتب وصفها واستعد لذلك ، فكان أثناءها يرقب حساب الأيام والشهور فى دقة بالغة ويدون ملاحظاته عما شهد ورأى يوماً بعد يوم ، بل نعتقد أنه حتى فى الأوقات التى كان فيها على السفينة حرص على أن يُدَوِّنَ — وهو يقاسى هول الأنواء والعواصف — أحاسيسه وما يرى لكى يسجلهـا بتفصيل لأول ما تسنح له فرصة ، وبدون هذا لا يمكن تصور الدقة البالغة التى يصف بها كل شىء ويسجله دون خطأ فى تاريخ أو خلط بين حوادث يوم وآخر . وقد ورد فى أول المخطوط الوحيد للرحلة أن اسمها « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » وورد فى ختامها أن اسمها « اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك » ولا ندرى أيهما كان عنوان الكتاب ، وقد تكون الحقيقة ما قاله كراتشكوفسكى من أن العنوان لم يكن هذا ولا ذاك ، بل رحلة ابن جبير أو رحلة الكنانى فحسب .

حياة ابن جبير ورحلاته

غادر ابن جبير غرناطة فى رحلته الأولى إلى المشرق يوم الخميس ٨ شوال سنة ٥٧٨ / ٣ فبراير ١١٨٣ (١) فى صحبة صديق له من المشتغلين بالطب يسمى أحمد بن حسان كان يعمل معه فى الكتابة فى الديوان الموحدى فى غرناطة (٢) ، ولم يكونا — بداهة — يقصدان شهود الموسم فى نفس السنة ، فقد كان بينهما وموعده أقل من شهرين ، وهى مدة لم تكن تكفى لهذه الرحلة الطويلة فى تلك العصور ، إنما كان الناس يخرجون من الأندلس فى مثل هذا الموعد احتياطاً للطوارئ ولكى يسيروا على هَيْنَةٍ فيكونوا فى البقاع المقدسة فى رجب من العام التالى ، فيؤدون العمرة الرجبية ثم يقضون فى مهد الإسلام رجبا وشعبان ورمضان وشوال وذا القعدة ما بين درس وسماع وزيارات وأعمالِ تقىً ثم يؤدون الحج بعد ذلك فى ذى الحجة ، ثم يعودون إلى أوطانهم سعداء بهذه المجاورة التى كانوا يعدونها أسعد أوقات حياتهم وخير زادهم للآخرة .

وهذا على وجه التقريب ما فعله ابن جبير ، إذ وصل إلى جُدة فى يوم الثلاثاء ٤ ربيع الآخر ٥٧٨/٢٦ يوليو ١١٨٣ أى أنه استغرق فى الرحلة من بلده غرناطة إلى جدة خمسة أشهر هجرية وستة وعشرين يوماً ، وهى ١٦٢

---

(١) هذا هو ما ذكره ابن جبير فى كتابه ، وقد كان حريصاً على أن يدون مراحل سيره بالأيام والتاريخين الهجرى والميلادى . ولكننا نلاحظ أولا أن يوم ٨ شوال ٥٧٨ يقع يوم جمعة لا خميس ، ثم إنه يقابـــل ٢ (لا ٣) فبراير ١١٨٣ ، وتكفى هذه الملاحظة هنا ، ولن نمضى نصحح كل أخطاء التواريخ فى الرحلة بل سنثبتها كما أثبتها هو ، فهى على هذه الصورة جزء من الرحلة نفسها .

(٢) أبو جعفر أحمد بن حسان بن أحمد بن الحسن القضاعى ، أصله من أنده — عمل بلنسية — كان متحققاً يعلم الطب وله فيه تقييد مفيد ، مع المشاركة الكاملة فى فنون العلم ، وكتب للسيد أبى سعيد ابن عبد المؤمن ، وجده لأمه القـــاضى أبو محمد عبد الحق بن عطية ، وتوفى بمراكش سنة ٥٩٨ أو ٥٩٩ (١٢٠٢ أو ١٢٠٣) ولم يبلغ الخمسين من عمره ، ولم يذكره ابن جبير فى رحلته إلا ثلاث مرات . انظر مقدمة رحلة ابن جبير للدكتور حسين نصار ، ص : ى .

يوماً على وجه التقريب . وهذا هو متوسط المدة التى كان يحتاجها الراحل من الأندلس إلى الحجاز ، ونلاحظ أن ابن جبير اكتفى بأن يشهد فى طريقه أهم المزارات وأشدها قداسة عنده ، فلم يكد يسمع من أحد من الشيوخ ، وكانت العادة أن يبدأ النـاس السماعَ الحقيقى فى الحجاز إذا وصلوا إليه تاركين مَن يمرون به من الشيوخ فى الطريق إلى العودة ، فبعد أداء الفريضة يتسع الوقت للدراسة والطلب . حقيقة أن ابن جبير اضطر إلى الوصول إلى مكة عن طريق الصعيد الأعلى وقوص ثم عبور البحر من عَيْذاب إلى جدة بدلا من الطريق التقليدى عَبر شبه جزيرة سيناء إلى أَيْلَة ثم الانحدار جنوباً حتى المدينة فمكة ، ولكن هذا لا يغير من الوضع كثيراً ، فقد كانت الرحلتان متقاربتين من حيث الزمن اللازم لقطع كل منهما ، لأن فرق المسافة كان يعوضه عبور البحر الأحمر من عيذاب إلى جده ، وهى رحلة بحرية كان لا ينبغى أن تستغرق أكثر من ثلاثة أيام ، ولكنها كانت تستغرق فى العادة ما بين ثمانية أيام إلى عشرة كلها معاطب ومهالك مرجعها إلى سوء السفن واجتهاد أصحابها فى تحصيل تكاليف انشائها فى عبور واحد ، ثم انعدام رقابة الدولة على شئون هذا المرفأ البحرى الهام ، وهذه كلها حقائق أشرنا إليها فيما سبق ، ويرجع الفضل إلى ابن جبير فى تصويرها تصويراً واقعياً لا يخامرنا الشك فى صحته ، وسنعود إليه بتفصيل أوفى فيما يلى من الصفحات .

ونُتابع بقية رحلة ابن جبير الأولى وأحداث حياته إلى نهايتها لكى نفرغ بعد ذلك لدراسة الرحلة نفسها : بارح ابن جبير المدينة المنورة فى ٨ محرم ٥٨٠ مع ركب الحاج الكبير الجـامع لحجاج العراق وخراسان والشام فوصل إلى الكوفة فى ٢٨ محرم ، أى أن القافلة استغرقت ٢٠ يوماً لقطع مسافة تزيد على ٨٠٠ كيلومتر ، بمعدل نحو ٤٠ كيلومتراً فى اليوم ، وهو متوسط السرعـة لأسفار القوافل فى تلك العصور ، ووصل إلى بغداد مساء الأربعاء ٣ صفر ٥٨٠ ، ولم يقم فيها إلا ١٣ يوماً ، ولكنه رأى فى هذه الأيام القليلة ما لم ير

غيره فى شهور ، لأن ابن جبير كان شديد الشبه بمؤرخنا المصرى عبد الرحمن الجبرتى ، لا يكاد يسمع عن شيء غريب إلا أسرع لرؤيته ، ولا يتصل به طرف من خبر حتى يبادر إلى استقصاء تفصيله ، ولا يترك أثراً أو مشهداً أو اجتماعاً إلا خف إليه ، ثم هو حريص بعد ذلك على أن يدون كل ما يرى ويسمع على أدق صورة وأوفاها ، وإلى هذا الحرص ترجع أهمية رحلته هذه الفريدة فى بابها . ومن بغداد رحل إلى دمشق ماراً بتكريت والموصل ونصيبين ورأس العين وحران ومنبج وحلب وحماه وحمص ، فوصلها يوم الخميس ٢٤ ربيع أول ٥٨٠/٥ يوليو ١١٨٤ ، وقد اقتصرنا هنا على ذكر المراحل الرئيسية من خط سيره .

أقام ابن جبير فى دمشق حتى ٥ جمادى الآخرة ٥٨٠/١٣ سبتمبر ١١٨٤ فكأنه قضى فيها قرابة السبعين يوماً ، أى قريباً من المدة التى قضاها فى الحجاز وستّ مرات ونصفاً قدر المدة التى قضاها فى بغداد ، وليس مرد هذه الاقامة الطويلة إلى مجرد البحث عن وسيلة للسفر من دمشق إلى عكا على طريق كانت إذ ذاك تحت سلطان الصليبيين ، بل مردُّه فى الحقيقة إلى هذا الأنس الذى كان الأندلسيون يجدونه فى عاصمة الشام للمشابهة فى البيئة الطبيعية وأخلاق الناس ورابطة الأموية ، وهذا الأنس مصداق ما يقوله الجغرافيون الأندلسيون عن بلادهم من أنها شامية ، ولهذا لا نكاد نجد رحالة أو حاجا أندلسياً إلا يطيل المقام والكلام فى دمشق أو غيرها من مدائن الشام ، وسنرى عند كلامنا عن علىّ بن سعيد كيف استهوته حلب فجرى لسانه بمدحها وفكر فى الاقامة فيها ، وسيُعبِّر المقَّرى عن هذا الشوق الشامى للأندلسيين فى صفحات بعد صفحات من كتابه النفيس « نفح الطيب » .

واستطاع ابن جبير الوصول إلى عكا حيث اكترى مكانا فى سفينة جنوية كان قصدها مدينة مِسِّينَة بجزيرة صقلية ، وأبحر فى يوم الخميس ١٠ رجب ٥٨٠/١٨ اكتوبر ١١٨٤ على هذه السفينة التى يصفها ابن جبير بالضخامة والعظم .

ومقارنة بين وصفه للسفينة التى عبر عليها من عيذاب إلى جدة ووصفه لتلك السفينة الجنوية توضح لنا بما لا مزيد عليه من البيـــان البونَ الشاسع بين صناعة السفن وفنون البحر عند المسلمين والنصارى فى أواخر ذلك القرن الهجرى السادس/أواخر الثانى عشر الميلادى .

قال فى وصف السفينة التى نقلته من عيذاب إلى جدة :

« والجِلاب التى يُصَرِّفونها فى هذا البحر الفرعونى ، ملفّقة الإنشاء ، لا يُستعمل فيها مسمار البتّةَ ، إنما هى مخيَّطة بأمراس من القِنْبَـار ، وهو قشر جوز النارَجيل يدرسونه إلى أن يتخيّط ، ويفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب ، ويُخلّلونها بِدُسُر من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة ، سَقَوْها بالسمن ، أو بدهن الخِرْوَع ، أو بدهن القِرْش ، وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم فى البحر يبتلع الغَرْقَى فيه ، ومَقْصِدهم فى دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب ، لكثرة الشِّعَابِ المعترضة فى هذا البحر . ولذلك لا يصرِّفون فيه المركب المسمارىّ . وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن ، وكذلك القنبـار المذكور . ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شُرُعها منسوجة من خوص شجر المُقْل ، فمجموعها متناسب فى اختلال البنية ووهنها ، فسبحان مسخرها على تلك الحال ، والمسلِّم(١) فيها لا إله سواه . ولأهل «عيذاب» فى الحجاج أحكام الطواغيت . وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب ، حتى يجلس بعضهم على بعض ، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة ، يحمـل أهلها على ذلك الحرص والرغبة فى الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحدة ، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك ، ويقولون : « علينـا بالألواح ، وعلى الحجاج بالأرواح » . وهذا مثل متعارف بينهم(٢) .

---

(١) أى الذى يكتب السلامة من العطب فيها .

(٢) الرحلة ، ص ٤٤ — ٤٥

وقال فى وصف السفينة التى استقلها من عكا إلى مسينة : « وصعدنا إلى المركب ، وهو سفينة من السفن الكبار — بمنة الله على المسلمين — بالماء والزاد ، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الأفرنج ، وصعده من النصارى المعروفين . بالبِلِغْرِيِّين — وهم حجاج بيت المقدس — عالم لا يحصى ، ينتهى إلى أزيد من ألفى إنسان... وقل الزاد بايدى الناس ، ولكن هم فى هذا المركب — بمنة الله — فى مدينة جامعة المرافق ، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد : من خبز وماء ، ومن جميع الفواكه والأُدمُ كالرمان والسفرجل والبطيخ السندى والكمثرى والشاه بلوط والجوز والحمص والباقلاء — نيًّا ومطبوخاً — والبصل والثوم والتين والجبن والحوت وغير ذلك مما يطول ذكره ؛ عاينا جميع ذلك يباع[١] » .

ووصل ابن جبير إلى مسينة يوم السبت ٢ رمضان ٥٨٠ / ١٨ ديسمبر ١١٨٤ بعد أهوال اشرف معها على الموت ، آخرها أن تحطمت السفينة فى مدخل مسينة وانتقل ابن جبير ومن معه إلى البر فى زوارق أقبل بها نواتية من الشواطىء . وأقام فى ذلك البلد عشرة أيام ، ثم عبر ممر مسينة فى مركب صغير إلى ميناء شفلودى ووصف لنا فى أثناء ذلك بركان اتنـا أصدق وصف قرأناه عند أحد من جغرافيينا أو رحالتنا ، ومن شفلودى انتقل إلى ثرمة ثم إلى بلرم (يكتبها بلارمة) فدخلها يوم السبت ١٦ رمضان ٥٨٠ / ٢٢ ديسمبر ١١٨٤ فاقام بها إلى السبت ٢٣ رمضان ٥٨٠ / ٢٩ ديسبر ١١٨٤ ، ثم انتقل إلى إطرابنش Trapani ، فاقام بها على رغمه إلى ٢١ ذى حجة ٥٨٠ / ٢٥ مارس ١١٨٥ حيث رحل إلى الأندلس فى مركب جنوى أيضاً ، فوصل إلى الأندلس مساء الخميس ١٥ محرم ٥٨١ / ١٨ ابريل ١١٨٥ ونزل بمينـاء قرطاجنة ومنها سار إلى غرناطة فوصلها بعد سبعة أيام ، ودخل منزله بعد غياب عامين هجريين وثلاثة أشهر ونصفاً بحسابه .

---

(١) رحلة ابن جبير ، ٣٠٣ — ٣٠٤

وقد قاسى ابن جبير فى رحلتـه هذه كثيراً من الأهوال وصفها بتفصيل كبير مرة بعد مرة فى أسلوبه الساذج الجميل الذى ينم عن صدقه وسلامة طويته وعميق اعتقاده فى الله سبحانه . ونعتقد أنه عاد إلى عمله فى خدمة الموحدين فى غرناطة ، ولكنه لم يعد إلى خدمة أبى سعيد بن عبد المؤمن ، فقد كان هذا قد ترك ولاية غرناطة من زمن ، والثابت على أى حال أن ابن جبير كان رخى الحال ذا مكانة مرموقة فى المجتمع الغرناطي فى ذلك الحين ، وتدل قائمة الذين سمعوا عليه — وقد أوردها المقرى — على أنه اشتغل بالتدريس زمناً دون أن يكون من كبار الشيوخ ، فلم يذكره أحد بين هؤلاء ، وكلامه فى رحلته يدل على علم متوسط ، فاقتباساته الشعرية من النوع القريب المتناول ، واشاراته الفقهية لا تنم عن علم عميق واسع بالفقه ، ولكنه كان — وهذا هو المهم — رجـلا صادقاً بسيطاً شهماً كريماً ، فقد حكى المقرى حكاية تدل على شهامته وكرمه خلاصتها أنه توسط لأحد أبناء أصحابه فى الزواج من ابنة صديق ، ولم يوفق الزواج وانتهى بالطلاق ، فاسرع ابن جبير إلى الشاب بمائة دينار قدّر أنها تعدل ما خسره الشاب فى ذلك الزواج غير الموفق ما بين مهر وشوار ونفقات عرس ، فلم يقبلها الشاب وتعلل فى الاعتذار عن قبولها بعلة وجيهة قبلها ابن جبير ، والطريف الذى يدل على أن الناس أبناء زمانهم أيًّا كانوا أن ابن جبير لم يفكر فى مواساة الشابة المطلقة وتعويض شئ من خسارتها ، وهى — كما هو بديهى — افدح بكثير من خسارة الشاب . وكان ابن جبير متزوجاً من سيدة كريمة ، أبوها شيخ كبير يسمى الوقَّشِى ، ولا نعرف من هو بين الشيوخ الوقشيين ، وهم كثيرون جداً ، وكان شديد التعلق بها ، حتى أنه لم يطق المقام فى الأندلس بعد وفاتها كما سنرى .

ورغم تلك الأهوال التى قاساها ابن جبير فى رحلته الأولى فاننا نراه ينهض لرحلة الحج مرة أخرى فيما بين سنتى ٥٨٥ و ٥٨٧ / ١١٨٩ و ١١٩١ ويقال إن الذى دفعه إلى ذلك فَرَحُه باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ٥٨٣ /

١١٨٥ ، فقرر العودة إلى المشرق ليرى بنفسه ثالثة مدائن الإسلام المقدسة وقد اظلها الإسلام من جديد ، ومن أسف أنه لم يسجل هذه المرة يومياته كما فعل فى رحلته الأولى ، وكل ما لدينا من آثار هذه الرحلة الثانية قصيدة طويلة رفعها إلى صلاح الدين الأيوبى يهنئه فيها بالفتح العظيم ، ويشكو إليه عسف رجاله وأمنائه بالحجاج وسوء معاملتهم إياهم .

ولم يستقر ابن جبير فى غرناطة بعد عودته من رحلته تلك ، بل انتقل إلى مالقة ، ثم غادر الأندلس نهـائياً إلى سبتة ثم إلى فاس وهناك انقطع للأقراء واسماع الحديث ، وتزهد فى عيشة وإن لم ينقطع عن رواية الشعر ونظمه فقد كان مشغوفاً بذلك طول حياته .

ولم ينعم ابن جبير بحياة الهدوء طويلا ، فقد توفيت زوجته عاتكة فى سنة ٦١٤ / ١٢١٧ وهو فى الرابعة والسبعين من عمره ، ولم يحتمل الشيخ الواهن وطأة النكبة فقرر الخروج إلى المشرق والحج مرة ثالثة ، فذهب وجاور بمكة ثم انتقل إلى بيت المقدس وتحول بعد ذلك إلى الاسكندرية ، وهى مدينة طالما احبها وأطال فى وصفها ، وهناك اقام يحدث ويدرس حتى توفى فى شعبان سنة ٦١٦ أو ٦١٧ / ١٢١٩ أو ١٢٢٠ وقد قارب الثمانين من عمره .

الخصائص الجغرافية لرحلة ابن جبير

تلك هى حياة محمد بن أحمد ابن جبير الكنانى ، حياة بسيطة عادية فى فى جوهرها ، فان ألوفاً من الأندلسيين قاموا بمثـــل هذه الرحلة قبله مرات وعاشوا كذلك مثل هذه الحياة السهلة الهينة . حتى وفاة زوجته يبدو لنا عادياً ، فقد وقعت وهو فى السبعينات من عمره ، ولابد أنها لم تكن أصغر منه بكثير ، ولكننا نرى — لأمر ما — أن الحوادث التى تستحق الذكر فى حياة ابن جبير تتحول إلى دوافع وحوافز تجعل لها طعم القصص ، فهو يقوم برحلته الأولى لأنه

أرغم على شرب الخمر وأراد التكفير بالحج ، وهو يقوم برحلته الثانية للاحتفال باستيلاء صلاح الدين على القدس ، وهو فى ذاته حادث فاصل جدير بأن يحتفل به ، وقيام ابن جبير بالرحلة لهذا السبب يدل على أنه كان ذا إحساس عميق بوحدة الوطن الإسلامى ، وهو يقوم برحلته الثالثة ليتعزى عن مصابه فى زوجه عاتكة ، وهو أمر يدل على أن الرجل كان ذا قلب إنسانى كبير ، فان هجرة الرجل من وطنه فى هذه السن للتأسى والنسيان وزيارة البيت الحرام أمر لا يقدم عليه الكثيرون .

وهذا الفيض العاطفى الذى امتاز به ابن جبير هو — فيما نرى — دافعه إلى تقييد رحلته ، فان تقييد الرجل لخطوات رحلته وتسجيله أحداثها يدل على أنه كان يشعر أنها أمر هام جدير بان يسجَّل ويوصَف ، وانها ليست نزهة يقوم بها أو فرض يؤديه لأنه واجب فحسب ، ولهذا فهو يسجل كل شىء فى أوراق معه ، وكلما وجد فراغاً من الوقت استعاد ما رأى وكتبه بغاية الدقة دون سفسطة أو اسراف فى ألفاظ ، وهذا شأن رحالة حق ، يتجشم أخطار الأسفار ومتاعبها ليرى ويتعلم وليحس وينفعل بما يرى ، وهذا أيضاً هو الذى جعل لهذه الرحلة تلك القيمة العلمية والأدبية الكبرى ، فان ابن جبير الذى سار بأدب الرحلات خطوة تالية للمحاولة الساذجة التى قام بها ابن العربى وصل بهذه الخطوة إلى أرقى ما يكون عليه أدب الرحلات إلى نهاية العصور الوسطى ، بل قَلَّ أن تجد فى كتب الرحلات فى شتى الآداب ما يضاهى هذه الرحلة أو يساويها فى المتعة والصدق والقيمة العلمية من كل وجه .

وإذا كانت الرحلات للمشاهدة والملاحظة والدراسة تعتبر من عُمُد العلم الجغرافى ، فان ابن جبير يحتل عن جدارة مكاناً صدراً فى تاريخ الجغرافية فى الأندلس على هذا الأساس ، وإن لم تكن مادة كتابه جغرافية صرفة ، بل إن التاريخ والآثار هما الغالبان عليها . ولكن الذى يستوقف الانتباه أن ابن جبير كان دقيق الملاحظة فى كل ما يتصل بالمظاهر الجغرافية من أرضين وبحار

وخلجان ورءوس وأنهار ورياح وأمطار وشروق وغروب وفصول السنة وأجناس الناس وأشغالهم وصناعاتهم وزراعاتهم ومتاجرهم وما إلى ذلك . ولو أن رجلا متخصصاً فى الجغرافية قام بهذه الرحلة وسجل مشاهداته اثناءها ما زاد على ما قال ابن جبير شيئاً ، فهو من أول الرحلة يصف خط السير ويعين المراحل والزمن الذى استغرقته كل منها ، وهو حريص على أن يدون فى كل حالة التاريخين الهجرى والميلادى ، وهو فى هذه الثانية يكتب الشهور الميلادية على نحو قريب جداً مما نستعمله اليوم ، ولكنه لم يحدد السنة الميلادية أبداً ، ربما لأنه لم ير ما يدعو إلى ذلك اكتفاء بذكر السنة الهجرية ، وإذا قلنا إن ابن جبير كان لا يجد صعوبة فى تحديد التواريخ وهو بالأندلس إذ كان يكفى أن يسأل من حوله ليجد الجواب ، فقد جاء عليه وقت فى بلاد المشرق كان عليه أن يعتمد على نفسه فى حساب الشهور الميلادية ، وعلى ظهر المركب كان عليه أن يحسب التقويمين معاً ، فكان يرقب الهلال بنفسه ويحسب على أساس ما يرى ، وغريب بعد ذلك أن أخطاءه فى هذا قليلة ، وهى دلالة على ذهن صاح حاضر ، وهى صفة تدهشنا عند ابن جبير فى كل حالة ، لا فيما يتصل بحساب الأيام والتواريخ فحسب .

فمن أظهر أمثلة يقظته وحرصه على أن يعلم — ويسجل — دائماً أين هو وفى أى اتجاه يسير قوله : « وأقلعنا ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين منه (يريد شوال ٥٧٨) وبموافقة الرابع والعشرين من فبراير المذكور (سنة ١١٨٣) ، بحول الله تعالى وعونه لا رب غيره ، وكان طريقنا فى البحر محاذياً لبرّ الأندلس . وفارقناه يوم الخميس السادس لذى القعدة بعده ، عندما حاذينا « دانِيَة » . وفى صبيحة يوم الجمعة السابع من الشهر المذكور آنفا قابلنا برّ جزيرة « يابسة » ، ثم يوم السبت بعده قابلنا برّ جزيرة « مَيُورَقَة » ، ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة « مَنُورَقَة » ، ومن « سبتة » إليها نحو ثمانية مجارٍ ، والمجرى مائة ميل . وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة ، وقام معنا بر جزيرة

« سَرْدَانِيَةَ » أول ليلة الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور ، وهو الثامن من مارس ، دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل . وبين الجزيرتين « سردانية ومنورقة » نحو الأربع ، فكان قطعاً مستغربا فى السرعة » وهذه عبارة غاية فى الأهمية باالنسبة لطرق الملاحة فى تلك العصور ، فان ابن جبير يرسم لنا الطريق بالضبط ويذكر الشاطئ الذى سارت السفينة فى محاذاته فى كل تاريخ ويعين المراحل البحرية وأطوالها بالمجارى (جمع مجرى) ويذكر أن المجرى ١٠٠ ميل . ولا ندرى إن كان المراد ميلا عربياً أو ميلا بحرياً مما كان يستعمله الملاحون الجنويون . ومما يدل على أن ابن جبير كان يسأل عن كل شىء أو يدون كل ما يصل إليه علمه قوله : « ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة منورقة ، ومن سبتة إليها نحو ثمانية مجار » فهذه ملاحظة طيبة أراد ابن جبير أن يعيّن بها ما قطع فى البحر منذ اقلاعه يوم الخميس السابق على ذلك الأحد .

وقد كسب ابن جبير من طول ملاحظته لجرى السفن وتسيير الربابنة لها فَهْماً يستوقف النظر لشئون السفن والرياح والأنواء ، وحديثه حافل بما يدل على ذلك الفهم ، وهو يستعمل فيه المصطلح الدارج كما سمعه دون محاوله للترجمة أو التعريب ، مما يعطى كلامه فى ذلك الموضوع قيمة خاصة ، ومن أمثلة كلامه عن مهاب الريح قوله قبيل إقلاعه من ميناء عكا فى طريق العودة : « وفى مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب ، وذلك أن الريح الشرقية لا تهب فيها إلا فى فصلَى الربيع والخريف ، والسفر لا يكون إلا فيهما ، والتجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا فى هذين الفصلين . والسفر فى الفصل الربيعى من نصف أبريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ، وتطول مدتها إلى آخر شهر مائُيه ، وأكثر وأقل ، بحسب ما يقضى الله تعالى به . والسفر فى الفصل الخريفى من نصف اكتوبر ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ، ومدتها أقصر من المدة الربيعية ، وإنما هى عندهم خُلْسَة من الزمان ، قد تكون خمسة عشر يوماً وأكثر وأقل . وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف ، والريح

الغربية أكثرها دواماً ، فالمسافرون إلى المغرب ، وإلى صقلية ، وإلى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية فى هذين الفصلين انتظارَ وعد صادق ، فسبحان المبدِع فى حكمته ، المعجز فى قدرته ، لا إله سواه » . ومن أمثلة استعماله للمصطلح البحرى قوله يصف بعض مراحل رحلة العودة هذه : « فلما كان نصف الليل ، أو قريب منه ، ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور ، والسابع والعشرين لاكتوبر ، ترددت علينا الريح الغربية فقصفت قريّةَ الصارى المعروف بالأردمون(١) ، وألقت نصفها فى البحر مع ما اتصل بها من الشراع ، وعصم الله من وقوعها فى المركب ، لأنها كانت تشبه الصوارى عظما وضخامة . فتبادر البحريون إليها ، وحُطّ شراع الصارى الكبير ، وعُطِّل المركب من جرْيه ، وصيح بالبحريين الملازمين للعشاريّ المرتبط بالمركب . فقصدوا إلى الخشبة الواقعة فى البحر ، وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها . وحصلنا فى أمر لا يعلمه إلا الله تعالى . وشرعوا فى رفع الشراع الكبير ، وأقاموا فى الأردمون شراعا يعرف بالدّلون ، وبتنا بليلة شهباء ، إلى أن وضح الصباح ، وقد منَّ الله عز وجل بالسلامة . وشرع البحريون فى إصلاح قريّة أخرى ، من خشبة كانت معدة عندهم » .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله : « وقام معنا بر جزيرة سردانية أول ليلة الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور (شوال ٥٧٨) وهو الثامن من مارس (١١٨٣) دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل » وقوله « فخرج علينا طرف من بر سردانية المذكور ، فأخذنا فى الرجوع عوْداً على بدء ، إلى أن وصلنا طرفا من البحر المذكور يعرف بقوسمركة » (Capo Sammarco) وقوله — وهى ملاحظة غاية فى الدقة والأهمية — يصف حلقة من حلقات عوده بالبحر من عكا إلى

(١) القرية الصارى الأفقى الحامل للشراع ، ويرفع عادة أعلا الصوارى . والأردمون هو الصارى الخلفى ، معرب عن Artémone الإيطالى .

قرطاجنـــة الأندلسية « فأصبحنا ولم نكد . فكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر إقريطش عن يسارنا ، وجباله قد قامت أمامنا . وكنا قد خلفناه عن يميننا ، فأسقطتنا الريح عن مجرانا ، ونحن نظن أنا قد جزناه . فسقط فى أيدينا ، وخالفنا المجرى المعهود الميمون ، وهو أن يكون البر المذكور منا يميناً ، فى استقبال صقلية ، فاستسلمنا للقدر ، وتجرعنا غصص هذا الكدر ، وقلنا :

سيكون الذى قُضِى   سخط العبدُ أو رَضِى »

ولو درسنا كلام ابن جبير عن البحر والسفن وأوصافه لما رأى وعاين فيه وعليها لكانت من ذلك رسالة غاية فى الأهمية عن الملاحة فى البحرين الأبيض والأحمر فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، ولم يلتفت لهذه الناحية من مؤرخى التاريخ البحرى فى البحر الأبيض إلا هُوَيْد فى كتابه الذائع الصيت عن تاريخ التجارة فى البحر الأبيض والبارون ماس لاتْرى فى مقدمة مجموعة وثائقه عن العلاقات بين المسلمين والنصارى أواخر العصور الوسطى ، أما سواهما من شاوْبِه إلى أرشيبالد لويس ، فلم يتقطن واحد منهم إلى شىء من ذلك رغم أن رحلة ابن جبير مترجمة إلى الكثير من اللغات الأوروبية متداولة فيها كلها بالقدر الذى هى متداولة به عندنا(١) .

أما أوصافه الجغرافية فهى الغاية فى الدقة والصدق والفائدة ، فهو لا يصل إلى بلد إلا أعطى عنه صورة دقيقة فى كلمات مختصرة تضم لباب الموضوع ، فمن أمثلة ذكره قوله يصف الاسكندرية : « فأول ذلك حُسن وضع البلد واتساع مبانيه ، حتى أنا ما شهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه ، وأسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضاً . ومن العجب فى وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن ، لأن المـاء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض ، فتتصل الآبار بعضها ببعض ، ويمد بعضها بعضاً » .

(١) انظر : P. Vidal de la Blache, *Géographie Universelle,* Vol. VII, 1ère partie (1934).

«وعاينا فيها أيضاً من سوارى الرخام وألواحه كثرة وعُلوا واتساعا وحسنا ما لا يُتخيل بالوهم ، حتى إنك تلفى فى بعض الممرات بها سَوارٍ يغص الجو بها صعوداً ، لا يدرى ما معناها ، ولا لم كان أصلُ وضعها . وذُكر لنا أنه كان عليها فى القديم مبان للفلاسفة خاصة ولأهل الرئاسة فى ذلك الزمان ، والله أعلم ، ويشبه أن يكون ذلك للرصد» ، وجدير بالملاحظة إشارته إلى السراديب والمجارى التى كان الناس يحفرونها فى الاسكندرية لإيصال الماء إلى البيوت على ما نفعل اليوم ، وهو يصف هذه المجارى بأنها أبنية تحت الأرض ، وهو تعبير فى غاية الدقة ، وواضح أن الاسكندرانيين انتفعوا بالسراديب المسيحية القديمة (الكاتاكومب) فى هذا الغرض . ويلى ذلك كلامه عن منارة الاسكندرية وهو أدق من وصف البكرى وقريب فى القيمة والصحة من وصف الإدريسى ، والسبب واضح ، وهو أن البكرى لم ير المنار ولا هو دخله ، وإنما نقل وصفه . أما الإدريسى فلا شك — بقرينة الدقة والمشابهة تلك — فى أنه عاينه ودخل إليه وصعد فيه ، وإن لم يذكر المسجد الذى كان فى أعلاه . وكلام ابن جبير عن هذا المسجد بالذات يكشف لنـا عن اهتمامه بالتحقيق والضبط ، فبينما اكتفى غيره بالصعود فى المنـار بعض درجاته أو طبقاته صعد ابن جبير إلى القمة ، قال : « وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرك الناس بالصلاة فيه ، طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذى الحجة (٥٧٨) ، وصلينا فى المسجد المبارك المذكور ، وشاهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف » .

ووَصْفُ ابن جبير للرحلة النيلية من القاهرة إلى قوص فريد فى بابه ، فان عامة الجغرافيين قبل ذلك — كابن حوقل والإدريسى — يذكرون المدن الواقعة من القاهرة إلى أسوان سماعاً لا مشاهدة ، وهم لهذا ينقل بعضهم عن بعض ، حتى الإدريسى يمكن القول بأنه لم يغادر القاهرة جنوبا فى مروره بمصر ، أما ابن جبير فقد قام بالرحلة فعلا ووصف المدن والظواهر الجغرافية التى مر بها ،

وهو يذكر تاريخ وصوله إلى كل بلد نزل به أو مر به مما يعطينا فكرة واضحة عن الملاحة النيلية فى ذلك العصر من محطاتها ومراحلها وتوقيتها ومحصولات كل بلد وصناعة أهله وما يُحمل إليه من المتاجر وما إلى ذلك ، ويستوقف النظر وصفُه لأخميم والبِربا التى بها ، والمراد بها المعبد ، والبربا باللغة المصرية القديمة هى المقبرة ، ولكن اللفظ كان يستعمل فى العصور الوسطى فى معنى المعابد المصرية القديمة ومواقع الآثار عموماً ، ولم يكن يستوقف انتباه الجغرافيين والرحالة من العرب شىء من ذلك مثل بربا أخميم هذه ، فلهم فيها كلام مسرف فى الطول .

وفى هذه الرحلة إلى الحجاز عن طريق قوص وعيذاب يتحدث عن قوص حديثاً عظيم الأهمية بالنسبة للتاريخ الاقتصادى لمصر وافريقية عامة ، لأنها كانت إذ ذاك من أعظم مراكز التجارة والنشاط الاقتصادى فى القارة . ثم يعقب ذلك بكلام هو غاية فى الأهمية العلمية عن الطريق من قوص إلى عيذاب على البحر الأحمر ، فهو يصف مراحله واحدة واحدة ، ويتحدث عن كل منزل وما فيه من عيون الماء ، بل هو يذكر دواب الحمل التى تستعمل والشقاديف (أى المحامل أو الهوادج) التى يحملها جملان ويستعملها الأغنياء والمياسير . وجدير بالملاحظة قوله عن عمران هذا الطريق : « ورُمْنا فى هذه الطريق إحصاء القوافل الواردة والصادرة ، فما تمكن لنا ، ولا سيما القوافل العيْذابية المتحملة لسلع « الهند » ، الواصلة إلى « اليمن » ، ثم من « اليمن » إلى « عيذاب » . وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفُلْفُل ، فلقد خيل إلينا لكثرته أنه يوازى الترابَ قيمة . ومن عجيب ما شهدناه بهذه الصحراء ، أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها ، تترك بهذه السبيل ، إما لإعياء الإبل الحاملة لها ، أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونةً من الآفات ، على كثرة المار عليها من أطوار الناس » . وهذا كله صحيح ، فقد كانت هذه التجارة من احتكارات الدولة ، ولهذا كانت

عنايتها بها وبالطريق الذى تمر عليه عظيمة ، وإلى هذا يرجع الأمان الذى يتحدث عنه ابن جبير هنا . ومما هو جدير بالملاحظة — إذ هو يدل على فهم مدى الحكومات لمهامها فى تلك العصور — أن ذلك الأمان كان قاصراً على البضائع والقوافل حتى تصل إلى عيذاب ، أما الناس والحجاج منهم بصورة خاصة ، فإذا وصلوا إلى عيذاب تركوا تحت رحمة من يريد الاستبداد بهم من أهل ذلك الميناء أو أصحاب السفن أو البَجَّة أو البجاة ، وابن جبير يصفهم أسوأ وصف يتصوره العقل ويشكو من سوء أفاعيلهم بالناس ، حتى لقد عاهد الله وهو فى هذا الموضع الذى ثقل على نفسه بأن تكون عودته من الحجاز عن طريق بغداد وعكا وكانت إذ ذاك فى أيدى الصليبيين ، وحالٌ تجعل رجلا بالغ التقى مثل أبى الحسين ابن جبير يفضل الرحلة عن طريق يسود بعضه المسيحيون على الرحلة فى طريق بعيدة عنهم لابد قد بلغت من السوء أسوأ درجة .

ولا يتخلى ابن جبير عن تلك الدقة فى وصف المدن إلا عند كلامه على مكة والمدينة ، فإنه يدع الواقع إلى العاطفة ويفيض فى الاطراء والاعجاب ، وهو يجرى فى هذا على سنن المسلمين جميعاً ، فهم لا يرون مكة والمدينة بعينهم وإنما بعين الخيال والعاطفة والايمان ، فإذا اقتربوا من مكة لم يروا طريقاً ولا جبالا أو ودياناً ، وإنما هى أنوار تهل عليهم وجنان تحيط بهم وعطور تمـــلأ الجو حولهم ، وما تحس به القلوب فى تلك الأحوال يطغى على كل ما ترى العيون ، ولا غرابة فى ذلك ، فان الرجل الذى يحمله الإيمان على ركوب المخاطر والتعرض للمهالك من ساحل الأطلسى أو من حدود الصين إلى الحجاز ينتقل بشعوره — إذا هو اقترب من مهد الإسلام وبلد البيت العتيق أو إذا هو أهل على مدينة سيد المرسلين وعترة بنى آدم — من عالم الواقع إلى عالم الاشراق الروحى ، وتستغرق إحساسه نشوة غامرة نحمد الله على ان كنا ممن عرفها واستشعر جمالها .

ومن أمثلة الدقة والتحديد الجغرافى وصفُ ابن جبير للطريق من مكة إلى المدينة ومنها إلى الكوفة . والجزء الأول من هذا الطريق (إلى المدينة) موصوف بضبط لا نجده عند رحالة آخر ، فهو يتحدث عن كل منزل من المنازل ويصفه وصفاً موجزاً مع ذكر ما فيه من موارد الماء ، وقد خُيِّل إلىَّ وأنا أتتبع سير قافلته من مكة إلى بطن مر إلى عُسفان إلى خُلَيص إلى بدر إلى الصَّفراء إلى الرَّوحاء إلى البيداء إلى مسجد ذى الحليفة إلى وادى العقيق إلى المدينة المنورة انه ربما رجع إلى البكرى فيما أتى به من أوصاف هذه المواضع فى « معجم ما استعجم » ، ثم تبينت أن الرجل يكتب من عند نفسه دون اعتماد على أحد ، لأن هناك أخطاء فى الابعاد وترتيب الأماكن وقع فيها البكرى — إذ أنه كان يصف هذه النواحى وهو فى حجرته معتمداً على كتبه — أما ابن جبير فقد قطع هذا الطريق بنفسه ، قَطَعَه واعياً متيقظاً لكل شىء ، ومن هنا فمن العسير أن يدخل عليه الوهم فى ذلك ، ولا بد إذن لمن يريد أن يؤلف فى جغرافية شبه الجزيرة العربية أو جغرافيتها التاريخية من أن يرجع إلى ابن جبير .

وفى أثناء كلامه عن هذا الطريق تجىء فقرة مشهورة يصف فيها ابن جبير فى بيان لا زيادة لمستزيد عليه محلة الحاج العراقى أو ركب الحج العراقى وهو يسميها « المحلة العراقية ومَن انضاف إليها من الخراسانية والمواصلة وسائر جهات الآفاق من الواصلين صحبة أمير الحـاج المذكور »(١) وهى فقرة تروع النفس فى تصويرها ودقة وصفها لقافلة من قوافل الحج والتجارة الكبرى ، وهى الشرابين التى ظلت تبعث الحياة فى كيان الأمة الإسلامية الكبرى قرونا بعد قرون . ويكمل هذه العبارة كلامُه بعد أن وصل إلى الحِلة وأخذ على الطريق إلى بغداد وتفرقت القافلة الضخمة بعد وصولها إلى غايتها ودخلت بالناس إلى عمار العراق ، قال ابن جبير فى أسلوبه الواضح الجميل : « ومن مدينة الحِلة يتسلسل

(١) رحلة ابن جبير ، ص ١٦٩

الحاج أرسالا ، وأفواجاً أفواجا : فمنهم المتقدم ، والمتوسط ، والمتـأخر ، لا يعرج المستعجل على المتعذر ، ولا المتقدم على المتأخر ، فحيثما شاءوا من طريقهم نزلوا وأراحوا واستراحوا ، وسكنت نفوسهم من روعة نقر الكوس ، الذى كانت الأفئدة ترجف له بدارا للرحيل ، واستعجالا للقيام ، فربما كان النائم منهم يهذى بنقر الكوس ، فيقوم عجلا وجِلاً ، ثم يتحقق أنها من أضغاث أحلامه ، فيعود إلى منامه » .

وتلى ذلك فقرة ربما كانت من أحسن النماذج لكلام ابن جبير وما يضمه من الفوائد الجغرافية وغير الجغرافية ، فهى تحدثنا أولا عن عمران العراق فى ذلك الحين وما كان فيه من مجارى الماء الكثيرة وما عليها من القناطر ، بل هو يصف واحدة منها وصفاً موجزاً لا يحتاج إلى مزيد بيان ، ويتحدث عن الأمن الذى كان سائداً إذ ذاك والعناية بحراسة الطرق ، ثم يتكلم عن أمير الركب وعنايته بمن معه من الحجاج ، وهو أمر يهم الذين يدرسون تاريخنـا الاقتصادى وما يدخل فيه من نظم المواصلات ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف قرية « القنطرة » وصفاً جغرافياً دقيقاً . قال : « ومن جملة الدواعى لافتراقهم ، كثرة القناطير المعترضة فى طريقهم إلى بغداد ، فلا تكاد تمشى ميلا إلا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات ، فتلك الطريق أكثر الطرق سواقى وقناطير ، وعلى أكثرها خيام ، فيها رجال محترسون للطريق ، اعتناءً من الخليفة بسبيل الحج ، دون اعتراض منهم لاستنفاع بكدية أو سواها . فلو زاحم ذلك البشرُ تلك القناطر دفعة ، لما فرغوا من عبورها ، ولتراكموا وقوعا بعض على بعض . والأمير طشتكين المتقدم الذكر يقيم بالحلة ثلاثة أيام ، إلى أن يتقدم جميع الحاج ، ثم يتوجه إلى حضرة خليفته . وهذه الحلة المذكورة طاعة بيده للخليفة . وسيرة هذا الأمير فى الرفق بالحاج والاحتياطِ عليهم والاحتراسِ لمقدمتهم وساقتهم ، وضمِّ نشر ميمنتهم وميسرتهم ، سيرة محمودة ، وطريقته فى الحزم وحسن النظر

طريقة سديدة ، وهو من التواضع ولين الجانب وقرب المكان على وتيرة سعيدة ، نفعه الله ، ونفع المسلمين به » .

« وفى عصر يوم الاثنين المذكور ، نزلنا بقرية تعرف « بالقنطرة » كثيرة الخصب ، كبيرة الساحة ، متدفقة جداول الماء ، وارفة الظلال بشجرات الفواكه ، من أحسن القرى وأجملها ، وبها قنطرة على فرع من فروع الفرات ، كبيرة محدَوْدِبة ، يصعد إليها وينحدر عنها ، فتُعرف القرية بها ، وتعرف أيضاً « بحصن بَشِير » . وألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات ، فى هذا الوقت الذى هو نصف مايُه » .

يقظته ودقـة ملاحظته

ويطول بنا المقام لو مضينا نتتبع الأوصاف الجغرافية فى هذه « الرحلة » المبدعة ، فالواقع أنها كنز حافل بالمعلومات من كل صنف ، ويكفى أن نقرأ كلامه عن رحلته من بغداد إلى دمشق ، فهذا دون شك أحسن ما كتب رحالة عربى وأصدقه وأدقه عن سَفْرة قام بها ، بالاضافة إلى ما أوتيه ابن جبير من دقة الملاحظة والرغبة فى رؤية كل شىء بنفسه ، ومثال ذلك وصفه الدقيق لمحلة الأمير العراقى أى مضرب خيام أمير ركب الحاج العراقى ، وهو وصف طويل دقيق يدل على أن ابن جبير اجتهد حتى دخله وتمشى فى أرجائه ورأى كل ما فيه بنفسه ، ولابد أن ابن جبير قد بذل جهداً كبيراً حتى وصل إلى ذلك ، فان هذه المحلة كانت أشبه بالمدينة الصغيرة المسورة المحروسة بحيث لا يفضى إلى داخلها غريب ، ولا يتسع المقام هنا لإيراد ذلك الوصف فهو وارد بطوله فى « الرحلة » المطبوعة وهى بأيدى الناس (ص ١٥٨ — ١٦٠ من تحقيق الدكتور حسين نصار) . ومن أمثلة هذه الدقة أيضاً وصفه للخليفة العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله ، أطول خلفاء بنى العباس حكما على الإطلاق (حكم من

٥٧٥ إلى ٦٢٢/ ١١٨٠ — ١٢٢٥) وأطرف خلفاء العصر العباسى الأخير شخصية وأقربهم إلى مفهوم الخلفاء العظام ، وقد حرص ابن جبير على ألا تفوته رؤيته واعطانا عنه صورة ناطقة كأنها لوحة ملونة ، قال : « أبصرنا هذا الخليفة المذكور — وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضىء بنور الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف ، ويتصل نسبه إلى أبى الفضل جعفر المقتدر بالله ، إلى السلف فوقه من أجداده الخلفاء ، رضوان الله عليهم — بالجانب الغربى ، أمام منظرته به ، وقد انحدر عنها ، صاعدا فى الزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقى على الشط ، وهو فى فتاء من سِنِّه ، أشقر اللحية صغيرها ، كما اجتمع بها وجهه ، حسن الشكل ، جميل المنظر ، أبيض اللون ، معتدل القامة ، رائق الرواء ، سنه نحو الخمس وعشرين سنة ، لابساً ثوبا أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة ، مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس مما هو كالفنك وأشرف ، معتمداً بذلك زىِّ الأتراك ، تعمية لشأنه ، لكن الشمس لا تخفى وإن سُترت . وذلك عشية يوم السبت السادس لصفر سنة ثمانين . وأبصرناه أيضاً عشى يوم الأحد بعده ، متطلعاً من منظرته المذكورة بالشط الغربى ، وكنا نسكن بمقربة منها » .

وربما انساق ابن جبير مع تيار هذا التطلع الغالب عليه فأتى بأشياء تقرب فى تفاصيلها مما تقرأ فى صفحات الأدب الشعبى وهى مع ذلك من صميم الواقع ، رآها هذا النَّظار اللماح الذى لا تفوت بصره الحاد شاردة ، ووصفها بأسلوبه السهل الواضح ، ومن ذلك وصفه لموكب الخاتونين (مُثَنَّى خاتون ومعناه الأميرة أو السيدة الكريمة ، وهو أصل اللقب النسائى المعروف عندنا : هانم) سلجوقة بنت السلطان مسعود وأم الأتابك عز الدين صاحب الموصل ، وهو وصف نحس ونحن نقرأه أن الشيخ طرب وهو يرى المشهد ، وطرب أكثر وهو يستعيده ويثبته على الورق ، قال : « وهاتان الخاتونان هما أميرتا هذا العسكر الذى توجهنا فيه وقائدتاه ، والله لا يجعلنا تحت قول القائل :

ضاع الرَّعِيلُ ومن يَقُودُهُ

ولها أجناد برسمها ، وزادها الخليفة جندا يشيعونها ، مخافة العرب الخفاجيين المضرين بمدينة بغداد ، وفى تلك العشية التى رحلنا فيها فجأتنا خاتون المسعودية المترفة شبابا وملكا ، وهى قد استقلت فى هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين ، الواحدة أمام الأخرى ، وعليهما الجلال المذهبة ، وهما تسيران بها سير النسيم سرعةً ولينا ، وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان ، وهى ظاهرة فى وسطه متنقبة ، وعصابة ذهب على رأسها ، وأمامها رعيل من فتيانها وجندها ، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق ، ووراءها ركب من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبة ، وعصبن رءوسهن بالعصائب الذهبيات ، والنسيم يتلاعب بعذباتهن ، وهن يسرن خلف سيدتهن سير السحاب . ولها الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها ، وعند نزولها . وأبصرنا من نخوة الملك النسائى واحتفاله رتبة تهز الأرض هزاً ، وتسحب أذيال الدنيا عزاً ، ويحق أن يخدمها العز ، ويكون لها هذا الهز ؛ فإن مسافة مملكة أبيها نحو الأربعة أشهر ، وصاحب القسطنطينية يؤدى إليه الجزية ، وهو من العدل فى رعيته على سيرة عجيبة ، ومن موالاة الجهاد على سنة مرضية » . وفى مناسبة أخرى — أيام كان فى مدينة صور — شاهد زفافا نصرانياً واسترعت انتباهه العروس ، فمضى يصفها فى تؤدة وتدقيق حتى لقد راقته مشيتها فقال انها كانت « تمشى فتراً على فتر مشىَ الحمامة أو سيرَ الغمامة » ثم انتبه إلى نفسه واستدرك وقال : « نعوذ بالله من فتنة المناظر ! » ، ثم انساق فى الوصف مرة أخرى ، وختم كلامه عن ذلك المشهد قائلا : « فأدانا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفى المستعاذ بالله من الفتنة فيه[١] » .

أما ملاحظاته التى تدخل فى نطاق التاريخ فربما كانت خير ما أتى به

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٩٥ — ٢٩٦

شاهد عيان ممن كتبوا عن الحروب الصليبية على إطلاق ، ومن سعيد الاتفاقات أن رحلته الأولى — وهى التى وصفها — وقعت فى فترة حاسمة مُشرِقة من تاريخنا ، فقد كان السلطان إذ ذاك صلاحَ الدين الأيوبى ، وكان يستجمع قواه ويتأهب لاستعادة بيت المقدس وكسْرِ ظهر القوة الصليبية فى الشام ، وقد أعطانا ابن جبير صورة صحيحة محايدة لذلك البطل الإسلامى الأكبر تعتبر من وثائق التاريخ . وجدير بالتقدير أن ابن جبير لم يغادر شخصية ذات أهمية مَرَّ بها فى طريقه إلا وفاها حقها من الوصف والكلام ، ولم تفته فى مجتمعات الناس من حوله ظاهرة ذات قيمة إلا أثبتها سواء أكان ذلك فى مصر أو الحجاز أو العراق أو الشام أو صقلية ؛ وبالنسبة لصقلية بالذات تعتبر فقرات ابن جبير عنهـا من أثمن ما يعتز به المؤرخ ، وقد نبه على ذلك اسكياباريلى وأمارى وجابرييلى فى أكثر من موضع ، ومن حسن الحظ أن ابن جبير كان رجلا واعياً عائشاً فى دنيا الناس لا طالبَ علم ذاهلا ينزل بالبلد فلا يرى فيه إلا الشيخ فلان والشيخ علان وينفق الصفحات فيما قرأ على هذا وما سمع عند ذاك ، وأنت إذ تقرأ رحلة رجل مثل ابن رُشَيد الفهرى يخيل إليك أن هذا الرجل كان يسير فى فراغ لا يرى فيه إلا مجالس الشيوخ ، وحاله كحال رجل سائر فى الليل ونظره مثبت فى السماء يعد النجوم . وقد نتج عن تيقظ ابن جبير لما حوله أن ملاحظاته وأنظاره تسلكه فى عداد أصحاب النظر التاريخى الثاقب ، وهو صاحب الملاحظة المشهورة عن اتصال علاقات التجارة والتبادل بين المسلمين والنصارى أثناء الحروب الصليبية ، وهى ملاحظة طويلة ختمها بقوله : « وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية ، والدنيا لمن غلب » وهى عبارة لم يبق مؤرخ شرقى أو غربى للحروب الصليبية إلا نقلها عن ذلك الرحالة البلنسى الأصيل [١] .

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٧

وصل ابن جبير إذن بأدب الرحلات إلى قريب من ذروته فى تاريخنا الفكرى وأضاف إلى سجل الجغرافية والرحلات صفحات من أجمل ما فيه وأغزرها مادة وأقربها إلى روح العلم وأصدقها ، ومن أسف أنه لم يصف رحلتيه الثانية والثالثة ، ولكن هذا لا يقلل من قدره أو أهمية الخدمة التى أداها للعلم . ولقد قال كرتشكوفسكى إن رحلة ابن جبير تعتبر « من الناحية الفنية ذروةَ ما بلغه نمط الرحلة فى الأدب العربى[١] » وهو حكم له وجاهته من خبير بالجغرافية العربية مثل هذا العلامة الروسى الليتوانى الجدير منا بكل شكر وتقدير .

محمد بن أيوب بن غالب الغرناطى وكتابه « فرحة الأنفس »

وقبل أن نترك ابن جبير نقف لحظة عند رجل ينسب إلى غرناطة — ويغلب على الظن أنه من أهلها — خلّف لنا كتابا عظيم القيمة عن جغرافية الأندلس وإن كان جهده كله انصب إلى التلخيص والنقل دون انصراف إلى طلب شىء جديد يضيفه إلى ثروة المعلومات عن بلاده أو إلى تاريخ العلم الجغرافى فيه .

ذلك الرجل هو محمد بن أيوب بن غالب الغرناطى الذى يرجع الفضل فى تعريفنا به إلى المقَّرى ، فقد كانت نقوله عنه منبهة للأذهان إلى قدره وفضلِ كتابه المسمى فرحة الأنفس . وإلى حين قريب لم تكن معلوماتنا عن كليهما لتزيد على إشارات المقرى إليه واشارة غير دقيقة فى « ذيل كشف الظنون » لاسماعيل باشا ومادة مضطربة فى كتاب بونس بويجس الجامع عن مؤرخى الأندلس وجغرافييه ، ولكن الحظ الحسن أراد أن يظفر الدكتور لطفى عبد البديع بقطعة من كتاب « فرحة الأنفس » انتقاها رجل من أهل القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى وسماها « تعليق منتقى من نزهة الأنفس لمحمد

---

(١) الأدب الجغرافى العربى ، ١ / ٣٠١

ابن أيوب بن غالب » فعكف على دراستها وتحقيقها ، ونشر النص مقدّما له بدراسة وافية ومعلقاً حواشيه بقدر عظيم القيمة من المعلومات أضافت إلى قيمة النص ، وهذه الدراسة هى مرجعنا الآن فيما سنذكر عن ذلك الجغرافى المغمور وكتابه النفيس الذى انتفع به كل مَن أتوا بعده وأولهم علىّ بن سعيد .

ولم يتيسر للطفى عبد البديع — رغم ما بذل من جهد — الحصولَ على معلومات عن حياة ابن غالب ، ويبدو أنه كان من جنود العلم المجهولين الذين ينعم النـاس بثمرات جهودهم دون أن يحفزهم ذلك إلى الاشادة بذكرهم ولو بسطور قليلة من هذه التى تكتفي بالمولد والوفاة والبلد والشيوخ وبعض اسامي الكتب ؛ بل أثبت لطفى عبد البديع أن نسبة « البلنسى » المضافة إلى اسم الرجل غير صحيحة ، وأنه كان فى الواقع غرناطياً ، ويبدو أن نسبة « البلنسى » راقت الناس وجرت على ألسنتهم فأضافوها إلى من لم يتحققوا من نسبه أو شكوا فى أنه أندلسى ، وسنلاحظ هذا فى نسبة أبى عبد الله محمد العبدرى إلى بلنسية ، والغالب أن هذه أيضاً غير صحيحة . وخلاصة ما انتهى لطفى عبد البديع إليه فى شأن العصر الذى عاش فيه هو أنه عاش فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، وربما كان معاصراً لأبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن والى غرناطة الذى خدمه ابن جبير وكانت له معه الحكاية التى دفعت هذا الأخير إلى الحج . وقد رجح لطفى عبد البديع ذلك بقرينة تكرار ذكر ابن غالب له وتمجيدة إيـاه ، فإذا صح هذا كان محمد بن أيوب بن غالب من معاصرى ابن جبير[1] .

---

(١) نشر لطفى عبد البديع بحثه الذى نشير إليه هنـا فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، ج ١ جزء ٢ (نوفمبر ١٩٥٥ ، ص ٢٧٢ — ٣١٠ والمواضع الأخرى التى أشرنا إليها هى ذيل كشف الظنون ، ٢ / ١٨٦ وبونس بويجس ، رقم ٩٨ ص ١٢٣ — ١٢٤ والسخاوى الاعلان بالتوبيخ ، نشر نصه مع تعليقات الدكتور أحمد الصالح العلى ضمن ترجمته لكتاب فرانتس روزنتال عن تاريخ التأريخ عند المسلمين ، ص ٦١٨ وتعليق ٤٨ . وقد ذكر روزنتال أن عنوان كتاب ابن غالب هو فرحة الأنفس فى أخبار أهل الأندلس ، وذلك اعتماداً على نفح الطيب .

وقد ورد عنوان الكتاب فى صور شتى لا يثبت منها غير شطره الأول : فرحة الأندلس ، ثم يختلف الشطر الثانى فهو تارة « للآثار الأولية التى فى الأندلس » (المقرى ، نفح الطيب ١/٧٧ طبعة أوروبا) وتارة فى فضلاء العصر من أهل الأندلس (حاجى خليفة ، ٢/٤١٧) وتارة ثالثة : فى أخبار الأندلس » (ياقوت ، ١/٢٧١) ، حتى ترامى إلى ظن بعض المؤلفين (مثل بونس بويجس) أن لابن غالب أكثر من كتاب ، وقد رد لطفى عبد البديع الأمر إلى نصابه فى مقاله الآنف الذكر فقال إن « ابن غالب لم يكتب فى الحقيقة إلا كتاباً واحداً قسّمه جزءين : أولهما فى جغرافية الأندلس وخططها عنوانه : فرحة الأنفس للآثار الأولية التى فى الأندلس ، والجزء الثانى فى أخبار الأندلسيين واسمه فرحة الأنفس فى فضلاء العصر من أهل الأندلس ، وكل جزء منهما يطلق عليه كتاب من قبيل تسمية القسم من أقسام المؤلَّف الواحد فصلا أو باباً ، أما الكتاب كله فعنوانه : « فرحة الأنفس » كما ذكر ياقوت ، أو « تاريخ الأندلس » كما ورد فى المخطوطة » . ونضيف إلى هذا أنه ليس من الضرورى أن يكون الكتاب مقسما إلى قسمين ، فإن الأغلب أنه كان كتاباً واحداً يضم فصولا : واحد فى صفة الأندلس أو جغرافيته ، وهو هذا الذى نقله صاحب التعليق المنتقى وعثر عليه لطفى عبد البديع وحققه ونشره ، وواحد عن الآثار الأولية التى فى الأندلس ، وثالث يضم المعلومات العامة التى يحرص الكثير من المؤلفين الأندلسيين على إيرادها ، إما فى باب مستقل أو متفرقة فى اطواء كتبهم ، ورابع للتراجم سماه « فى فضلاء العصر من أهل الأندلس » وهكذا ، ودليلنا على ذلك أن المقرى يقول ، (١/١٨٨) وقد أفرد ابن غالب فى « فرحة الأنفس » للآثار الأولية التى بالأندلس من كتابه مكانا » أى أنه خصص لهذه الآثار فصلا من الكتاب .

وقد وصلت إلينا نقول من ذلك كله ، وراجعنا كل ما نقله ابن سعيد فى المغرب من تراجم « فرحة الأنفس » فتبينا أنها لا تقتصر على أهل عصر ابن

غالب ، بل تتناول أعلاما من عصور شتى ، ففيها شيء عن عبد الرحمن الناصر وآخر عن جعفر مولى الحكم المستنصر وخبر عن أبى بكر محمد الاعمى المخزومى الشاعر وآخر عن الظافر اسماعيل بن ذى النون أو أبى العلا عبد الحق خلف ابن مفرج الكاتب النـاثر ، ومن هنا فإنه يغلب على ظنى أن عنوان ذلك الفصل : « فى فضلاء المصر من أهل الأندلس » .

التعليق المنتقى من فرحة الأنفس

وتعنينـا من تلك النقول الكثيرة عن ابن غالب القطعة العظيمة القيمة المسماة « تعليق منتقى من فرحة الأنفس » التى حققها ونشرها لطفى عبد البديع وقرر أنها قطعة من جغرافية الأندلس لأحمد بن محمد الرازى ، وهذا صحيح فإن نص هذه القطعة يطابق إلى حد كبير الترجمتين البرتغالية والإسبانية القديمتين لهذا الوصف ، وقد سبق أن ذكرناها ، ويطابق الترجمة الفرنسية الحديثة التى عملها ليفى بروفنسال للنص البرتغالى القديم ونشرها فى مجلة الأندلس ، وقد أشرنا إليها فيما تقدم أيضاً عند كلامنا على وصف الرازى للأندلس .

وقد بينا فى دراستنا لجغرافية الرازى مدى التطابق بين مادة جغرافية الرازى كما تبدو فى الترجمتين الإسبانية والبرتغالية وفقرات « التعليق المنتقى من فرحة الأنفس » ، وتبينا أنها مطابقة حرفية إلى حد كبير ، وضربنا لذلك بضعة أمثلة مما يسمح لنا بالقول هنا أن ما فعله ابن غالب هو أنه أخذ المقدمة الجغرافية للرازى واختار منها القطع التى تناسب كتابه ، فاختصر المدخل واستغنى عن بعض الكور وحذف فقرات من الكلام على بعض الكور الأخرى ، وأضاف هنا وهناك اشارات يسيرة غير ذات أهمية ، فعمله فى هذا الوصف قليل ، ولو أننا عثرنا على نص كامل لمقدمة الرازى الجغرافية لمـا أصبحت له قيمة على

الاطلاق ، إنما نحن نقدِّره الآن لأنه يحتفظ لنا بجزء كبير من كلام أبى الجغرافية والتاريخ فى الأندلس .

ولم استطع تعرف الاساس الذي بنى عليه غالب اختياره أو انتقاءه ، فإن عنوان الفقرات المنتقاة الخاصة بالكور يقول : « ذكر مدائن الأندلس الكائنة بأيدى المسلمين بعد الأربعمائة سنة من الهجرة ، وذِكر ما فيها ، من ذلك كورة قبرة » فإذا كان هو من أهل القرن السادس ، فلماذا اختـار المدائن (يريد الكور) الكائنة بعد الأربعمائة ، أى بعد انتثار عقد الخلافة وقيام دول الطوائف ؟ فإن كان يريد كور الأندلس عند قيام الفتنة فلم يكن هناك محل للاختيار أو الانتقاء من كلام الرازى ، لأن هذه الكور ظلت كما كانت عليه أيام الخلافة حتى سقوط طليطلة فى ١٥ محرم ٤٧٨ / ١١ مايو ١٠٨٥ ، وإذا كان يريد الكور التى كانت باقية إلى أيامه فلماذا أثبت طليطلة وسرقسطة ولاردة ووشقة ووادى الحجارة وبربطانية وكلها كانت قد استغلبها النصارى قبل أيامه ؟ ثم لماذا ينقل كلام الرازى كما هو دون تغيير سوى الحذف بداعى الاختصار ؟ .

الحق أن رجالا كابن غالب يضعون قارئهم فى حيرة كبرى وهو يقرأ ما كتبوا ويتأمل طرائقهم فى التأليف ، لأن رجلا يتحدث فى فصل التراجم من كتابه عن رجال عاشوا فى القرن السادس مثل أبى العلا عبد الحق بن خلف ابن مفرج بن الجنّان[1] المتوفى سنة ٥٣٩ / ١١٤٤ — ٤٥ ثم لا يشير فى كلامه عن طليطلة إلى أنها خرجت عن أيدى المسلمين سنة ٤٧٨ أو فى حديثه عن سرقسطة أنها انتقلت إلى حوزة النصارى فى رمضان سنة ٥١٢ / ديسمبر ١١١٨ لرجُلٌ غريب حقاً ، ولا نقول هذا منتقصين من قدر الرجل ، فالحق أنه أسدى لنا خدمة كبرى بالاحتفاظ بهذه القطع من جغرافية الرازى ، ولكننا نضع الأمر بين يدي القارئ على أنه مشكلة فى ذاته أو ظاهرة تستحق التأمل .

---

(١) انظر المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ، بتحقيق شوقى ضيف ، ٢/٣٨٢

كلام ابن غالب عن قبائل العرب التى نزلت الأندلس ومنازلها فيه

ولكن ابن غالب أودع كتابه أشياء أخرى ذات قيمة جغرافية تعوض بعض ما لاحظناه عليه من نقل مطلق دون تفكير ، وإذا كانت قيمة مقتطفاته من وصف الأندلس للرازى قد تضاءلت بسبب عثورنا على نسخة طيبة من ترجمته إلى البرتغالية ، فان ما احتفظ لنــا به المقرى وغيره من المقتبسات من فصول كتاب « فرحة الأنفس » الأخرى سيظل محتفظاً بقيمته ، لأنها اشارات — قصيرة أو طويلة — أثبت ابن غالب فيها بعض محفوظه أو خلاصة بعض مطالعاته ، ومثــال ذلك تلك الفقرة التى يتحدث فيها ابن غالب عن منازل العرب فى الأندلس ، وهى فقرة كانت من أحسن ما نعتمد عليه فى دراسة هجرة القبائل العربية إلى الأندلس ومنازلها فيه ، وهو موضوع أساسى بالنسبة للتكوين البشرى (الأثنولوجى) للأندلس ، وهو جانب هام من جغرافيته وتاريخه . ومن الواضح أن ابن غالب لخص فى هذه الفقرة أهم ما ورد فى جمهرة ابن حزم عن قبائل العرب التى استقرت فى الأندلس ، ولكنه لا شك أضاف إليها من عنده قدراً صالحاً ، ومن أسف أننا لا نستطيع إيراد هذه الفقرة هنــا بسبب طولها ، ثم إن المقرى عدّل فيها وأضاف إليها من عنده ومن كلام مؤلفين آخرين بحيث لا يؤمن إيرادها على أنها كلها من كلام ابن غالب ، والمهم أن لدينا — بفضله — فقرة طويلة تقع فى حوالى ثمان صفحات من نص نفح الطيب (طبعة محيى الدين ١ / ٢٧١ — ٢٧٩) تعطى فكرة واضحة عن استقرار القبائل العربية وتوزيعها فى الأندلس ومن انحدر من كل قبيلة من بيوت كان لهـا دور فى تاريخه(١) .

(١) بالاضافة إلى ما ذكرناه فى « فجر الاندلس » عن هجرة العرب إلى شبه الجزيرة الايبيرية انظر البحث المطول الذى أداره خوليان ريبيرا على العرب فى إقليم بلنسية :

Julian Ribera y Tarragó, *Disertaciones y Opúsculos*, II, (Madrid, 1928) p. 77 sqq.

و Elías Teres, *Linajes árabes en al-Andalus*, al-Andalus, vol. XXI, fasc. 2, 1956; vol. XXII, fasc. 1, 1957.

كلام ابن غالب عن الآثار الأولية فى الأندلس

وتلى ذلك فى الأهمية فقرة طريفة قبسها المقرى من الفصل الخاص « بالآثار الأوليـة » من « فرحة الأنفس » ، وسنورد هذه الفقرة نظراً لأهميتها بالنسبة للجغرافية التاريخية لاسبانيا ، ثم لأنها تدلنـا بالبرهان القاطع على تقدير العرب لمـا وجدوه فى شبه الجزيرة من معالم العمران عند دخولهم ، ومعرفتهم بدقائقها الفنية وحسن انتفاعهم بها .

قال المقرى : « وقد أفرد ابن غالب فى فرحة الأنفس ، للآثار الأولية التى بالأندلس من كتابه مكاناً ، فقال : منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح إلى الأرحى التى بطركونة على وزن لطيف وتدبير محكم حتى طحنت به ، وذلك من أعجب ما صُنع ؛ ومن ذلك ما صنعه الأوَل أيضاً من جلب المـاء من البحر المحيط إلى جزيرة قادس[١] من العين التى فى إقليم الأصنام ، جلبوه فى جوف البحر فى الصخر المجوّف ذكراً فى أنثى وشقوا به الجبال ، فإذا وصلوا به إلى المواضع المنخفضة بنَوْا له قناطر على حنايا ، فإذا جاوزها واتصل بالأرض المعتدلة رجعوا إلى البنيان المذكور ، فإذا صادف سبخة بُنِيَ له رصيف وأجرى عليه ، هكذا إلى أن انتُهى به إلى البحر ، ثم دُخِل به فى البحر ، وأُخرج فى جزيرة قادس ، والبنيان الذى [يجرى] عليه الماء ، فى البحر ظاهر بيّن » ، قال ابن سعيد : إلى وقتنا هذا .

« ومنها الرصيف[٢] المشهور بالأندلس ، قال فى بعض أخبار رومية : إنه

---

(١) هذه العبارة غير واضحة ، والمعنى المراد كما يتضح من النص . جلب الماء من [الأرض إلى] البحر المحيط إلى جزيرة قادس ، لأن المراد هنا هو ايصال الماء من البر إلى طرف اللسان الذى تقوم عليه مدينة قادس بواسطة أنابيب مدت من الساحل خلال ماء المحيط . ولم أجد ذكراً فى مرجع آخر لاقليم الأصنام الوارد هنا .

(٢) الرصيف يراد به هنا الطريق الرومانى المرصوف ، وقد سبق أن بينا ذلك .

لمـــا ولى يوليش المعروف بجاشر[١] ، وابتدأ بتذريع الأرض وتكسيرها ، كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية إلى المشرق منها وإلى المغرب وإلى الشمال وإلى الجنوب ، ثم بدأ بفرش المبلَّطَة[٢] ، وأقبل بها على وسط دائرة الأرض إلى أن بلغ بها أرض الأندلس وركزها شرقى قرطبة ببابها المتطامن المعروف بباب عبد[٣] الجبار ، ثم ابتدأها من باب القنطرة قبلى قرطبة إلى شقندة إلى إستجة إلى قرمونة إلى البحر ، وأقام على كل ميـــل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة[٤] رومية ، وذكر أنه أراد تسقيفها فى بعض الأماكن راحة للخاطرين من وهج الصيف وهول الشتاء ، ثم توقع أن يكون ذلك فساداً فى الأرض وتغييراً[٥] للطرق عند انتشار اللصوص وأهل الشر فيها فى المواضع المنقطعة النائية عن العمران ، فتركها على ما هى عليه » ، وذكر[٦] فى هذه الآثار صنم قادس الذى ليس له نظير إلا الصنم الذى بطرف جليقية ، وذكر قنطرة طليطلة ، وقنطرة السيف وقنطرة ماردة ، وملعب مربيطر » .

فهذه فقرة بيِّنة الدقة والأهمية ، فقد وصف ابن غالب فيهـا كيف جلب الرومان الماء إلى قادس ، ووصف الطريقة الهندسية التى اتبعوها فى ذلك ، وتكلم عليها كلام من شاهد الأنابيب والسقايات التى مدها الرومان لهذا الغرض ، أو شاهد بعضها على الأقل . أما كلامه عن الطرق الرومانية فيكمل كلام أبى

(١) المراد يوليوس قيصر .

(٢) كذا فى طبعة أوروبا من نفح الطيب (١/ ١٢٤) .

(٣) الكلام هنا يدور على الطرق الرومانية المعروفة والمؤلف ينسب شقها كلها إلى يوليوس قيصر ، وهو يرى هنا أن قيصر شق الطريق الغربى منها من روما إلى قرطبة ، وليس هذا بخطأ خالص ، فقد سبق أن بينا أن لذلك الرأى من الحق وجهاً فى كلامنا على ابن بشكوال الجغرافى .

(٤) هنا شىء ناقص ، وتمام العبـــارة فيما نعتقد : . . . قد نقش عليها اسمه [والمسافة] من مدينة رومية .

(٥) كذا فى الأصل المطبوع ، والمعنى غير واضح .

(٦) المتكلم هنا هو المقرى ، يتحدث عن ابن غالب .

القاسم خلف بن بشكوال فى نفس الموضوع ، وربما يكون ابن غالب قد اعتمد عليه ونقل منه ، ومن اليسير على القارئ أن يتبين أهمية هذه الفقرة .

بقيت بعد ذلك اشارات قصيرة نقلها المقرى عن « فرحة الأنفس » الأولى (١/ ١٢٤) منقولة عن البكرى فى نسب أندلس بن يافث الذى تقول الاسطورة أن شبه الجزيرة سُمى باسمه ، والثانية (١/ ١٨٥) منقولة عن المسعودى فى أن العنبر يوجد فى الأندلس ، والثالثة (٢/ ٧) منقولة عن العذرى فى إرجاع اسم قرطبة إلى أصل يونانى « وتأويله القلوب المشككة » (عند العذرى ، ص ١٢١) قال : قال : « وذلك أن تفسير [اسم قرطبة] بلسان القوط طَاسْعُوت ، وهى عندهم القلوب المختلفة » ولفظ طاسعوت صحته فيما أعتقد طاسْقُرْت ، رسم عربى للفظ اللاتينى descordis بمعنى الخلاف ، ومنه جاء الإسبانى الحالى desacuerdo . وفقرة (٢/ ١٤) منقولة فى الغالب عن ابن بشكوال عن سور قرطبة وهى تقول ان شقندة (Secunda وهى الربض الجنوبى لقرطبة على الضفة اليسرى للوادى الكبير) كانت معدودة جزءاً من المدينة ، أى من مدينة قرطبة . وهذه كلها إشارات ذات قيمة بالنسبة للجغرافية التاريخية للأندلس .

كان ابن غالب إذن ناقلا يندر أن يأتى بجديد أو يضيف شيئاً من عنده ، ولكنه كان ناقلا جَيِّداً ، أى يحسن الاختيار مما بين يديه من الأصول ، ثم يعرف كيف يربط بعضه إلى بعض ويجعل منه كلاَماً متصلا على طريقة أهل تلك العصور ، ولا شك أن كتابه لو عثرنا عليه كاملا يضيف إلى محصولنا من جغرافية الأندلس عند العرب شيئاً كثيراً نافعاً . وأمثال ابن غالب فى تاريخ العلوم فى العصور الماضية تتلخص مهمتهم فى إيصال المعلومات التى يقرأونها فى الكتب إلى غيرهم وتثبيتها بالتكرار ، واستنقاذ الكثير من علم السابقين عليهم ؛ لأن الكتب فى الماضى كانت عرضة للضياع لقلة ما ينسخ منها وتلاشى النُّسَخ مع الزمن بكثرة الاستعمال أو فعل الأرضة وما إلى ذلك من عوامل القضاء على الكتب ، وقد كانت الكتب الجديدة تُحمل القديمة التى ألفت فى موضوعها ، وهى فى

الغالب نقلٌ لمادتها أو اختيارٌ منها أو اختصارٌ لها مع اضافة الجديد . ولولا هذا لما وجدنا أثراً لما ضاع وفقد من الكتب فى الأندلس منذ قيام الفتنة الكبرى أوائل القرن الخامس الهجرى ، وفى المغرب منتصفَ القرن الخامس إثر غارة بنى هلال ، وفى الشرق الإسلامى فى القرن السابع إثر استيلاء المغول على بغداد ودمشق وتوالى مصائبهم على الجناح الشرقى لدولة الإسلام . ومن حسن الحظ أن أولئك الناقلين حرصوا على أن ينقذوا ما استطاعوا ، وبهذا وحده وصلت إلينا كتب كثيرة قيمة أو قطع منها ، وتاريخ الرازى ومقدمته الجغرافية خير مثال لذلك ، فها نحن نجمع أشتاتها كما يجمع حطام السفين الغارق ، والفضل فى ذلك لرجال طيبين ذوى إحساس — واعٍ أو غير واعٍ — بقيمة تراث الماضين وأهمية الحفاظ عليه كعنصر لازم لبقاء العروبة أولا ثم لسير ركب الحضارة كلها إلى الامام ثانياً .

أبو الحسن على بن سعيد ، جغرافياً

ومن ابن غالب ننتقل إلى رحالة من مواطنيه كان له فى تاريخ الفكر الأندلسى مكان أوسع وأشمل ، فقد شارك فى الأدب وتاريخه إلى جانب الجغرافية بنصيب كبير ، ورحل فأبعد فى الرحلة ، وجاب نواحى عالم العرب من طرف لطرف ، وعاش وأطال الاقامة فى الأندلس والمغرب ومصر والشام والعراق ، وعرف عن هذه البلاد كثيراً ، وداخَل أهل العلم والأدب والرياسة فيها ؛ وكان إلى جانب ذلك كاتباً شاعراً بارعَ الحديث مقبلا على التأليف والتصنيف ، فحفلت كتبه بملاحظاته وأنظاره وكلامه عما أعجبه وما لم يعجبه ؛ وبينما كان أبو الحسين بن جبير رجلا مطمئن النفس قنوعــاً مستسلماً للأقدار كان أبو الحسن عليّ بن سعيد رجلا قلقا طامحاً متداخلا مرير النفس دائم الحسرة على ضياع أندلسه العزيز على نفسه ، وقد كان غادره فى أسوأ حال سنة ٦٣٨/

١٢٤٠ — ١٢٤١ إلى غير رجعة ، ومضى يقطع بـلاد المشرق من طرف إلى طرف باكياً مُذَكِّراً ، كما فعل الكثيرون جداً من أصحاب الرأى والعلم والرياسة من مواطنيه الأندلسيين ، وقد عاونوا بتركهم بلادهم تنعى من بناها على ضياع هذه البلاد وأسرعوا بزوالها ، لأن أشد ما أصاب الأندلس فى عصور محنته هو إسراع أصحاب الرأى والفكر والثروة والرياسة والقيادة بالهجرة منه وتركهم جمهور الناس هناك ضياعاً لا حامى لهم ولا قائد ، فلما استغلب العدو البلاد لم يجد فيها من يتحدث باسم أهلها أو من يقودهم ويحمى مصالحهم ، فضاع أمرهم بدداً ، وقد فصلنا الكلام فى ذلك فى مقدمتنـا لرسالة « أسنى المتاجر » للشيخ الونشريشى التى نشرناها من سنوات .

ولا تمنعنـا هذه الملاحظة العابرة من القول بأن أبا الحسن علىّ بن سعيد يعد من أفذاذ الرجال فى تاريخنا الفكرى ، وشهرته عند القدامى والمحدثين يحدثنا عنها لسان الدين ابن الخطيب والمقرى وابن شاكر الكتبى وابن رُشَيد الفهرى وابن العماد الأصفهانى فى خريدة القصر وأبو المحاسن بن تغرى بردى فى « المنهل الصافى » وغيرهم كثيرون ، وفى أيامنا هذه عرَّف به بونس بويجس وبروكلمان وغرسية غومس وشوقى ضيف وملشور انطونيا وجورج سارتون وب . موريتز وك . فولرز وتالكفيست واغنـاطيوس كراتشكوفسكى و زكى محمد حسن وابراهيم الابيارى و ج. بوتيرون[١] وغيرهم .

(١) عن أبى الحسن على بن سعيد انظر : نفح الطيب للمقرى (طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩) جـ ٣ ص ٢٩ وما بعدها (وفيه أوفى تفصيل لدينا عن حياته) ورحلة ابن رشيد الفهرى ، مخطوطة الاسكوريال رقم ١٧٣٧ ورقة ١٠١ ا وابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس ، (رقم ٢٠٧١ من فهرس دى سلان ، ورقة ١٦٦ ب) ، وتحفـة العروس للتيجانى ، مخطوط مكتبة الجزائر الأهلية ، رقم ١٧٨٤ من فهرس فانيان ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ، جـ ٢ ص ١١٢ ، والاحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ١/ ٢٢٠ وما بعدها ؛ ومن المحدثين : بونس بويجس ، رقم ٢٦٠ ، وبروكلمان ١/ ٣١٣ و ٣٣٦ و ٢/ ٦٩٩ والملحق ١/ ٥٤٦ و ٥٧٦ — ٥٧٧ ، ودائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الأولى ٢/ ٤٢٩ وجورج سارتون ، مقدمة تاريخ =

فاما مؤلفونا القدامى (مِن هؤلاء) فلم يقدِّروا من ابن سعيد إلا ناحيته الأدبية ، وهى فى رأينا أضعف نواحيه ، وقل من اهتم منهم بابن سعيد المؤرخ وأهم هؤلاء المقرى وابن الخطيب ، وأما ابن سعيد الجغرافى فقد اهتم به الغربيون بصورة خاصة ، وهنا تبينَت القيمة الحقيقية لهذا الرجل النابه المتعدد الجوانب ، وقد كان بعض من نقلوا عن ابن سعيد من قدامى الجغرافيين مثل أبى الفدا قد خطّأوه وحملوا عليه وقسوا فى نقده ، فجاء بعض علماء الغرب من أمثال سارتون وبارتولد وكراتشكوفسكى فأثبتوا أن الرجل كان على علم صحيح حقاً ، وأن أبا الفدا ومن نحا نحوه لم يكونوا موفقين فى نقده .

والحق أننا إذا تأملنا الجوانب الرئيسية الثلاثة من انتاج ابن سعيد وجدنا أن أضعفها هو الأدبى رغم أنه هو الذى شُهر به عند القدامى والكثير من المحدثين . أما جانب القوة الحقيقية فيه فهو الجانب الجغرافى الذى لم يلق فى الماضى أى عناية ، وأما جانبه التاريخى فَبَيْن بين ، والرجل فى ذلك الميدان الأخير ناقل لا مبتكر ، حقاً إن عدداً كبيراً من مؤرخينا كانوا نقلة أو أصحاب مختصرات أو جماعين لفقرات شاردات من هنـا وهناك ، ولكن ابن سعيد

= العلم ، ٢ / ١٠٦٥ من الأصل :

K. Vollers, *Fragmente aus dem Mugrib des Ibn Sa'id*, I, Berlin, 1894.

Ibidem, *Bericht über die Handschrift und das Leben des Aḥmad ibn Ṭūlūn*, Berlin, Felber, 1894.

وهو يتضمن قطعاً من تاريخ أحمد بن طولون ودولته من الجزء الخاص بمصر من كتاب المغرب و

K. L. Tallquist (Buch IV, *Gesch, der Ikhschīden*, Leiden, 1899.

وهو جزء من « المغرب فى حلى الغرب » يتضمن تاريخ الاخشيديين المسمى « العيون الدعج فى تاريخ بنى طغج » ، المقدمة الالمانية . وقد أعاد نشر هذا الجزء زكى محمد حسن وحسن محمود وسيدة الكاشف فى القاهرة (سنة ١٩٥١) . ونشر جزء خاصاً بصقلية ب. موريتز فى :

B. Moritz, *Ibn Sa'ids Beschreibung von Sicilien, Centenario della naschità dì Michele Amari*, I. Palermo, 1910, pp. 292-305.

ونشر Emilio García Gómez كتاب رايات المبرزين وغايات المميزين لابن سعيد مع ترجمـة إسبانية ومقدمة ضافية وتعليقات وافية فى مدريد سنة ١٩٤٢

وآخر ما قرأناه بحث عظيم القيمة فى مجلة أرابيكا :

G. Potiron, *Eléments de Biographie et de Généalogia des Banū Sa'id*, Arabica, XII, 1965, fasc. I, 78-91.

فى معظم ما بقى لنـا من كتاباته فى التاريخ ناقل صرف وخاصة فيما كتبه عن غير بلده الأندلس ، فما لدينا عن مصر منه إنما هو نقل مباشر عن الحسن بن زولاق وغيره .

أما سر شهرة ابن سعيد بالأدب فترجع إلى أنه وفد إلى المشرق فى عصر غلب على المثقفين فيه طابع الأدب والرغبة فى تسجيل كل بيت من الشعر يرد ذكره مخافة أن يضيع ، وهو اهتمام غلب على الناس بعد سقوط بغداد فى أيدى التتار وضياع ألوف الكتب أثناء هذه الكارثة المبيرة ، فاتجه هم الناس إلى استرجاع ما فات واستنقاذ ما أمكن انقاذه من حطام السفين الغارق ، ولهذا فاننا نرى فى عالم العرب كله ابتداء من القرن السابع الهجرى اهتماما بالتسجيل والجمع ربمـا أشبه فى كثير من الوجوه اهتمامنا اليوم بنشر هذا التراث ، ومن فضائل النفس العربية ذلك التعلق بالماضى والحرص على المحافظة على التراث الفكرى للأجداد ، ولمّا كان حرص العرب على الحفاظ على هذا التراث يبدو فى أجلى صوره فى المحافظة على اللغة — لغة القرآن الكريم — فقد اهتم الناس أكثر ما اهتموا بالشعر والنثر ، فكثرت مجموعات المختارات من أواخر القرن السادس الهجرى وطلبها الناس بكل سبيل .

وفى هذا العصر بالذات أتى علىّ بن سعيد إلى المشرق حاملا زاداً ضخما من تراث الأندلس الفكرى ، وكان إحساس الناس فى المشرق بضياع الأندلس عميقاً وان لم يستطيعوا عمل شىء لاستنقاذه ، لأنهم كانوا فى مثل بلائه منذ تراءت فى أفقهم السنة لهب الصليبيات وما أعقبها من كوارث غارات التتار ، فلا غرابة ان أقبل الناس على علىّ بن سعيد إقبالا عظيما وطار اسمه كل مطار ، وكان هو نفسه رجلا ذكياً نشيطاً لَسِناً مقبلا على العمل ، فاصبح خلال النصف الثانى من القرن السابع الهجرى عَلَمَـاً من أعلام المجتمع والثقافة فى المشرق العربى كله ، وذاع له الصيت العظيم ، ثم جاء المقرى بعد ذلك بأربعة قرون فدعا لابن سعيد دعوة كبرى وأشاد بذكره فى كل موضع نزل فيه ، فزاد ذكر الرجل

طيراناً ووصل إلينا اسمه فى دوى عظيم على أنه من أكبر المؤلفين فى تاريخنا الأدبى .

والحق — كما قلنا — أن هذه الشهرة بالأدب ليس لها فى الواقع ما يبررها ، ففى هذا الميدان بالذات لا يعد ابن سعيد من المجيدين ، وحتى فى جزء كتاب « المغرب » الخاص بالأندلس ، وهو أهم ما بقى لنا من كتب المختارات الأدبية التى خلّفها ، نلاحظ — بعد أن عثرنا على الكثير من الدواوين والأصول — أن ابن سعيد لم يحسن الاختيار فى أحيان كثيرة ، وحتى الجيد من مختاره نجد أن مرجعه فيه مجموعات مختارات أخرى كاليتيمة للثعالبى وكتاب البديع فى فضل الربيع لأبى الوليد الحميرى والمسهب للحجارى وما إليها . ويبدو أنه صنف بعض صغار كتبه مثل « عنوان المرقصات » و « الزهور اليانعة » و « رايات المبرزين » استجابة لطلب من كان يخدمهم بالأدب ، فجاءت — وخاصة الأولان من هذه — مجموعات صغيرة سريعة الصنع ينقصها التجويد حتى لنجده — رغم صغر هذه الكتب — يكرر فى بعضها ما أورده فى بعضها الآخر . وكان للرجل عذره فى ذلك ، إذ أنه كان مضطراً فى حياة الغربة التى كُتبت عليه إلى أن يكسب رزقه ، وكانت هذه الكتب الصغيرة بعض وسائله إلى هذا الكسب ، وهذا يحدونا إلى أن نجمل حياة الرجل لكى نقدّر ظروفه التى عاش وعمل فيها ، وسنوجزها فى سطور ، لأن ابن الخطيب والمقرى أفاضا فيها بما يغنينا عن التفصيل ، ثم إن غيرنا ممن كتب عنه أو نشر شيئاً من مؤلفاته أورد ترجمة حياته بما فيه الكفاية ، وخاصة غرسية غومس فى مقدمة « الرايات » وشوقى ضيف فى مقدمة « المغرب » وكراتشكوفسكى فى الفقرة التى أدارها على ابن سعيد من الفصل الثالث عشر من كتابه الفريد عن الأدب الجغرافى العربى (ص٣٥٦ — ٣٥٩)[١] .

ولد علىّ بن سعيد سنة ٦٠٥/١٢٠٨ — ١٢٠٩ فى قلعة يحصب أو قلعة اسطَلِير التى تسمى أيضاً بقلعة بنى سعيد وهى اليوم الكالا لا ريال (القلعة الملكية)

(١) نشير هنا إلى المادة الطيبة الخاصة ببنى سعيد التى يوردها ج. بوتيرون فى مقاله الآنف الذكر .

Alcalá la Real ، بلدة متوسطة ومركز إدارى فى محافظة جيان ، تقع على بعد ٥٦ كيلومتراً من عاصمة المحافظة وتقع على ٥٢ كيلومتراً شمال غربى غرناطة على الطريق منها إلى قرطبة ، وكانت هذه القلعة كما يتبين من آثارها التى زرناها قائمة على تل متوسط الارتفاع (٩٠٠ متر) ، وهى حصينة الموقع ، ولكنها ليست قط كما قال ابن فضل الله العمرى : « حصناً خيَّم على الغيوم وتختم بالنجوم ، نافح الرياح ، وصافح بكفه الثريا راحا براح ، وعلا فما طلع إلا فى ذيل افقه الصباح ... (١) » ، فهذه مبالغات أديب سجَّاع لم ير بعينه هذا الحصن أو أى شئ آخر فى الأندلس ، وكأنه قدَّر أن ميلاد الرجل فى « حصن خيَّم على الغيوم » يستتبع بالضرورة أن يكون رجلا عظيما . ولكن العُمرى كان صادقاً فى قوله بعد ذلك : « وهو صاحبى الذى أوافقه فى هذا الكتاب تارة وتارة أؤاخذه ، ومرة أعاهده ومرة أنابذه » وهى عبارة تدل على اعتماد العمرى على كتابات ابن سعيد فيما أورد عن الأندلس ، ولم يكن العُمَرى الوحيد فى الاعتماد على ابن سعيد ، فالحق أن مجموعات هذا الأخير ومختاراته كانت من أكبر المراجع عن الأدب الأندلسى من بعده ، وفى كلام المقرى عن ابن سعيد فى النفح ما يدل على ذلك بأجلى بيان .

وينتسب آل سعيد إلى الصحابى المعروف عمار بن ياسر ، وأول من نسمع عنه منهم فى الأندلس عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر وهو الذى دخل الأندلس وغرس جذور بيت بنى سعيد فيه ، ويبدو كذلك أنه أول من احتل قلعة أسطلير وسماها باسم بيته ، ولكن الأهمية السياسية لبنى سعيد ترتبط بذكر عبد الملك بن سعيد بن خلف الذى استقل بالقلعة لأول عصر الطوائف ، وعلى

(١) ترجمة ابن سعيد فى « مسالك الابصار » ، نسخة مصورة بدار الكتاب المصرية تحت رقم ٢٥٦٧ تاريخ ، المجلد الثامن ، الورقة ٣٨٢ ، وقد تفضلت دار الكتاب المصرية فعملت صورة لمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد من أجزاء مسالك الابصار الخاصة بالأندلس ، والفضل فى هذه الاشارة يرجع إلى الدكتور شوقى ضيف ، انظر مقدمة المغرب ص ٦ — ٧

هذه الصورة وجده الأديب الرحالة الجوال ابراهيم بن وزمر الحجارى عندما وفد عليه سنة ٥٣٠ كما حكيناه فى موضعه . وقد دخل عبد الملك فى طاعة المرابطين ، ولكنه كان أشبه بالمستقل فى حصنه على عادة أصحاب الحصون فى ذلك العصر المضطرب ، فلما انتقل الأمر إلى الموحدين انتقل إليهم بولائه وتوفى فى مراكش سنة ٥٦٢/١١٦٧ ؛ وخلفه فى ولاية الحصن ابنه محمد ثم حفيده موسى والد أبى الحسن على ، وفى عهده انتهت رياسة البيت فى القلعة المنسوبة إليهم ، وانتقل موسى إلى الجزيرة الخضراء والياً لها للمتوكل بن هود ، ثم غادر الأندلس إلى المغرب فالمشرق جملة . وقد تكررت النباهة وعلو الذكر بالأدب فى هذا البيت ، ونورد فيما يلى جدول نسبٍ نذكر فيه أهم من اشتهر من أهل هذا البيت حتى علىّ ابن سعيد وذلك مراعاة للاختصار ولمجرد التعريف :

عبد الملك بن سعيد
كان والياً لقلعة يحصب سنة ٥٣٠/١١٣٥—١١٣٦ وكان واسع الشهرة بالعناية بالأدب وأهله ، وعليه وفد ابراهيم بن وزمر الحجارى

أبو جعفر أحمد (ت ٥٥٠/١١٥٥)
كان كاتباً ووزيراً لعثمان بن عبد المؤمن الموحدى وكان شاعراً ذا إحسان . تعلق بالشاعرة حفصة الركونية ، وكان الوالى عثمان متعلقاً بها ، وفى المنافسة عليها لقى الشاعر حتفه

محمد
٥١٩/١١٢٥—٥٨٩/١١٩٣
كان أول الأمر من أتباع يحي بن غانية عامل المرابطين على شرق الأندلس ، ثم دخل بعد ذلك فى طاعة الموحدين فاستوزروه وولوه الاعمال الجليلة مثل اشبيلية وغرناطة ، وكان سيداً جليلا مدحه شعراء منهم الرصافى الرفاء وعلى يديه بنى جامع اشبيلية

عبد الرحمن
ت. ٦١٦/١٢٢٠
فى بخارى

مالك
أورد ذكره على بن سعيد فيما ذكر من أخبار أهل بيته فى « الرايات » ص ٣٦

يحي

موسى
توفى بالاسكندرية سنة ٦٤٠ وهو والد على ، وسنتحدث عنه

أبو الحسن على
٦١٠/١٢١٣—٦٨٥/١٢٨٦

وكانت وفادة ابراهيم بن وزمر الحجارى على عبد الملك بن سعيد حادثاً فاصلا فى تاريخ البيت كله ، فقد كانوا كما رأينا أهل أدب وعناية بالعلوم ، شأنهم فى ذلك شأن الكثيرين من سروات الأندلس وأهل الرياسة فيه ، ولكن أحدا من بنى سعيد لم يفكر قبل ذلك فى أن يؤلف كتاباً ، ثم أتاهم هذا الأديب الشاعر الرحال القلق يحمل زاداً ضخما من العلم بالأندلس وآداب أهله ، فاقترح عبد الملك عليه أن يسجل شيئاً من علمه ومحفوظاته فى كتاب ، فعمله فى هيئة جدول جغرافى أدبى عام ، قسم الأندلس فيه إلى كوره وبلاده ، ووضع فى كل كورة أو بلدة مَن ذَكَرَهُ من أهل الأدب من أبنائه ، فكان بذلك مبتكراً لشىء سميناه الجغرافية الفكرية ، واستودع كتابه صاحبه وراعيه عبد الملك بن سعيد ومضى لحال سبيله .

ومضى عبد الملك وأبناؤه ينظرون فى ذلك الكتاب فراقهم نظامه ، وهو فى الواقع نظام مبتكر طريف ، ولكنهم وجدوا أن الحجارى أنسى الكثير وأهمل الكثير ، فمضوا يكملون فواته ، وقد اعتبروا أنفسهم من أول الأمر شركاء للرجل فى كتابه ، فمضوا يعدِّلون فيه ويزيدون عليه ويحورون مادته كيفما راق لهم حتى أصبح «المسهب» على أيديهم شيئاً آخر يختلف فى تفاصيله عما وضعه مؤلفه ، ولكنهم احتفظوا على أى حال بهيكله العام ، وهو هيكل جغرافى ، وانصبت اضافاتهم وتعديلاتهم فى إطار هذا الهيكل ، ونحن إذا سامحناهم فى إضافة ما أضافوا فاننا لا نغفر لهم حذف ما حذفوه من مادة الكتاب ، والبادئ بهذا عبد الملك بن سعيد فالثابت من مقدمه «المُغرب» أنه كان «يختصر ما لم يوافق غرضه ، وفيه تطويل غير مفيد» ، ولا شك أن أولاده جروا على ذلك ، فأصبح المُسهب على ايديهم كتابا آخر هو المُغرب فى حلى المغرب» ، وأصبح تأليفا بالمشاركة بين رجل وأسرة ، وهو شىء طريف فى بابه مهما كانت وجوه نقدنا له .

وكان موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد أعظم أهل ذلك البيت عناية بالكتاب ، فقد كان فى نفسه علامة فاق المنقطعين للدرس فى اقباله على المطالعة والجمع والتقييد ، وهو يمثل لنا فى الأندلس هذا النزوع إلى تسجيل تراث الماضى تحت تأثير الخطر الملاحق ، وقد وصف لنا ابنه على بن موسى ابن سعيد ولعه البالغ بالمطالعة والقراءة وحرصه على تدوين كل ما وصل إلى علمه من الآثار الأدبية ، حتى لقد تحمل وهو وال على الجزيرة الخضراء جفوة رجل كانت لديه كراريس فيها تقييدات شعرية لكى ينسخ ما ند عنه من مادتها قبل أن تضيع ، وكان عمره كله قارئاً كاتباً ، ومثل هذا الرجل ، وإن خلا جهده الطائل من الجديد والاصالة ، يمثل لنا هذا النزوع الذى وُهبته أمة العرب إلى المحافظة على تراث الماضين من أبنائها ، وهو نزوع يرجع إليه الكثير من الفضل فى بقاء الأمة العربية نفسها وتجدد قواها وشبابها فى أوقات الأخطار وبعد عصور الركود والاضمحلال .

ولكننا إذا نظرنا فيما لدينا من قطع المُغرب لم نلحظ فيها ما يدل على تجميع واسع المدى أو حشد عظيم من المادة ، فان ما تضمه صفحات هذه القطع لا يخرج عما يتيسر بالمشقة اليسيرة من مراجع معروفة لنا الآن ، وغالب النقول من مسهب الحجارى ومقتبس ابن حيان وحدائق ابن فرج وجذوة الحميرى وذخيرة ابن بسام وقلائد الفتح بن خاقان ومطمحه وما أشبه ، وهذه كلها مراجع نفترض بداهة أنها كانت بيد كل متأدب من أهل الأندلس إذ ذاك ، وهى لا تحتاج إلى العمر الطويل لقراءتها واستخلاص ما فيها ، فكيف قضى موسى عمره الطويل فى هذا العمل ؟ وأين هى الغرائب والشوارد التى يحدثنا علىّ بن سعيد أن أباه وفق إلى جمعها ؟ الحق أننا نحس هنا بشىء من المبالغة لا نستبعده من أبى الحسن هذا ، فقد كان بطبعه صاحب دعاية واسعة وطبل وزمر يُسمعان من الأقاصى ، وحسبك أن تنظر فى بعض كتبه مثل « عنوان المرقصات والمطربات » أو « الغصون اليانعة » لترى أنها ليست بكتب

مستقلة بحال ، إنما هى صفحات ومختارات من المُغرب وغيره من كتبه الأخرى ، جمعها وجعل لها عنوانا طنانا رشيقاً بحسب مفهوم العصر ، وأسعد بها هذا أو ذاك من جمّاعة الكتب من سروات الناس ، بل إن تكوين كتاب المُغرب نفسه يلقى فى الروع هذا الاحساس ، فهذا رجل يجعل الأندلس ممالك كثيرة ، وما كان الأندلس على أيامه بممالك أو حتى بمملكة ، وإذا استجزنا أن يقال مملكة قرطبة ومملكة اشبيلية ، فكيف يقال مملكة شلب أو مملكة باجة أو مملكة اشبونة أو مملكة مالقة ؟ وهذه لم تكن قط وحدات سياسية قائمة بذاتها لا أيام الطوائف ولا قبلها أو بعدها ؟ ثم ما هى هذه الكتب التى ملأ بها مؤلّفه ؟ فلكل قرية كبيرة أو صغيرة ، ولكل حصن — هام أو غير هام — كتابٌ فى حسابه ، والكتاب قد يكون صفحتين بل صفحة ، وكل كتاب من هذه يبدأ بتسمية وتصلية وتحميد كأنه مؤلَّف قائم بذاته ، بل لكل كتاب عنوان شامخ مسجوع ظاهر التكلف : « كتاب التعريش فى حلى مدينة شريش » و « كتاب غفلة العجلان فى حلى قلعة خولان » وكتاب « فجأة السرور فى حلى كورة مورور » وما إلى هذا مما أثقل به علىّ بن سعيد المغرب حتى أصبح وكأنه أقرب إلى الهزل ؟ هذا كله ثمرة ولعه بالدعوة الواسعة والكلام الطنان ، وهذه خصلة من خصاله ، ولا نقول هذا لنعيبها عليه ، فهى ليست عيباً وإنما جزء من شخصيته ، وربما كانت بعض أدواته لكسب عيشه ، والذى يهمنا هنا أن نحسب حسابها فيما يذكر علىّ بن سعيد عن أبيه موسى وعظيم اجتهاده فى الدرس والتقييد ، ولا ننكر أنه قضى عمره فى ذلك ، ولكننا لا نجد بين أيدينا إلا القليل من ثمرات هذا الجمع .

ظل موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد فى طاعة الموحدين حتى اضطرب عليهم الأمر فى الأندلس بعد موت رابع خلفائهم محمد الناصر (توفى سنة ٦١٠/١٢١٤) فقد وقع الشقاق بينهم وتطاحنوا على المُلك أو ما خيل إليهم أنه ملك ، حتى نهض أبو العلا بن أبى يعقوب المنصور وكان والياً على

اشبيلية وجمع قواته وأزمع العبور إلى المغرب للمطالبة بالعرش ، وثار عليه الثائرون وأكبرهم المتوكل بن هود (٦٢١ — ٦٣٥/١٢٢٨ — ١٢٣٨) وكان رجلا شهما باسلا لولا طيش واندفاع كانا فيه ، فدخل موسى بن سعيد فى طاعته ، فولاه على الجزيرة الخضراء ، فانتقل إليها بأهله وولده ، ويفهم من هذا أنه تخلى عن قلعة يحصب ، لأننا لا نجد لها بعد ذلك ذكراً فى تاريخ ذلك البيت ، وربما يكون الموحدون قد استنزلوا بنى سعيد منها ، ولم تدم ولاية الجزيرة الخضراء لموسى ، أو لم يستمسك هو بها بعد مقتل المتوكل بن هود ، لأن أمر الأندلس فى الواقع صار إلى الفوضى التى سقط خلالها خط الوادى الكبير مع امتداده إلى بلنسية ومرسية ، وهى فوضى استمرت حتى تمكن محمد بن الأحمر من الثبات فى حصون الحمراء وإنشاء الدولة النصرية التى انسأت فى عمر الأندلس حوالى القرنين ونصف .

فى سنة ٦٣٨/١٢٤٠ — ١٢٤١ أزمع موسى بن سعيد الرحلة إلى المشرق فى رفقة ابنه أبى الحسن على ، ويقال إن هذه الرحلة كانت للحج ولكن الواقع انها كانت هجرة نهائية ، فبعد ضياع قلعة بنى سعيد وذهاب أمر الموحدين وتلاشى الامـل الذى تراءى بظهور المتوكل ابن هود لم يبق لبنى سعيد فى الأندلس إلا الذكر الطيب وما ادخروا من صُبابات المال . وكان نفر من أهل هذا البيت قد هاجر بالفعل إلى المشرق ، ومن هؤلاء أبو الحسن بن الحسين بن سعيد الذى استقر فى تونس وتوفى فيها سنة ٦٠٤/١٢٠٧ — ١٢٠٨ وهو ابن أخى عبد الملك بن سعيد وقد ذكره المقرى (نفح الطيب ١/٦٤٠) بمناسبة الكلام على حفيد لابن عمه سعيد بن الحسن يسمى أبو عبد الله محمد بن الحسين الذى سيكون له شأن مع علىّ بن سعيد . وكان هذا الأخير من رجال أبى زيد بن الشيخ أبى محمد بن أبى حفص والمستنصر الحفصيين ، ويبدو أن موسى بن سعيد وابنه كانا يرجوان أن يستظلا برعاية قريبهما هذا ويستقرا فى تونس ، فقد كانت جماعاتٌ من مهاجرة الأندلسيين تفد إذ ذاك على عاصمة الحفصيين شيئاً فشيئاً .

وقد ذكر علىّ بن سعيد ذلك الرجل فى الرايات ووصفه بأنه « الوزير العالم الرئيس . . . صاحب دولة ملك افريقية فى هذا التاريخ وهو سنة أربعين وستمائة »[١] ، ولم يكن الرجل عند حسن الظن به ، إذ وقع بينه وبين علىّ شئ من منافرة ، فاضطر هذا إلى مغادرة تونس إلى المشرق[٢] .

من تونس انتقل موسى بن سعيد وابنه إلى الأسكندرية فوصلاها فى ٢٧ ربيع الأول ٦٣٩/٥ اكتوبر ١٢٤١ ويبدو أن موسى مرض هناك ، لأنهما أقاما بها حتى وفاته بها فى ٨ شوال ٦٤٠/٣١ مارس ١٢٤٣ وبعد ذلك مباشرة انتقل علىّ بن سعيد إلى القاهرة ، ويبدو أن شيئاً من صيته وصيت أهله كان قد سبقه إلى عاصمة الديار المصرية ، لأنه لم يلبث أن ظهر أمره وداخل أهل العلم والفضل والرياسة ، ومن أهم هؤلاء أبو الفتح موسى ابن يغمور بن سليمان بن عبد الله ، وكان من كبار رجال الدولة الأيوبية ، إذ كان نائباً للسلطنة ، وقد ترجم له كمال الدين بن جعفر بن ثعلب الأدفوى فى « الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلا الصعيد (القاهرة ١٩١٤ ص ٣٨١ — ٣٨٢) وذكر الوظائف الكبرى التى تولاها ، فكان واليا للقاهرة أيام الملك الصالح أيوب ، ثم والياً لدمشق أيام تورانشاه ثم استادارا (أى رئيس القصر السلطانى) أيام الظاهر بيبرس ثم نائباً للسلطنة إلى أن توفى فى أول شعبان ٦٦٣/١٩ مايو ١٢٦٥

وكانت لابن يغمور فيما يظهر عناية بأهل الفكر ممن وفد على مصر من الأندلسيين ، فقد كان من بين ندمائه أبو الحجاج بن عتبة الإشبيلى الشاعر وأبو عبد الله محمد بن أبى الفضل الشّلمى المرسى وكان شاعراً أيضاً ، وأندلسى ثالث يسمى ابن الجزار . وكان من الطبيعى أن ينتفع ابن سعيد بصداقة هذا الرجل ، فألف له كتاب « رايات المبرزين وغايات المميزين » وهو كما يفهم من فاتحته

---

(١) رايات المبرزين لابن سعيد ، ص ٤٦

(٢) انظر نفح الطيب ، ٣/٤٠ — ٤١

مقتبساً من « المغرب » ، وعلى طول حياة ابن سعيد كان « المُغرب » هذا كنزه الذى يعتمد عليه وذخره الذى يستند إليه ، كلما حاجه الأمر إلى كتيب يلطف به رئيساً مَدَّ يده فى المغرب وأخرج شيئاً ، ثم نسقه وزوقه بالسجعات وأهداه ، ولا ندرى إن كان المُغرب إذ ذاك قد تم تأليفه أو أن علياً بن سعيد كان يحمل مادته وينتظر بها الفرصة المواتية للفراغ منها .

ويبدو من مقدمة كتاب « المشرق فى حُلى المَشرق » أن موسى بن سعيد كان قد فرغ من « المغرب » قبل رحلته إلى الشرق ، بل خطر بباله وهو على أبواب هذه الرحلة أن يكمله بكتاب على نسقه يسميه « المشرق » يستكمل به التاريخ السياسى والأدبى للعالم الإسلامى بأسره ويسميه « فلك الأرب ، المحيط بحلى لسان العرب » ، ويبدو أن العمر لم يطل به لاتمام مشروعه ، لأن كل ما لدينا من قطع « المُشرق » إنما هى من تصنيف علىّ بن سعيد . أما المُغرب فيمكن القول بأنه من عمل موسى بن سعيد ومن سبقه ممن اجتهد فى جمع مادة هذا الكتاب من آل سعيد على أساس ما عمله الحجارى . وقد أضاف علىّ إلى المغرب أشياء هنا وهناك ورتب ونسق ، وربما كانت العناوين المسجوعة من وضعه ، فقد كان بها جدَّ مولعاً .

ولم تسنح الفرصة لابن سعيد لإخراج المغرب وإتمام المُشرق إلا بعد أن تعرف على صديق جديد هو كمال الدين بن عمر بن أبى جرادة المعروف بابن العديم صاحب تاريخ حلب ، فقد وفد هذا على القاهرة رسولا من الناصر الأيوبى صاحب حلب إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهناك عرف ابن سعيد وما عنده من العلم والفضل فدعاه إلى الرحلة إلى حلب والدخول فى خدمة صاحبها ، فذهب إلى هنـــاك وقضى ثلاث سنوات من ٦٤٤ إلى ٦٤٧/ ١٢٤٦ — ١٢٤٩ ربما كانت أهدأ أيام حياته وأوفرها انتاجاً ، فقد أتم إخراج المغرب وربما جزءً من المُشرق . ويبدو أنه لم يطمئن بعد ذلك للمقام فى حلب ، فاتجه إلى دمشق ، وهناك دخل فى خدمة السلطان المعظم توران شاه وأصبح

من ندمائه ، ولم يطل به المقام هناك أكثر من سنة ، فرحل سنة ٦٤٨ / ١٢٥١ إلى بغداد ومَرَّ فى طريقه بإرمينية وأرَّجَان ، ثم غادر بغداد إلى الحجاز حيث أدى الفريضة ، ثم كر راجعاً إلى تونس سنة ٦٥٢ / ١٢٥٤ حيث نزل أول الأمر على صديقه أبى العباس أحمد التيفاشى صاحب الموسوعة المعروفة .

وقد طالت إقامته بتونس هذه المرة ، فلم يرحل منها إلا سنة ٦٦٦ / ١٢٦٧ ونعتقد أنه اهتم بإتمام « المشرق » فى هذه الفترة ، والغالب أيضاً أنه كتب فى أثناء ذلك أحسن ما ألف فى الجغرافية وهو كتاب « بسط الأرض فى طولها والعرض » الذى سنتحدث عنه بعد قليل ، ونميل إلى هذا الرأى لسببين رئيسيين : الأول أننا نلحظ فى الكتاب طابع المواد الموسوعية التى كان يكتبها أبو العباس التيفاشى ، وربما يكون ابن سعيد قد لاحظ أن مادة صاحبه فى الجغرافية قليلة ، فأحب أن يستكمل هذا النقص بكتاب مختصر له قائم بنفسه فى ذلك الموضوع ، والثانى هو أن الكتاب فى جملته قائم على أساس نزهة المشتاق ، ونظن أن هذا الكتاب وصل إلى تونس أول ما وصل من بلاد الإسلام .

وفى سنة ٦٦٦ / ١٢٦٧ رحل علىّ بن سعيد إلى المشرق مرة أخرى ، ولا نعلم ما الذى دفعه إلى القيام بهذه الرحلة الجديدة ، بل لا نكاد نصدق ما يقال من أنه أبعد فى السفر هذه المرة حتى أوغل فى ايران لكى يرى بعينيه هولاكو ، لأن هولاكو توفى سنة ٦٦٣ / ١٢٦٥ أى قبل شروع ابن سعيد فى رحلته بثلاث سنوات ، وقد لاحظ ذلك التناقض موريتز فى دراسته عن الأجزاء الخاصة بصقلية من كتاب « بسط الأرض فى طولها والعرض » لابن سعيد ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا المقال(١) .

وعاد ابن سعيد بعد ذلك إلى تونس حيث أقام حتى آخر أيامه ، وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاته ، فأما ابن شاكر الكتبى وابن تغرى بردى

---

(١) رايات المبرزين ، بتحقيق غرسية غومس ، ص ٦٤

فيقولان أنه توفى فى دمشق سنة ٦٧٣/١٢٧٤ فى حين أن ابن الخطيب والمقرى وابن فرحون (الديباج المذهب ، ص ٢٠٨) والسيوطى (حسن المحاضرة ، ١/٣٢٠) يقولون إنه توفى فى تونس سنة ٦٨٥/١٢٨٦ وقد رجح شوقى ضيف (مقدمة المغرب ، ص ٨) رأى الأخيرين بقرينة لا تحتمل الجدل وهى ما ورد فى نهاية نسخة مصورة محفوظة بدار الكتب المصرية لأحد مخطوطات « الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة » من أنه كتب سنة ٦٨٣/١٢٨٤ ، والمخطوط بخط ابن سعيد نفسه .

عاش ابن سعيد إذن حياة طويلة عريضة حافلة بالأحداث والتجارب والأسفار والعمل ، وهو دون شك من أعاظم الأندلسيين الذين وفدوا على المشرق ومن أبعدهم أثراً فيه ، فقد أقبل إلى المشرق يحمل قطعة عزيزة من تاريخ بلده متمثلة فى تاريخ بيت يمنى قديم يرجع إلى آل عنس اليحصبيين ويحمل فى طياته عمار بن ياسر رمز المستضعفين فى الأرض الذين مَنَّ الله عليهم وجعلهم أعزة . انتقل آل هذا البيت إلى الأندلس وأقاموا هناك مجداً سياسياً ثم توفر الأخيرون من رجاله على إنشاء كتاب هو من مفاخر الأندلس بفضل ما يحمل من ثمرات قرائح أهله ، ثم عاد آخر أولئك الرجال إلى المشرق طاويا أعلام المجد السياسى وناشرا صفحات المجد الفكرى فى تونس وفى عواصم الشرق : القاهرة ودمشق وحلب أتم الرجل عمل آبائه وختم تاريخهم أجمل ختام بفضل ما أوتى من الذكاء والنشاط وطرافة الشخصية وما حرص عليه من الدعوة العريضة لوطنه الأندلس وأهله ، فأما دعوته للأندلس فقد اتجهت نحو وصف الأرض والجو والمدن وما إلى ذلك فأمدتنا بمادة جغرافية صرفة من الطراز الأول ، وأما دعواه لأهله فاتجهت إلى بيان امتيازهم الفكرى ، فأمدتنا بمادة أدبية ذات قيمة لا تقدر .

لا عجب إذن أن نجد لعلىّ بن سعيد صوتاً بعيداً وتقديراً عظيماً عند من أتى بعده من رجال الأدب فى مغرب العالم الإسلامى ومشرقه ، فلسان الدين

ابن الخطيب يرى فيه « وُسْطَى عقد بيته ، وعلَمَ أهله ، ودرة قومه ، المصنِّف الأديب الرحال ، الطُرفة الإخبارى ، العجيب الشأن فى التجول فى الأقطار ومداخلة الأعيان للتمتع بالخزائن العلمية ، وتقييد الفوائد المشرقية والمغربية[1] » والمقرى أكبر من حمل لواء الدعوة للأندلس فى الشرق بعد ابن سعيد يقول على طريقته فى المبالغة الساذجة : « أديب زمانه غير مدافع ، من اعترف له أهل الشرق بالسبق ، وأهل المغرب بالإبداع المُغرب . . . الشهير بالمغـارب والمشارق ، المُحَلِّى بجواهره صدور المهارق[2] » ، وابن فضل الله العمرى يقول : « أديب مبدع ، ولبيب ممتع ، وكانوا من بيت ملك لا يُنَهْنَه بالوعيد ، وكان لهم حصن سعيد بالأندلس . . . » ويقول الصفدى : « ابن سعيد من أئمة الأدب المؤرخين » وغير ذلك كثير .

وأحسب القارئ قد لاحظ أن أحداً من هؤلاء لم ينبه إلى ابن سعيد الجغرافى ، فكأن الصفحات الجغرافية المشرقة التى قدم بها للأقطار والتى أتى بذكرها فى كتابه الكبير « فلك الأرب » والتى سنورد منها نماذج مما يتصل بالأندلس ، كأن هذه الصفحات كانت فى حسابهم مداخل أو مقدمات لا أهمية لها ، حتى رجال موسوعيون كابن فضل الله العمرى — المفروض فيهم أن يتبينوا طبيعة ما يقرأون ويميزوه عن غيره ويفيدوا منه فى بابه — فاتهم أن يتنبهوا إلى ذلك ، وجعلوا الرجل أديباً ومؤرخاً ولا زيادة ، والحق أن ابن سعيد فى الأدب ناقل متكلف وفى التاريخ حاطب متعجل وفى الشعر ناظم قل أن تظفر له ببيت ذى قيمة شعرية حقيقية ، أما فى الجغرافية فقد كان رجلا أصيلا وذهنـاً جديراً بالاعجاب ، وقد بين ذلك ب. موريتز فى دراسته عما كتب ابن سعيد عن صقلية وبارتولد فى دراسته لما كتب عن أوروبا الشرقية

---

(١) رواه المقرى فى النفح ، ٣/٣٨

(٢) نفس المرجع ، ٣/٢٩

وهونجمان فى كتابه الفريد عن الأقاليم السبعة وجورج سارتون فى مقدمة تاريخ العلم وغير هؤلاء كثيرون ممن أحصاهم اغناطيوس كراتشكوفسكى فى عرضه الموجز الممتع لأعمال ابن سعيد الجغرافى (ص ٣٥٦ — ٣٦٠ من كتاب الأدب الجغرافى العربى) .

المادة الجغرافية فى كتاب المغرب فى حلى المغرب

لن نذكر من أعمال على ابن سعيد غير « فلك الأرب » و « بسط الأرض » : فقد أحصاها بروكلمان واستوفى شوقى ضيف بعض فوات العلامة الألمانى ، ودرس كذلك فى مقدمة المُغْرب التكوين العام لهذا الكتاب مما يغنينا عن إعادته هنا ، ولكن بحسبنا العبارة التالية من مقدمة « المُشرق فى حُلى المشرق » وهو جزء من النصف الثانى من « فلك الأرب ، المحيط بحلى لسان العرب » وهى تبين منهج علىّ بن سعيد فى صياغة الكتاب فى صورته التى وصلت إلينا ، وسنقسم العبارة إلى فقرات زيادة فى الايضاح . قال المؤلف :

١ — كل من التصنيفين (يريد المُشرق والمُغرب وهما القسمان الكبيران لكتاب فلك الأرب) مرتب على البلاد . متى ذُكِر بلد ذكرتُ كُوَرَه ، وأتكلم عليه وعلى كل كورة منه . . وأبتدئ بكرسى مملكتها وقاعدة ولايتها بحسب مبلغ [علمى] من إعلام بمكانها من الأقاليم ، وما يحف بها من نَهر أو مَنْزَهٍ أو خاصة معدنية أو نباتية .

٢ — وَمَن تداول عليها من أبناء الملوك أولى التواريخ التى لا يجب إغفالها .

٣ — ثم نأخذ فى الطبقات واحدة بعد أخرى ، وهى خمس : طبقة الأمراء ، وطبقة الرؤساء ، وطبقة العلماء ، وطبقة الشعراء ، وطبقة اللفيف . [والأربع الأولى] مخصوصة بمن له نظم من أولى الخطط المذكورة ، ولها تفسير

تقف عليه فى مواضعه . وطبقة اللفيف مخصوصة بمن ليس له نظم من أى صنف كان ، ممن لا يجب إغفاله ، وفيها من النوادر والمضحكات ما يكون [مثل] الاحماض [١] » .

فالفقرة الأولى من هذا المنهج خاصة بالمادة الجغرافية من الكتاب .

والفقرة الثانية خاصة بالمادة التاريخية .

والفقرة الثالثة خاصة بالمادة الأدبية مع إشارات تاريخية .

وإذا نحن أخذنا الأجزاء الخاصة بالأندلس من « المغرب » تبينا أن المادة الجغرافية تنقسم إلى قسمين : مقدمة عامة مفصلة عن جغرافية الأندلس ، ثم تعريفات جغرافية مختصرة خاصة بكل بلد يرد ذكره .

فأما المقدمة الجغرافية فسنتحدث عنها بتفصيل بعد يسير ، وأما المقدمات الجغرافية الصغيرة للبلدان فمعظمها مأخوذ من مسهب الحجارى أو من جغرافية الرازى ، وقد تكون عبارات قصيرة مثل قوله عن كورة مُراد فى منطقة قرطبة : « فى غربى قرطبة ، الحالى منها حصن مراد ، سكنته قبيلة مراد فنسب إليها [٢] » أو قوله عن مدينة قبرة : « مدينة نابهة ، هى قصبة الكورة [٣] » أو قوله عن قرية مَقَرينَة فى كورة اشبيلية : « قرية فى نطاق حضرة اشبيلية [٤] » وما إلى ذلك من الإشارات التى لا تكاد تتضمن قيمة علمية حقيقية ، وهى لا تطول وتَغْنَى بعض الشىء إلا فى الكلام على الكور ، ومثال ذلك قوله عن كورة قرمونة : « كورة مشهورة بكثرة المحرث وطيبه ، والحالى منها مدينة

---

(١) نقلت هذه الفقرة من مقدمة « المشرق » بنصها كما أوردها شوقى ضيف فى مقدمة المغرب (ص ٩) وقد نقلها هو عن أصل مخطوط بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٣٢ تاريخ ، وراجعها على ما أورده المقرى منها فى نفح الطيب .

(٢) المغرب ، ٢٢٨/١

(٣) المغرب ، ٢٣٠/١

(٤) المغرب ، ٢٨٨/١

قرمونة ، وهى مدينة من جهة ضخامة الأسواق والحمامات ، ومعقل عظيم من جهة الارتفاع والمنعة ، لا ترام بقتال ، وهى من حصون الإسلام المشهورة ، وقد كان امتنع فيها يحيى بن على بن حمود الفاطمى وجعل يقاتل ابن عباد فى اشبيلية حتى ضاق ابن عباد به ، ولم يكن له حيلة فيه لمَنَعَةِ معقِله ، إلى أن خرج ليلة وهو سكران بخيـل ضربت من اشبيلية على قرمونة ، فوقع فى يدهم فقتلوه(١) » .

ويلاحظ على هذه الاشارات كلها — إلى جانب اقتضابها — طابع العجلة وقلة التحقيق والمراجعة حتى ليندر أن تجد واحدة منها دون خطأ ، وفى هذا القليل الذى ذكرناه أخطاء كثيرة ، فمن الواضح أنه لم تكن هناك فى الأندلس كورة تسمى كورة مُراد ، وإنما هى ناحية إلى شمالى قرطبة عرفت بهذا الاسم نسبة إلى من جماعة المراديين نزلتها ، ثم بُنِى بعد ذلك الحصن ، وقوله إن مقرينة قرية فى نطاق حضرة اشبيلية غير دقيق وإنما هى كانت حياً من أحياء اشبيلية ، وكذلك قوله عن قرمونة انها من حصون الإسلام المشهورة يبدو أنه سهو صحته « من حصون الأندلس المشهورة » ، أما اشارته إلى نهاية يحيى بن على بن حمود فغير دقيقة ، لأنه لم يقع فى يد رجال ابن عباد ، بل سار هؤلاء إليه فخرج إليهم ووقع قتال قُتل فيه .

والحق — كما تبين شوقى ضيف — أن نسخة الجزء الخاص بالأندلس من المغرب التى وصلت إلينا كُتبت على عجل ولم تُراجع بعد ، وربما كانت مسودة نقلها ابن سعيد بَعد ذلك على صورة أحسن ، فإن النسخة التى كانت بين يدى المقرى ونقل عنها أوفى وأصح من نسختنا بكثير (راجع مقدمة المغرب ، ص ٢٥ — ٢٦) .

---

(١) المغرب ، ٢٩٩/١

وقبل أن ننتقل لدراسة المقدمة الجغرافية المفصلة للأندلس نلاحظ أن القطعة الباقية بين أيدينا عن هذ القطر تبدأ فى السفر الحادى عشر من كتاب المغرب وتستمر إلى الخامس عشر ، وقد افترض شوقى ضيف — وهو على حق — أن الجزء العاشر كان يتضمن المقدمات الجغرافية التى احتفظ لنا المقرى بمعظمها لحسن الحظ ، ففيم كانت الأسفـار التسعة الأولى ؟ الغالب أنه اختص بها مصر والمغرب ، ولا نعلم على وجه التحديد كيف قسمها ، ولكن صياغة ما عثرنا عليه ونُشِر من الاقسام الخاصة بمصر لا تشبه أسفار الأندلس فى شىء ، ومعظمها نقل دون تمحيص ، مما يدل على أن صلب الكتاب الحقيقى هو الجزء الخاص بالأندلس ، وهو الذى ورثه ابنُ سعيد عن آله ، ويغلب على الظن أن المقدمة الجغرافية العامة من عمله وحده فإن فيها نقولا عن الشريف الإدريسى ومناقشات لبعض ما أورد ، ولم يطلع علىّ بن سعيد على نزهة المشتاق إلا حين أقام فى تونس .

علىّ بن سعيد فى هذه المقدمة نظَّار محقق ذو فهم وحِسٍ جغرافيين ، وهذا يتضح للقارئ من أول وهلة ، فهو يبدأ بمقدمات عن أصل اسم الأندلس وطولها وعرضها بحسب أقوال لأبى عامر السالمى فى كتابه المسمى « بدرر القلائد وغرر الفوائد » والمسعودى وابن اليسع ، وهو يروى قول هذا الأخير : « طولها من أربُونة إلى أُشبونه ، وهو قطع ستين يوماً للفارس المجد » ويعلق عليه بقوله وانتُقِد بأمرين : أحدها أنه يقتضى أن أربونة داخلة فى جزيرة الأندلس ، والصحيح أنها خارجة عنها ، والثانى أن قوله « ستين يوماً للفارس المجد » اعياء وافراط ، وقد قال جماعة إنها « شهر ونصف » ويضيف بعد ذلك : « وهذا يقرب إذا لم يكن للفارس المُجد ، والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر ، وكذا قال الحجارى ، وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك ، فعملوا حسابا بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهر بِنَيِّف[1] قليل » ، وهذا كلام رجل يزن ما يصل

(١) برواية المقرى فى نفح الطيب ، ١/٢٢٥

إليه من معلومات ويحققه ويسأل عنه من يعرفه . وفَرْقٌ بين هذا الكلام وقول الحجارى إن طول الأندلس من الحاجز إلى أشبونة ألف ميل[1] ونيف » ، لأن طول الأندلس لا يقاس من الحاجز — أى جبال البُرت وهى المعروفة خطأً بالبرانس — إلى الاشبونة ، وحتى لو اعتمدنا قولهم أن الأندلس مثلثة الشكل فإن أحداً لم يقل أن الاشبونة كانت ركنــاً من أركان المثلث بحيث تتخذ المسافة منها إلى الحاجز ضلعاً من أضلاعه ، ومع هذا كله فالمسافة بين الاشبونة وجبال البرت لا تصل إلى ألف ميل أى ألفى كيلومتر على اعتبار أن الميل العربى كيلومتران .

وقد أورد المقرى فى نفح الطيب بعد ذلك فقرة طويلة عن هيئة الأندلس وابعادها تعطينا نموذجا طيباً من طريقة ابن سعيد فى الكلام فى هذه المقدمة ، نوردها على تواليها ، فإن عرضها مع تعليق قصير يغنى عن كلام كثير ، قال : « ومسافة الحاجز[2] الذى بين بحر الزقاق والبحر المحيط أربعون ميلا ، وهذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق[3] ، ولقلته سميت جزيرة وإلا فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة .

وعرضُ جزيرة الأندلس فى مُوَسَّطها عند طليطلة ستة عشر يوما[4] ، واتفقوا على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل ، واختلفوا فى الركن الذى فى الشرق والجنوب فى حيز أربونة ، فمن قال إنه فى أربونة — وإن هذه المدينة

(١) نفس المرجع ، ١/١٢٦

(٢) المراد بالحاجز هنا الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة بين البحر الأبيض والمحيط الأطلسى ، وعرضه ٨٠ كيلومترا فى بعض المواضع .

(٣) هذا على مذهبهم فى أن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب فيقع الزقاق فى الشرق ، وقد تحدثنا عن هذه النظرية فيما سبق .

(٤) هذا التقدير واضح الخطأ ، لأن متوسط ما كان يقطعه المسافر فى اليوم ٤٠ كيلومترا ، فالمسافة على هذا التقدير ٦٤٠ كيلومترا ، وهى فى الواقع ضعف ذلك تقريباً .

تقابلها مدينة برديل[١] التى فى الركن الشرقى الشمالى — أحمدُ بن محمد الرازى وابنُ حَيَّان ، وفى كلام غيرهما أنه فى جهة أربونة ، وحقق الأمرَ الشريفُ[٢] ، وهو أعرف بتلك الجهة لتردده فى الأسفار براً وبحراً إليها وتفرّغه لهذا الفن .

قال ابن سعيد : وسألت جماعة من علماء هذا الشأن فأخبرونى أن الصحيح ما ذهب إليه الشريف ، وأن أربونة[٣] وبرشلونة غير داخلتين فى أرض الأندلس ، وأن الركن الموفى على بحر الزقاق بالمشرق بين برشلونة وطركونة فى موضع يعرف بوادى رُبْلُقَطُو[٤] وهنالك الحاجز الذى يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ذات الألسن الكثيرة .

وفى هذا المكان جبل البرت الفاصل فى الحاجز المذكور وفيه الأبواب التى فتحها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل ، ولم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك طريق فى البر ، وذكر الشريف أن هذه الأبواب يقع فى مقابلتها فى بحر الزقاق البحرُ الذى بين جزيرتى ميورقــة ومنورقة ، وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية ، ومسافة هذا الجبل الحاجز بين الركن الجنوبى والركن الشمالى أربعون ميلا[٥] .

---

(١) برديل هى بوردو ، وقد احتفظت الصورة العربية بالرسم اللاتينى Burdigala ولهذا تكتب أحيانا بردال . وكان الجغرافيون العرب يظنون — كما رأينـا — أن ضلعاً من أضلاع مثلث شبه الجزيره يمتد من بوردو إلى أربونه فى خط مستقيم من الشمال إلى الجنوب مخترقاً جبال البرت .

(٢) هذه أول مرة يشير مؤلف عربى إلى الشريف الإدريسى ، وإذا كان المغرب قد كتب حوالى سنة ٦٤٠ فيكون قد مضى نحو قرن من الزمن بين تأليف « نزهة المشتاق » وبدء الانتفاع به عند علماء العرب .

(٣) هذا صحيح ، فأربونه خارجة عن شبه الجزيرة ، أما برشلونة فكانت إذ ذاك تابعة لملوك غالة (فرنسا) وتسمى منطقتها فى بعض الأحيان بالأرض الصغيرة فى حين أن غالة تسمى بالارض الكبيرة .

(٤) هو نهر Llobrogat واسمه باللاتينية Rubrucatus ومن هنا أتى الاسم العربى ، وقد صوبه دوزى على هذا النحو ، ولكن محى الدين عبد الحميد فضل متابعة رسم طبعة بولاق القديمة : زلنقطو ، وزاد فضبط الاسم بفتح الزاى واللام وسكون النون وفتح القاف ليقطع الشك باليقين !

(٥) التقدير هنا بعيد عن الصحة فإن متوسط المسافة من البحر الابيض إلى خليج بسكاية فى منطقة البرت حوالى ٤٠٠ ك. م. لا ٨٠ كما يقول ابن سعيد .

قال : وشمال الركن المذكور عند مدينة برديل ، وهى من مدن الإفرنج مطلة على البحر المحيط فى شمال الأندلس ، قال : ويتقهقر البر بعد تميُّز هذا الركن إلى الشمال فى بلاد الفرنجة ، ولهم به جزائر كثيرة ، ودوكرا(١) من الركن الشمالى عند شنت ياقوه من ساحل الجلالقة فى شمال الأندلس ، حيث تبتدئ جزيرة برطانية الكبيرة ، فيُتصور هنالك بحر داخل بين أرضين(٢) ، من الناس من يجعله بحراً منفرداً خارجا من البحر المحيط لطوله إلى الركن المتقدم الذكر عند مدينة برديل .

وذكر الشريفُ أن عند شنت ياقوه فى هذا الركن المذكور على جبل بمجمع البحرين صنما مطلا مشبها بصنم قادس .

والركن الثالث بمقربة من جبل الأغن حيث صنم قادس ، والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحر الزقاق من البحر المحيط مارّاً مع ساحل الأندلس الجنوبي إلى جبل البرت المذكور » .

ويورد المقرى بعد ذلك (نفح ١ / ١٣٣ — ١٣٤) فقرة منقولة عن الشريف الإدريسى تدل على أن ابنَ سعيد قرأه وفهم كلامه حق الفهم ، وهى فقرة خاصة بالأقاليم السبعة (شمال خط الاستواء) وموقع الأندلس منها ، وما يوازى مدنه من المدن الأخرى الواقعة فى نفس الإقليم ، وسنورد هذه الفقرة فيما يلى لأنهـا تدل على قدرة على بن سعيد على تلخيص مادة الإدريسى ، وهو أمر سيعمله بصورة أوفى فى كتابه « بسط الأرض » ، قال :

« وقال ابن سعيد : ذكر الشريف أنْ لا حظَّ لأرض الأندلس فى الإقليم الثالث ، قال : ويمر بجزيرة الأندلس الإقليم الرابع على ساحلها الجنوبى وما

---

(١) كذا فى الأصل المطبوع .

(٢) المراد هنا بحر المانش أو القنال الانجليزى .

قاربه من قرطبة وإشبيلية ومرسية وبلنسية ، ثم يمر على جزيرة صِقِلية وعلى ما فى سَمْتها من الجزائر ، والشمس مدبِّرة له .

والإقليم الخامس يمر على طليطلة وسرقسطة وما فى سمتهما إلى بلاد أرْغُون التى فى جنوبيها برشلونة ، ثم يمر على رومية وبلادها ، ويشق بحر البنادقة ، ثم يمر على القسطنطينية ، ومدبرته الزهرة .

والسادس يمر على ساحل الأندلس الشمالى الذى على البحر المحيط وما قاربه وبعض البلاد الداخلة فى قشتالة وبرتقال وما فى سمتها ، وعلى بلاد برجان والصقالبة والروس ، ومدبره عطارد .

ويمر الإقليم السابع فى البحر المحيط الذى فى شمالى الأندلس إلى جزيرة انقلطرة وغيرها من الجزائر وما فى سمتها من بلاد الصقالبة وبرجان . قال البيهقى : وفيه تقع جزيرة تُولِى وجزيرتا أجبال والنساء وبعض بلاد الروس الداخلة فى الشمال والبلغار ، ومدبره القمر ، انتهى .

وإليك فقرة أخرى عن البحر الأبيض نرى منها أن تصورَ ابن سعيد لهذا البحر كان سليما معقولا ، وقد سبقه إلى هذا التصور السليم معظم النابهين من جغرافيينا ، وخاصة أبو عبيد البكرى ، وسيصوره ابن خلدون فيما بعد تصويراً هو الغاية فى الدقة وحسن الفهم حتى بمقاييس العلم الجغرافى فى أيامنا ، ولكننا نورد هذه الفقرة لأنها نموذج من طريقة ابن سعيد فى المزج بين الحقائق الجغرافية وبعض حكايات التاريخ التى كانت تدخل عندهم فى الجغرافية ، وهى تعطينا أيضاً أمثلة من ملاحظاته الشخصية القائمة على مشاهداته . ويلاحظ أن تصور ابن سعيد — والبكرى وابن خلدون — لهيئة البحر الأبيض أنه كان بيضاوياً على هيئة اللوزة أو العين مثلا ، وطرف منه عند جبل طارق ، والطرف الآخر عند صور على ساحل الشام . وتحديد صور بالذات من دون موانى الشام راجع إلى بطلميوس :

قال ابن سعيد : ومخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام هو بساحل الأندلس الغربى بمكان يقال له الخضراء ما بين طنجة من أرض المغرب وبين الأندلس فيكون مقدار عرضه هناك كما زعموا ثمانية عشر ميلا ، وهذا عرض جزيرة طريف إلى قصر مصمودة بالقرب من سبتة ، وهناك كانت القنطرة التى يزعم الناس أن الإسكندر بناها ليعبُرَ عليها من بر الأندلس إلى بر العدوة ، ويعرف هذا الموضع بالزقاق ، وهو صعب الجـاز لأنه مجمع البحرين لا تزال الأمواج تتطاول فيه والمـاء يدور ، وطول هذا الزقاق الذى عرضه ثمـانية عشر ميلا مضاعَفُ ذلك إلى ميناء سبتة ، ومن هناك يأخذ البحر فى الاتساع إلى ثمانمائة ميل وأزيد ، ومنتهاه مدينة صور من الشام ، وفيه عدد عظيم من الجزائر » .

فإذا انتقل علىّ بن سعيد إلى الكلام على مدن الأندلس وحاصلاته النباتية والمعدنية وحيوانه ونباته وصناعات أهله أتى من ذلك كله بمادة وافرة لم يوفق واحد من الجغرافيين قبله إلى الاتيان بمثلهـا ، وهو يتحدث فى معظم هذه الفقرات حديث العالم الثبت الذى يتكلم عما يعرف ، ولولا ولعه بإيراد الكثير من الشعر والحكايات فى أثناء ذلك لكان كلامه أقرب ما يكون إلى مفهومنا فى التأليف الجغرافى اليوم ، وعزاؤنا فى هذه الاستطرادات الأدبية أنها تضم أحياناً فوائد جغرافية ، ومثال ذلك قوله فى الكلام على قرية نارجة ، وهى Nerja على ٥٣ كيلومتراً إلى شرق مالقة على الشاطىء ، وهى نهاية ما يعرف اليوم بشاطىء الشمس . La Costa del Sol ، وهى مشهورة بمغارتها العميقة الفسيحة التى تعتبر اليوم من مقاصد السائحين ، قال : « وهى قرية كبيرة تضاهى المدن ، قد أحدقت بها البساتين ، ولها نهر يفتن الناظرين ، وهى من أعمال مالقة » ثم يذكر بعد ذلك كيف اجتاز عليها مع والده أبى عمران موسى : « وكان ذلك زمن صباغة الحرير عندهم ، وقد ضربوا فى بطن الوادى بين مقطعاته خيما ، وبعضهم يغنى ويطرب ، وسئلوا : بم يعرف هذا الموضع ؟ فقالوا : الطراز ، فقال والدى : اسم طابق مسماه ولفظ وافق معناه :

وقد وجدت مكانَ القول ذا سعة فان وجدت لسانا قائلا فَقُل

ثم قال : أجِز : بنارجةٍ ، حيث الطراز المنمنم

فقلت : أقم فوق نهر ثغره يتبسم

إلى آخر هذا الشعر الذى اشترك هو وأبوه فى صياغته ، وهو شعر استغرق صفحة كاملة (١) .

ومن نماذج كلامه عن المدن قوله عن بلنسية :

« كورة بلنسية من شرق الأندلس ينبت بها الزعفران ، وتعرف بمدينة التراب ، وبها كمثرى تسمى الأرزة فى قدر حبة العنب ، قد جمع مع حلاوة الطعم ذكاء الرائحة ، إذا دخل داراً عرف بريحه ، ويقال : إن ضوء بَلَنْسية يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس ، وبها مَنَـازِهُ ومسارح ، ومن أبدعها وأشهرها الرُّصَافة ومُنْية ابن أبى عامر » .

ثم تلى ذلك مقطعات شعرية لشرف الدين أبى جعفر بن مسعدة الغرناطى وابن الزَّقاق البلنسى ومروان بن عبد الله بن عبد العزيز الذى ملك بلنسية بعض الوقت وأبى عبد الله بن عياش وأبى الحسن بن حريق والرصافى الرفاء و « بعضهم » .

ويستوقف النظر أن أول ما يذكره عن كورة بلنسية أنها تنبت الزعفران ، ولا زالت تنبته إلى اليوم بكميات كبيرة ، وإلى وجوده مع الأرز بها ترجـع شهرة بلنسية بطبق الأرز المعروف بالبائيَّا paella ويقال أنه طبق عربى أصل اسمه « البقايا » . أما الكمثرى التى يذكرها فموجودة فعلا وتسمى فى الاسبانية peras de San Juán ، ولكنها ليست فى حجم حبة العنب ، وإنما فى حجم البيضة الكبيرة . ويكمل ابن سعيد كلامه عن بلنسية بقوله بعد الاشعار : « وبرصافة

---

(١) رواه المقرى فى نفح الطيب ، ١/١٦٦ — ١٦٨

بلنسية مناظر وبساتين ومياه ، ولا نعلم فى الأندلس ما يسمى بهذا الاسم إلا هذه ورصافة قرطبة » ، وهى ملاحظة صحيحة .

وأورد ابن سعيد — نقلا عن « المسهب » للحجارى — فقرات طويلة عن حيوان[١] الأندلس ، فذكر السمور « الذى يعمل من وبره الفراء الرفيعة يوجد فى البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية ، ويجلب إلى سرقسطة ويصنع بها ، والقَنَلْيَة حيوان أدق من الأرنب وأطيب فى الطعم وأحسن وبراً وكثيراً ما يلبس فراؤها ، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى ، ولا توجد فى بر البربر إلا ما جلب منها إلى سبتة ، فنشأ فى جوانبها » وأضاف بعد ذلك أن القنلية جلبت فى هذه المدة إلى تونس حضرة افريقية ، ولفظ canalia لاتينى ومعناه الأرنب .

ويضيف : « ويكون بالأندلس من الغزال والابل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك مما لا يوجد فى غيرها كثيرٌ ، وأما الأسد فلا يوجد فيها البتة ، ولا الفيل والزرافة وغير ذلك ممـــا يكون فى أقاليم الحرارة . ولها سبع يعرف باللُّب أكبر بقليل من الذئب فى نهاية من القحة ، وقد يفترس الرجل إذا كان جائعاً » .

وعبارته عن اللب جديرة بالملاحظة ، لأن اللب el lobo هو فى الحقيقة الذئب ، وهو من اللاتينية lopus ، ولكن الذئب فى اسبانيا وعامة أوروبا أكبر من ذئب البلاد المشرقية وأشد عدواناً فى حالة الجوع ، ولهذا ميزه ابن سعيد عن الذئب وذهب إلى أنه حيوان آخر ، وقد تسمى كثير من المسلمين باسم هذا الحيوان فقالوا لُب بن سعيد مثلا ، ولا زال الاسم مستعملا فى الإسبانية : López ومعناة على الحقيقة ابن لب . ثم يقول : « وبغال الأندلس فارهة وخيلها ضخمة الأجسام ، حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعدو...

(١) نفح الطيب ، ١ / ١٨٤ — ١٨٥

ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول ، وكذلك حيوان البحر . ودواب بحرها المحيط فى نهاية الطول والعرض . قال ابن سعيد : عاينت من ذلك العجب . والمسافرون فى البحر يخافون منها لئلا تقلب المراكب فيقطعون الكلام ، ولها نَفْخٌ بالماء من فيها يقوم فى الجو ذا ارتفاع مفرط » والكلام هنا على حيوان البحر المعروف بالعنبر ، وكان يسمى فى الاندلس باسمه اللاتينى والإسبانى البِلّينَه la ballena .

ولابن سعيد فى هذه المقدمة فقرة عظيمة الأهمية عن فواكه الأندلس ، وما أظن أحداً من مؤلفينا — غير النباتيين — كتب شيئاً شبيهاً بهذا فى الدقة عن فواكه بلده : « وأما الثمار وأصناف الفواكه ، فالأندلس أسعدُ بلاد الله بكثرتها ، ويوجد فى سواحلها قصب السكر والموز ، ويوجدان فى الأقاليم الباردة (يريد من الأندلس) ، ولا يعدم منها إلا التمر ، ولها من أنواع الفواكه ما يعدم فى غيرها أو يقل كالتين القوطى والتين السَّفَرى فى اشبيلية . قال ابن سعيد : وهذان صنفان لم تر عينى ولم أذق لهما منذ خرجت من الأندلس ما يفضلهما ، وكذلك التين المالقى والزبيب المُنَكَّبى والزبيب العسلى والرمان السَّفرى ، والخوخ والجوز واللوز ، وغير ذلك مما يطول ذكره(١) » . وقوله أنه لا يَعْدم من الأندلس إلا التمر يستوقف النظر ، فإن فى اسبانيا اليوم من غابات النخيل التى تثمر التمر الجيد ما يدهش له الزائر لنواحى ألش Elche ولقنت Alicante وامتداد الساحل حتى المرية ومرسية ، وهذا معناه أن التمر الاسبانى الحالى شىء جديد استجد بعد أيام العرب . نعم كان فى الأندلس دائماً نخل ، ولكنه فيما يبدو لم يكن يثمر ثمراً يجدر بالذكر ، وإلا لما أبدى ابن سعيد هذه الملاحظة .

---

(١) رواه المقرى فى نفح الطيب ، ١/١٦٦

وقال عن معادن الأندلس : « إن الأرض الشمالية الغربية فيها المعادن السبعة ، وهى فى الأندلس التى هى بعض تلك الأرض ، وأعظم معدن للذهب بالأندلس فى شنت ياقوه Santiago de Compostela قاعدة الجلالقة على البحر المحيط ؛ وفى جهة قرطبة الفضة والزئبق ؛ والنحاس فى شمال الأندلس كثير والصُّفر (النحاس الجيد) الذى يكاد يشبه الذهب وغير ذلك من المعادن المتفرقة فى أماكنها[1]» وهذه العبارة ضعيفة ، فهى لم تأت إلا على النزر اليسير من معادن الأندلس التى عرفها العرب واستخرجوها ، وإغفاله ذكر الحديد مثلا لا يمكن تبريره ، وكان العرب يستخرجون منه مقادير طيبة من مناجم واقعة إلى شمال شرقى قرطبة ، عند البلدة المعروفة اليوم باسمها العربى Almaden (المعدن) بل كانت جبال شيرًّا مورينا كلها تسمى جبال المعدن لهذا السبب ، واستخرج العرب كذلك حديد مربيطر Murviedro التى تعرف حاليـاً باسمها اللاتينى Sagunte قرب بلنسية .

أما إشارة ابن سعيد إلى صناعات الأندلس فهى من أقيم ما لدينا عن هذا الموضوع ، وهى جديرة بأن نوردها هنا :

« قال ابن سعيد : وإلى مصنوعات الأندلس ينتهى التفضيل ، وللمتعصبين لها فى ذلك كلام كثير ، فقد اختصت المرية ومالقة ومرسية بالموشى المذهب يتعجب من حسن صنعته أهلُ المشرق إذا رأوا منه شيئاً ، وفى تَنْتَالَة من عمل مرسية تعمل البُسُط التى يُغَالَى فى ثمنها بالمشرق ، ويصنع فى غرناطة وبَسطة من ثياب اللباس المحررة الصنفُ الذى يعرف بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة ، ويصنع فى مرسية من الأسِرَّة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصُّفر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندىّ ما يبهر العقل ، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها ،

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ١/١٨٦

ويصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاجُ الغريب العجيب وفخار مزجج مذهب ، ويصنع بالأندلس نوع من المفضض المعروف فى المشرق بالفُسَيْفِسَاء ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجى يشبه المفضض ، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون الذى يصرِّفه أهل المشرق فى زخرفة بيوتهم كالشاذَرْوَانِ ، وما يجرى مجراه .

« وأما آلات الحرب من التِّراس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر فأكثر همم أهل الأندلس — فيما حكى ابن سعيد — كانت مصروفة إلى هذا الشأن ، ويُصنع فيها فى بلاد الكفر ما يبهر العقول ، قال : والسيوف البرذليات مشهورة بالجودة ، وبرذيل : آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والمشرق ، والفولاذ الذى بإشبيليه إليه النهاية ، وفى اشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره » .

ويطول بنا الأمر لو مضينا نعرض هذه المقدمة الطويلة فى الجغرافية العامة للأندلس التى سماها « كتاب وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس » وهى السفر العاشر من المغرب كما قلناه . فقد أورد المقرى فى نفح الطيب معظمها ناسباً الفقرات إلى ابن سعيد فى الغالب ، وإن كان بين الحين والحين يغفل ذلك ، ولن نورد هنا الفقرات الطويلة عن نظام الأندلس الإدارى وخططه وعادات أهله وخصائصهم الخلقية والعقلية ، فهذا كلام طويل كثير أحق بأن يجمع فى كتاب وحده حتى تظهر مزاياه ، ولكننا نختم هذه الدراسة عن جغرافية الأندلس لابن سعيد بتلك الفقرات التى يذهب فيها مع الإعجاب ببلده إلى درجة التعصب والمغالاة فى إظهار الفضل والامتياز حتى لا يتحرج عن المساس بالبلاد المشرقية التى كان يعيش فيها . وهذا الاستعلاء من الأندلسيين على غيرهم وعدم تحرزهم مما يجرح مشاعر الغير كانا من بعض خصائصهم ، لا مع غيرهم فحسب ، بل مع بعضهم البعض ، وإن الانسان ليدهش وهو يقرأ سِيَرهم من الحاح الكثيرين منهم على ما يهين ويغضب دون حاجة فى كثير من الأحيان .

قال ابن سعيد : « وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار ، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة ، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لاتكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى(١) فيها معدومة ، ومما اختصت به أن قراها فى نهاية من الجمال لتصنع أهلها فى أوضاعها وتبييضها ، لئلا تنبو العيون عنها ، فهى كما قال الوزير بن الحمارة فيها :

لاحَتْ قُرَاها بين خُضْرة أَيْكِها كالدُّرِّ بين زَبَرْجَدٍ مكنونِ

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها . وفى الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة المصَّرة من مثلها ، والمثال فى ذلك أنك إذا توجهت من اشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش ، وهى فى نهاية من الحضارة والنضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالقة ، وهذا كثير فى الأندلس ولهذا كثرت مدنها ؛ وأكثرها مسوّر من أجل الاستعداد للعدو ، فحصل لهـا بذلك التشييد والتزيين . وفى حصونها ما يبقى فى محاربة العدو ما ينيف على عشرين سنة لامتناع معاقلها ، ودربة أهلها على الحرب ، واعتيادهم لمجاورة العدوّ بالطعن والضرب ، وكثرة ما تنخزن الغلة فى مطاميرها ، فمنها ما يطول صبره عليها نحواً من مائة سنة قال ابن سعيد : ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح إلى الآن ، وإن كان العدو قد نقصها من أطرافها ، وشارك فى أوساطها ففى البقية منعة عظيمة ، فأرض بقى فيها مثل اشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة الممصرة الرجاء فيها قوىّ بحول الله وقوته ، انتهى .

---

(١) هذه العبارة غير دقيقـة ، ففى شبه الجزيرة مناطق صحراوية وصخرية قاحلة كثيرة تبلغ نسبتها ٨ ٪ من مساحتها الكلية .

قلت[١] : قد خاب ذلك الرجاء ، وصارت تلك الأرجاء للكفر مَعْرجاً ، ونسأل الله تعالى الذى جعل للهم فرجاً ، وللضيق مخرجاً ، أن يعيد إليها كلمة الإسلام حتى يستنشق أهله منه فيها أرَجَا ! آمين » .

قال ابن سعيد : « وأنا أقول كلاماً فيه كفاية : منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطُفْت فى بر العُدْوة ، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة ، ثم طفت فى إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية وتونس ، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط ، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلبا وما بينهما . لم أر ما يشبه رونق الأندلس فى مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، ومدينة دمشق بالشام ، وفى حَمَاة مسحة أندلسية ، ولم أر ما يشبهها فى حسن المبانى والتشييد والتصنيع ، إلا ما شُيد بمراكش فى دوله بنى عبد المؤمن ، وبعض أماكن فى تونس ، وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية ، ولكن الإسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع ، ومبانى حلب داخلة فيما يستحسن ، لأنها من حجارة صلبة ، وفى وضعها وترتيبها إتقان » .

وفى هذا كفاية لبيان القيمة العلمية لهذه المقدمة الجغرافية الطويلة للأندلس ، ولم يستطع ابن سعيد أن يأتى بمثـل هذه المعلومات فى تقديمه لما تحدث عنه من غير الأندلس من البلاد التى تناولها الكلام فى قسمى « فلك الأرب » وهما « المُغرب والمُشرق » وهو أمر طبيعى ، فإن الأندلس بلده وهو به أعرف ، وفضله ظاهر فى استطاعته جمع حشد عظيم من المعلومات الجيدة وسياقتها فى أسلوب سهل بسيط لا يخالطه حديث عجائب أو حكايات أساطير إلا فى النادر . وهو يسمو بهذه المقدمة إلى مستوى أعاظم الجغرافيين الأندلسيين من أمثال الرازى والعذرى والبكرى ويواصل تقاليد هذا العلم التى جرى عليها أقطابه فى

---

(١) المتكلم هنا هو المقرى صاحب النفح .

ذلك الصقع . بل هو يمتاز بتصور أوضح يدل على ملكة علمية أصيلة قادرة على تميز الخصائص وتبين الحقائق وربط الأمور بعضها ببعض وسياقة المعلومات الكثيرة فى نطاق موجز دون إخلال .

ومن كلام ابن سعيد فى هذه المقدمة ثم مِن تقسيماته للأندلس بعد ذلك نستدل على أنه رسم لنفسه مخططاً للأندلس ليجرى فى الكلام بمقتضاه ، ولسنا نقول ذلك استنتاجاً ، ولكنه حقيقة ، قال المقرى فى كلامه عن الكتاب : « وصوّر — رحمه الله تعالى — أجزاء الأندلس فى كتاب وشى الطرس » ولكن يبدو أن خريطته كانت توضيحية لا جغرافية صرفة ، والخريطة التوضيحية هى رسم يعمل لمجرد توضيح الكلام لا لتصوير الهيئة الجغرافية لاقليم ما كهذه الرسوم التى أُثِرت عن الخوارزمى مثلا ، وكخرائط كتاب ابن حوقل ، فهى رسوم للتوضيح فى ذهن القارئ ، وهى تقابل ما يقال مثلا من أن هيأة الأرض على شكل طائر رأسه فى العراق وذيله فى الأندلس ، أو أن ايرانشهر (هضبة إيران وما يليها شرقاً) وجزيرة العرب فى هيأة الطيلسان ، وما إلى ذلك من التشبيهات التى نجد الكثير من نماذجها عند المسعودى فى « مروج الذهب » ودليلنا على أن خريطة ابن سعيد كانت رسماً توضيحياً قولُ المقرى بعد ذلك : « وقال أيضاً (أى ابن سعيد) إن كلا من شرق الأندلس وغربها ووسطها يقرب فى قدر المساحة بعضه من بعض ، وليس فيها جزء يجاوز طوله عشرة أيام ، ليصدق التثليث فى القسمة ، وهذا دون ما بأيدى النصارى[(١)] » فهذا كلام رجل قسم الأندلس إلى ثلاثة أقسام متساوية ليسهل عليه الكلام ، وهو تقسيم سبقه إليه ابن بسام فى الذخيرة ، وجعل ابن سعيد طول كل قسم عشرة أيام ، أى ٤٠٠ كيلومتراً على وجه التقريب . وإذا كان ابن سعيد قد أصاب فى قياس عرض الأندلس هنا من البحر الأبيض إلى المحيط الأطلسى

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ١/٢١٠

فجعله ١٢٠٠ كيلومتراً ، وهو قريب من الصواب ، فإنه لم يكن موفقاً فى هذا التقسيم الهندسى ، فإن البلاد لا تقسم جغرافياً على هذه الصورة المفتعلة ، وإنما تقسم إلى مناطق طبيعية أو أقاليم ذات خصائص متميزة أو أقسام إدارية لها حقيقة فى الواقع ، ولكن عذره أن التقسيم هنا نظرى صرف لمجرد التقريب .

ونختم كلامنا عن تلك المقدمة الجغرافية بعبارة المقرى تبين لنا أقسام كتاب المغرب الخاصة بالأندلس وصقلية والأرض الكبيرة (ما يلى الأندلس شمال جبال البرت من بلاد غرب أوروبا) ، ومن أسف أنه لم يأتنـا بتقسيم المُغرب كله . قال :

وقسَّمه إلى أقسام منها :

« وشى الطُّرُس فى حلى جزيرة الأندلس » وهو ينقسم إلى أربعة كتب :

الكتاب الأول كتاب : حَلْى العرس فى حُلى غرب الأندلس

« الثانى « : الشفاه اللُّعس ، فى حُلى موسطة الأندلس

« الثالث « : الأُنس فى حلى شرق الأندلس

« الرابع « : لحظات المريب ، فى ذكر ما حماه من الاندلس عُبّاد الصليب .

والقسم الثانى كتاب : الألحان المسليـة فى حُلى جزيرة صقلية ، وهو أيضاً ذو أنواع (أى يقع فى كتب) .

والقسم الثالث كتاب : الغاية الأخيرة ، فى حلى الأرض الكبيرة ، وهو أيضاً ذو أقسام » .

وإذن فقد كانت هناك أجزاء كبيرة من هذا الكتاب عن صقلية وغربى أوروبا ؛ أجزاء يسميها هو كتباً ولا ننتظر أن تكون مساوية فى القيمة لهذا القسم الأندلسى الذى عرضنا أطرافاً منه ، ولكنه كان يضم على أى حال مادة علمية جديدة عن هذه الأقسام من الدنيا . وإنه لما هو جدير بالملاحظة أن الملكة الجغرافية العربية كانت أوسع أفقاً وأبعد طموحاً مما كانت عليه الملكة

التاريخية أو الأدبية مثلا . فقد رأينا كم من الجغرافيين العرب وصفوا أوروبا أو بعض أجزائها فى حين يندر أن نجد مؤرخاً عربياً طمح إلى أن يؤرخ لممالك تلك القارة أو بعضها ، وإذا استثنينا ابن خلدون وابن الخطيب فإننا ينبغى أن ننتظر إلى عصر الموسوعيين : عصر القلقشندى والعمرى ومن إليهم حتى نقرأ شيئاً عما وراء حدود مملكة الإسلام يعود بنا إلى آفاق العلم العربى الواسعة فى العصر الذهبى الأول ، أيام كان رجل كمحمد بن جرير الطبرى يكتب فى أستاذية تدعو إلى الإعجاب الحق تاريخاً لفارس قبل الإسلام يعتمده الناس إلى يومنا هذا فيما يكتبون عن الشرق القديم ، ويعتبره نولدكه وفستنفلد من أعظم الأعمال التاريخية على إطلاق ، ونولدكه كان رجلا يزن ما يقول بكل ميسور من موازين العلم ، وكذلك كان فردينان فستنفلد ، وفى صفحات كتابه الذى لا تبلى جِدته عن المؤرخين العرب من مصاديق ذلك الشىء الكثير .

كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض

لاحظنا فى كلامنا عن الأجزاء الجغرافية من « فلك الأرب » أن عليًّا ابن سعيد تأثر بالإدريسى تأثراً بعيداً ، وافترضنا أن يكون قد اطلع على نزهة المشتاق أثناء إقامته الطويلة فى تونس ، وقلنا إن هذه أول مرة نجد فيها كتاب الإدريسى يدخل فى الاستعمال فى محيط العلم العربى ، وكان عمادنا فى ذلك كله على ما ورد من الاشارات فيما نقله المقرى من كلام ابن سعيد عن الأندلس .

ولكن البرهان الأكبر على اعتماد ابن سعيد على الشريف الإدريسى فى مادته الجغرافية هو كتابه المسمى ببسط الأرض فى الطول والعرض الذى يسمى أيضاً بكتاب « جغرافيا فى الأقاليم السبعة » .

وهذا الكتاب مشكلة حقيقية من مشاكل تاريخ العلم الجغرافى عند العرب ، لا بسبب اختلاف اسمه بين مخطوطة وأخرى أو بسبب المفارقات الجسيمة بين

نصوص هذه المخطوطات ، بل فى نسبة الكتاب إلى على بن سعيد إطلاقاً : فإن العارف بابن سعيد وأسلوبه الأدبى وطريقته فى التفكير يشعر لأول ما يقرأ شيئاً من « بسط الأرض » أنه لا يمكن أن يكون لهذا الأديب المتأنق المولع بالزينة اللفظية والسجع الأنيق على أسلوب أهل عصره ، فنحن هنا أمام كتاب علمى خالص لا يحرص صاحبه إلا على إبراز الحقيقة العلمية ولو أدى الأمر إلى ركاكة الأسلوب أو عاميته ، كقوله فى الكلام عن نيل مقدشو والمراد به النيل الأزرق : « . . . وهو معوجاً ومستقياً (كذا فى النص المطبوع) ويخرج منه من الأنهار ما تصير به تلك الجهة كالديار المصرية فى السّكر والموز وكالهند فى المقل والنارجيل والقوقل ، فَبِه يسقى ذلك وغيره ، وهم يزرعون عليه وعلى المطر ، ويصب بالقرب من مقدشو فى شرقيها ، ويكون طوله نحو ٢٠٠٠ ميل[١] » وأمثال ذلك كثير فى الكتاب ، والفرق عظيم جداً بين هذا الأسلوب وأسلوب ابن سعيد فى المغرب أو فى مقدمته أو أسلوبه فى « رايات المبرزين » أو « الغصون اليانعة » وما إلى ذلك من كتبه الأخرى .

ثم ما الذى جعل ابن سعيد يؤلف هذا الكتاب الجغرافى الصرف الذى لا يصدر إلا عن منقطع لهذا الفن ؟ حقيقة أن معظم من مررنا بهم من الجغرافيين كانت لهم مجالات علمية أخرى ، وكان اشتغالهم بالجغرافية ارضاء لتطلع نبيل إلى المعرفة وتحقيقاً لرغبة كريمة فى الإضافة إلى تراث البشر العلمى ولكننا نجد فى حياتهم ونشاطهم ما يفسر لنا انصرافهم إلى الجغرافية والتأليف فيها . ونلاحظ فى معظم الأحيان أن دافعهم إلى ذلك الانصراف كان الرغبة فى استكمال عملهم الرئيسى من تاريخ أو أدب أو فقه وما إلى ذلك ، فالرازى مؤرخ كتب فى جغرافية الأندلس مدخلا لتاريخه على مذهبهم ، والعذرى كان فقيهاً محدثاً ولكن وجوده فى المرية ووفرة المعلومات الجغرافية من حوله

(١) كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض بتحقيق خوان بيرنيت خينس Juan Vernet Jinés ، نشره معهد مولاى الحسن بتطوان المغرب سنة ١٩٥٨ ص ١٤

نَبَّه ملكته العلمية إلى هذا الفن ، فطلب ما وجد من الأصول والمراجع ، وأعانه الحظ فوجد بين يديه شيئاً من سجلات الخلافة القرطبية فنقل منها ما تيسر ، ثم إنه كان ذا ميــل إلى التاريخ والتأليف فيه ، وكان من العسير الفصل بين الجغرافية والتاريخ فى تلك العصور ؛ والبكرى أخذ هذا النزوع إلى الجغرافية عن شيخه العذرى وعن ولعه بتحقيق الشعر القديم وما فيه من أسماء المواضع ، وهكذا الحال مع كل من اشتغل بالجغرافية ممن أحصيناه فى هذا التأليف . ولو أن مساهمة ابن سعيد فى الجغرافية اقتصرت على كلامه عن الأندلس لما كان فى الأمر إشكال ، فهذه مقدمة جغرافية لكتاب فى أدب الأندلس وتاريخه ، ولكننا أمام كتاب جغرافى صرف لا يشبه فى شىء تواليف ابن سعيد الأخرى ، ولا نجد لهذا الكتاب فاتحة طويلة أو قصيرة تفسر لنا السبب فى تأليفه إياه ، فلعــل أحداً من الناس طلب إليه أن يعمله ، ولا نجد كذلك عند أحد من مؤلفينا أى إشارة تنير لنا هذا الموضوع ، حتى أبو الفدا ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر ، وهو أكبر من انتفع به — ونقده فى نفس الوقت — من القدماء ، لم يشر إلى شىء من ذلك .

أمام هذا الغموض يبدو لنا أنه ليس من المستبعد أن يكون اهتمام علىّ ابن سعيد بالتأليف فى الجغرافية على هذا النحو أثراً من آثار صداقته لأبى العباس أحمد بن يوسف التيفاشى الذى يمكن أن يوصف بأنه كان طليعة الموسوعيين العرب على الطريقة المنهجية التى ستتجلى فى صور أوضح عند أبى فضل الله العمرى والقلقشندى والنويرى .

ومع أن معلوماتنا عن التيفاشي قليلة جداً إلا أننا نستطيع القول بأنه كان طليعة مدرسة الموسوعيين المنهجيين الذين ذكرناهم ، فقد عاش ودرس وكتب الكتب فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى وتوفى سنة ٦٥١/١٢٥٣[١] ،

---

(١) انظر : بروكلمان ، ١/٦٥٢ وملحق ١/٩٠٤

فهو سابق على النويرى أقدم الموسوعيين الكبار بنحو قرن من الزمان ، فقد توفى النويرى سنة ٧٣٢/١٣٣٢ ، وسابق على العمرى (توفى ٧٤٨/١٣٤٨) بمثل هذه المدة تقريبـاً ومتقدم عن القلقشندى (توفى ٨٢١/١٤١٨) بقرابة القرن والنصف ، وقد كان التيفاشى مثلهم رجل كتابة ودواوين ، وهذا كان حافزه إلى تصنيف كتاب شامل يكون أشبه بالموسوعة التى يرجع إليها رجال الدولة وكتابها من الناحية الديوانية أولا ثم الثقافية العامة ثانياً ، وقد تبينا الآن أن كل ما ينسب إليه من المؤلفات الصغيرة الحجم مثل « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » الذى يعرف أيضاً باسم « منافع الأحجار » و « مطالع البدور فى منازل السرور » (وموضوعه المعادن) و « نزهة الألباب فيما لا يُجاد فى كتاب » (وموضوعه الأدب) كل هذه وغيرها مما تصح نسبته إليه إنما هى فصول من موسوعة عامة شاملة عنوانها « فصل الخطاب فى مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب » ، وقد عرفنا ذلك من دراسة ملخص هذه الموسوعة الذى عمله محمد بن مكرَّم بن منظور المصرى (صاحب لسان العرب) فى كتاب سماه « بسرور النفس بمدارك الحواس الخمس » تحتفظ دار الكتب المصرية بنسخة منه .

وقد كان التيفاشى صديقاً حميماً لعلىّ بن سعيد ، فقد كان هذا ينزل عليه إذا وفد على تونس ، وكان حريصاً على مديحه والاشادة بفضله فى تآليفه ، فقال عنه مثلا فى « الرايات » (ص ١٠٩ من طبعة غرسية غومس) : المولى الفاضل العالم الحسيب شرف الدين أبو الفضل أحمد بن الرئيس الحسين القاضى أبى يعقوب يوسف بن أحمد التيفاشى ، من بيت علم شهير وشرف يجل عن الوصف . كان أحمد كاتب الملك ، فقصد المعتز بن الزند[1] . وذكر العماد فى

---

(١) كذا فى الأصل المطبوع ، وصحتها المعتز ابن الرند ، وكان بنو الرند كما ذكر ابن خلدون فى تاريخه لمن انفرد بأمر مدينة قفصة (١٦٦/٦) أصحاب دولة صغيرة قصيرة العمر فى قفصة ، وكنية المعتز هذا أبو عمر وهو ابن عبد الله بن محمد بن الرند مؤسس امارة بنى الرند ، وقد بدأت إمارة أبى عمر المعتز هذا فى سنة ٤٦٥/١٠٧٢ ومن المرجح أن يكون قد حكم إلى سنة ٥٠٠/١١٠٦ تقريباً ، والمقصود فى هذه الفقرة هو أحمد التيفاشى جد شرف الدين أبى الفضل أحمد التيفاشى الذى نتحدث عنه .

« الخريدة » ابنيه يحيى ومحمداً ، وأخبرنا أن محمداً لما أنشد عبد المؤمن بداية قصيدة مدحه بها وهى :

ما هز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

أشار له بأن يقتصر على هذا البيت وأمر له بألف دينار » . ويحيى ومحمد هذان لابد أنهما كان عَمّى أبى الفضل التيفاشى وقد قتل واحد منهما فى صقلية هو يحيى كما ذكرنا فى حديثنا عن الإدريسى . والشاهد من كلام على بن سعيد أن بيت التيفاشى كانوا — كبيت بنى سعيد — أهل علم وأدب وفضل ورياسة وصلات بعيدة بالبيوت الحاكمة ، وربما كان هذا هو الذى جعل علياً بن سعيد ينزل على صاحبه أبى الفضل أحمد التيفاشى ويصطفيه من دون ابن عمه أبى عبد الله محمد بن أبى الحسين الذى كان من أهل الدولة والصدارة فى بلاط الحفصيين (توفى سنة ٦٧١/١٢٧٢ — ١٢٧٣) ، وكان هذا أولى باستضافة علىّ بن سعيد وتقديمه والرفع من شأنه ، ولكنه كما يبدو من كلام ابن سعيد نفسه خشى منافسته وخشى أن يظهر عليه ، مما عجل برحيله عن تونس عندما وفد عليها أول مرة [1] .

المهم لدينا أن صحبة ابن سعيد لأبى الفضل التيفاشى تنير لنا هذه المشكلة بعض الشىء وتكشف الستار — إلى حد ما — عن الدافع الذى جعله ينصرف إلى الجغرافية برهة من الزمان يكتب فيها هذه الرسالة العلمية الجغرافية الخالصة ، فقد وجد ابن سعيد نفسه مع رجل موسوعى يجمع المعلومات من كل حدب

---

(١) هذا واضح من كلام ابن سعيد عن ابن عمه هذا كما رواه المقرى فى النفح (٣/٤٤ وما بعدها) أما تعظيمه إياه فى المادة التى اختصه بها فى الرايات (رقم ٨٨ ص ٦٤) فمرجعه إلى الكياسة وبعد النظر ، فقد كتب ابن سعيد هذا الكتاب وهو بمصر وأمله معلق بالعودة إلى تونس فكان حرياً بأن يؤمن طريق العودة ، ومع ذلك فقد ختم عبارات مديحه له بقوله : « يقر له بالفضل من لا يوده ، ويقضى له بالسعد من لا يرده » (قرأها غرسية غومس : من لا ينجم ، والصواب ما أثبتناه وهو تعبير مشهور) وهذه العبارة فيها ما يشتم منه عدم ارتياح ابن سعيد إلى ابن عمه هذا فى أعماق قلبه .

وصوب ويكتب فصلا عن المعادن وآخر عن الأحجار الكريمة وثالثاً عن الصحة ورابعاً عن الأدب ، ولما كان هو — أى ابن سعيد — رحالة ذا نظر فى أحوال الأرض وما عليها مُغرىً بالسياحة وجوب الآفاق وركوب السبل ، فقد كان بطبعه ميالا إلى جمع المعلومات عن البلاد والعباد كما يقولون ، ثم أتيحت له فرصة العثور على نسخة من كتاب نزهة المشتاق فى تونس فاستهوته وأكب على دراستها . وهذا ليس مجرد فرض بل هو حقيقة يؤكدها كتاب « بسط الأرض » وما سيكتبه ابن سعيد بعد ذلك عن جغرافية الأندلس وهو فى المشرق ، ولا يبعد أن يكون أول ما قصد إليه اختصارَ « نزهة المشتاق » فى رسالة صغيرة كهذه التى كان يؤلفها صاحبه التيفاشى عن الأحجار أو المعادن أو الطب ، ثم وصلت إلى يده مراجع أخرى زادته تطلعاً إلى هذا العمل ، فلم يلبث أن عكف عليه فكانت النتيجة هذا الكتاب المسمى « بسط الأرض فى الطول والعرض » .

وهذا الكلام لا يحل المشكلة حلا نستطيع الاطمئنان إليه تماماً ، فلا زالت نسبة هذا الكتاب إلى على بن سعيد قلقة تحتاج إلى ما يثبتها ويؤكدها ، لأن النص نفسه بعيد عن أن يكون لابن سعيد كما نعرفه من طريقة تفكيره وأسلوبه فى التأليف .

فإذا تركنا موضوع هذه النسبة جانباً وتركناها على ما يجمع الناس عليه من أن الكتاب لابن سعيد وجدنا أنفسنا أمام كتاب يعتبر من أحسن ما ألف العرب فى الجغرافية ، ومن حسن الحظ أن عالماً إسبانياً راسخ القدم فى تاريخ العلوم عند العرب وهو الدكتور خوان بيرنيت خينس الأستاذ بجامعة برشلونة قد عنى بتحقيقه ونشره ، وتولى معهد مولاى الحسن فى تطوان طبعه فى سنة ١٩٥٨ ، وعلى هذه الطبعة التى لا تضم إلا النص[١] نعتمد فى دراستنا تلك وأملنا أن

(١) نشر الأستاذ خوان بيرنيت النص وحده دون أى تعليق أو بحث أو دراسة ، وقال فى مقدمته أنه سيصدر جزء ثانياً يتضمن الدراسة والتعليق وترجمة إسبانية مع الفهارس .

يصدر الأستاذ خوان بيرنيت مجلده الثانى الذى وعد به فى المقدمة حاويا للدراسة والتعليقات والفهارس .

الكتاب يمكن وصفه بأنه جدول بالمدن والجبال والأنهار والبحار وغيرها من الأعلام الجغرافية موقَّعة على أطوالها وعروضها فى دقة لم يحاولها أحد من الجغرافيين قبل ابن سعيد ، والأطوال مقدَّرة بالنسبة لخط طول فرضى رئيسى يمر بالجزائر الخالدات ، أما العروض فمقدرة بالنسبة لخط الاستواء . وهو يقسم المعمور من الأرض إلى أقاليم كالاحزمة العريضة تحيط بكرتها ، وعددها عنده تسعة : واحد جنوبى خط الاستواء وسبعة مسكونة شماله يليها إقليم ثامن شمال خط الاستواء لا يسكن لشدة برده ، ثم يقسم كلا من هذه الأقاليم إلى عشرة أجزاء بادئاً من جزائر الخالدات ومنتهياً إلى جزائر اليابان التى يسميها جزائر السِّيلى . وهذا المعمور يحتل عنده ١٨٠ درجة طولية أى نصف محيط الأرض ، والباقى عنده محيط واسع يمتد من جزائر الخالدات إلى ساحل الصين .

وإليك كلامه بنصه فهو أكثر دلالة على طبيعة الكتاب من هذا التفسير :

« الأرض كرية محيط بها الماء ، هما (١) [واقفان بالمركز فى قلب الافلاك] (٢) ودَوْرُها ٣٦٠ درجة ، وكل درجة ونصف ١٠٠ (٣) ميل ، والميل ٤٠٠٠ (٤) ذراع .

---

(١) أى الأرض والماء الذى يحيط بها . والتصور هنا أن الأرض وما يحيط بها من الماء كالمح وما يحيط به من زلال البيض أو كأنها كرة فى طبق ماء ، وهما معاً سابحان فى الفضاء فى مركز الفلك ، وهذه هى نظرية من قالوا بكرية الأرض من جغرافيي العرب من ابن رستة إلى الادريسى كما بيناه فيما سبق .

(٢) اعتمد الناشر مخطوطة باريس أساساً ، وأكملها وقارنها بالقطعتين المحفوظتين بالمتحف البريطانى والمكتبة البودلية فى أوكسفورد . والأقواس تعين الفقرات المضافة من القطعتين الأخيرتين .

(٣) الدرجة الطولية على هذا الأساس ٦٦ $\frac{2}{3}$ ميلا . وغير ابن سعيد يرى أن اتساع الدرجة ٧٥ ميلا .

(٤) تقدير الميل هنا بأربعة آلاف ذراع يفهم منه أن ابن سعيد يقدر الميل بنحو ٢ كيلومتر ، وهو طوله فى المتوسط .

انظر : Walther Hinz, *Islamische Masse und Gewichte* (Leiden, 1955), s. 63.

« والمعمور منها طوله من الجزائر الخالدات التى بالبحر المحيط بالمغرب إلى جزائر السيلى [التى] فى البحر المحيط بالمشرق ١٨٠ درجة .

« والظاهر منها مضرَّس لاستقرار البحار وسلوك الأنهار .

« وعرض المعمور من أقصاه فى الجنوب إلى أقصاه فى الشمال ٨٠ درجة . [وما بعد ذلك فى الجنوب لا يُسكن لقوة حر الشمس فى الحضيض الذى لها هناك ، وما بعده فى الشمال لا يسكن لقوة البرد والجمد] .

« ومجموع المعمور مقسوم على تسعة أقسام : المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب [واحد](١) ، والسبعة الأقاليم على التدريج من الخط(٢) . ثم يكون القسم التاسع المعمور ما بعدها إلى أقصى العمارة ، وفى التعليل تطويل] » .

ثم يلى ذلك الكلام بالتفصيل عن الأقاليم واحداً واحداً بادئاً بالإقليم المعمور خلف خط الاستواء ، وهو يقسمه — وكلا من الاقاليم التالية — إلى عشرة أجزاء تبدأ من خط الطول الوهمى المار بجزر الخالدات وتنتهى عند المحيط الأعظم شرقى بلاد الصين .

وهذا التصور وذلك التقسيم هما تصور الإدريسى وتقسيمه ، وحدود الأقاليم وأجزاؤها عندهما متطابقة ، ومن هنا جاء القطع بأن ابن سعيد اعتمد على الإدريسى اعتماداً رئيسياً ، ولكنه خالفه بعد ذلك فى كثير ، فهو لم يختصر « نزهة المشتاق » كما كان يظن ، بل أخذ هيكله العام ومنهجه فى التقسيم ومفهومه للجغرافية ولهيئة الأرض ووضعِها بالنسبة لنظام الأفلاك ، ثم أنشأ كتابه المختصر على أساس ذلك كله ، فنقل عن الإدريسى كثيراً جداً ولكنه نقل من غيره كثيراً جداً أيضاً ، وهذه النقول التى أضافها من غير الإدريسى تزيد

---

(١) هذا اللفظ ساقط من الأصول جميعاً ، ولكن المعنى لا يفهم بدونه .

(٢) المراد خط الاستواء .

فى قيمة كتاب « بسط الأرض » كمصدر فريد لمعلومات ذات قيمة كبرى — وخاصة فيما يتصل بافريقية — لأننا لم نعثر إلى الآن على بعض المراجع الهامة التى نقل عنها .

وقبل أن نعرض لهذه المراجع نستوفى الكلام عن نظام التقسيم إلى أقاليم عرْضية وأجزائها ، ثم تقسيم هذه الأقاليم إلى درجات عرضية ، وتقسيم تلك الأجزاء إلى أطوال تحدد بالدرجات الطولية والدقائق .

هذا التقسيم كله يرجع — فيما يبدو لنا — إلى التضمين المختصر الذى عمله الخوارزمى لجغرافية بطلميوس مع تعديل مادته وتوسيعها فيما يتصل بالبلاد الإسلامية وهو االمعروف باسم « كتاب صورة الأرض » الذى سبق أن تكلمنا عنه . ويكاد أن يكون من المحقق أن ابن سعيد نظر وهو يكتب بعض أقسام « بسط الأرض » إلى الخرائط التى رسمها الخوارزمى ثم أورد فى كتابه قوائم بالاعلام الجغرافية الواردة فى هذه الخرائط ، وقد بقيت لنا من هذه الخرائط أربع فقط ، واحدة ذائعة الصيت لنهر النيل ، وهى من مفاخر علم الخرائط العربية ، لأن النيل يبدو فيها قريباً إلى حد بعيد من رسمه على أيامنا ، فإذا قرأنا وصف ابن سعيد لمنابع النيل ومجارى هذه المنابع ونظرنا فى نفس الوقت إلى خريطة الخوارزمى انتفى لدينا أى شك فى أننا نقرأ وصفاً لهذه الخريطة ، فنقط الخلاف يسيرة يمكن ردها إلى خلاف فى نقل النساخ المختلفين للخريطة نفسها ، وهذه الخريطة واردة ضمن ما ألحقناه بهذا البحث من رسوم وخرائط ، وإليك نص ابن سعيد لتقوم بالمطابقة ، ولتلاحظ أن التوافق يشمل أيضاً تحديد خطوط العرض وقد احتفظت بها الخريطة الخوارزمية .

الجزء الثالث [من الإقليم الأول المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب] .

من أوله حيث الطول ٣٦ درجة [ودقائق إلى طول ٣٩ درجة] و ٢٠

دقيقة[١] والعرض ١٦ درجة[٢] ينابيع[٣] أنهار النيل [الأربعة][٤] التي هي بعد الجزء الخامس[٥] المتقدم الذكر [في آخر الجزء الثاني] ، وهي نابعة في بسيط .

والخمسة[٦] الأخر ينابيعها أيضاً في الجزء الثالث ، إلا أنها من[٧] جبل القمر حيث الطول ٤٨ [درجة] إلى ٥٢ درجة و ٥ دقائق ، والعرض في [هذه] الينابيع [العشر لا يفارق] ١٦ درجة .

فالخمسة الأنهار الأولى تصب في البطيحة[٨] الغربية [الأولى ومركزها][٩] حيث الطول ٤٢ درجة والعرض ٧ درجة والقطر ٥ درجات .

---

(١) درجات الطول ودقائقها هنا محسوبة بالنسبة لخط الطول الوهمي المار بجزائر السعادات اتباعاً بطلميوس ، ويقول ياقوت (معجم البلدان ١/٣٩) انهـا تقع على ٢٠٠ فرسخ من شاطىء المغرب والفرسخ ٣ أميال والميل ٢ ك. م. وإذن فبعد هذه الجزائر عن شاطىء افريقية ١٢٠٠ ك. م. فإذا كان عرض الدرجة ٧٥ ميلا أى ١٥٠ ك. م. كان بعد هذه الجزائر عن الشاطىء ٨ درجات ، ولكن ابن سعيد يقول في ص ٤٥ ان عرض الجزء الأول من الاقليم الأول ١٠ درجات ، وهذا على حسابه هو بعد هذه الجزائر عن الشاطىء بالدرجات ، ومن هنا نستنتج أن تقديرهم لبعد هذه الجزائر غير دقيق ، وقد سبق أن افترضنا أن المراد بهذه الجزائر (الخالدات) جزائر الأزورس ، وأن جزائر الكناريايس هي المسماة بالسعادات ، ودليل ذلك أن ابن سعيد يقول في كلامه عن الجزء الأول من الاقليم الثاني : (ص ٤٥) : الجزء الأول من الاقليم الثاني : تقع فيه الجزيرة السادسة من الجزائر الخالدات وأربع من جزائر السعادات . وينتهي صعود البحر المحيط فيه مشرقاً حيث الطول ١٠ درجات ... » .

(٢) الدرجة كما يقول ياقوت ٦٠ دقيقة ، فإذا كان عرض الدرجة ٧٥ ميلا ، كان عرض الدقيقة ١,٢٥ ميلا أى ٢,٥ ك. م. والدرجات المقصودة هنا عرضية واتساعها هو نفس اتساع الدرجات الطولية (٧٥ ميلا عربياً أى ١٥٠ ك. م.) واتساع هذا الاقليم عندهم ١٦ درجة أى ٢٤٠٠ ك. م. وهو أعرض الأقاليم ، أما الأقاليم شمال خط الاستواء فتضيق شيئاً فشيئاً إذا اتجهنا شمـالا ، فعرض الاقليم الأول نحو ٤٠٠ ميل وعرض السابع نحو ١٥٠ ميل . انظر بيان ذلك عند ياقوت ١/٢٧ وما يليها .

(٣) يريد منابع الأنهار الصغيرة التي يتكون منها نهر النيل .

(٤) هكذا ، وهو يقول بعد ذلك أن عدد النهيرات التي تصب في كل بطيحة خمسة ، وفي نهاية الفقرة يقول أن النهرين الثاني والثالث عن كل من المجموعتين يصيران نهراً واحداً ، فكأن القول بأنها أربعة صواب وكذلك القول بأنها خمسة ، وفي خريطة الخوارزمي عددها أربعة .

(٥) لا أدري ما المراد بالجزء الخامس هنا ، فلم يسبق له ذكر .

(٦) هنا يعود فيقول إن عدد النهيرات ٥

(٧) يريد : إلا أنها تنبع من جبال القمر .

(٨) المراد بالبطيحة هنا البحيرة .

(٩) أى أن مركزها يقع عند التقاء خط طول ٤٢ بخط عرض ٧

« والبطيحة الشرقية [الثانية] بينها وبين الأولى درجتان ، و [المركز فى] العرض واحد ، وكذلك القطر » .

« ويخرج من كل بطيحة كما يدخل إليها خمسة أنهار من الجانب الشمالى ، [إلا أن الثانى والثالث من البطيحتين يصيران نهراً واحداً عن قريب ، ويصب الجميع فى البطيحة الكبرى التى تركز فى الاقليم الأول] » .

« [وفى هذا الجزء الثالث من إقليم] السودان[1] رفلة [وهى بين النهرين الأولين] بينها وبين البطيحة درجة ، وكوشة على عيون تمد [آخر الأنهار] من البطيحة الثانية حيث الطول ٥٣ والعرض درجتان ، وتحتها يمر نيل مقدشو الخارج [فى شمال الخط ومجالات القمر بين البطيحتين ، ومجالات أكراو فى شمالها إلى بحيرة كوار[2]] »[3] .

ولنضف إلى ذلك أن تقديرات الطول والعرض عند ابن سعيد ومحمد بن موسى الخوارزمي تتطابق إلا فى حالات خطأ النساخ فى رسم الرموز التى استعملها هذا الأخير مكان الأرقام ، وهذا يدل بوضوح على أن علياً بن سعيد اعتمد على هذا الكتاب اعتماداً أساسياً فى تقديره لعروض البلدان والأماكن وأطوالها على النحو الدقيق الذى نجده عنده ، فإذا ذكرنا أن الخوارزمى فى كلامه عن الأقاليم لا يورد لها أوصافاً مفصلة وإنما يورد جداول بما فيها من المدن والجبال والأنهار والبحار مع طول كل منها وعرضه تبينا أن ما فعله ابن سعيد هو أنه بدأ أولا برسم خطوط الطول والعرض ودرجات كل منها ودقائقها على صحيفة كبيرة ، ثم مضى يقرأ قوائم الخوارزمى موقعاً كل مدينة أو جبل أو

---

(١) جميع الأسماء هنا غير محققة ، وقد نقلها أبو الفدا (ص ١٥١ وما بعدها) كما هى عن ابن سعيد ، ولم يستطع تحقيقها ناشراً النص .

(٢) يبدو أن المراد بهذا بحيرة البرت ، ورسمها أبو الفدا كورى .

(٣) ابن سعيد ، بسط الأرض ، ص ١٢ — ١٣

نهر أو بحيرة فى موضعها من الطول والعرض على الصحيفه ، وهكذا أصبحت أمامه خريطة هندسية للعالم .

ثم عاد فقسم الأقاليم إلى أجزائها متبعاً فى ذلك الإدريسى ، ونهج نهج هذا بعد ذلك فى الوصف المفصل لكل جزء من أجزاء الأقاليم ، فإذا وجد خلافاً بين ما يقوله الخوارزمى والإدريسى أشار إلى ذلك ، فيما عدا كلامه عن البلاد الافريقية جنوبى خط الاستواء والاقليمين الأول والثانى شماله فقد فضل ابن سعيد الاعتماد فى ذلك على الرحالة الجغرافى ابن فاطمة .

ومن ذلك قوله فى الكلام على الجزء الرابع من الاقليم المعمور خلف خط الاستواء : « فيه انتهى جبل القمر على مذهب البطليموس ، حيث الطول ٥١ درجة و ٥٠ دقيقة والعرض ١١ درجة ، وجعله البيهقى وابن فاطمة يتصل من هنالك [بال]جبل الممتد مع أول العمارة إلى جبل الندامة[1] . . . » والمراد بقول ابن سعيد : على « مذهب البطليموس » هو تضمين الخوارزمى هذا دون غيره من الصور العربية الأخرى التى عملها العرب لكتاب جغرافيا لذلك الجغرافى اليونانى المصرى الأشهر .

فلم يكن عمل علىّ بن سعيد عملا بسيطاً إذن . إنما كان عملا دقيقاً معقداً يحتاج إلى فهم وإحساس جغرافيين ، ثم إلى دقة وصبر على متاعب مثل هذا العمل ، وبغير هذا ما كان من الممكن أن يخرج لنا هذه القطعة الممتازة من العمل العلمى الجغرافى التى يُعجب الإنسان لما فيها من تحقيقات وتدقيقات ويُعجب بالملكة العلمية التى دفعت إلى القيام بها .

ولم يقتصر علىّ بن سعيد على الخوارزمى والإدريسى ، بل اطلع على كتابات عدد كبير من الجغرافيين وأفاد منها على صورة تدل على معرفة بالمكتبة الجغرافية العربية وحُسن اختيار من مادتها وانتفاع طيب بهذا المختار ، وهذه كلها

---

(١) بسط الأرض ، ص ١

خصائص تزيد من تقديرنا للجانب الجغرافى من نشاط ذلك العلامة الأندلسى المتعدد الجوانب والملكات .

وأولى مراجع ابن سعيد بالاهتمام هو كتاب رحلة ابن فاطمة الذى يعد — بدلالة ما نقل ابن سعيد عنه — من أحسن أصحاب الكتب من رحالة العرب والمسلمين ، ومن أسف أننا لا نعرف عن هذا الرجل أو كتابه شيئاً على الاطلاق حتى اسمه لا نعرفه إلا منقوصاً . ويكاد ابن سعيد وابن خلدون أن يكونا أكبر من اعتمدوا عليه ونقلوا عنه ، وحكمنا هنا قائم على هذه النقول .

ابن فاطمة فيما يبدو من أهل السودان الغربى ، وربما كان أصله مما يعرف اليوم بالسنغال أو ما يليه جنوباً ، وربما كان من أهل غانة الإسلامية ، وكانت تشمل معظم ما يعرف اليوم بجمهورية مالى على وجه التقريب ، فإن نسبة الناس إلى أمهاتهم كانت شائعة فى هذه النواحى خاصة ، ولدينا أسماء مثل ابن الصحراوية وابن غانيَّة وابن عائشة وابن فَنُّو بنت يوسف ابن تاشفين وكلها شبيهة باسم ابن فاطمة ، ويستدل من الاشارات التاريخية الواردة فى كتابه أنه كان سابقاً على ابن سعيد بقليل أى أنه من أهل القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى فى الأغلب .

ويدل كلام ابن فاطمة على علم دقيق بأحوال افريقية وأهلها مما يلى الحزام الصحراوى جنوباً ، فهو من أهل السودان الغربى أولا ثم أنه كان رحالة لا يكل ثانياً ، وقد طاف فى رحلاته بالسواحل الافريقية كلها حتى وصل إلى الصومال والحبشة ثم أوغل داخل القارة ورأى منابع النيل ، وكلامه وملاحظاته تدل على ذلك دلالة صريحة ، ولا ينقض هذا الرأى أنه يقول إن منابع النيل تتكون من مجموعتين من الأنهار تتألف كل منها من خمسة أو أربعة تصب فى بطيحة (بحيرة) ثم تخرج من كل بطيحة خمسة أنهار أخرى أو أربعة وتتلاقى هذه النهيرات كلها فى بحيرة رئيسة تسمى بحيرة كورا ، فان الوهم فى عَدِّ مجارى المـاء التى يتكون منها نهر النيل فى المنطقة الاستوائية هو أقل ما ينتظر من

رحالة فى تلك الأيام مهما بلغت قوة ملاحظته ، وقد نقل عنه ابن سعيد هذا القول مراجَعاً على خريطة الخوارزمى والمهم أنه تنبه إلى أن منابع النيل تتألف من مجموعتين من مجارى الماء تتلاقيان آخر الأمر فى بحيرة رئيسة يخرج النهر منها بعد ذلك ويسير فى مجرى واحد ، وهذه البحيرة على ذلك تقابل بحيرة ألبرت . وهذا المفهوم لمنابع النيل يرجع أساساً إلى بطلميوس كما قلنا ، وهو يصور معلومات المصريين القدماء عن النهر العظيم ، وهى معلومات معقولة إلى حد كبير ، اكتشفها المصرى القديم المغامر المتطلع فى عصور الشباب والمغامرة والطموح من تاريخه واثبتها الجغرافى الاسكندرانى بطلميوس ، ثم جددها الافريقى العربى ابن فاطمة الذى عاش فى عصر النهضة الافريقية الغربية الأولى وقيام مملكة غانة الأولى التى قضى عليها سون — ديانا ملك مالى سنة ١٢٤٠ (١) والطريف أن ابن سعيد لاحظ أن ابن فاطمة يكمل عمل بطلميوس فيما يتصل بافريقية فيقول فى كلامه عن الجزء الرابع من الاقليم الأول وراء خط الاستواء : « فيه انتهى جبل القُمُر [على مذهب البطلميوس] حيث الطول ٥١ درجة و ٥٠ دقيقة والعرض ١١ درجة [وجعله البيهقى وابن فاطمة يتصل من هنالك بالجبل الممتد مع أول العمارة إلى جبل الندامة ، فيرجع من الحد الذى وقف عنده بطلميوس بانحراف إلى العرض الذى بدأ منه ، ويمر ويجاوز الرابع (يريد الجزء) مستقياً مع أول العمارة ، ثم الجزء الخامس ... (٢) » .

وقد عرف ابن سعيد قيمة نص ابن فاطمة فقبس منه فقرات طوالا هى معظم ما يذكره عن الاقليم الاول المعمور جنوب خط الاستواء والاقليم الاول شماله فى أجزائهما الستة الاولى ، أى أجزائهما الخاصة بافريقية ، فإذا ذكرنا أن أقدم معلوماتنا الجديرة بالثقة عن هذه النواحى ترجع إلى أبى عبيد البكرى

---

(١) Vincent Monteil, *L'Islam Noir* (Paris, 1964), pp. 58-62

(٢) ابن سعيد ، بسط الأرض ، ١٣

(القرن الخامس/الحادى عشر) ثم يكملها الإدريسى (القرن السادس/الثانى عشر) ثم ابن فاطمة (النصف الثانى من نفس القرن) برواية ابن سعيد (النصف الاول من القرن السابع/الثالث عشر) ثم ابن خلدون (القرن التاسع/الخامس عشر) تبينا أن أربعة من هؤلاء مؤرخون وجغرافيون أندلسيون أو من أصول أندلسية، وأنهم تعاونوا على اختلاف العصور التى عاشوا فيها وتباين البلاد التى كتبوا فيها على أن يقدموا سلسلة معقولة مترابطة من المعلومات الجغرافية والتاريخية عن بلاد كان مجرد دخول الغريب إليها مغامرة لا تؤمن عواقبها، فكيف بجمع المعلومات والربط بينها وسياقها ذلك المساق اللطيف الذى نجد نماذج ممتازة منه فيما نقل ابن سعيد عن ابن فاطمة فى الأجزاء التى ذكرناها ؟

وسنكتفى هنا بمثال واحد مما نقله ابن سعيد عن ابن فاطمة فى وصف جزء من الصحراء الكبرى يذهب كتاب الغرب إلى أن رجالهم هم كانوا أول من اكتشفه وعرَّف الناس به تعريفاً علمياً مقبولا، وهو ذلك الجزء المجهول من الصحراء الكبرى الذى يمتد من جنوبى جمهورية الجزائر عند مرتفعات آهَجَّار ويتصل شرقاً بهضبة جادو ثم جبال تِبِسْتِى ويستمر فيطل على حوض النيل عند مرتفعات دار فور :

« الجزء الثانى من الاقليم الثانى : قال ابن فاطمة فى وصفه : « لا ماء ولا مرعى ولا عمارة بل رمال سائلة وطرق مضلة طامسة . وأكثر ما يكون فيه اللمط[١] لأنه صابر على العطش وهو على شبه الغزال لكنه أغلظ منه ».

« وأول ما تلقاك من هذا الجزء شجر اليسر[٢] (التى تقطعها المسافرون) ما بين سجلماسة وغانة (وهى) طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش ووهج

---

(١) اللمط نوع من الوعول سميك الجلد يعيش فى منطقة السهوب فى حوض النيجر الأوسط، وكانت تصنع من جلده دروع تعرف بالدروع اللمطية .

(٢) كذا فى الأصل المطبوع ولم أستطع التحقق من صحته، وربما كانت صحته : صحراء تيزى الواقعة بين مرتفعات آهجار وهضبة جادو .

الحرور بما هبت فيها ريح جنوبية تنشف المياه التى فى القرب . فهم يعدون لها المياه التى فى بطون الابل ويجعلون على أفواهها [كمائم] ليلا تأكل شيئاً فإذا نشَّف الريح مياههم نحروا جملا جملا وشربوا ما فى بطنه .

وليس فى هذا الجزء مدينة مذكورة غير مدينة أودَغَشت يسكنها أخلاط من (البرابر المسلمين والرياسة لصنهاجه) (ولهذه المدينة وصاحبها نباهة (كما ورد) [1] فى كتاب المسالك والممالك للبكرى . وهى مع خط الاقليم الثانى) حيث الطول ٢٢ درجة (وفى عرضها مدينة) زافون (وهى) لسودان كفار ولصاحبها صيت بين ملوك السودان [2] .

ويمتد فى هذا الصحراء جبل الكاف [3] من شرق جبل لميونة [4] إلى أن يسامت أودغشت ثم يعرج إلى الجنوب فيبقى بينه وبين زافون ٥ مراحل وبه يهتدون فى تلك الصحارى إلا أنهم لا يقربونه فى تعريس [5] لكثرة ثعابينه وفى ظهره الشمالى [6] جبل مزاب وهو عال وعر يعتصم به أهل واركلان إذ دهمهم جور من ذى سلطان وبينهما ٤ أيام » .

ولا تقل هذه الدقة فى كلام ابن سعيد عندما يترك المناطق التى وجد عنها مادة طيبة عن ابن فاطمة فطلب مادة طيبة أخرى فى مصادر أخرى ، ويلاحظ هذا ابتداء من وصف الجزء الرابع من الاقليم الثانى (ص ٤٩ وما بعدها) . فان معتمده هنا على الإدريسى بصورة رئيسية مع إضافات من ابن حوقل فى الغالب ، ولكنه ينظر دئماً إلى خرائط كتاب الخوارزمى ويتابع تحديد الاماكن مستعيناً بها وبخرائط الإدريسى ، ولهذا يقول بين الحين والحين : « على ما

---

(١) أضفت هذه العبارة للسياق .

(٢) يراد بالسودان هنا كل ما يلى الحزام الصحراوى جنوباً .

(٣) المراد بهذا فى الغالب جبال تبستى .

(٤) هضبة جادو ؟

(٥) أى عندما يضربون خيامهم .

(٦) أى إلى شمال هذه الجبال فى جنوبى المملكة الليبية .

صُوِّرَ فى الجغرافيا » . ولا يتسع المقام لايراد أمثلة من كلامه عن مصر والشام والعراق وما يليه شرقاً فهو حافل بالنقول عن معظم من نعرف من أصحاب كتب المسالك والممالك ، ومن اليسير أن نتبين آثار هؤلاء فيما كتب .

ولكننا سنقف وقفة قصيرة عند جزء مما كتب عن الأندلس ، لأنه يتضمن مشكلة لهـا أمثلة كثيرة فى كتابات الكثيرين من جغرافيينا ، وهى التناقض الواضح بين ما يكتبونه عن الاقليم الواحد فى كتابين من كتبهم ، وهو أمر لوحظ عند المسعودى فى كتابيه « مروج الذهب » و « التنبيه والاشراف » ، وسبب ذلك التناقض فى المادة عن الموضوع الواحد أن الكاتب من هؤلاء كان يكتب كتاباً معتمداً على مراجع ومصادر معينة ، ثم يمضى الزمان وينسى ما كتب لقلة المراجعة ، فإذا كتب كتاباً آخر تعرض فيه لنفس الاقليم رجع إلى ما تيسر له من المراجع فى ذلك الوقت ، فأثبت أشياء أخرى ، وعذرهم فى ذلك مقبول ، فقد كان يحدث أن يكتب الواحد منهم كتاباً فى العراق وآخر فى مصر ، وأين له وهو فى هذا البلد أن يحصل على المراجع التى اعتمد عليها وهو فى العراق ؟ وعلىّ ابن سعيد مثال حى لذلك ، فإن كتابه المغرب وُلد وأينع كما رأينا فى الأندلس قرب غرناطة ، فى قلعة يحصب ، ثم كتبت أجزاء منه على طول رحلات ذلك السَّفَّار الذى لا يهدأ من تونس إلى حلب . وهنا نقطة جديرة بأن تدخل فى الحساب ونحن ندرس أولئك العلماء وأعمالهم ، فإن الكثيرين من الباحثين يدرسونهم فى إطار من ظروفنا الراهنة وما فيها من تيسيرات : إذا حاجنا كتاب لا تحويه مكتبتنا ألتمسناه فى المكتبات العامة وما أكثرها ، فإذا لم نجده طلبناه بالبريد من ناشره أو مؤلفه ، وإذا أحتجنا إلى مخطوط حصلنا على صورة منه إذا شئنا ، أما هؤلاء فما أعسر الظروف التى عملوا فيها ! فقلما احتاجوا إلى كتاب فوجدوه فى الوقت القريب ، فإذا عثروا عليه كانت نسخة أخرى غير التى أطلعوا عليها أوَّلاً وبين الاثنتين بون بعيد ، وقلما أتيحت لهم فرصة العمل فى مكتبات أو خزائن كتب فيها

ما يحتاجون من أصول ومراجع ، ورحم الله ياقوت ! ما إن رأى مكتبات مرو حتى ملأ نفسه الطرب كأنه وجد كنوز الدنيا ، وعلى ضوء هذه الكتب الكثيرة نشأت فى ذهنه فكرة تأليف معجمه العظيم ، وشرع بالفعل يعمل . كان ذلك سنة ٦١٥/١٢١٨ ، ولكن ما كاد الحول يدور حتى ترامت إليه أنباء زحف المغول على عالم الإسلام ، فأسرع ناجياً بنفسه إلى الشرق بلداً بلداً حتى دخل الموصل خالى اليد من كل ما ملك ، ثم تداركته عناية الله بالوزير ابن القفطى وزير صاحب حلب ، فأتيحت له فرصة مواصلة ما حالت الاخطار بينه وبين عمله ، فأكب على العمل حتى أتم المعجم فى عام ٦٢١/١٢٢٤ ، بعد خمسة أعوام من الشروع فيه ، وذلك رغم الأخطار والأسفار ومصائب الأيام ، ولو طُلب إلى أحدنا اليوم أن يكتب مثل هذا المعجم فى عشر سنوات ويُسِّرت له وسائل العمل أكثر مما هى ميسورة بالفعل ، فأغلب الظن أنه لن يستطيع .

نقول هذا لأننا نلاحظ اختلافاً غريباً بين مادة ابن سعيد عن بلده الأندلس فى « المُغرب » وفى « بسط الأرض » ، فنحن فى الكتاب الاول مع رجل يكتب جغرافية إقليمية وصفية كأحسن ما كتب الناس فى هذا الفرع من الجغرافية فى العصور الوسطى : معلومات غزيرة قائمة على مشاهدة حيناً وعلى اطلاع واسع حيناً ، وأحكام عامة تنبئ عن معرفة حقيقية وثيقة وملاحظات ذكية تدل على تفتح ذهن ودقة ملاحظة ، كل ذلك فى أسلوب سهل يشوق ويمتع ، أما فى « بسط الارض » فنحن أمام رجل مُقَيَّد يفضل ما يقرأ فى الكتب التى ينقل عنها على ما يعرفه بتجربته الشخصية ، وناقلٍ لا يفكر فى تحقيق ما ينقل ، فهو يبدأ فى الكلام على الاندلس فى الجزء الاول من الاقليم الخامس ، ويبدأ عند شاطئه الغربى عند مصب نهر الوادى الكبير ، وهو لا يسميه باسمه بل يقول « نهر اشبيلية وقرطبة » ، ولا نعرف لماذا بدأ عند مصب الوادى الكبير ، لانه ما دام يصف الاقاليم مقسمة إلى أجزاء بادئاً من أقصى

الغرب فكان ينبغى أن يبدأ الكلام عن الاندلس بذكر الاشبونة أو رأس كنيسة الغراب وما إليها ، ولكنه يبدأ عند مصب الوادى الكبير ثم يسير إلى الغرب فى عكس الاتجاه الذى ننتظره متابعاً الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة فيذكر جزيرة شلطيش ثم مصب نهر يانه (واد يانه) الكبير الذى يمر على ماردة وبطليوس ٩ أميال ، ثم إلى مدينة طَبيرة Tavira ٢٣ ميلا ، وهى على غربى نهر يانه وشماليه ، ثم إلى مصب نهر شنتمرية (Faro) ثم إلى مصب نهر شلب ٢٨ ميلا ، ثم إلى جون الريحانة ١٥ ميلا ، ثم إلى طرف الغيران (رأس كنيسة الغراب) ٨٠ ميلا . والمسافات كلها غير دقيقة ، وإذا كان من الممكن التسامح فى فروق الميلين والثلاثة ، فكيف لم يتنبه ابن سعيد إلى أن المسافة بين جون الريحانة وطرف كنيسة الغراب لا يمكن أن يكون ٨٠ ميلا أى ١٦٠ كيلومترا ؟ إن هذا الجون لابد أن يكون أحد الخلجان الواقعة بين ميناء بورتيماو ورأس سان بيشنتى Cabo San Vicente وهى المسمى عند العرب برأس كنيسة الغراب وهو أقصى طرف جنوبى غربى لشبه الجزيرة .

غير أن الذى يستوقف النظر هو دقة ابن سعيد فى توقيع المدن والمعالم الجغرافية بالنسبة لخطوط الطول والعرض التى سار عليها ، ولسنا نناقش هنا الاساس الذى اتخذه فى تصورها ، فإن خطوط الطول والعرض — أيا كانت — خطوط وهمية رسمها الناس لمجرد تحديد مواضع الاماكن بعضها بالنسبة لبعض ، فسواء أرسمت خطوط الطول بالنسبة لخط مار بالجزائر الخالدات أو بالخط المار بقبة أرين أو بالخط المار بجرينتش فإن العبرة الحقيقية إنما هى فى سلامة تطبيق هذا الأساس بعد ذلك ، وفى تيسيره لنا معرفة مواقع المواضع بعضها بالنسبة لبعض ، وهنا ، وفيما يتصل بالاندلس بالذات — نجد ابن سعيد قد وفق توفيقاً عظيماً فى استعمال خطوط طوله وعرضه بحيث اننا لو أخذنا ورقة ورسمنا فيها تلك الخطوط ثم وقّعنا الاماكن عليها كما حددها هو بالدرجات والدقائق ، ثم قارنا أوضاع هذه المدن بالنسبة بعضها لبعض بأوضاعها على خريطة معاصره لما وجدنا كبير

فرق إلا فى حالات قليلة ، وهذه الدقة لا تصدق مع الاسف على المسافات كما ذكرها ابن سعيد مقدَّرة بالدرجات ودقائقها ، وربما كان مرد ذلك إلى أن الطرق التى كان الناس يسلكونها إذ ذاك للانتقال من مدينة لأخرى كانت تختلف عن الطرق التقليدية المعروفة فى شبه الجزيرة .

هذا التوقيع للمدن الاندلسية على خطوط طول وعرض ابتكره علىّ بن سعيد ابتكاراً ، فإن المدن التى يذكرها بطلميوس فى شبه الجزيرة قليلة جداً ، والإدريسى لم يحدد مواقع البلاد الاندلسية من الاطوال والعروض ، وإذن فلم يبق إلا أن ابن سعيد عمل ذلك الحساب بنفسه ، وأنه لما يدعو إلى الاعجاب به أنه عرف كيف يقيم التقديرات على هذا المستوى من الدقة وحسن التصور ، ومصداقاً لذلك أُورِد فيما يلى البلاد والاعلام الجغرافية التى ذكرها فى الجزء الاول من الاقليم الخامس وهو يمثل ما يقع من شبه الجزيرة بين خطي عرض ٣٧ و ٤٠ والباقى إلى الشمال ذكره فى الجزء الاول من الاقليم السادس متابعاً فى ذلك التقسيم العام للادريسى :

الموضع	الطول		العرض	
	دقيقة	درجة	دقيقة	درجة
مصب الوادى الكبير	١٥	٨	٤٥	٣٦
جزيرة شلطيش	٢٠	٧	١٢	٣٧
طرف الفيران		٦		
اشبيلية	١٠	٩	٣٠	٣٧
بطليوس		٩	٠٥	٣٨
مـاردة		١٠ (غير دقائق)		٣٩
قرطبة		١٠	٣٠	٣٨
غرناطة	٤٠	١١	٣٠	٣٧
جيان	٤٠	١١		٣٩ (غير دقائق)
مرسية		١٨	دقائق	٣٩
منبع نهرى الوادى الكبير وشقورة		١٥	٤٠	٣٨

وفى أثناء هذا الكلام الموجز يورد ابن سعيد تفصيلات جغرافية وتاريخية ذات قيمة عظيمة ، وبعض هذه التفصيلات مقتبس عن الإدريسى أو ابن حوقل أو البكرى ، ولكن بعضه الآخر من معلوماته الخاصة ، وفيما يلى نماذج من هذه المعلومات :

سكان الاقليم الخامس : بياضُ أهله ممتزج بالحمرة ، وفيهم شُقْرةٌ وزُرْقَه (عيون) فى غالب الحال ، ولا سيما فيما يلى (الاقليم) السادس .

حدود الاقليم الخامس : عند آخره من خط الاستواء ٤١ درجة و ٣١ دقيقـة ، ووسعه ٥ درجات . (أى أنه يبدأ عند خط عرض ٣١' ٣٦°) .

طرف الغراب : ويدخل فى البحر من هذا الطرف ٢٢ ميلا [١] ، وهو آخر عرض الاقليم الخامس ، والطول هناك ٦ درجات .

النهر الكبير : الذى عليه اشبيلية ، وهذا النهر إنما حُسن جانبيه عند اشبيلية ، ويصعد المد فيه من البحر المحيط ٧٢ ميلا ، وتصعده مراكب الفرنج الكبار بوسقها إلى باب اشبيلية .

جبل شُلير وغرناطة : فى جنوبى غرناطة لا يفارقه الثلج ، وحكى ابن اليسع أنه ينزل منه نيف على ٢٠ نهراً منها نهر الذهب [٢] الذى يشق غرناطة ، ونهر شِنِّيل الذى يمر مع سورها ، وكلاهما عليه الأرحاء والبساتين ، وهذه المدينة فى عصرنا هى قاعدة ابن الأحمر مَلِكِ ما بقى من المسلمين بالأندلس .

مرسية ونهرها (شقورة) : وهى (مرسية) على شمالى نهر مليح عليه النواعر والبساتين ، أخو نهر اشبيلية (الوادى الكبير) منبعهما من جبل شقورة حيث

---

(١) الأصل المطبوع طرف العران والصواب طرف الغراب ، والمراد كنيسة الغراب وهو يقابل رأس سان بثنتى ، وتقدير ابن سعيد لطول هذا الطرف خاطىء ، وربما كانت صحته ٨ أميال لا ٨٠ ميلا ، فإذا صدق هذا القرض كان التقدير معقولا ، لأن ٨ أميال تساوى ١٦ ك. م. ، وطول الطرف من قرية Vila de Bispo إلى نهايته نحو ذلك .

(٢) المراد بذلك نهر حداره el Darro ويسمى بذلك لما كان يستخرج من مائه من برادة الذهب الخالص ، ويعرف بالذهب المدنى (الروض المعطار ، ص ٢٤)

الطول ١٥ درجة والعرض ٣٨ درجة و ٤٠ دقيقة ، يخرجان من عين واحدة ، فيشرِّقُ نهر مرسية ويصب فى بحر الزقاق ، ويغرِّب نهر اشبيلية ويصب فى البحر المحيط [١] .

ولا يتسع المجال هنا لايراد أمثلة أخرى من ذلك الكتاب الفريد ، فهو مطبوع متداول بين أيدى القراء اليوم ، وجدير بالذكر أن أجزاء هذا الكتاب متناسبة من حيث الدقة أو عدمها أو غزارة المادة وقلتها ، لأن عليًّا بن سعيد جمع مادة طيبة عن كل قطر تقريباً ، وكما انتفع بكتب البلدانيين والمسالكيين فيما يتصل بالمواضع والطرق والابعاد فى قلب مملكة الإسلام ، فقد انتفع بالإدريسى عن بلاد أوروبا وبالبكرى عن الشمال الافريقى وبابن فاطمة عن بقية افريقية وبالبيرونى عن الهند وإيران وبالمسعودى عن بحار الهند والصين وببطلميوس عن نواح أخرى بعيدة لم يكن لدى العرب مرجع آخر عنها مثل جزائر الخالدات وجزائر السعادات . وعرف ابن سعيد كيف يصب هذه المادة كلها على قالب واحد ، ولهذا فهذا الكتاب من الكتب الجغرافية العربية القليلة التى تتناسب أجزاؤها جميعاً ، ومن هنا فإن ذلك الكتاب يمكن أن يؤخذ كنموذج للتأليف العلمى العربى فى أحسن صوره . وقد تنبه إلى ذلك أبو الفدا ، فجعل كتاب علىّ بن سعيد أساس عمله واغترف من مادته بكلتا يديه وقرر ذلك فى عشرات المواضع على طول كتابه « تقويم البلدان » وقد وجه إليه بعض النقد على بعض هنات وجدها عنده ، ولكنه نقد يؤكد الاعتراف بالفضل ، وأنه لمن حسنات ذلك العلامة الأديب الرحالة الأندلسى أنه استطاع فى فترة من فترات الهدوء القليلة من حياته أن يسكن برهة ليهدى المكتبة العربية الجغرافية فيها أحسن رسالة مختصرة جامعة ألفها عربى فى تقويم البلدان .

---

(١) التصور هنا صحيح إلى حد كبير ، فإن الوادى الكبير ينبع من جبال كاثورلا Sierra de Cazorla ونهر شقورة من سيرا سيكا Sierra Seca المتفرعة من جبال شقوة Sierra de Segura وكلها أجزاء من سلسلة جبال واحدة . وانظر بسط الأرض ، ص ٩٩ — ١٠٠

إلى هنا نقف بالكلام على علىّ بن سعيد الجغرافى بعد أن بينا خصائصه فى القسم الجغرافى من كتابه الرئيسى « فلك الأرب المحيط بحلى لسان العرب » وفى رسالته المبدعة « بسط الأرض فى الطول والعرض » التى فرغنا من الكلام عليها ، ومن الواضح أن هذا الرجل الفذ سار بتيار التأليف الجغرافى العلمى فى الطريق الجاد متابعاً لتقليد الرازى والعذرى والبكرى والإدريسى ومن إليهم من المنهجيين الأصوليين من أهل الأندلس محافظاً على جوهر العلم الجغرافى من أن ينحدر فى الطريق السهل الفسيح الخطر الذى فتحه صاحبُه وبلديُّه الغرناطى مثله أبو حامد ، فيندر أن نقرأ عند ابن سعيد شيئاً خرافياً أو كوزموغرافياً ممــا أورده أبو حامد وأبو بكر الزهرى . وإذا كان « المسالك والممالك » لأبى عبيد البكرى يمثل لنا قمــة ما وصل إليه أهل الأندلس من التأليف فى الجغرافية قبل الإدريسى ، فان عليا ابن سعيد يمثل قمة من القمم التى وصلها العرب فى التأليف الجغرافى بعد الإدريسى مستعينين بمنهجه منتفعين بمادته . وكتاب بسط الأرض إنمــا هو فى الحقيقة إبتكار . إبتكار فى التأليف الموجز المركز الغزير المادة القائم على التفكير السليم والحساب الدقيق والتصور الواضح(١).

لقد رأينا فيما مضى كيف ابتكر أبو حامد فن التأليف الكوزموغرافى أو الكوزموجينى ، وكيف أعطانا أبو بكر الزهرى نموذجاً من كتب الجغرافية الشعبية التى كان التجار والسفار والملاحون يعتمدون عليها ، وكيف اخترع أبو بكر العربى أدب الرحلة فى الأندلس ، فوصل به ابن جبير إلى قمته ، وهاهو على بن سعيد يضيف إلى المكتبة العربية الجغرافية رسالة فريدة فى بابها ستكون عظيمة الأثر عند كل من سيؤلفون فى الجغرافية على المذهب الجاد بعده . وفى فقرة تالية سنرى كيف حدد أندلسى آخر هو ابن عبد المنعم الحميرى مستوى عالياً لفن المعاجم الجغرافية عند العرب .

---

(١) من المفيد هنا أن نشير إلى مقدمة الجزء الخاص بمصر (مطبوعات جامعة القاهرة ١٩٥٣).

أبو عبد الله محمد العبدرى (١) ورحلته

وقد جرت العادة عند الكلام على الجغرافيين والرحالة من أهل الأندلس أن يؤتى بذكر أبي عبد الله محمد العبدرى صاحب «الرحلة المغربية» على اعتبار أنه بلنسى الأصل ، ولكن الأستاذ محمد الفاسى نفى هذه النسبة الأندلسية عن الرجل فى بحث له عن العبدرى وقرر أنه مغربى من أصل عربى قرشى يرجع إلى بنى عبد الدار . وذهب الأستاذ أحمد بن جدو الذى نشر هذه الرحلة أخيراً فى الجزائر إلى أن الرجل قد يكون أصل بيته من بلنسية ، ثم هاجر

(١) اسمه الكامل محمد بن محمد بن على بن أحمد بن مسعود — أو سعود — العبدرى وكنيته أبو عبد الله ، لا أبو محمد كما قال محمد بن شنب فى المادة التى أدارها عليه فى دائرة المعارف الاسلامية ، وينبغى التحرز من الخلط بينه وبين عبدريين آخرين من أهل الرحلة والعلم مثل محمد بن ابراهيم بن أحمد العبدرى الأبلى ، وهو أندلسى من أبله Avila هاجر به أهله من الأندلس إلى تلمسان واستقروا بها ، ومحمد بن ابراهيم العبدرى هذا هو شيخ ابن خلدون ، ومثل أبى العباس العبدرى الميورقى الأندلسى مؤلف بهجة المهج فى بعض فضائل الطائف ووج » ، ولا نعلم سنة ميلاد أبى عبد الله محمد العبدرى الرحالة أو سنة وفاته ، ولكنه يقول فى فاتحة رحلته أنه بدأها فى ٢٥ ذى القعدة سنة ٦٨٨/ ١١ ديسمبر ١٢٨٩

مراجع : نشر الرحلة المغربية للعبدرى — وهى أحسن مرجع عنه — أحمد بن جدو فى الجزائر سنة ١٩٦٥ ، وقدم له بمقدمة قيمة ، وكتب عنه بحثاً قيماً الأستاذ محمد الفاسى فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد (مجلد ٩ — ١٠ سنة ١٩٦١ — ١٩٦٢) ص ١ — ١٤ ، ابن القاضى ، جذوة الاقتباس (طبع حجر ، فاس ١٣٠٩) ص ١٧٩ — ١٨٠ ، تاج العروس ، تحت لفظ عبدرى — بروكلمان ، دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الأولى) مادة عبدرى بقلم محمد بن شنب ، وقد ترجم شيربونو فقرات من رحلة العبدرى ونشرها فى المجلة الأسيوية :

Cherbonneau; *Notice et Extraits dee Voyages d'El-Abdery;* dans Journ. AS. 5ème Série IV, 144 sqq.

وتوجد فقرات أخرى مترجمة إلى الفرنسية فى مقال :

Motylinski, *Itinéraires entre Tripoli et l'Egypte: El Aïachi, Moulai Ahmad et al-Ouartilâni (Extrait du Bulletín de la Société de la Géographie d'Alger)* Alger 1904, p. 4.

W. Honerbach, *Itinerar des 'Abdarī;* ZDMG, XLIV, p. 193, sqq.

Pons-Boigues, no. 261 p. 310-313.

وقد ترجم بونس قطعة كبيرة من رحلة العبدرى إلى الاسبانية ، وتاريخ الفكر الأندلسى لجنذالث بالنثيا ، ترجمتنا العربية ، فقرة ٩٩ ص ٣١٨ وكراتشكوفسكى ، الأدب الجغرافى العربى ، ص ٣٦٧ — ٣٦٨

أهله به وهو صغير إلى المغرب حيث استقروا فى الاقليم الذى ينسب إلى قبيلة حاحة المصمودية حول مدينة الصويرة الحالية المعروفة باسم موجادور أيضاً شمالى مدينة أغادير ، وهناك نشأ محمد العبدرى عربياً مغربياً يعتبَر منطقة حاحة بلدَه ومنشأه ، وهو تعديل مقبول لنسبة البلنسى التى حملها الرجل ، وهى نسبة نجدها فى بعض المراجع القديمة مثل كتاب المؤنس لابن أبى دينار القيروانى .

وسواء أكان الرجل أندلسياً بلنسى الأصل ثم نشأ فى المغرب أو كان عربياً مغربياً لا صلة له بالأندلس ، فإنه يعد فى المغاربة ولا مكان له والحالة هذه فى بحثنا هذا ، وإنما نذكره فى هذا الموضع لعرض موضوع الخلاف فى نسبه وأصله ، ولأنه منظوم فى سلك الأندلسيين عند بونس بويجس وشيربونو وبروكلمان وجنذالث بلنسية وكراتشكوفسكى ، ومن الحق أن يصحح هذا الخطأ ويوضع الرجل فى إطاره الصحيح ، وإن كان تاريخ الثقافة العربية فى الغرب الإسلامى كله لم يعرف التفرقة الحاسمة بين أندلسى ومغربى .

وما دمنا قد وقفنا بهذا الرجل هذه الوقفة القصيرة فلا بأس ببضع ملاحظات على رحلته وهى فى الصميم من ذلك التاريخ الذى نتولاه ، فقد رأينا كيف ولد أدب الرحلة فى الأندلس على يد أبى بكر بن العربى وكيف سما إلى ذروة سامقة عند ابن جبير ، ومن المفيد بعد ذلك أن نرى كيف لم يوفق من جاء بعد ابن جبير من الرحالة فى السير فى طريقه الذى حدد مستوى رفيعاً فى الأدب العالمى كله لا بالنسبة للأدب العربى فحسب (فى حدود عصره طبعاً) ، وهو طريق يبدو لنا بسيطاً ونحن نقرؤه ، ولكن قيمته وصعوبته تتجلى إذا قرأنا رحلات غيره كرحلة العبدرى هذه ، فإذا جاز أن يوصف شىء بأنه سهل ممتنع فذلك دون ريب وصف رحلة ابن جبير .

فابن جبير رجل صافى القلب صافى النظر يأخذ الجانب الطيب من الحياة والناس ، ولا تشغله عواطفه وتأثراته بما يلقى من الناس عن أن يصفح وينسى ويأخذ البشر على أنهم بشر فيهم الصالح وفيهم أيضاً غير الصالح ، ومن ثم

فهو لا يقسو فى النقد إلا إذا ضاق ذرعه بالفعل كما حدث له وهو بين يدى رجال الحدود وهو داخل إلى مصر ، أو هو يتأهب لركوب السفينة الرهيبة من عيذاب إلى جدة ، أما العبدرى فرجل غاضب ساخط ممرور لا يكاد يلقى ما يرضيه إلا فى النادر ، ورأيه فى أهل زمانه يوجزه قوله : « وقد تعطل فى هذا العصر موسم الافاضل ، وتبدد فى كل قطر نظام الفضائل ، وتفرق أهلها أيادى سبأ ، وصاروا حديثاً فى الناس مستغرباً ، فعادوا إسماً بلا مسمى ، وحرفاً مادل على معنى ، فالمحدث عنهم فى مشرق أو مغرب كالمحدث عن عنقاء مغرب ، ولو طاب الورد لحمل الرى وقديماً قال أبو العلاء المعرى . . » فهذه مبالغة فى الحملة على أهل عصره تجعل القارىء فى شك من صحة أحكامه وآرائه ، وإلا فكيف يرمى أهل زمانه بهذا العنف عن قوس واحدة ثم يقول بعد ذلك أنه يحق الحق ويلتزم الصدق ؟ ومن غريب أحكامه على المغرب كله قوله : « أو ليس من الأمر الأمَرِّ الخارج عن كل قياس أن المسافر عند ما يخرج عن أنظار مدينة فاس لا يزال إلى الاسكندرية فى خوض ظلماء وخبط عشواء ، لا يأمن على ماله ولا على نفسه ، ولا يؤمل راحة فى غده إذ لم يرها فى يومه وأمسه ، يروح ويغدو ولحمه على وضم ، يظلم ويجفى فيهتضم ، تتعاطاه الأيدى الغاشمة ، وتتهاواه الأكف الظالمة ، لا منجد له ولا مغيث ، ولا ملجأ يعتصم به المسكين ، فيستنجد ويستغيث ، وأنى له بالمنجد المغيث ، ينادي وهو فى قبر المظالم يرسف : الا ناصر ينجد ؟ الا راحم يرؤف ؟ . . » فهذا كلام لا يمكن أن يصدق لأنه يصور جزء ضخما من عالمنا العربى الإسلامى فى صورة لم يبلغ فى وصفها بهذا السوء عدو ولا غريم . والغريب بعد ذلك أننا نجده يلقى الفضلاء وأهل الخير والصلاح على كل مرحلة من مراحل الطريق ويطيل فى الكلام على ما وجد عندهم من الفضل والخير والعلم ! والحقيقة أن العبدرى كان رجلا متشائماً شىء الظن فى الدنيا والناس ، وكان من أولئك الناس الذين لا يدرون ما يريدون ، فهم دائماً فى سأم وقلق وضيق وإسراع إلى النفور

والمذمة ، فهو لا يكاد يلقى فى طريقه رجلا يوصف بالعلم إلا فى النادر ، فيقول بمناسبة تلمسان : « ما رأيت بمدينة تلمسان من ينتمى إلى العلم ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا أبى عبد الله محمد بن عمر بن خميس » ويقول عن مدينة مِليانه « وما بقى بها من له بالعلم أدنى عناية » وعن مدينة الجزائر : « فلم يبق بها مَن هو من أهل العلم محسوب ، ولا شخصٌ إلى فن من فنون المعارف منسوب ، وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كُربه أو أديب يؤنس غربة ، فكأنى أسأل عن الأبلق العقوق ، أو أحاول تحصيل بعض الأنوق » ، ثم يصل إلى بجاية فيرضى عن أهلها بعض الشىء ويصفهم بالمواظبة على الصلوات ، ثم يعود إليه سخطه ونفوره ويقول : « غير أنه اعتراه من الغِيَر ما شمل فى هذا الأوان البدوَ والحضر ، قد غاض بحر العلم الذى كان به حتى عاد وشلا ، وعفا رسمه حتى عاد طللا » ويصل إلى قسطنطينة فيقول : « ولم أر بها من ينتمى إلى طلب ، ولا من له فى فن من فنون العلم أرب سوى الشيخ أبى على حسن بن بلقاسم بن باديس » وهكذا فى كل البلاد تقريباً فيما عدا تونس ، فهذه — من دون ما رأى من بلاد الدنيا — أعجبته فأطنب فى مديحها ومديح أهلها إلى درجة تعدل سخطه على غيرها من بلاد الله .

وقد قرأت فى بحث الأستاذ محمد الفاسى عبارة نقلها عن رحلة ابن عبد السلام الناصرى تفسر لنا بعض الشىء سبب سخط العبدرى على الناس ، قال تعليقاً على ذَمّه لمصر وأهلها : « . . . جرياً على عادته عفا الله عنه فى ذم البلاد وأهلها ، وما كان ينظر إلا بعين السخط إليهما ، فليته مدح من يستحق المدح ، وذم من يستحق الذم ، أو يتغافل عنه إلا بقصد البيان ، وما رأيناه مدح بلدة ولا سكانها إلا مدينة تونس ، ولو أمكنه أن يقول فى الحرمين هجواً لقال ، وما ذاك إلا أن الرجل بربرى من سكان الجبال لم يألف الناس ولا البحث عنهم ولا الذهاب إليهم ، إنما ينزل بمدرسة من جملة الطلبة ، أو بفندق من جملة الغرباء ، ولا يتفطن له عالم ولا ذو مروءة حتى إذا صدر عن البلد قال فيه ما شاء » .

فإذا وضعنا إلى جانب ذلك بعض ما قاله عن تونس تبينا صدق ملاحظة الناصرى وسبب رضاه عن تونس وأهلها : « وما رأيت لأهلها نظيراً شرقاً وغرباً : شيما فاضلة وخلالا حميدة ومعاشرة جميلة ، وقد كان الاخلق بمن شاهد أخلاقهم أن يطنب فى وصفهم ويُطْرِى[1] على من يمنحهم الوداد وينصفهم ، إذ ذاك من بعض واجبهم وأقل مراتبهم . ولكن الزمان لا يعين على توفية الحقوق . ولا يتعمد بالفراغ إلى أهل العقوق[2] . وناهيك من بلد لا يستوحش به غريب ولا يُعدم فيه كل فاضل أريب ، يبدؤون من طرأ عليهم بالمداخلة ويخطبون منه لفضل طباعهم المواصلة ، فهو منهم بين أهل مشفق ورفيق مرفق . وقد كان بعض أخيار طلبتها وحسبائهم لازمنى مدة الإقامة بها ، وترك لأجلى مهمات أموره ، وعرفنى بفضلائها وكان لا ينفصل عنى عامة النهار . وكثيراً ما كنت أمر بمن لا يعرفنى من أهلها ، فاسأله عن الطريق إلى ناحية منها ، فيقوم من حانوته ماشياً بين يدى ، يسأل الناس عن الطريق ويدلنى ، وهذا من أغرب ما يسمع من جميل الاخلاق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

وإذن فقد وجد العبدرى فى تونس ما لم يجده فى غيرها من البلاد ، وجد ناساً يحتفلون به ويؤنسونه بل يتركون أعمالهم ليقفوا على خدمته ، ويعرّفونه بالفضلاء من أهلها ، فأنس بهم واستروح ، ولم يشعر بهذا الخمول الذى كان يملأ نفسه إذا نزل بمدرسة فى جملة الطلبة أو بفندق من جملة الغرباء ، وهذا ما كان يثير نفسه ويملؤها سخطاً . أما اطلاقه لسانه فى أهل البلد بعد رحيله عنه ، فهو نفسه يقرر ذلك فهو يقول فى مستهل رحلته « وهذه الرحلة بدأتُ بتقييدها فى تلمسان ، ولم يمكنى اظهارها هنالك ، وأظهرتها بعد خروجنا منها[3] » .

---

(١) فى الأصل المطبوع : يضرب ، وما أثبتناه أشبه بالمعنى وإن كان قلقاً (انظر الرحلة ص ٣٧) .
(٢) كذا فى الأصل المطبوع ، وهو غير واضح .
(٣) الرحلة المغربية ، ص ٥

وكان ابن عبد السلام الناصرى أقرب ما يكون إلى الصواب فى الحكم على العبدرى عند ما قال : « وما ذاك إلا أن الرجل بربرى من سكان الجبال لم يألف الناس ولا البحث عنهم والذهاب إليهم » وهى عبارة تفهم حق الفهم ويُدرك عمقها إذا فسرنا كلمة « بربرى » هنا بأنها « ريفى من سكان الجبال » فإن العبدرى كان فى حقيقته رجلا ريفياً ألف العيش فى الجو الطلق الصاحى فى الجبال بعيداً عن زحمة الناس وضجيج المدن ، ولهذا فقد كان يحس بأنه فى جوه الذى يألفه إذا خرج من المدن وضرب فى الطرق على وعورتها ، فإذا دخل مدينة عاوده الانقباض والنفور ، وزاد شعوره بذلك عمقاً اضطراره إلى المبيت فى بيوت الطلاب أو الفنادق ، مما كان يُشْعِرُه بمهانة وضياع ، فتمتلئ نفسه مرارة يصبها بعد ذلك على الورق ، وهذا التناقض هو الذى يضفى على رحلته طرافة فريدة فى بابها تتأتى من انتقاله من الاسترواح والاطمئنان خارج المدن إلى الكآبة والسخط فى داخلها ، وإذا كنا قد قلنا أن كلام العبدرى عن المدن والناس ملئ بالمرارة والذم والسخط فاننا ينبغى أن نقرر أن كلامه عن الطبيعة ومناظر السهول والجبال والبحار وهيئات المدن كما تبدو له من بعيد كلامٌ كله اشراق وانفعال يدل على حساسية مرهفة بكل ما هو طبيعى طلق ، وهنا — والرجل على سجيته وراحة نفسه — يتكشف لنا العبدرى عن جغرافى طبيعى لماح يدرك بالنظرة الواحدة ما لا يدركه غيره بالتأمل الطويل .

هنا موضع القيمة الجغرافية للرحلة المغربية للعبدرى ، فإن الأوصاف الدقيقة التى قدم بها لأحاديثه عن المدن ومَن وجده (أو من لم يجده بتعبير أصح) بها من أهل العلم تعتبر خير ما فى الكتاب وأعظمه قيمة ، لأن الرجل كان بطبيعته الريفية الجبلية السليمة قديراً على أن يستبين من دقائق ما تقع عينه عليه من المناظر ما لا يستبينه غيره من أهل المدن ، وهو يصف ما يرى وصفاً ساذجاً واضحاً ينقل للقارئ ما رآه بعينه وأحس به ، فى حين أن غالبية الجغرافيين فى تلك العصور كانوا ينقلون من كتب ؛ ومن أمثلة ذلك قوله فى وصف مدينة

آنسا من مدن إقليم السوس فى جنوبى القطر المغربى : « وأما بلد آنسا — جبره الله — فهو بلد منفسح منشرح فى بسيط مليح طيب التربة يغل كثيراً ، وبه ماء جارٍ كثير ونخل وبساتين ، وهو آخر بلاد السوس من أعلاه ، متصل بالجبل مشرف على بلاد السوس ، وكان فيما مضى مدينة كبيرة ، فتوالت عليها الخطوب المجتاحه ، ونزول الأقدار المتـاحة ، حتى صارت رؤيتها قذى فى المقلتين » . وقد يورد فى غضون هذا الوصف من ملاحظاته الساذجة الصادقة ما يتضمن حقائق عظيمة القيمة لا نجدها عند غيره من أهل البحث والتكلف ، ومثـال ذلك قوله فى وصف مدينة تلمسان : « ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلداً حلت به زمانة الزمان . وأخلت به حوادث الحدثان . فلم تبق به علالة . ولا تبصَر فى أرجائه للظمئان بلالة . وقد شاهدت جمعاً من الحجاج ينيفون على الألف وردوها فوقفوا إلى ملكها ، فأعطاهم ديناراً واحداً . وأغرب من هذا ما شهدته من منصور صاحب مليكش ، وهو أن جماعة من الحجاج نحو العشرين وقفوا إليه فى محلته عند بيته ، فكلموه فى عشائهم ، فرحب بهم ، واحتفل فى السلام عليهم ، ثم أخذ ينادى يا أهل الدوار : هؤلاء ضيفان الله ، من يحمل منهم إلى بيته واحداً ؟ وجعل يكرر ذلك كما يصنع المَدَرُون أهل المدر . فلما لم يجبه أحد منهم ولى عنهم ووراءه جمع كثيف من الفرسان . وهو سلطان تلك النواحى . وتلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية جميلة المنظر مقسومة باثنتين بينهما سور ، ولها جامع عجيب مليح متسع ، وبها أسواق قائمة . وأهلها ذوو ليانة ، ولا بأس بأخلاقهم . وبظاهرها فى سند الجبل موضع يعرف بالعباد وهو مدفن الصالحين وأهل الخير ، وبه مزارات كثيرة ، ومن أعظمها وأشهرها قبر الصالح القدوة فرد زمانه أبى مدين رحمه الله ورضى عنه ورزقنا بركته . وعليه رباط مليح مخدوم مقصود ، والدائر بالبلد كله مغروس بالكرم وأنواع الثمار ، وسوره من أوثق الأسوار وأصحها ، وبه حمامات نظيفة ومن أحسنها وأوسعها وأنظفها حمام العالية وهو مشهور ، قل أن يرى له نظير . وهذه

المدينة بالجملة ذات منظر ومخبر وأقطار متسعة ومبانيها مرتفعة ولكنها مساكن بلا ساكن ، ومنازل بغير نازل ، ومعاهد أقفرت من متعاهد[١] » .

ويصل إحسانه فى الوصف إلى مداه عندما يصل إلى الاسكندرية ، فان منظر البلد يروقه أول ما يهل عليه فيقول أنه « بلد الاشراق اللامع والطلاقة ، وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة[٢] » ويسترسل فى هذا المديح المعجب صفحتين متواليتين يصف فيهما شوارع البلد وبيوته بأحسن ما وصفها به رحالة عربى قبله ، وتستوقف النظر دقته فى وصف عمود السوارى ومنار الاسكندرية . ووصفه لهذا الأخير قريب من وصف ابن جبير . ولا يكاد يفرغ من هذا الوصف الجميل المشرق حتى تحتويه المدينة الكبيرة بين دفتيها ويضيع فى زحمتها ، فينقلب إشراق نفسه عبوساً وانقباضاً فيمضى يقول : بيد أنها الآن بلد زادت صورته على معناه ، واستأثر بالفضائل مغناه ، فهو كجسم حسن لا روح فيه ، أو بُرد مفوف خلا من ملتحفيه ، أو غمد مرقَّش اندق الصارم الذى كان يخفيه ، أكثر أهلها رعاع ، ضرر بلا انتفاع ، مع سوء أخلاق ومرارة مذاق . . .[٣] » ولا نلبث أن نعثر على علة سخطه على أهل الاسكندرية إلى هذا الحد ، وذلك حيث يقول : « الخيِّر فيهم فعل لا يتصرف ، والغريب فيهم نكرة لا تتعرف . إن رأوه زادوا الوجوه جهامة ، ونكروا منها ما قد نكرته الدمامة . . . » ولو قيض الله له من يرافقه ويصاحبه ويخفف عنه عناء الغربة لما اندفع مع الذم هذا الاندفاع .

وفيما عدا هذه الأوصاف للمناظر الطبيعية والمدن وتلك الحملات القاسية على من فيها من الناس والبشر ، ملأ العبدرى رحلته بكلام كثير فى الفقه والنحو واللغة والأدب والشعر ، وانفق صفحات بأسرها فى مناقشة دقائق من هذه العلوم أو فى رواية أشعار له ولغيره ، وهذه الفقهيات والأدبيات واللغويات وما

(١) الرحلة المغربية ، ص ٩ — ١٠
(٢) الرحلة المغربية ، ص ٨٣
(٣) الرحلة المغربية ، ص ٨٥

ينتثر فى الكتاب من سير الصالحين وأخبار العلماء هى التى حببت الكتاب إلى الناس فى الأعصر الخالية ، فقد كانت هذه المواد هى أهم ما يعنيهم فى مِثْلِهِ ، وللعبدرى فى نقده لبعض من لقى من الفقهاء والقضاة عبارات تستثير الضحك لسذاجتها ، ومن ذلك قوله فى ذم قاضٍ يسمى العمرانى لقيه « بحضرة مراكش ، كلأها الله ولا كلأ القاضى المذكور حياً وميتاً ، فإنه منجنيق ظلم تُرمى به قواعد الدين ، ونفط فساد يُضرم قلوب المهتدين » وقد أضاع العبدرى فى أمثال ذلك الكلام ثلاثة أرباع الكتاب .

ألممت بذكر العبدرى ورحلته بسبب نسبته البلنسية أولا ، وهى موضع مناقشة كما رأيت ، وثانياً — وهو المهم — لكى يرى القارئ نموذجاً لأدب الرحلات فى الغرب الإسلامى يختلف كل الاختلاف عن طراز ابن جبير ، ويختلف أكثر عن رحلة ابن بطوطة أمير رحالة المسلمين باطلاق ، فإن العبدرى — بسبب هذا البحث المضنى عن الدقائق الفقهية واللغوية والأدبية التى كانت كلَّ همه — قد جعل رحلته وكأنها سياحة عقلية عاطفية لا رحلة سفر وضرب فى مناكب الدنيا واكتشاف للأرض وأهلها . والعبدرى رغم هذا كله مشكور فقد رأى من الأرض والناس شيئاً تكلم عنه — على طريقته — ولكن رحالة آخرين بعده كابن رُشيد السبتى سيغفلون ذكر الأرض والناس تماماً ، ولا يتحدثون إلا عمن يلقونه من العلماء كأنهم مطالعون فى مكتبة ، وعند هؤلاء تنقطع الصلة تماماً بين أدب الرحلات والجغرافية .

ونورد بهذه المناسبة ملاحظة تفسر لنا سبب السخط الشديد الذى عبر عنه الكثيرون من أهل الأندلس والمغرب الذين رحلوا إلى المشرق فى تلك العصور ، فإن القارئ لتراجم مهاجرة الأندلس والمغرب إلى المشرق أو رحالتهم خلاله والمطالع لكتبهم يشعر أن معظمهم يشترك مع العبدرى فى هذا الضجر بالمشرق وأهله ، والكثيرون منهم يشاركون العبدرى فى الشكوى من مصر خاصة . لقد لاحظنا شيئاً من ذلك عند ابن جبير وابن سعيد ، ونلاحظه أيضاً عند أبى الحجاج عتبة الاشبيلى وعند أثير الدين أبى حيان وأحمد بن محمد المقرى ، وتفسير هذه

الظاهرة أن أولئك المهاجرين والرحالة جميعاً كانوا يدخلون مصر وآمالهم واسعة فى أن يجدوا فيها أكبر قدر من الاحترام والاكرام وتوسعة العيش ، لأنها كانت كعبة العلم وأهله فى ذلك الحين ، ولكن الواحد منهم كان إذا وصل إلى القاهرة وجد نفسه فى بحر مضطرب من العلماء من المصريين والوافدين عليهم من كل حدب وصوب ، وكلما قصد باباً من أبواب الدولة وجد عنده العشرات من أمثاله يتزاحمون للدخول ، فإذا قصد رجلا من السروات ممن عرفوا باكرام أهل العلم وجده مثقلا بالوافدين ، فإذا اتجه إلى الجامع الأزهر وغيره من المدارس وجدها تعج بالعلماء والطلاب ، فيسقط فى يده ويشعر بخيبة الآمال ، وقد يجد بعد ذلك كله أن ما عنده من زاد العلم قليل بالنسبة إلى الفيض الذى يحيط فى القاهرة فتتجهم نفسه ويتعزى بالحملة على البلد وأهله وخاصة إذا كان من دخلوا ميدان المنافسة للوظائف كما حدث لابن خلدون . ولنضف إلى ذلك أن أهل مصر — لكثرة الوافدين عليهم فى تلك العصور من الشرق والغرب — أمحى من نفوسهم الشعور بالغريب ، فكل مَن حلوا فى وطنهم من المسلمين فهم مواطنون مثلهم ، ومن ثم فلا معنى للاحتفال باستقبالهم والاجتهاد فى اكرامهم ، بعكس ما كان أهل تونس مثلا يفعلون مع العلماء الوافدين ، كانوا يعاملونهم بسبب قلتهم على أنهم ضيوف غرباء ويظلون يعتبرونهم غرباء ، ومن هنا فالقليلون من أولئك الوافدين هم الذين أقاموا بتونس فى راحة زمناً طويلا ، إنما كانت الاقامة والاستقرار والتوطن فى مصر وبلادها فى الغالب ، فهنا فى المكان الأول كان وطن العربى أو المسلم الغريب ومنتهاه . وقد أحصينا فى الدرر الكامنة لابن حجر فوق المائتى مهاجر أندلسى إلى المشرق فى القرن الثامن الهجرى ، وتسعون فى المائة منهم أقاموا بمصر واستقروا بها .

ومن أطرف ما نلاحظه أن المصريين فى تلك العصور لم يكونوا يأخذون ما يقوله عنهم بعض الساخطين من أولئك الغرباء على أنه قدح مقصود أو إهانة صادرة عن سوء نية ، وإنما على أنها نفثات أخ متألم جدير بالمواساة ثم

النسيان . وسنكتفى هنا بمصداق واحد يغنى عن كثير ، وهو خبر يرويه علىّ ابن سعيد عن صاحبه أبى الفضل التيفاشى — وكلاهما لجأ إلى مصر وعاش فيها — قال : قدم علينا بالقاهرة الطبيب الجراح أبو الحجاج (يوسف) بن عتبة (الاشبيلى) فلم يجد من يُقبل عليه إلا كهف المغاربة الرئيس السيد جمال الدين بن يغمور . فَصَيَّرَه مشاركاً مع أطباء المارستان ، وكان يأنس به فى بعض الأوقات مؤانسة الاخوان ، فسأله مرة عن أخبار بلاده ، فقال فارقت الأندلس مضطربة بدولة ابن هود ، ومع ذلك فأنى أشتهى الرجوع إليها لما أعاين هنا من أشغال النصارى فى الدولة واليهود ، ثم قال :

أصبحت فى مصر مستضاماً ... أرقص فى دولة القرود

وا ضيعة العمر فى أخير ... مع النصارى أو اليهود

إلى آخر الأبيات . ومثل هذه العبارة كانت جديرة بأن تغضب جمال الدين بن يغمور ، فهو مصرى صميم من أهل الصعيد ، ثم هو من كبار رجال الدولة التى يصفها هذا الأندلسى بأنها دولة القرود ، وكان جديراً بأن يغضب على ابن عتبة ، ولكنه لم يغضب ، ولم يحمل لهذا الأخ الأندلسى ضغناً ، بل أخذ كلامه على المأخذ الذى ذكرناه . وبقية الخبر أوقع فى النفس من حكايتنا له : قال التيفاشى : أنشد هذه الأبيات جمال الدين لاحتماله وحبه فى طرائف الأدب كيفما جاءت ، فقال أتدرى ما أراد الخبيث فى البيت الأول ؟ قلت المثل السائر : يرقص للقرد فى دولته ، فقال : قد أشار إلى شكل الغز وتشميرهم ، قال ، فعجبت من فهمه وحملة[1] .

(١) على بن سعيد ، اختصار القدح المعلى (بتحقيق الأستاذ ابراهيم الأبيارى ، القاهرة ، ١٩٥٩) ، ص ١٦٣ — ١٦٤ ، والمراد بالغز هنا المماليك ، وكان ابن يغمور من رجالهم . ومما يؤيد ما ذكرناه قول ابن سعيد فى الكلام عن أندلسى آخر ممن وفد على مصر : « لقيته بالقاهرة ، وكأنه لا خبر عنده عن الآخرة ، شيخ قد طال عمره فى أكل الأعراض ، ووجد فى تلك البلاد التغافل فانتهض فى صنعته الذميمة أى انتهاض . . » اختصار القدح المعلى ، ص ٢١٢

وإذا كانت « الرحلة المغربية » لأبى عبد الله محمد العبدرى تصور لنا مشكلة نفسية كان الكثيرون من علماء القرن السادس وما بعده من أهل الأندلس يعانون منها بسبب ما نزل ببلادهم واضطرارهم إلى الهجرة وتبدل أوطان بأوطان ، فإن الجغرافى الذى سنتناوله بالحديث بعده يصور لنا مشكلة من المشاكل العويصة التى لا تزال تعترض من يؤرخ للعلم والعلماء فى تلك العصور ، وهى مشكلة حقيقة المؤلف وعصره ، وقد رأينا لتلك المشكلة وجهاً فى حديثنا عن أبى بكر الزهرى والآن نرى لها وجهاً آخر لا يقل غرابة وطرافة عن الوجه الأول .

ذلك أن الكتاب الذى نتعرض له الآن وهو « الروض المعطار فى خبر الأقطار » يبدو للناظر لأول وهلة وكأنه كتابان لمؤلفَيْن يحملان نفس الاسم مع خلاف طفيف . وأصل اللبس يرجع إلى حاجى خليفة ، فقد أورد ذكر كتابين : واحد هو « الروض المعطار فى أخبار الأقطار لأبى عبد الله محمد بن محمد بن محمد الحميرى المتوفى سنة ٩٠٠/١٤٩٤ — ٩٥ والثانى يسمى روض المعطار فى خبر الأقطار للشيخ العمدة أبى عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى ، ولم يذكر سنة وفاة هذا الأخير . وزاد الأمر تعقيداً أن القلقشندى أخذ عن هذا الكتاب وذكره فى صبح الأعشى الذى فرغ من تأليفه سنة ٨١٤/١٤١٢ ، ثم إن كتاب « جنى الأزهار من الروض المعطار » كان يُظن انه اختصار لكتابنا هذا صنعه تقى الدين المقريزى ، حتى أثبت جاستون فييت وجيوفانى أومان أنه اختصار لنزهة المشتاق صنعه رجل يسمى شهاب الدين أحمد المقريزى لا تقى الدين عميد مدرسة المؤرخين المصريين فى القرن التاسع الهجرى (انظر ص ٢٢٩ من بحثنا هذا) .

وقد جهد فى حل هذا المعضل ثلاثة من المستشرقين هم جودفروا ديمومبين وجاستون فييت وليفى بروفنسال ناشر المواد الأندلسية من « الروض » ، وقد أسعفه الحظ فوجد ترجمة للمؤلف (محمد بن عبد المنعم الصنهاجى) فى الورقة ١٣٢ من مخطوط الاحاطة المحفوظ بمكتبة الاسكوريال تحت رقم ١٦٧٣ ، ويقرر ابن الخطيب فى هذه المادة أنه نقلها من كتاب آخر له — لم نعثر عليه الآن — هو « عائد الصلة » . وما دام ابن الخطيب قد توفى سنة ٧٧٦/ ١٣٧٤ فلا بد أن محمدا بن عبد المنعم الحميرى هذا مات قبله . وقد كان ديموميين قد ذهب إلى أن سنة ٩٠٠ هـ. التى وردت فى احدى مادتى « كشف الظنون » عن الروض ومؤلفه لابد أن تكون تصحيفاً لسنة ٧٠٠/ ١٣٠٠ — ١٣٠١ فأخذ ليفى بروفنسال بهذا الرأى وأيده بقوله إنه لم يجد فى الاستطرادات التاريخية التى يتضمنها النص ذكراً لأى حادث بعد سنة ٧٠٠ هذه . أما ما ورد فى آخر بعض مخطوطات الروض من أن مؤلفه ابن عبد المنعم الحميرى فرغ من جمعه سنة ٨٦٦/ ١٤٦١ — ١٤٦٢ فقد فسرها بروفنسال بأن هذا الأخير لا بد أن يكون أحد أحفاد المؤلف قام بإعادة كتابة الكتاب مضيفاً إليه أشياء طفيفة ثم وضع عليه اسمه ، وهو تفسير معقول مقبول[١] .

---

(١) انظر عن محمد بن عبد المنعم الحميرى وكتابه الروض المعطار ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، طبعة استامبول (١٣١٠ هـ.) ، ١/ ٥٨٠ — بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ٢/ ٤١
نفح الطيب للمقرى (أوروبا) ٢/ ٦٨٠
ابن الخطيب ، الاحاطة ، مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ١٣٢

Gaudefroy - Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamlouks d'après les auteurs arabes,* (Paris, 1923), f. XI-XII.

وقد نشر ليفى بروفنسال المواد الأندلسية من الروض فى لايدن سنة ١٩٣٦ بعنوان صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، وهو معجم جغرافى تاريخى لأبى عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميرى . جمعه سنة ٨٦٦ هـ. وقد أحسن بطبع النص العربى فى القاهرة . وطبع الترجمة الفرنسية مع المقدمة والتعليقات فى لايدن ونشر المجموع تحت عنوان :

La Péninsule Ibérique au Moyen - Age d'après le Kitāb al-Rawḍ al-Mi'ṭār fi Ḫabar al-Aḳṭār, d'Ibn 'Abd al-Mun'ım al-Ḥimyarī (Leiden, 1938).

ونورد فيما يلى مادة ابن الخطيب فهى — رغم قلتها — جل — بل كل — ما لدينا عن المؤلف :

« محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميرى يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن عبد المنعم من أهل سبتة ، الأستاذ الحافظ . حاله : من العائد : كان رحمه الله رجل صدق ، طيب اللهجة ، سليم الصدر ، تام الرجولة ، صالحاً ، عابداً ، كثير القرب والأوراد فى آخر حاله ، صادق اللسان ؛ قرأ كبيراً وسنه تنيف على سبع وعشرين ، فشأى أهل الدرب والسابقة ، وكان من صدور الحفاظ ، لم يستظهر أحد فى زمانه من اللغة ما استظهره ، فكان يستظهر كتاب التاج للجوهرى وغيره ، آية تتلى ومثالاً يضرب ، قائماً على كتاب سيبَوَيْهِ يسرده بلفظه ، اختبره الفاسيون فى ذلك غير ما مرة ، طبقةً فى الشطرنج يلعبها محجوباً ، مشاركاً فى الأصول ، آخذاً فى العلوم العقلية مع الملازمة للسنة ، يعرب أبداً كلامه ويزنه . مشيخته : أخذ ببلده عن الأستاذ أبى إسحٰق الغافقى ولازم أبا القاسم بن الشاط وانتفع به وبغيره من العلماء . دخولُه غرناطة : قدم غرناطة مع الوفد من أهل بلده عند ما صار إلى إيالة الملوك من بنى نَصْر لما وصلوا بالبيعة . وفاته : كان من الوفد الذين استأصلهم الموتان منصرفهم عن باب السلطان ملك المغرب بأحواز تيزى حسبما وقع التنبيه على بعضهم » .

ونلاحظ أولا أن هذه المادة لا تنسب لمحمد بن عبد المنعم الحميرى هذا كتاباً فى الجغرافية ، وانها تقول انه من أهل سبتة وانه كان عضواً فى الوفد السبتى الذى وفد على غرناطة ببيعة أهل بلدهم ، وانه توفى فى الموتان (أى

═ ومقدمة هذه الترجمة الفرنسية تتضمن كل ما أوردناه عن تاريخ مشكلة الكتاب ومؤلفه مع دراسة وافية للكتاب ومادته ، أما التعليقات الضافية التى وضعها على الترجمة فقد أصبحت من يوم نشر الكتاب مرجعاً أساسياً لجغرافية الأندلس وتاريخه ، ويعتبر ذلك العمل من أجل ما خلف لنا ذلك المستشرق الفرنسى الجليل .

وانظر كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى تعريب الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ١/ ٤٤٧ — ٤٤٨

الوباء) الذى استأصل رجال ذلك الوفد عند ما انصرفوا عن باب السلطان ملك المغرب بأحواز تيزى (أو تازا) .

فأما إهمال ابن الخطيب ذكر اشتغال محمد بن المنعم الحميرى بالجغرافية فلا ينفى هذه الحقيقة ، فإن الناس — كما رأينا — كانوا لا يرون كتب الجغرافية وعلوم الأوائل والفلسفة مما يستحق الذكر بين أعمال العلماء ، لأن الاشتغال بذلك كان — فى رأى الكثيرين — مضيعة للوقت فيما لا ينفع ، وسنرى أن هذا كان رأى الحميرى نفسه ! بل ربما كان اشتغال الرجل بهذه العلوم مدعاة للشك فى صحـة عقيدته ، وقد رأينا بعض من أرخوا للعذرى والبكرى أهملوا ذكر مؤلفاتهم الجغرافيات كأن ذلك كان لوناً من صون السمعة ، بل إن ابن أبى أصيبعة أهمل ذكر كتاب نزهة المشتاق عند ما تكلم عن الإدريسى ، وكثيرون ممن ترجموا لابن رشد أهملوا ذكر اشتغاله بالفلسفة إكراماً لذكراه ، بل أن محمد بن عبد المنعم الحميرى نفسه اعتذر فى آخر فاتحته للروض المعطار عن اشتغاله بالجغرافية ، وقال كلاماً يصح أن يروى مثلا لنظرة الناس إلى الاشتغال بذلك العلم فى تلك العصور ، قال : « . . ومع هذا فقد لُمْتُ نفسى على التشاغل بهذا الوضع الصاد[1] عن الاشتغال بما لا يغنى عن أمر الآخرة والمهمّ من العلم المُزْلِف عند الله تعالى ، وقلت : هذا من شأن البطالين وشغل مَن لا يهمه وقته ؛ ثم رأيت ذلك من قبيل ما فيه ترويح لهذه النفوس ، ومن حسن تعليلها بالمباح حتى تنشط إلى ما هى به أعنى ، ثم هو مهيع يسلكه الناس واعتنى به طائفة من العلماء وقيده جماعة من أهل التحصيل ، فلا حرج فى الاقتداء بهم بل أقول : أعوذ بالله من علم لا ينفع ! وأستغفره وأستقيله ، وأسأله التجاوز عن الهفوات ، والصفح عن الاشتغال بما لا يفيد فى الآخرة ، فيا رب عفواً عن اقتراف ما لا رضى لك فيه ، فأنت على كل شىء قدير ! » .

---

(١) كذا فى الأصل كما نشره ليفى بروفنسال ، وربما كانت صحته : الصادر .

وهذا أغرب ما قاله أحد من جغرافيينا فى شأن اشتغاله بذلك العلم ، حقيقة كان بعض الأوائل ممن اشتغلوا به يجتهدون فى فواتح كتبهم فى تبرير اشتغالهم به بمبررات هى أقرب للاعتذار ، ولكن مؤلفنا هذا ذهب إلى ما لم يذهب إليه أحد من اعتبار الاشتغال بالجغرافية « من شأن البطالين ومن لا يهمه وقته » ثم يمضى يعتذر عن تأليفه الكتاب ويرجو الله سبحانه الصفح عنه كأنه اقترف جريمة . ويغلب على ظنى أن هذه العبارة أضافها ابن عبد المنعم الحميرى الثانى ، أى الذى كان من حَفَدَة الأول ، لأننا إذا طالعنا مواد الكتاب وجدنا رجلا يجمع ويصنف ويكتب فى شغف وراحة نفس واستمتاع بما يكتب يدل على إحساس بفائدته ، ثم إن جانباً كبيراً من مادة الكتاب تاريخ ، ولم يكن التاريخ قط من العلوم التى يعتبر الناس الاشتغال بها مضيعة للوقت ، ومثل هذا الرجل لا يعتذر عما يكتب قط ، وإنما يصدر هذا عن حفيد جاء بعد قرنين انحدر خلالهما مستوى العلم والمعرفة ، وأجال قلمه فى عمل جده مضيفاً شويئات هنا وهناك ومن بينها تلك الخاتمة التى تتناقض فى الروح والمعنى مع بقية الفاتحة .

وأما أن الرجل من أهل سبتة فلا يقطع صلة نسبته إلى الأندلس ، فقد كانت سبتة فى بعض سنوات المؤلف جزءً من الأندلس ، وكانت أجزاء كثيرة من الأندلس تابعة لسلاطين المغرب من آل مرين فى ذلك العصر الذى أسندت بقيةُ الأندلس خلاله ظهرَها إلى المغرب لتظل فى قيد الوجود ، وفى عصر مؤلفنا هذا دخلت سبتة فى طاعة بنى نصر فيما بين سنتى ٧٠٥ و ٧٠٩ / ١٣٠٦ و ١٣٠٩ وكان هو من بين أعضاء وفد سبتة الذين جاءوا ببيعة بلدهم إلى غرناطة . وقد كانت وفاته بعد ذلك بسنوات فى وباء نزل بالقطر المغربى ، وقد استبعد ليفى بروفنسال أن يكون هذا الوباء هو الموت الأسود الذى اجتاح حوض البحر الأبيض بين سنتى ٧٤٨ و ٧٥٠ / ١٣٤٧ و ١٣٤٩ والذى وصف المقريزى

وأبو المحاسن أفاعيله فى شرق المملكة الإسلامية ، وفصّل ابن الخطيب وابن خاتمة ما أنزله بالمغرب الأقصى والأندلس .

ثم اننا إذا القينــا نظرة عامة على مواد الكتاب رأينا أن حظ الأندلس منها أوفى من حظ أى قطر آخر بما فى ذلك المغرب ، وقد أورد ليفى بروفنسال احصاء بمواد حرف الألف وتوزيعها على الأقطار ما بين شرق وغرب ، فكان حظ الأندلس ٣٤ مادة والمغرب ٣٢ وجزيرة العرب والعراق ٣٣ وبلاد آسيا الوسطى ٣١ والشام ١٧ ومصر ٩ وكل من السودان (الغربى) وشرق آسيا وغربى أوروبا ٥ وصقلية ٣ ، ولا يعلل هذا إلا بأن معلومات الرجل عن الأندلس كانت أوسع من معلوماته عن غيره ، واستطراداته التاريخية بالذات تنم عن أن كاتبها أندلسى يعرف دقائق بلده الذى يتحدث عنه ، ولا نجد مثل هذا فى مواده المغربية ، بل إن مادته عن سبتة ليست بالغنى الذى ينتظر من رجل سبتى .

كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار

فإذا فرغنا من هذه الملاحظات عن المؤلف والتفتنا إلى كتابه وجدنا أنفسنا أمام معجم جغرافى مرتب على الحروف كأحسن ما تكون معاجم الجغرافية ، ولا يقلل من سلامة هذا الحكم ان معظم الكلام فيه نَقْلٌ عن الإدريسى والبكرى وكتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار (الذى ألفــه مغربى لا نعرف اسمه سنة ٥٨٧/ ١١٩١) ومراجع أخرى سنذكرها فيما بعد ، بل لا يضيره أن الرجل نقد الإدريسى فى فاتحة كتابه نقداً عنيفاً ، ثم اغترف من كتابه بكلتا يديه دون اشارة إلى الأصل المنقول عنه فى معظم الأحيان ، فلم يكن هذا بعيب كبير فى التأليف فى تلك العصور ، والمهم أن الرجل قدم لنـا بهذا الجمع مادة جغرافية صحيحة دسمة عن المواضع التى اختارها لمعجمه ، وعرف كيف ينسق هذه المادة ويسوقها على نحو مترابط متكامل بحيث تبدو بعض مواده وكأنها دراسات

قصيرة عن هذا العَلَم الجغرافى أو ذاك . ومما يزيد معجمه قيمة أنه لم يقتصر على المدن أو الأقطار بل شمل بعض المحيطات والبحار والجزر وما إليها من الأعلام الجغرافية ، وأورد فى هذه المواد معلومات جغرافية تدل على فهم وتصور علميين صحيحين ، ومن أمثلة ذلك كلامه عن أُقيانُس ، والمراد به البحر العظيم الذى كان يظن إنه محيطٌ باليابس كله — ومن هنا جاءت ترجمته العربية بالمحيط — وأُقْيَانُس هو الرسم العربى لاسمه اللاتينى Oceānus ولم يكن الرومان يقسمون الماء محيطات كالأطلسى والهادى والهندى ، وإنما كان عندهم بحراً واحداً هو أقيانس هذا ، وأخذ بعض علماء العرب هذا المفهوم عنهم . ومادة ابن عبد المنعم الحميرى تعرض هذا التصور عرضاً واضحاً .

قال : « هو اسم لبحر الظلمات ، ويقال له البحر الأخضر ، والمحيط الذى لا يدرَك له غاية ، ولا يحاط بمقداره ، ولا فيه حيوان ، وهو الذى يخرج منه البحر الرومى الذى هو بحر الشام ومصر والمغرب والأندلس ، فإنه خليج يخرج من هذا البحر . وقد خاطر بنفسه خشخاش من الأندلس ، وكان من فتية قرطبة ، فى جماعة من أحداثها ، فركبوا مراكب استعدوها ، ودخلوا هذا البحر ، وغابوا فيه مدة ، ثم أتوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة . إنما يُركب من هذا البحر مما يلى المغرب والشمال ، وذلك من أقاصى بلاد السودان إلى برطانية ، وهى الجزيرة العظمى التى فى أقصى الشمال . وفيه ست جزائر تقابل بلاد السودان تسمى الخالدات ، ثم لا يعرف أحد ما بعد ذلك . وسنأتى إن شاء الله تعالى بحكاية أخرى عمن دخل هذا البحر أطول من هذه فى موضعها فى ذكر الاشبونه » .

ومن العسير علينا أن نتصور اليوم ذلك البحر المحيط أو الاقيانوس الذى كان يدور بالأرض وتتشعب منه بحارها ، ولكن كتاب الجغرافية لأبى بكر الزهرى يقرِّب لنا هذا المفهوم بعض الشىء ، فهو يقسم الماء المحيط باليابس من الأرض إلى طَوْقين : الطول الأزرق « وهو الدائر بجميع أجزاء الأرض ، وهو

صفة البحر المعروف ببحر الظلمة » ، والطوق الأخضر ، « وهو صفة البحر المحيط بالأرض وأجزائها » وعلى هذا يكون اليابس محاط ببحر كبير دائر حوله هو المعروف بالطوق الأزرق ، وهذا الطوق المحيط باليابس جزء من الأرض نفسها وهو الذى تتفرع منه البحار التى تتخلل اليابس كالبحر الأبيض وبحر الهند وبحر الصين ، فقد كانت هذه البحار عندهم أشبه بخلجان تتفرع عن بحر الظلمة أو بحر الظلمات وهو الطوق الأزرق هذا . ويحيط بهذا الطوق الأزرق بحر أوسع وأشمل هو المعروف بالطوق الأخضر ، وهذا الطوق الأخضر هو البحر الكبير الذى يحيط بكرة الأرض من الجهة الأخرى كما يحيط المـاء فى طبق بأسفل كرة وُضعت فيه ، وهذا مجرد تشبيه ، لأن ذلك الغلاف المائى المحيط بالجهة الأخري من الأرض شبيه بغلاف الثلج الذى يغطى القطب الجنوبى مثلا . والتقسيم إلى نطاق أزرق ونطاق آخر إنما هو تقسيم بالنسبة للقرب من شواطئ اليابس والبعد عنها ، فالمياه القريبة من اليابس زرقاء والبعيدة عنه خضراء .

واقيانس هذا ، أو الطوق — أو البحر — الأخضر كان المجهولَ الأكبر فى نظر الجغرافيين جميعـاً خلال العصور القديمة والوسطى ما بين مسلمين وغير مسلمين ، ويصور لنا الإدريسى موقف الحيرة والرهبة الذى وقفه العقل البشرى من هذا المجهول الأكبر إلى أيامه ، قال فى كلامه عن الأندلس :

« وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها شكل مثلث وتضيق من ناحية شرق الأندلس حتى تكون بين البحر الشامى والبحر المظلم المحيط بالأندلس خمسة أيام ، ورأسُها العريض نحو من سبعة عشر يوماً ، وهذا الرأس هو فى أقصى المغرب فى نهاية انتهـاء المعمور من الأرض محصور فى البحر المظلم ، ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ، ولا وقف منه بشر على خبر صحيح لصعوبة عبوره وإظلامه ، وتعاظم موجه وكثرة أهواله وتسلط دوابه وهيجان رياحه »[١] .

---

(١) الإدريسى ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » بتحقيق راينهارت دوزى ودى خويه ، ليدن ١٨٦٤ ، ص ١٦٥

أما التصور الشعبى ، وهو قائم على حكايات الملاحين والسُّفَّار ، فلا يعطى عن هذا المحيط هذه الصورة الرهيبة ، بل يرسمها فى صورة شاعرية نسجها الخيال الساذج على أساس بعيد من تجارب حقيقية ، وهذه الصورة نجدها بالذات عند محمد بن عبد المنعم الحميرى فى كلامه عن قادس وصنمها الذى كان موضعاً لأساطير وحكايات وتخيلات كثيرة عند أهل الأندلس ، وقد رأينا بعضها فيما نقلناه عن أبى بكر الزهرى ، ونورد فيما يلى فقرة الروض المعطار ، وهى من الفقرات القليلة التى لا نعرف الأصل الذى نقلت عنه ، قال : « ويزعم أهل جزيرة قادس أنهم لن يزالوا يسمعون أن الراكبَ فى هذا البحر إن ألجَّ فيه وغاب عنه صنمُ قادس ، بدا له صنم ثانٍ مثله ، فإذا وصلوا إليه وجاوزوه حتى يغيب عليه(١) ، بدا له صنم ثالث ، فإذا تجاوزوا سبعة أصنام صاروا فى بلاد الهند . وهذا مستفيض عندهم ، معروف جارٍ على ألسنتهم ، ولما يزل يأخذه آخرهم عن أولهم(٢) » .

وقد درس ليفي بروفنسال فى مقدمته المستفيضة لما نَشر من الروض المعطار موضوعَ المراجع التى استقى المؤلِّف منها المادةَ الجغرافية فى كتابه ، وهى على الترتيب : نزهة المشتاق للادريسى والمسالك والممالك للبكرى ونظام المرجان للعذرى وكتاب الاستبصار فى عجـائب الأمصار لمؤلف مغربى من أهل القرن السادس الهجرى لا نعرف اسمه إلى الآن . وأما المادة التاريخية فيرجع معظمها إلى كتابين أولهما مجهول المؤلف وهو « مجموع المفترق » والثانى « كتاب المُغْرِب فى أخبار المغرب » لأبى التُّقَى طاهر بن عبد الرحمن ، والكتابان فى عداد مفقودات المكتبة العربية إلى الآن . ومن الواضح أن كلام بروفنسال منصبٌّ على الأجزاء الأندلسية من الكتاب ، وهى الوحيدة التى درسها دراسة وافية ، لأن الحقيقة

---

(١) يلاحظ هنا اضطراب السياق من ناحية النحو والصياغة ، وسبب ذلك — فيما يبدو — أن المؤلف يثبت رواية شعبية كما سمعها .

(٢) الروض المعطار ، ص ١٤٨

أن لكتاب الروض المعطار مراجع أخرى كثيرة فيما يتصل بمواده غير الأندلسية ، وخاصة فيما يتصل ببلاد الشرق العربية والإسلامية ، وكذلك مادته المغربية تعتمد على مراجع أخرى غير البكرى والاستبصار ، فقد اطلع الحميرى دون شك على مؤلفات أصحاب « أطلس الإسلام » — وهم أبو زيد أحمد بن سهل البلخى وأبو إسحاق ابراهيم الاصطخرى وأبو القاسم محمد بن حوقل ومحمد بن أحمد بن أبى بكر المقدسى — فإن كتابه حافل بالاقتباسات منهم وإن لم يصرح بذلك .

وعدم التصريح بذكر المراجع هذا آفة من آفات هذا الكتاب ، حقاً أن ذلك عيب شائع فى الكثير جداً من الكتب التى كتبت فى هذه العصور ، ولكن ابن عبد المنعم الحميرى يضيف إلى إغفال ذكر الأصول عيبَ النقد العنيف لأصحابها ، ومن ذلك مثلا قوله فى المقدمة مشيراً إلى نزهة المشتاق للادريسى بعد أن نقل عنه أكثر من ثلث مادته الجغرافية عن الأندلس على الأقل : « ثم إنى قِسْتُه (أى كتاب الروض المعطار) بالكتاب الأُجارى[١] المعروف بنزهة المشتاق فوجدته أعظم فائدة وأكثر أخباراً وأوسع فى فنون التواريخ وصنوف الأحداث مجالا حتى فى وصف البلاد ، فإنه إنما ذكر نبذةً منها وشيئاً قليلا فى مواضع مخصوصة معدودة ، بل إنما عظم حجمه بما اشتمل عليه من قوله : « من فلانة إلى فلانة خمسون ميلا أو عشرون فرسخاً ، ومن فلانة إلى فلانة كذا وكذا » ، أما الخبر عن الأصقاع مما يحسن إيراده ، ويلذ سماعه ، من خبر طريف ، أو وَصْفٍ يُستغرب أو يستملح ، فإنما يوجد فيه فى مواضع قليلةٍ معدودةٍ ، إلى ذلك من عُسْرِ وجدان الناظر فيه بمطلوبه بأول وهلة بل بعدَ البحث والتفتيش[٢] » .

---

(١) فى الأصل المطبوع : الأخبارى ، ولا معنى له هنا ، وإنما هو الأجارى أو الرجارى نسبة إلى أجار وهى لغة فى رجار ، والمراد روجر الثانى ملك النورمان الذى تحدثنا عنه فيما سبق .

(٢) الروض المعطار ، مقدمة المؤلف ، ص . ح

وهذا كلام يستكثر من رجل اغترف من الإدريسى حتى ثقل كتابه بما أخذ ، ثم إن الروض المعطار أيضاً ملئ بقوله « من فلانة إلى فلانة خمسون ميلا أو عشرون فرسخاً » وانظر على سبيل المثال كلامه عن مواضع مثل بَيَّارَه وَبَيَّاسة وطرطوشة وطركونه وما إليها .

أما أن كتاب الإدريسى لا يستكثِر من التاريخ والأخبار فمرجعه كما رأينا إلى أنه كان يرى نفسه جغرافياً لا مؤرخاً ، وربما كان أولَ من فصل بين التاريخ والجغرافية بوضوح ، وهذه حقيقة لم يتبينها محمد بن عبد المنعم الحميرى لأنه كان يرى أن التاريخ جزء لا يتجزأ من الجغرافية — أو هى جزء منه بتعبير أدق — ولهذا يقول فى المقدمة : « ورتبته على حروف المعجم ، لما فى ذلك من الإحماض(١) المرغوب فيه ، ولما فيه من سرعة هجوم الطالب على اسم الموضع الخاصّ من غير تكلف عناء ولا تجشم تعب ، فقد صار هذا الكتاب محتويا على فنين مختلفين : أحدهما ذكر الأقطار والجهات ، وما اشتملت عليه من النعوت والصفات ، وثانيها الأخبار والوقائع المختلفة بها ، الصادرة عن مجتليها(٢) » .

وإذن فمحمد بن عبد المنعم الحميرى يرى أن وصف البلاد لا يكتمل إلا إذا أضيف إلى « ذكر الاقطار والجهات » سرد « الأخبار والوقائع المختلفة بها » أما الاقتصار على الوصف الجغرافى وحده والاجتهاد فى تعرف المسافات وقياس الأبعاد فعيب يأخذه هو على الإدريسى . وهكذا نعود إلى الوراء مرة أخرة ونُبهِم مفهوم الجغرافية كعلم قائم بذاته مستقل عن التاريخ والأدب .

غير أن ترتيب الأماكن على حروف المعجم يعتبر فى ذاته الميزة الأولى لكتاب الروض المعطار ، ومن الحق أن تقرر أن محمدا بن عبد المنعم الحميرى

---

(١) كلمة « الأحماض » هنا لا معنى لها . ولابد من الرجوع إلى المخطوط لتصويبها .
(٢) مقدمة الروض المعطار ، ص . ح .

قد خطا فى الغرب الإسلامى خطوة واضحــة بفن المعاجم الجغرافية بعد البداية الطيبة التى قام بها أبو عُبيد البكرى فى « معجم ما استعجم » ، فإن هذا رغم اجتهاده فى احصاء الأماكن وترتيبها ابجدياً نادراً ما يستوفى الكلام عن مكان فى موضعه ، بل يحيــل على مواد أخرى له ، فأنت تبحث فيه عن موضع يسمى المَرْقَعَة ، فيقول لك أنه موضع قد تقدم ذكره فى رسم أُبْلَى ، وتبحث تحت أُبلى فيقول لك » موضع تنسب إليه رجلة أبلى ، وهو مذكر فى حرف الراء ، وتبحث فى حرف الراء تحت « رجلة أبلى » ، فلا تجد إلا ما يلى : قال أبو حنيفة : هى أرض مشهورة ، ثم يستشهد ببيت شعر للراعى ورد ذكرها فيه ويضيف : « والرِّجلة مسيل ينبت البقل » ، وهكذا تخرج بعد البحث أربع مرات دون نتيجة ، وحتى فى الحالات التى تخرج فيها بنتيجة لابد أن يحيلك مرة أو مرتين إلى مواد أخرى ، فإذا طلبت « رُحْبه » أحالك على رسم ضَرِيَّة ، وبالفعل تجد ما تريد تحت هذه المادة ، وأنت تبحث عن فيفاء الخيار فيحيلك على « فَيْف » حيث تجد بعض ما تريد ، ولكنك لا بد أن ترجع إلى مادة « الحشا » لتستكمل ما تطلب . أما مواد « الروض المعطار » فمستوفاة دون إحالة أو حاجة إلى الرجوع إلى مواد أخرى ، وهذا المذهب الصحيح فى عمل المعاجم يشبه ما نجده عند ياقوت . فهل نستطيع أن نفترض أن صاحب الروض المعطار رأى معجم ياقوت وأفاد منه ؟

الحق أن هذا سؤال تعسر الإجابة عليه ، ولا يمكننا نفى هذا الاحتمال مستندين إلى أن الحميرى لم يشر إلى ياقوت مرة واحدة ، لأنه — أى الحميرى — طالما أخذ عن الناس دون أن يشير ، ثم إن اطلاعه على ذلك المعجم الكبير غير مستبعد أصلا ، فقد أتمه ياقوت سنة ٦٢٤/١٢٢٤ وذاع صيته بعد ذلك مباشرة ، وقد عاش محمد بن عبد المنعم الحميرى فى النصف الثانى من ذلك القرن السابع الهجرى ، بل زار الحجاز وأدى الفريضة وأطال المقام فى الأرض المقدسة وختم معجمه فى جدة كما تدل على ذلك عبارة الختام ، ومن المستبعد

جداً أن يكون شيخ طالبُ علم كمؤلف الروض موجوداً فى الحجاز مشتغلا بمعجمه ويغيب عنه ذكر معجم ياقوت وكان إذ ذاك ملء أسماع الناس ، وهناك قرينة واضحة تؤيد ذلك الفرض هى أن ابن عبد المنعم الحميرى يخلط الأدب بالجغرافية مثل ياقوت ، ويندر أن يذكر موضعاً نجم فيه أديب دون أن يذكر هذا ويروى له شعراً ما أمكن ، بل فى بعض الأحيان تقتصر المادة على ذكر شاعر نشأ فى الموضع وذِكر بعض شعره .

فإذا تركنا هذا البحث وراء المراجع ونظرنا فى المواد نفسها وجدنا أنفسنا أمام ثروة جغرافية عظيمة القيمة ، عرف المؤلف كيف يجمعها ويسوقها فى نسق مترابط ، بل أعاد صياغة بعض الفقرات التى أخذها عن غيره لكى تنسجم مع المجموع ، وخير ما يعطينا فكرة عن طريقة تأليف هذا الكتاب ومنهج تصنيفه أن نحلل المادة الأولى من مواد القسم الخاص بالأندلس التى نشرها ليفى بروفنسال فى كتاب « صفة جزيرة الأندلس » ، ونردها إلى أصولها ما تيسر ذلك ، ولن نستطيع إيرادها هنا على تواليها ، فهى تحتل قرابة العشر صفحات من ذلك الكتاب ذى القطع الكبير ، والكتاب مطبوع متداول بأيدى الناس . تتكون مادة « أندلس » هذه كما يلى :

تبدأ المادة بمجموعة من الفقرات التمهيدية (١ — ١٠) التى تساق عادة كمدخل للكلام على الأندلس فى كتب الجغرافية الأندلسية ، وهذه الفقرات مقتبسة من الرازى وصاعد بن أحمد الأندلسى والبكرى وعبد الملك بن حبيب وأبى القاسم خلف بن بشكوال وابن حيان وآخرين أقل من هؤلاء أهمية . وهى خليط من الجغرافية الطبيعية والفلكية والمباحث الفيلولوجية فى أصل اسم الأندلس والتاريخ المحقق والأسطورى والأحاديث النبوية التى أوردها عبد الملك بن حبيب وأبو القاسم بن بشكوال فى فضل الأندلس . وهذه الفقرات تجمع هذه الأشتات من المعلومات العامة عن الأندلس وموقعه من الأقاليم ومكانه من الأرض والهيئة

المثلثة لشبه الجزيرة وما يحيط بها من البحار ، وجوّ الأندلس وهوائه وبعض ميزاته الطبية وفضل أهله فى الجهاد ومسافة ما يملكه المسلمون منه والاجناس التى سكنته قبل العرب . كل ذلك مسوق فى نسق واحد لا يخلو من بلاغة ونحن نجد فى هذه الفقرات كل العبارات المحفوظة عن الأندلس ، والتى أصبحت كقضايا مسلم بها أو « كليشيهات » تترود دون تغيير كلما جاء ذكر الأندلس مثل : « واسم الأندلس فى اليونانية إشبانيا . . . » (البكرى) و « الأندلس آخر المعمور فى المغرب لأنها متصلة ببحر أوقيانس . . » (الرازى) ، « وقيل اسمها فى القديم إبارية . . » (البكرى) ، « وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها شكلٌ مثلث . . » (الرازى والإدريسى) ، « ويحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث » (الإدريسى) ، « والأندلس أقاليم عدة ورساتيق جملة . . » (الرازى) ، « والأندلس شامية فى طيبها وهوائها . . » (البكرى) ، « والأندلس دار جهاد وموطن رباط . . » (عبد الملك بن حبيب وابن بشكوال) ، « أول من سكن الأندلس بعد الطوفان — على ما يذكره علماء عجمها — قوم يعرفون بالأندلش (بشين معجمة) بهم سُمِّى البلد ثم عُرِّب . . » (الرازى) ، إلى آخر هذه العبارات التى كانوا يعتبرونها جُماعَ ما يمكن قوله كمدخل للكلام عن الأندلس ، وهى عبارات ذات قيمة جغرافية وتاريخية واضحة ، ولكن الذى يستوقف النظر أنها ظلت تكرر وتعاد قرناً بعد قرن من الرابع الهجرى إلى آخر العصور الوسطى ، فلم يدخل على هذه الطريقة تغييراً إلا الإدريسى كما بينا ذلك بتفصيل ، وإن كنا ينبغى أن نقرر أن التغيير الذى أدخله الإدريسى مَسَّ طريقة الوصف أكثر مما مس مادته نفسها ، فقد اختبر أطوال المسافات والحقائق الصغيرة عن المدن ، ولكنه لم يختبر الحقائق الكبرى الخاصة بشبه جزيرة إيبريا مثلا ، ومن هنا فقل ظل يقول أنها مثلث ذو ثلاثة أركان .

وبعد هذه الفقرات يسترسل محمد بن عبد النعم الحميرى مع التاريخ ويصل إلى فتح العرب للأندلس فيذكره بتفصيل كبير .

وهذه الطريقة التى اتبعها فى تأليف المدخل هى التى سار عليها فى الكلام على كل موضع بعد ذلك : يقرأ كل ما تيسر له من الأصول الجغرافية والتاريخية ويوجزها أو يختار منها ما يرى أنه أساسى ، ثم ينْظِم ما يوجز وما ينقل فى نسق واحد . وهنا يتفاوت حظه من التوفيق وعدمه ، ففى أحيان كثيرة يكتفى ببضع كلمات لا تفيد كثيراً مثل قوله : « أُبَّذَة (Ubéda) : مدينة بالأندلس ، بينها وبين بياسة سبعة أميال ، وهى مدينة صغيرة على مقربة من النهر الكبير ، ولها مزارع وغلات قمح وشعير كثيرة جداً [١] » او « أبطير : حصن بالأندلس بمقربة من بطليوس من بنـاء محمد بن أبى عامر من جليل الصخر ، داخله عينُ ماءٍ خرارة ، وهو اليوم خال [٢] » وهذه إشارات لا تقدم ولا تؤخر ، ويتضح لنـا عجزه عن الاختيار أو التلخيص عند ما نجد ياقوت يقول عن أبدة مثلا (يكتبها بالدال) : « اسم مدينة بالأندلس من كورة جَيَّان تعرف بأبدة العرب ، اختطها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، وأتمها ابنه محمد بن عبد الرحمن [٣] » . وأمثال هذه التعريفات الهزيلة كثيرة فى الروض المعطار .

وفى بعض الأحيان يوفق توفيقاً طيبـاً فى الاختيار والاختصار فمن أمثلة اختياره الجيد قوله عن بلدة أَبَّال ناقلا عن الإدريسى [٤] :

---

(١) الروض المعطار ، ص ١١

(٢) نفس المرجع والصفحة ، ولم يستطع ليفى بروفنسال تحقيق هذا الموقع ، وهذا لا يستغرب لأنه لم يكن إلا حصناً بناه المنصور محمد بن عامر لبعض أغراضه السياسية والعسكرية ، ثم خلا وهجر بعد ذلك كما يتضح من النص .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ١/ ٧٣

(٤) صفة الاندلس والمغرب ، ص ٢١٣ — ٢١٤

وذهب ليفى بروفنسال (الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، هامش ١) أن أبال تقابل اليوم بلدة Ovejo أو Obejo إلى الشمال قليلا من قرطبة . واعتمد فى ذلك على ما ذكره اليمانى بولوفر فى بحثه الذى أشرنا إليه مراراً عن جغرافية شبه الجزيرة عند جغرافيي العرب :

José Alemany Bolufer: *La Geografía de la Península Ibérica en los Escritores Arabes*, Granada, 1921. (Separata de la Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino), p. 64.

« حصن بالأندلس فى شمال قرطبة وعلى مرحلة منها ، وهو الحصن الذى فيه معدن الزئبق .

وفيه يعمل الزنجفور ومنه يتجهز بالزئبق والزنجفور (١) إلى جميع أقطار الأرض ، ويخدم هذا المعدن أكثر من ألف رجل ، فقوم للنزول وقطع الحجر ، وقوم لنقل الحطب لحرق المعدن ، وقوم لعمل أوانى السبك والتصفية ، وقوم لبنيان الأفران والحرق ، ومن وجه الأرض إلى أسفله فيما حكى أكثر من مائة قامة » .

فهذه المادة تعتبر من أحسن ما أورده الإدريسى فى كلامه عن « الأندلس » فهى وصف فريد فى بابه للمناجم ونظام العمل فيها فى الأندلس ، وقد أكد الباحثون المعاصرون التفصيلات التى أوردها الإدريسى فى سطوره القليلة هذه وقالوا إن هذا التنظيم للعمل فى المناجم كان متبعاً فى كل مناجم إسبانيا إلى حين قريب ، ويذكر الإدريسى أنه كان بنفسه فى أبال ورأى العمل فى ذلك « المعدن » ويراد به المنجم ، وقد عرف محمد بن عبد المنعم الحميرى أهمية هذه السطور فأوردها فى كتابه .

ومن أمثلة تلخيصه الجيد كلامه عن أرشذونه Archidona (ص ١٢) وهى اليوم بلدة صغيرة فى مديرية مالقة ، ولكنها كانت أيام العرب كورة صغيرة شرقى كورة مورور Moron تصل إلى البحر عند مالقة . فقد عرف الحميرى كيف يفرق بينها وبين شذونه Medina Sidoña وكانت أيضاً كورة صغيرة جنوبى الوادى الكبير ثم ضمت إلى كورة اشبيلية ، وهى الآن بلد صغير فى

---

(١) والزنجفور أو الزنجفر هو سلفيدات الزئبق الحمراء red mercuric sulfide وكان من أهم المواد التى استعملها الناس منذ الزمن القديم للصباغ الأحمر ، ولهذا يسمى بالأحمر الطبيعى native vermilion ومناجمه فى جبال المعدن Sierra Morena مشهورة فى الدنيا كلها ، ومدينة المعدن Almaden فى هذه الجبال لا زالت إلى الآن من أكبر مراكزه . (انظر دائرة المعارف البريطانية تحت لفظ Cinnabar) وانظر عن هذه المناجم وأهميتها المراجع التى أوردها بروفنسال فى تعليق رقم ١ ص ١٥ من الترجمة الفرنسية .

مديرية قادس فى منتصف المسافة بين الجزيرة الخضراء وشريش Jerez de la Frontera ، وقد خلط الكثيرون من الجغرافيين القدامى بين البلدين .

وأمثلة توفيقه فى الاختصار والاختيار — أو عرض خلاصة قراءات شتى — كثيرة ويبدو هذا فى صورة واضحة عند كلامه على أعلام جغرافية تتعلق ببحار أو أقاليم واسعة أو صغيرة أو جبال وما أشبه ، فمن أمثلة كلامه على البحار مادة أُقيانُس التى ذكرناها ، ومن أمثلة كلامه عن أقاليم صغيرة كلامه عن إقليم الشَّرَف (رقم ٩٠ ص ١٠١ من النص العربى) وهو إقليم الزيتون الواقع شمال اشبيلية وشمالها الغربى ممتداً إلى البرتغال ، ولا زال يسمى إلى الآن باسم Ajarafe أو Aljarafe (انظر الترجمة الفرنسية للروض ، ص ١٢٤ تعليق ٤) ومن أمثلة كلامه على أقاليم كبيرة كلامه عن « افرنجة » (رقم ٢١ ص ٢٦ — ٢٨) ، وقد ذهب ليفى بروفنسال (ص ٣٢ من الترجمة الفرنسية) أن المراد بها فرنسا ، ولكننا نحسب أن المراد هنا بلاد غربى ووسط أوروبا (عدا اسبانيا والجزر البريطانية و بلاد الشمال و إيطاليا) حتى حدود بلاد الصقالبة الروس ، وإليك نص القسم الجغرافى من المادة لتتبين قيمته :

« إفْرَنْجَة : فى وسط الإقليم الخامس ، هواؤها غليظ لشدة بردها ، وصيفها معتدل ، وهى بلاد كثيرة الفاكهة ، غزيرة الأنهار المنبعثة من ذوب الثلج ، ومدائنها متقنة الأسوار ، محكمة البناء ، وآخر حدودها البحر الشأمى بقبليها ، والبحر المحيط بجوفيها ، وتتصل ببلاد رومة أيضاً من ناحية القبلة ، وتتصل أيضاً من ناحية الجوف ببلاد الصقالبة[١] ، بينهما شَعْراء ملتفة مسيرة الأيام الكثيرة ، وتتصل فى الشرق بالصقالبة[١] أيضاً ، وتتصل فى الغرب بالبَشْكُنش[٢] ، وتتمادى أعمال إفرنجة فى الطول والعرض مسيرة شهرين فى

(١) هذا التحديد يؤيد ما ذهبنا إليه من المراد ببلاد افرنجة هنا .

(٢) المراد بهم البسكيون Los Vascos الاسبان والفرنسيون ، ويسمى الاسبان منهم أيضاً Vascones ومن هنا أتت هذه الصورة العربية للاسم .

شهرين ، ويحجز بين بلاد إفرنجة وبلاد الصقالبة من الجوف والشرق(١) الجبلُ المعترض بين البحرين(٢) ، فيتمادى بلاد الإفرنج مع ساحل البحر الشأمى حتى يلزق بجزيرة رومة(٣) وبلاد لُنقُبَرْدِية(٤) ، ويتمادى مع الجبل المعترض فى الجوف إلى البحر المحيط ، ويتصل بالصقالبة بلاد المجوس المعروفين بالأنقلش(٥) ؛ وسيوف إفرنجة تفوق سيوف الهند ، ومنها يرد الرقيق من بلاد الصقالبة ، ولا يكاد يُرى ببلاد إفرنجة زَمِنٌ ولا ذو عاهة ، والزنى فى غير ذوات الازواج عند الإفرنج غير منكر ، وإذا حلف أميرهم أو كبيرهم حانثاً استهانوه ، ولم يزالوا يعيرونه بذلك . وأبناء الاشراف عندهم يسترضعون فى الأباعد ، ولا يعرف الابن أبويه حتى يعقل ، وإذا عقل رد إليهما ، فيراهما كالسيدين ويكون لهما كالعبد » .

وقد نبه ليفى بروفنسال إلى أن جزءً من هذه المادة منقول عن البكرى ، ونضيف إلى ذلك أن البكرى أخذ معلوماته عن تلك البلاد عن ابراهيم بن أحمد الطرطوشى . والغالب أن محمداً بن عبد المنعم الحميرى أطلع على رحلة الطرطوشى بنفسه ، وهذا ظاهر من سياق كلامه عن مدينة لورقة (انظر ص ١٧١) ، وسواء أخذ الحميرى عن البكرى أو الطرطوشى فالمادة نفيسة تدلنا على أن معلومات أهل الأندلس عن بقية أوروبا كانت صحيحة فى مجموعها ،

---

(١) أى من الجنوب الشرق والشرق .

(٢) ذهب بروفنسال إلى أن المراد بهذه الجبال جبال الألب ، ولكننا نظن أن المراد جبال الكربات .

(٣) أى شبه جزيرة إيطاليا .

(٤) سهل لبردية نسبة إلى اللمبارديين ، والصورة العربية هى رسم لاسمهم فى اللاتينية Lungubardi ويكتبونه فى بعض الأحيان الانكبردة (بضم الكاف وفتح الباء) .

(٥) الانقلش هنا تعريف للاسم القديم لقبائل الانجليز Angles الذى اشتق منه اسم الأنجليز ، والمراد هنا ليس الآنجلز وحدهم بل شعوب الشمال أهل اسكنديناوة أيضاً ، وكانوا يعرفون عند الأندلسيين بالمجوس كما بيناه فى بحثنا عن يحيى الغزال ورحلته إلى بلاد الشمال .

وهذا أمر لا يستغرب من قوم كانوا أول من نقل إلى العربية كتاباً فى وصف أوروبا . وقد رأينا كذلك أطرافاً مما كتبه ابراهيم بن أحمد الطرطوشى والبكرى ، ومن أسف أننا لم نعثر إلى الآن على الجزء الذى كتبه ابن سعيد عن الأرض الكبيرة .

هذه صورة عامة عن تكوين ذلك المعجم الجغرافى ومادته ، وكلامنا مبنى فى الأغلب على المواد الخاصة بالأندلس كما نشرها ليفى بروفنسال ، ولم نستطع الاطلاع إلا على جزء من الأصول التى نشر عنها ، ولا شك أن الكتاب كله فى حاجة إلى نشر عندما يتيسر جمع المخطوطات المتفرقة التى كانت فى حوزة هذا العلامة الفرنسى وحقق الكتاب عليها .

وبهذه المناسبة لا بد أن نذكر أن الترجمة الفرنسية التى قام بها للمواد الأندلسية من الروض المعطار والتعليقات التى أضافها إليها زادت فى قيمة الكتاب وأظهرت فضله ، وهذا مثال على العمل العلمى الجيد القائم على الاخلاص فى خدمة النص وقارئه ، ومن أحسن ما عمله بروفنسال بالإضافة إلى مقدمته للكتاب ذلك التحليل الدقيق لمادته (ص ٢٨ — ٣٤) فى آخر الترجمة الفرنسية ، فقد عمل ثبتاً بكل مواضع الكتاب التى وردت فيها معلومات جغرافية أو تاريخية أو أدبية ، وسأورد فيما يلى ترجمة للأبواب الجغرافية من ذلك التحليل ، وقد أوردها هو مشيراً إلى صفحات الكتاب ، وسنكتفى نحن هنا بذكر عدد المواضع فى كل حاله ، لأن غرضنا هو بيان قدر المادة العلمية للكتاب .

أولا : مصادر الثروة الطبيعية

ا — المعادن والتعدين : يرد الكلام عنها فى ٢٣ موضعاً .
ب — عيون المياه المعدنية فى ١٠ مواضع .
ج — نبات الأندلس الطبيعى : يتحدث عن ٤ نباتات فى ٨ مواضع .

د — زراعة الحبوب (القمح والشعير خاصة) فى ٨ مواضع .

هـ — الشجريات (وخاصة شجر الفاكهة) ، يتحدث عن ٧ أنواع من الأشجار فى ٢٦ موضعاً .

و — الكروم فى ١٢ موضعاً .

ز — الزيتون فى ١٢ موضعاً .

ح — شجر التوت وتربية دود القز فى ٥ مواضع .

ط — زراعات أخرى ذات قيمة إقتصادية مثل الصبغ السماوى والزعفران وما إليها فى ٦ مواضع .

ى — الرى : نظامه فى ١١ موضعاً من الأندلس .

ك — تربية الماشية فى ٥ مواضع .

ل — تربية النحل واستخراج عسله فى ٣ مواضع .

م — مصائد السمك فى ٥ مواضع .

ثانياً : النشاط الصناعى

ا — التعدين فى ٥ مواضع .

ب — مواد البناء والمحاجر فى موضعين .

ج — الطواحين فى ٩ مواضع .

د — دور الصناعة والصناعات البحرية (مثل استخراج الملح) فى ٨ مواضع .

هـ — محصولات تصدر إلى خارج الأندلس : ١٠ محصولات .

ثالثاً : معلومات عن المدن

ا — تحقيقات لغوية عن أصول اسمائها فى ٩ مواضع .

ب — أمثال خاصة بالمدن : ٣ أمثال .

ج — مواقع أثرية فى ٢٣ موضعاً .

د — أسوار قديمة ظلت قائمة فى العصر الإسلامى إلى أيام المؤلف فى ٢٦ موضعاً .

هـ — بوابات : ٧ بوابات .

و — قلاع : ١٣ قلعة .

ز — قناطر وجسور قوارب : ٦

ح — مجارى مياه فى ٧ مواضع .

ط — مواضع استشفاء بالمياه فى ١٠ مواضع .

ى — مساجد ومساجد جامعة : ٣٠ مسجداً موصوفاً .

ك — كنائس وأديرة ومواضع مسيحية ذات قداسة : ١٠

ل — أسواق : ٢١ سوقاً .

رابعاً : معلومات عن الضرائب

ا — إشارات إلى أقسام إدارية ضرائبية فى ١٣ موضعاً .

ب — إشارات إلى ضرائب فى ٧ مواضع .

وهذا الأحصاء يعطى القارىء فكرة عن قيمة الثروة الجغرافية والحضارية التى تضمها مواد هذا الجزء الخاص بالأندلس من الروض المعطار ، فإذا ذكرنا أن مواده المغربية تضم مثل هذا القدر من المعلومات ، وأن البلاد التى تيسرت له عنها مادة وافرة — مثل مصر — حظيت بمثل هذا القدر الوافر من التفاصيل تبينا بالفعل أن محمد بن عبد المنعم الحميرى أهدى المكتبة الجغرافية معجماً يعتبر بحق خطوة واسعة إلى الأمام فى تاريخ المعاجم الجغرافية العربية .

ولم نشر فى الكلام إلى مادته التاريخية لأنها خارجة عن موضوع هذه الدراسة ، ولكنها ينبغى أن تدخل فى الاعتبار عند التقدير العام لذلك المعجم ،

ومن حسن الحظ أن معظم المادة التاريخية التى ساقها فى هذا الكتاب تتناول عصرى المرابطين والموحدين وتعتمد على كتب لم نجدها أو لم نجد بعض أجزائها إلى الآن مثل تاريخ أبى مروان بن صاحب الصلاة وأبى التقى طاهر بن عبد الرحمن .

الصوت الجهير وانقطاعه ، وهم بالنسبة لابن الخطيب كَنِسْبة سلاطين غرناطة بعد محمد بن يوسف الغنى بالله إلى من قبله ، فإن عصر محمد الغنى بالله هذا هو الفاصل بين فترة الاستقرار والأمل فى البقاء قبله وخلال حكمه وفترةِ الفوضى والتراجع واليأس التى بدأت فى عهد ابنه وخليفته أبى الحجاج يوسف (الثانى) ابن محمد الغنى بالله (٧٩٣ — ٧٩٧ / ١٣٩١ — ١٣٩٤) واستمرت بعد ذلك قرناً من الزمان فى اضمحلال وتناقص مستمرين فيما خلا فترات قليلة قصيرة حتى انتهت بزوال مملكة غرناطة فى ٢ ربيع الأول ٨٩٧ / ٢ يناير ١٤٩٢

وكان ابن الخطيب معاصراً لمحمد الغنى بالله هذا ، وكان من كُتَّابه ووزرائه كما كان من كتاب أبيه أبى الحجاج يوسف (الأول) بن أبى الوليد . وأخذ ابن الخطيب بنصيب وافر من الأهوال التى خاض غمارها سلطانه محمد الغنى بالله . ومن سوء الحظ أن مملكة غرناطة ابتليت من مولدها إلى مماتها بنقمة الشقاق والنزاع بين حكامها وأصحاب الأمر فيها ، ولم يستطع ابن الخطيب أن ينجو بنفسه من معاطب هذه المنازعات ، لأنه كان بطبعه طموحاً إلى السلطان والجاه حريصاً على المال والثراء ، وقد أشقاه هذا الطموح وذلك الحرص فدخل فى منازعات خطيرة وتعرض لخطوب وألوان من الهوان ما كان أغناه عنها .

ولن نقص هنا حياة لسان الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن محمد بن عبد الله السَّلْمَانى ، فقد أتينا بموجزها فى كتاب تاريخ الفكر الأندلسى (فقرة ٨١ ص ٢٥٢ — ٢٥٩) ، ورواها محمد عبد الله عنان فى مقدمة الجزء الأول من « الإحاطة » الذى حققه ونشره سنة ١٩٥٥ (٣٠ — ٥٨) ، وفى كتابه « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤٥٣ — ٤٦١) ، وأتى كذلك بدراسة شاملة مستفيضة لمؤلفاته فى الأدب والتاريخ والطب والموسيقى وما إلى ذلك مما شملته عبقرية ابن الخطيب وروى حياته بتفصيل كبير فرانثيسكو بونس بويجس فى كتابه الحافل الذى يستغنى عنه دارس فى تاريخ الفكر الأندلسى (رقم ٢٠٤ ص ٣٣٤ — ٣٤٦) ،

وقصّها أحمد مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكتانى فى مقدمة الجزء الذى نشراه من « أعمال الأعلام » (الدار البيضاء ١٩٦٤) ، هذا بالإضافه إلى مادة بروكلمان عنه[١] .

وهذا كله يغنينا عن رواية تاريخ حياته وسرد مؤلفاته وهى كثيرة جداً ، لأن لسان الدين بن الخطيب كان رجلا واسع الثقافة متعدد الجوانب والاهتمامات الفكرية ، فكان شاعراً مترسلا مؤرخاً جغرافياً طبيباً عالماً بالموسيقى ، وكانت له معرفة بشئون الإدارة واطلاع على مسائل السياسة والحكم ، ومن حسن الحظ أنه كان مولعاً بالكتابة ، فألف فى ذلك كله وأفاض ، ولم يترك فكرة دارت فى ذهنه إلا كتبها أو معنى جال فى خاطره إلا أثبته ، ولو أحصينا صفحات ما كتب من المؤلفات العلمية لبلغت ألوفاً غير رسائله الديوانيات والإخوانيات وقد جمع منها الكثير فى مجلدات ، وأورد لنا المقرى فى « نفحه » عدداً كبيراً منها ، ثم ديوان شعره ، ولا بد أنه كان ضخما ، فقد كان الرجل مكثراً من الشعر يقوله فى كل مناسبة ، وإن لم يصل إلى مراتب الفحول إلا فى أبيات قلائل من ذلك الشعر الكثير ، ولم يكن ذلك — أحْسَبُ — عن قصور فى الملكة ، بل عن جمود فى العاطفة ، فأنت مهما تقرأ لابن الخطيب لا تحس أن قلبه وراء شىء مما يكتب ، وكل ما نقرأ له صادر عن مهارة ذهن وصنعة لسان ، وهذا فى وقت لم يكن ينفع غرناطة فيه غير القلب والاحساس .

وكان من الطبيعى أن يختص لسان الدين ابن الخطيب الجغرافيةَ بشىء من الكثير الذى كتب ، فهذا الكثير لم يغادر ضرباً من ضروب العلم العربى إلا تناوله ، فكان من البديهى أن يكتب فى الجغرافية والرحلات ، فإن الأولى كانت أخت التاريخ فى الأندلس ، وأما الثانية فقد عاش ابن الخطيب عمره

---

(١) تاريخ الأدب العربى ، ج ٢/٣٣٧ — ٣٤٠ والملحق ٢/٣٧٢ وكذلك مادة دائرة المعارف الإسلامية بقلم فرديناں زايبولد ، الطبعة الأولى ج ٢/٤٢١

كله فى رحلة وتنقل ، وكان كما ذكرنا مُغرى بالكتابة لا يكاد يدور فى ذهنه خاطر إلا أودعه الورق ، ومن ثمَّ فله فى وصف رحلاته أكثر من رسالة ونستطيع أن نحصى كتاباته فى الجغرافية فيما يلى :

١ — المقدمة الجغرافية لكتاب الاحاطة فى تاريخ غرناطة ، وهو معجم تراجم لأعلام الغرناطيين ومن حل بغرناطة من غيرهم .

٢ — المقدمة الجغرافية لكتاب اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ، وهو تاريخ لسلاطين بنى الأحمر إلى أيامه .

٣ — رسالة خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف .

٤ — رسالة معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار .

٥ — وصف رحلة قصيرة فى المغرب ضمَّنه كتابه المسمى نُفَاضة الجراب فى علالة الاغتراب .

٦ — مقامة مفاخرات مالقة وسلا .

فأما القطعتان الأولى والثانية فهما فى وصف غرناطة ، والثانية منهما مختصر للأولى مع إضافات مختلفة ، فهما فى الحقيقة عمل واحد يدخل فى صميم العلم الجغرافى كما نعرفه اليوم .

وأما القطعتان الثالثة والرابعة فهما وصف رحلتين فى قالب أدبى مسجوع هو أقرب إلى طريقة المقامات ، فهما بذلك أدخل فى ميدان الأدب منهما فى الجغرافية .

والقطعة الخامسة وصف رحلة فى نثر مرسل قريب مما نعرفه عند المجيدين من أصحاب أدب الرحلات عندنا .

والسادسة مقامة ، تمس الجغرافية من بعيد ، فهى محاورة بين الأندلس والمغرب متمثلين فى مدينتى مالقة وسلا ، وكل منهما تجتهد فى إظهار فضائلها ووجوه امتيازها على صاحبتها .

وعلى هذا فكتاباته فى الجغرافية والرحلات تقع فى أربعة أنواع : الوصف الجغرافى الخالص والرحلة الأدبية المسجوعة والرحلة العادية ثم المقامة الجغرافية .

١ — الوصف الجغرافى الخالص :

المقدمة الجغرافية لكتاب الاحاطة

على عادة الأندلسيين فى التقديم للتاريخ بالجغرافية حرص ابن الخطيب على أن يورد فى مقدمة « الاحاطة » وصفاً مطولا للمنطقة التى شملها سلطان مملكة غرناطة ، واختص العاصمة نفسها بوصف مطول . وهذه المقدمـــة الجغرافية تعتبر عنصراً فريداً فى بابه لا فى علم الجغرافية عند الأندلسيين فقط ، بل فى تاريخ العلم الجغرافى فى أوروبا كلها إلى أواخر العصور الوسطى ، فللمرة الأولى نجد بين أيدينا وصفاً جغرافياً مفصلا لاقليم صغير وعاصمته ، وقد جرى ابن الخطيب فى هذا على تقليد اتبعه بعض المشارقة ، فلدينا مثـــلا وصف مكة للأزرقى ووصف المدينة للسمهودى وخطط بغداد لأبى طاهر طيفور ، وقد جود الأندلسيون قبل ابن الخطيب فى وصف المدن الكبيرة وأقاليمها ، فللرازى كما ذكرنا كتاب فى وصف قرطبة وخططها ، ولأبى جعفر بن خاتمة معاصر ابن الخطيب كتاب فى وصف المرية وفضائلها يسمى مزية المرية[1] ، بل سبق ابن الخطيب إلى صفة غرناطة والتأريخ لها أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى المعروف بالملاحى فى مقدمة كتابه « تاريخ علماء البيره » والبيرة كانت بلدة صغيرة على بعد أربعة كيلومترات شمالى غرناطة ، كانت قبل ذلك عاصمة الاقليم ،

---

(١) يلاحظ أن الأندلسيين أخذوا فن التأليف فى وصف المدن والتاريخ لها عن المشارقة ، وهم أئمة هذا الفن دون شك ، وإلى مطالع العصر الحديث لا نجد فى أوروبا كتاباً يشبه ما كتبه الأزرقى والسمهودى وأبى طاهر طيفور فى مكة والمدينة وبغداد ، بل لا يوجد فى التراث العلمى العالمى فى تلك العصور ما يشبه كتاب خطط المقريزى وهو من أعاظم المؤلفات فى تاريخ العرب الفكرى .

ثم خمل أمرها وانتقلت الأهمية إلى غرناطة [١] ، ويبدو أن اعتماد ابن الخطيب على كتاب الملاحى كان كبيراً ، فهو يشير إليه فى مواضع كثيرة من الاحاطة .

ويعطينا ابن الخطيب فى كلامه المفصل فى الاحاطة وصفاً جغرافياً كاملا لغرناطة والاقليم الداخل فى مملكتها على أيامه ، ولا يشوب الطابع العلمى لهذا الوصف إلا حرص ابن الخطيب على إظهار بلاغته واهتمامه بعرض محصوله الوفير من اللغة ما بين ألفاظ وعبارات وتضمينات ، ولكننا نحمد الله على أنه تخلى فى كتابى الاحاطة واللمحة البدرية عما أولع به من السجع ، فارسل كلامه طلقاً لا يشوبه غير الاسهاب وكثرة المترادفات .

---

(١) أورد ابن الخطيب فى مقدمة الاحاطة (ج ١/٨٩ — ٩٣) ثبتا المراجع التى اعتمد عليها والمؤلفات فى تواريخ المدن وأوصافها التى سبقت كتابه . وهذا الثبت فى غاية الأهمية لمن يريد التأليف فى المدن وتاريخها عندنا . ويتبين من هذا الثبت اطـــلاع ابن الخطيب الواسع واحاطته النادرة بالمكتبة العربية فى التاريخ والجغرافية .

والبيرة أو لبيرة أو يلبيرة كانت العاصمة القديمة للكورة التى سميت فيما بعد بغرناطة ، وكانت فى أصلها بلدة من انشاء الايبيريين القدماء قبل الرومان ، واسمها فى القديم Eliberri أو Iliberi ، والاسم مكون من مقطعين : ili = مدينة و berri بمعنى قديمة ، ثم عمرها الرومان وجعلوها قاعدة فيها مجلس بلدى وسميت فى نصوصهم Municipium Florentinum Iliberritanum . وعندما فتح العرب الأندلس سكنها الكثير من الجند الشاميين وموالى بنى أمية ، ثم اهتم بها عبد الرحمن الداخل وعمرها وابتنى جامعها وجعلها عاصمة كورة البيرة ، وقد ظلت لها هذه المكانة حتى قامت الفتنة الكبرى أوائل القرن الخامس الهجرى ووقعت الحرب بين العناصر الأندلسية والعناصر البربرية من قوات الخلافة المنتثرة ، فحمل البربر على البيرة وخربوها ، وعمر امراؤهم غرناطة التى تقع على نحو ٤ كيلومترات جنوبها وابتنوا فيها الحصون فأصبحت عاصمة الكورة وخمل أمر البيرة شيئاً فشيئاً حتى لم يعد لاسمها وجود الآن إلا فى قرية آبار إلبيرة Pozos de Elvira ، وباب من أبواب غرناطة العربية يسمى باب إلبيرة .

انظر المادة الوافية التى كتبها عنها فرديناند زايبولد فى الطبعة الأولى من دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٢٦ — ٢٧ ، والروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى تحت إغرناطة رقم ١٩ ص ٢٣ — ٢٤ وإلبيرة رقم ٢٥ ص ٢٩ — ٣٠ والترجمة الفرنسية والتعليقات بقلم ليفى بروفنسال ص ٢٩ — ٣١ و ص ٣٧ — ٣٩ من القسم الفرنسى .

وخير ما بين أيدينا الآن عن إلبيرة وإقليمها — إلى جانب ما يقدمه ابن الخطيب من معلومات — الفصل الذى أداره العذرى على إلبيرة (نصوص عن الأندلس بتحقيق الدكتور عبد العزيز الاهوانى ، مدريد ١٩٦٥) ص ٨١ — ٩٤

ولم يستطع ابن الخطيب الفصلَ بين الجغرافية والتاريخ ، وهو معذور فى هذا فقد كان ذلك هو التقليد الجارى — كما رأينا — حتى أن مادة العُذْرى عن كورة البيرة (وهو الاسم القديم لكورة غرناطة) معظمه تاريخ . وابن الخطيب يبدأ بتحقيق أصل الاسم ويشير إلى البيرة قائلا : « يقال غرناطة ويقال إغرناطة ، وكلاهما أعجمى ، وهى مدينة كورة إلبيرة فبينهما فرسخان وثلثا فرسخ . وإلبيرة من أعظم كور الأندلس ومَوْسَطة ما اشتمل عليه الفتح من البلاد ، وتسمى فى تاريخ الأمم السالفة من الروم سنام[1] الأندلس ، وتدعى فى القديم بقسطيلية[2] . وكان لها من الشهرة والعمارة ، ولأهلها من الثروة والعدة ، وبها من الفقهاء والعلماء ما هو مشهور . . . » ثم ينقل بعد ذلك فقرة عن عمارة إلبيرة ومسجدها الجامع . ويذكر كيف خمل أمرها خلال القرن الخامس الهجرى أثناء الفتنة الكبرى وانتقلت الأهمية إلى غرناطة ، ويختم هذه النقول بفقرة من كتاب تاريخ علماء البيرة لأبى القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى المعروف بالملاحى — نسبة إلى الملاحة La Mala قرية لا تزال قائمة إلى

---

(١) كذا فى مخطوط الاحاطة المحفوظ فى أكاديمية التاريخ (ورقة ٨ ا) وأثبتها عنان على هذه الصورة (الاحاطة ١/٩٩) ولم أجد ما يؤيد هذه التسمية فيما كتب عن غرناطة فى القديم . وقد ورد هذا اللفظ فى أحد مخطوطات « اللمحة البدرية » التى اعتمد عليها محب الدين الخطيب فى نشرها (القاهرة ١٣٤٧) : شام الأندلس (ص ١٢ تعليق ١) وهى صورة لا بأس بها ، غير أنهـا لا تنسجم مع الكلام قبلها .

(٢) تناول دوزى هذا اللفظ بالتعليق فى أبحاثه ١/٣٣١ — ٣٣٢ ودرس موضوعها بتفصيل فرانثيسكو خابيير سيمونث فى كتابه عن صفة مملكة غرناطة :

Francisco Javier Simonet, *Descriptión del Reino de Granada, Sacada de los Autores Arábigos* (Granada, 1872).

ومعظم مادته مستق من كتابات ابن الخطيب عن غرناطة . وخلاصة رأيه (ص ٣١ — ٣٣) أن قصطيلية — ومعناها القلعة Castilla - Castellón — كانت قلعة فى حوز بلدة إلبيرة القديمة ، وكان حاكم البلد يقيم فيه ويعتصم به أثناء الحروب العنيفة بين العرب والبربر . ثم غلب اسم إلبيرة وهى الحاضرة على اسم تلك القلعة وقد اعتمد سيمونيت فى ذلك على شواهد من كلام الرحالة لويس دى مارمول الذى طاف بنواحى غرناطة بعد خروجها من يد العرب بوقت قصير .

اليوم جنوب غربى غرناطة — ومن أسف أن هذا الكتاب قد ضاع فهو النموذج الذى احتذاه ابن الخطيب فى كتابة « الاحاطة » ولو عثرنا عليه لعرفنا إلى أى حد اعتمد ابن الخطيب على سابقه هذا فى تأليف كتابه .

وتلى ذلك فقرة طويلة تعتبر من أحسن ما لدينا من أوصاف البلدان ، وقد احتفل ابن الخطيب فى جمع مادتها من شتى المراجع التى كانت فى متناول يده ، ولكن المرجع الأكبر كان دون شك علمه وخبرته ، فقد نشأ ودرس فى غرناطة وتقلب فى شتى وظائف الدولة حتى وصل إلى الوزارة ، وملك زمام الإدارة فترات متطاولة ، وكان بطبعه ذا اهتمام بالمال والعقار والضياع والأرض والزروع والحاصلات وما أشبه ، فتجمعت لديه معلومات وافرة عن تلك الموضوعات الداخلة فى صميم الجغرافية وعرف كيف يصوغها فى قالب محكم ، ومن أسف أنه لم يعطينا كل ما عنده فى هذا الباب ، لأنه ساق المادة الجغرافية كمقدمة لما يليها من حديث التاريخ والأدب والتراجم .

ورغم هذا الايجاز فإن هذه المقدمة الجغرافية غنية بالمادة والمعلومات الدقيقة النافعة ، وهى تتضمن كل النقط التى كانت تدخل إذ ذاك تحت مفهوم الجغرافية ، ولن نستطيع إيراد هذا الوصف لأنه يقع فى نحو خمسين صفحة من النص المطبوع ، ولهذا فسنكتفى بايراد النقط الرئيسية التى يحتويها :

١ — تحقيق عن أصل اسم غرناطة والبيرة (وقد ذكرناه) .

٢ — مكان الأندلس من الاقاليم : يقع فى الاقليم الخامس ويقول صاعد ابن أحمد أن معظمه فى الخامس وجزء منه فى الرابع . تحديد الاقليم الخامس بصورة عامة (نقلا عن ابن سعيد فى الغالب) .

٣ — طالع غرناطة نتيجة للاقليم الذى تقع فيه .

٤ — موقع غرناطة من خطوط الطول والعرض . يلاحظ أنه يقول هنا ان غرناطة مساوية فى الطول بأمر يسير لقرطبة وميورقة والمرية . وهذا الكلام لا يفهم إلا إذا ذكرنا ما قلناه آنفاً من أنهم كانوا يتصورون أن شبه الجزيرة

مثلث وأن ساحله الشرقى يسير فى خط مستقيم من الشرق إلى الغرب وهذا يستتبع تصورَ أن قرطبة وغرناطة والمرية تقع على خط رأسى واحد تقريباً ، ولما كانوا يتصورون أن الجزائر الشرقية (البليار) فى مواجهة المرية فقد قالوا إن ميورقة أيضاً تقع على نفس الخط ، إلى جنوبى المرية طبعاً .

وهو يقول أيضاً أنها مساوية فى العرض لاشبيلية والمرية وشاطبة وطرطوشه وسردانية . وهذا الطول أيضاً ناتج من ذلك الخطأ فى التصور .

٥ — تحديد للمسافات بين غرناطة وقرطبة (٩٠ ميلا) والبحر (٤ بُرُد) فاما الميل فكيلومتران وأما البريد فأربعة وعشرون ، وتقدير هذه المسافات يتوقف على الطريق الذى كان يتبع ، وبين قرطبة وغرناطة اليوم على الطريق الرئيسى ١٦١ ك. م. وبينها وبين أقرب نقطة إليها على البحر عند مطريل ٧٠ ك. م.

٦ — موقع غرناطة بين الجبال (يريد جبل الثلج أو شُلير أو سيرا نيفادا) والبراجلات ، جمع برجيلة أو بَرجاله وهو لفظ لاتينى معرب parcella ويراد به قطعة الأرض ، ولا يزال يستعمل إلى الآن فى هذا المعنى فى اللغة الاسبانية parcela ، وقد كان العرب عند ما نزلوا إقليم إلبيرة (أى غرناطة) قسموا بعض الأراضى قطعاً فنسبت إلى القبائل أو البطون فقالوا برجيلة قيس وبرجيلة أبى جرير ، واللفظ وارد عند ابن حيان فى كلامه عن ثورة عرب إلبيرة أيام الأمير عبد الله ، وقد كتب عنه سيمونت فى معجمه (٢٦٩—٢٧٠) ودوزى فى ملحق القواميس (١/٦٥) .

ويحدد ابن الخطيب موقع غرناطة من الكنبانيه ويراد بها سهل قرطبة وكان يعرف أيام العرب بالكنبانية أو القنبانية ، معرب عن Campinia ويراد به السهل الفسيح ، ثم يذكر نتائج هذا الموقع الفريد لغرناطة بين السهل والجبل وقرب البحر ، وهى نتائج اقتصادية تتلخص فى وفرة المياه والزراعات فى إقليمها ، فهى دائمة الفواكه و « بحر من بحور الحنطة » وهو لا ينسى هنا ذكر ما يمتاز به إقليمها من النباتات الترياقية أى ذات الخواص الطبية

ويختم ذلك بقوله : « فجسوم أهلها لصحة الهواء صلبة وسحنهم خشنه وهضومهم قوية ونفوسهم لمكان الحر الغريزى جَرِيَّة .

٧ — معادن إقليم غرناطة كما ترد فى فقرة للرازى وأخرى لمؤلف لم يذكر اسمه وأهمها الذهب والفضة والرصاص والحديد والتوتيا والمرقشيتا[1] واللازورد . وفى هذه الفقرة يرد ذكر كثير من النباتات الطبية وغيرها التى اشتهر بها إقليم غرناطة .

٨ — وبعد فقرتين طويلتين عن فتح العرب لغرناطة واستقرار طوائف من العرب فى اقليمها ووضع النصارى المعاهدين بها وما أصابه من تغيير نتيجة لحوادث معروفة رواها ابن الخطيب وغيره بالتفصيل .

٩ — يورد بياناً بما يحيط بغرناطة من الجنّات والمدارج والغابات ومجارى الماء ، والجنات جمع جنة ويراد بها المزرعة ، ويقابل فى الإسبانية اليوم huerta ، وقد تسمى الجنة أيضاً بالفَدَّان ، والمدارج جمع مدرج والمراد به سفح الجبل المزروع ، وقد ذكر ابن الخطيب عدداً كبيراً من هذه بأسمائها ، والمفروض أن هذه كلها كانت داخلة فى زمام البلدة نفسها .

١٠ — المرتفعات المحيطة بسهل غرناطة من ناحيــة الشرق وهى التى تستمر حتى تتصل بمرتفعات البَشارات ، وهو يصفها وصفاً دقيقاً ذاكراً تحصيناتها بالأبراج والخنادق والحصون وما تضمه من المزارع والرياض والأشجار . ويتحدث كذلك عن المرتفعات أو التلال الواقعة شمال غرناطة وجنوبها مثل البياسين وجبل الفخار وجنة العريف وما يتصل بها من الكُدَى (جمع كدية وهى التل من الحجر الرملى ، والكدى فى الغالب أقل ارتفاعاً من العروق) وكانت الكدى فى إقليم غرناطة خضراء مسكونة تقوم عليها المزارع والغابات ، وقد وصفها ابن

---

(١) المرقشيته أو المرقشيطة حجر ذو خواص طبية يغلب على الظن أنه البزموت ، وذكر ابن سينا أنه يوجد على أنواع مختلفة . راجع عنه جامع المفردات فى آخر كتاب « ضوابط دار السكة » لعلى ابن يوسف الحكيم بتحقيقنا ، مدريد ١٩٦٠

الخطيب وصفاً مفصلا وبيّن ما فيها من المزارع والمساكن والبساتين والمنازه وما تضمه من ثمار وأشجار وزهور ورياحين .

١١ — ما يقع خارج أسوار البلد من قرى وضياع ، والضيعة هنا تسمى الدار وكانت لبعضها أسماء معروفة فيقال : الدار المنسوبة إلى هذيل والدار البيضاء والدار المنسوبة إلى السّنيّات ويقابل مصطلح الدار فى الإسبانية اليوم casería ، وشبيه بالدار البيدر ويراد به الدار الريفية تحيط بها ضيعة صغيرة ، وهى تقابل ما يعرف اليوم باسم cortijo . وهنا يذكر ابن الخطيب اسماء نحو ١٤٠ قرية من قرى إقليم غرناطة مع تفصيلات عن بعضها ، ويختم هذا الكلام بعبارة إحصائية عما يرتفع إلى خزانة الدولة من ضرائب هذه الأراضى والقرى وانتاجها من القمح وما إلى ذلك .

١٢ — ويخصص ابن الخطيب الفقرة الأخيرة من هذه الدراسة الجغرافية لغرناطة للكلام على السكان ، وهو شديد الاعجاب بهم يثنى عليهم ثناء قل أن قرأنا مثله لرجل فى أهل بلده ، وهذه سمة كريمة من سمات خلق ابن الخطيب ، ونحن إذا أسفنا لانطلاقه مع المديح انطلاقاً حال دون الوصف الدقيق للغرناطيين بما لهم وما عليهم ، فإنه لا يفوتنا أن نقدر هذه العاطفة القومية فى ذلك الرجل الكبير ، ويستوقف نظرنا قوله : « وصورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة ، وألوانهم زُهرٌ مشربة بحمرة ، وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها غَرْبٌ كثير ، وتغلب عليهم الإمالة ، وأخلاقهم ابيّة فى معانى المنازعات ، وأنسابهم عربية ، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير ، ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشى بينهم المَلْفُ المصبوغ شتاء ، وتتفاضل البزة بتفاضل الجِدَة والمقدار ، والكتان والحرير والقطن والمرعز والأردية الافريقية والمقاطع التونسية والمآزر المشفوعة صيفاً ، فتبصرهم فى المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة فى البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة » فهذه صورة كأنها لوحة بريشة مصور ، وهى فى هذا الكتاب تحل محل الصور والرسوم التى لا تخلو منها

كتب الجغرافية ، وهذا فى ذاته عنصر هام من عناصر التأليف فى الجغرافية ، وقد أورد مثل هذه الصور الكثير من مؤلفينا ، ولكن هذه الصورة الدقيقة التى جلاها ابن الخطيب فريدة فى بابها ، فنحن نرى من خلالها أهل غرناطة تلك بملامحهم وهيآتهم وملابسهم وأشكالها وألوانها كأنهم أحياء يسعون أمامنا .

وفى هذه الفقرة يتحدث ابن الخطيب عن أشكال أزياء الملابس وعن طعام أهل غرناطة ثم عن النقود المستعملة فيها ، ويُجْمِل بالكلام على بعض عاداتهم وتقاليدهم ثم يتحدث عن نسائهم ، وهو شديد الإعجاب بهن ، لا يكاد يأخذ على أوصافهن إلا ميلهن إلى القصر ، ثم يختم هذه المقدمة الجغرافية بعبارة تنم عما كان يحس به من الخوف الدائم على بلده غرناطة ورجائه أن يكلأها الله بعنايته ويجنبها شر ما يحوم حولها من الأخطار : « وقد بلغن — أى نساء غرناطة — من التفنن فى الزينة لهذا العهد والمظاهرة بين المصبغات والتنفيش بالذهبيات والديباجيات ، والتماجن فى أشكال الحلى إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عينَ الدهر ويكفكف الخطب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعاملَ جميعَ مَن بها بستْره ، ولا يسلبهم خفيَّ لطفه ، بعزته وقدرته » .

هذه اذن دراسة جغرافية نستطيع أن نقول إنها كاملة ، فإنه لا ينقصها شىء أساسى مما تتضمنه الأوصاف الجغرافية الحديثة للبلدان فيما عدا العناصر التى تعتمد على العلم الحديث وأدواته مثل الاحصائيات والرسوم البيانية والبيانات الجوية ومقاييس الحرارة والضغط الجوى والأمطـار وما إلى ذلك . ومع هذا كله فإن القارىء لا يكاد يحس بنقص هذه العناصر ، لأن ابن الخطيب عرف كيف يعوض ذلك بأسلوبه السليم المحكم ، ولا أبالغ إذا قلت أن أحداً من الجغرافيين لم يجمع بين البلاغة العالية وإحكام الكلام ودقة التعبير كما تيسر لابن الخطيب فى هذه المقدمة ، وهو يحدد بها مستوى من المستويات الرفيعة التى بلغها العلم الجغرافى فى تاريخ الفكر العربى .

المقدمة الجغرافية لكتاب اللمحة البدرية

اللمحة البدرية من أصغر كتب ابن الخطيب ، ولكنه من أكثرها فائدة وأغزرها مادة ، فهو تاريخ مختصر لبنى نصر أوجز فيه تاريخ هذه الأسرة إلى أيامه ، وقد قدم له بمقدمة جغرافية شبيهة بمقدمة « الاحاطه » وربما يترامى إلى الظن أول الأمر أنها مختصر لها ، ولكن الحقيقة أن هذا لا ينطبق إلا على فقراتها الأولى ، ثم تنفرد بعد ذلك بمعلومات لا تقل فى القيمة عما وجدناه فى مقدمة الاحاطة .

ومن حسن الحظ أن ابن الخطيب صاغ هذا الكتاب كله فى نثر مرسل لا تشوبه عقبات السجع والتكلف ، وأرسله فى أسلوب فخم متين هو دون شك من أجمل نماذج النثر العربى العلمى الرصين ، ومثال ذلك قوله :

« وأما ما حازه السهل من جوفية[١] فمَنّى عظيمة الخطر ، متناهية القيم ، تضيق جِدَةُ[٢] مَن عدا أهل الملك عن الوفاء بأثمانها . منها ما يغل فى السنة شطر الألف من الذهب[٣] على خمول أثمان الخضر بهذه المدينة ، يختص منها بمستخلص[٤] السلطان ما يناهز ثلاثين مُنْية[٥] . ويحيط بها ويتصل بأذيالها من العَقار الثمين الذى لا يعرف الجمام[٦] ولا يفارق الريع ما ينتهى المرجع[٧]

(١) المراد هنا سهل غرناطة ، وجوفيه معناها غربه .

(٢) الجدة هنا الثروة أو القدرة المالية .

(٣) أى ٥٠٠ دينار فى السنة .

(٤) أى أملاك السلطان .

(٥) المنية فى الأندلس هى البيت الريفى تحيط به أرض واسعة يزرعها صاحبها لنفسه خاصة فيجعل بعضها حديقة والبعض الآخر يزرع فيه ما يحتاج إليه ، وهى تقابل فى المصطلح الاسبانى huerta والجمع منى.

(٦) أى الذى يزرع باستمرار .

(٧) المرجع مقياس للارض يعدل نحو ٥٠٠ متراً مربعاً تقريباً ، وقد انتقل إلى اللغة الاسبانية فى صورة Marjal ، وكانت قيمة الأرض الزراعية فى فحص غرناطة تختلف بحسب خصبه وما فيه من الماء ، وفى الوثائق الغرناطية الخاصة بالقرن الخامس عشر الميلادى تراوحت أثمان المراجع بين =

العملى منه إلى نحو خمسة وعشرين ديناراً من الذهب لعهدنا هذا ، وفيه من مستخلص السلطان ما تضيق عنه بيوت الأموال ذرعاً وغبطة وانتظاماً ، يرجع إلى دور ناجمة وبروج سامية وبيادرَ فسيحة وقصابٍ للحمائم والدواجن ماثلة ، منها فى حمى البلدة وطوق سورها من مستخلص السلطان ما ينيف على العشرين ، بها الجمل الضخمة من الرجال والفحول الفارهة من الحيوان للاثارة وعلاج الفلاحة ، وفى كثير منهـا الحصون والارحاء والمساجد . ويتخلل هذا المتاع الغبيط الذى هو لباب الفلاحة وعين هذه المَدَرة الطيبة سائرَ القرى والبلاد التى بأيدى الرعية ، مجاورة لحدود ما ذكر بلاد عريضة وقرى آهلة : منهـا ما انبسط وتمدن فاشترك فيه الألوف من الخلق وتعددت فيه الأشكال ، ومنها ما انفرد بمالك واحد أو اثنين فصاعداً وتنيف أسماؤها على ثلاثمائة ، تنصب فى نحو خمسين منها منابر الجمعات [تقام فيها الصلوات[1]] وتمد الأكف البيض وترفع الأصوات الفصيحة لله . ويشتمل سور هذه المدينة وما وراءه من الارحاء الطاحنة بالماء المعين على أزيد من مائة وثلاثين رَحىً » .

وهذا الوصف يعتبر من أحسن وأدق ما لدينا من أوصاف المواضع الصغيرة المحددة مثل فحص غرناطة الأفيح وكان يعرف أيضاً بالبقاع ، وهذا اللفظ الأخير هو الأصل الذى حرف عنه لفظ فيجا الاسبانى وجمعه las vegas ، وكلام ابن الخطيب يدل على تصور سليم لمطالب الوصف الجغرافى .

وتكمل هذا الوصف فقرة تعتبر وثيقة جغرافية تاريخية ، فإن ابن الخطيب يذكر فيها أقاليم مملكة غرناطة التى يسميها « الوطن الشريف » وهى تسمية

= ٤ و ٦ دنانير ، وكان وزن الدينار ٢,٢٢ جراماً من الذهب عيار ٢٢ قيراطاً ، وكانت العادة أن يتعامل الناس بدنانير الدراهم ، أى بقيمة الدينار بدراهم الفضة ، وكان الدينار يعادل بعشرة دراهم فضة ، وقيمة الدرهم الواحد ١٧٠ ومن جرام الذهب عيار ٢٢ قيراطاً :

انظر ترجمتنا لمقدمة الوثائق العربية الغرناطية ، بتحقيق لويس سيكو دى لوثينا ، مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٦١ ص ١٩م — ٢٠م.

(١) أضفت هذه العبارة للسياق .

جميلة تدل على حب ابن الخطيب لوطنه الأندلسى واعتزازه به ، وهذه الوطنية تعتبر من خصائص ابن الخطيب ، لا يزال يرددها فى كتاباته ، وهى مرتبطة عنده بمعنى « العروبية » أى ما نسميه نحن اليوم بالعروبة .

والاقليم فى المصطلح الادارى الأندلسى هو القسم الادارى فى مصطلحنا اليوم ، وعندما كان الأندلس بكماله كان مقسما إلى كور والكور إلى أقاليم وأجزاء ، فالاقاليم بحسب ما انتهى إليه بحثنا أقسام إدارية ، كل قسم (أو إقليم) منها حوز مدينة ، أى المنطقة التى تتبع المدينة إدارياً ومالياً ، والجزء منطقة أحراش وغابات ومراع مشاع لاهل الإقليم المحيط بها ، وهى تقابل ما يسمى باسم Compascua فى المصطلح اللاتينى ولفظ — أرض الكلأ فى المصطلح العربى ، ولكن عندما اقتصر الأندلس على منطقة غرناطة ، وكانت تضم كورتين أو ثلاثا من صغار كور الأندلس الكبير القديم ، لم يعد الأمر يحتمل التقسيم إلى كور أو مديريات ، فاقتصر على الأقاليم — وقد ذكر ابن الخطيب أن مملكة غرناطة كانت مقسمة إلى ٣٣ إقليما ذكر معظمها وأضاف إلى بعضها ملاحظات ذات قيمة جغرافية أو تاريخية ، وقد حققها فرانثيسكو خابيير سيمونيت فى كتابه العتيق الذى جمع فيه أوصاف غرناطة عند نفر من مؤلفينا القدامى ، وسنورد فيما يلى أسماء هذه الأقاليم ومقابلاتها الاسبانية الراهنة وملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت عليها ، رامزين للاول بحرف خ وللثانى بحرف س :

اسم الاقليم	مقابل الاسم العربى إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
أونيل		لا يوجد حاليـــاً ولا فى النصوص القشتالية القديمة اسم موضع على هذه الصورة . س
الفحص	Albox ؟	اسم قرية . س

اسم الاقليم	مقابل الاسم العربى إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
تاجرة الجبل	Tachara	حصن كان موجوداً إلى حين قريب قرب الحامة .
مسنيط	Loja	وهو بلدنا لوشة . قال ابن حمامة فى تاريخه : لوشة من إلبيرة غرباً ، وقبلة من قرطبة على نهر شنيل ، بنيت عام ٢٨٠ زمن عبد الله بن محمد جد الناصر . قاله عريب فى كتابه ، وهى بلد كثير الخصب متدفق المياه كثير الحصون والقرى جامع للمرافق . خ
برجيلة قيس	Berchul - Berchules	ذهب س إلى أن لفظ برجيلة لا يعرف له أصل ، وسبق أن ذكرنا أنه معرب من parcella وفيه حصن منت لوزنه el Castillo de Monte Luzena . خ — س
برجيلة اندره	Andaral ؟	حصن اندرال الذى ذكره س قريباً من غرناطة ، وقربها قرية قنالش بنى حربون التى ذكرها خ la aldea de Canales . س
برجيلة أبى جرير		وهى حصن « بكور » . خ
برجيلة البنيول	Albunieles	فى بعض النسخ ورد البيلول والنليول والموضع الحالى ضيعة صغيرة cortijada كانت تعرف قبل العرب باسم Viniolis . س وفيه حصن منتشاقر Montexicar . خ

اسم الاقليم	مقابل الاسم العربى إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
قلعة يحصب	Alcalá la Real	بين غرب وجوف من إلبيرة على ٢٠ ميلا . خ
باغه	Priego	وهذان الإقليمان استولى عليهما العدو على عهدنا عقب الكائنة بطريف ، فعظم فيهما الفجع . خ
مشيلية	Benamegí	غرق هذا الوضع فى المدونات الاسبانية باسم Benamexil وفى بعض النصوص العربية : بنو مشيل . س
القبذاق	Alcaudete	وهو أيضاً مما تقدم التغلب عليه . خ
قنب قيس	؟Cambea o Quempe	معرب من Campus . س
قنب اليمن		
الأشر	Aluchar o Luchar	وفيه حصن نوالش خ = Nigűelas .س
شلوبانية	Salobreña	وفيه المعقل العظيم بشاطىء البحر ، فيه للسلطان قصور نبيهة وبساتين عظيمة . خ
المنكب	Almuñecar	وفيه المدينة العتيقة ذات الآثار العجيبة . خ
بشرة بنى حسان		وفيه حصن برجة Berja والعذراء Adra والقليعة Alcolea وحصن شبالش Xupiles ودلاية Dalías خ و س . وبهذا الإقليم غبط كثير وعمران عظيم وهو معدن من معادن الحديد .
بريرة	Fereira	وفيه حصن أرجبه Orgiva والأنجرون

اسم الاقليم	مقابل الاسم العربى إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
		وحصن أندرش Andaráx Lanjarón وهو جليل المجبى عظيم المئونة خ. س.
أرش قيس	Orce	الأرش هو عطية الأرض أو الأقطاع وكانت فى الأندلس أروش كثيرة واللفظ من عربية اليمن . وفيه مرشانة Marchena ومندوشر وحصن بلذوذ Alboloduy خ . س .
أرش اليمن		وفيه مدينة المرية معقل الإسلام ذات القصبة الشهيرة والجبـــاية الغزيرة والبساتين النضيرة والزمم (جمع زمام) الخطيرة . ويرجع إليها من الحصون بشرقيها وغربيها عدد كثير كطبرنش Tabernas وهى بلد كبير فيه المساجد والحمام . خ . س .
أرش اليمنيين		فيه مدينة بنى سام بن مهلهل وهى مدينة وادى آش Guadix إحدى قواعد الإسلام لا نظير لهـــا سقياً ومتعة ونضارة ، ويرجع إليها من الحصون النبيهة الجليلة جملة . خ
أرش اليمانى		فيه القليعـــة Alcolya ومنت روبى Monterrubio فيه مدينـــــة فنيانه Fiñana وهى كلهـــا غزيرة السقيـــا والثمـــار . خ
فزارة		

اسم الاقليم	مقابل الاسم العربى إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
بنى أوس		
بنى أمية		من هذه الناحية جاء ابن أمية Aben Humeya صاحب Válor زعيم الموريسكيين الذين ثاروا أيام فيليب الثانى س .
فرنش	Fornex o Fornes	وفيه حصن الصخيرة خ .
دور		
والفحص		وإقليم الفحص خمسة أقاليم (صغار) : همدان Alhendín والفخار Alfacar وانبلاط وقلوبش والكنائس خ [١].

وأضاف ابن الخطيب بعد ذلك : « ذكر ذلك أبو القاسم الملاحى وغيره ، وأغفل أكثر مما أثبت ، وجلالة هذه المدينة أعظم . وهذه الأقاليم منها ما استمرت إلى الآن شهرته بما دُعِيَ به ، ومنها ما عَمَّ الجهل به على عادة الدهر مُبْلِي الأسماء والمسميات ، وماحى الأعلام والسمات ، والبقاء لله » .

هذا البيان يصور لنا إحاطة ابن الخطيب بجغرافية بلده وقدرته على عرض حقائقها فى أسلوب دقيق يمكن أن يوصف بأنه علمى . ومن الواضح أن سياق كلامه والمصطلح الذى يستعمله ينبىء عن تطور واسع المدى فى طريقة الكتابة فى الجغرافية ، فإن ابن الخطيب لا يكاد يخلط بالجغرافية شيئاً من مادة علم آخر ، ولا أثر لأحاديث العجائب فى كلامه ، بل لا نلمح عنده أى ميل إلى

(١) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، بتحقيق الشيخ محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٤٧ ص ١٨ — ١٩

و Francisco Javier Simonet, *Descripción del Reino de Granada, sacada de los autores arábigos*. Granada, 1873, pp. 221-223.

البلاغة الكلامية التى لا تنطوى على مادة نافعة ، ثم إن اهتمام ابن الخطيب بالناحية الاقتصادية والغلات والزروع واضح ، وهو اهتمام يمكن أن يرد إلى عنايته الشخصية بكل ما يتصل بالأموال والعقار والغلات ، ولكنه يدل على وعى إلى الحقائق الاقتصادية .

فإذا أضفنا تلك المـادة الجغرافية فى « اللمحة البدرية » إلى ما ذكرناه متصلا بهذه الناحية فى « الاحاطة » تكونت لدينا فكرة واضحة عن ابن الخطيب الجغرافى وتبينا أن هذه الناحية من ملكاته تحدد مستوى رفيعـاً فى الكتابة الجغرافية فى الأندلس ، وهو مستوى وصل إليه الأندلس بعد تجارب الأجيال فى معاناة التأليف فى الجغرافية . وليس بغريب أننا لا نجد بَعدُ مَن تخطى هذا المستوى وأعلا عليه ، إذ هو فى الحقيقة أعلا ما كان يمكن الوصول إليه فى تلك الأزمان ، وإذا كان ابن الخطيب آخر فحول المفكرين الأندلسيين ، فإن هذه الناحية الجغرافية تكشف لنا عن جانب من أحسن جوانب فحولته ، وتضيف إلى تاريخ العلم الجغرافى فى الأندلس كسباً عظيماً يمكن أن يوصف بحق إنه مسك الختام .

٢ — المقـامات الجغرافيـة

وربما لم يتنبه ابن الخطيب نفسه إلى هذه الملكة التى أوتيها ، فقد كان رغم تعدد ميادين امتيازه كالطب والأعشاب والتاريخ (والجغرافية هذه) يرى نفسه أديبـاً شاعراً ، وقد ألف ما قدر عليه فى هذه الميادين بعقلية الأديب الشاعر وذوقه ، ومن ثم فهو لا يزال فى كتاباته يجوِّد ويتأنق حتى تكاد كتاباته العلمية أن تكون أدباً صرفاً فى بعض الأحيان ، ومن حسن الحظ أن كتابيه الاحاطة واللمحة البدرية وبعض مؤلفاته الصغيرة الأخرى نجت — إلى

حد ما — من ذلك الانسياق مع طبع الأديب فسلمت مادتها العلمية من طوفان السجعات والمترادفات .

ولكن طائفة أخرى من كتاباته الجغرافيات وأوصافه للرحلات لم تستطع الفكاك من أسر النزوع الأدبى ، فجاءت أدباً خالصاً كادت معه المادة الجغرافية أن تضيع أو مسخت مسخاً مؤسفاً ، ونحب أن ننبه إلى أننا نعنى بالأدب هنا مفهومه فى عصر ابن الخطيب ، أى أدب السجع والبهارج اللفظيـة التى أولع الناس بها من أيام بديع الزمان الهمذانى والصاحب بن عباد فى المشرق ، ثم انتقلت إلى المغرب والأندلس فغلبت على فن النثر فى أندلس القرن الخامس الهجرى وما تلاه ، ولم يزل سلطانها يشتد حتى بلغت ذروتها على يد ابن الخطيب ، ولا نعنى بالأدب مفهومه السليم كتجويدٍ للتعبير النثرى والاقتراب به من مثله الأعلى ، وهو أن يكون الكلام مطابقاً للمعنى مع الجمال والتناسق والبلاغ الذكى كما نرى عند رجل مثل الجاحظ ، لأن هذا الطراز من البلاغة السهلة الممتنعة إنما هو المطلوب عند التأليف فى العلم .

كتابات ابن الخطيب الأدبية فى الجغرافية والرحلات كثيرة ، وهى تتفاوت فى طرازها الأدبى وخضوعها للسجع والزينة اللفظية أو تحررها منها ، ولكنها تشترك فى صفة واحدة ، وهى أن الغاية من كتابتها لم تكن بيان حقيقة جغرافية أو تاريخيه وإنما عرض مهارة ابن الخطيب الأدبية ، والحقائق النافعة تجىء عفواً أو ضمناً ، وهى فى كثير من الأحيان تبدو لنا وكأنها حطام متناثر فى ماء مضطرب ، فهى لا تجمع إلا فى مشقة .

وهذه الكتابات الأدبية الجغرافية يمكن تقسيمها إلى ضربين : « المقامة الجغرافية » و « الرحلة الأدبية » ، ولدينا من كل من هذين الضربين نماذج وافرة نستطيع الاعتماد عليها ، ومن حسن الحظ أن الدكتور أحمد مختار العبادى جمع أربعاً من هذه النماذج ونشرها مع مقدمات وتعليقات فى كتاب لطيف

عنوانه « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس » نشرته جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٨ ، وعلى هذا التحقيق معولنا فيما يلى من الكلام .

كتب ابن الخطيب مقامات كثيرة ، ومن الطبيعى ألا يجد أى صعوبة فى كتابتها ، لأن هذا اللون من التأليف لا يتطلب من الجهد إلا البحث عن الألفاظ ، وكانت ثروة ابن الخطيب منها وافرة ، ولهذا فقد أجاد فى هذا الباب وأكثر . ولم يدع ضرباً من ضروب تأليف المقامات إلا تناوله ، فكتب مقامة الرحلة ومقامة المفاخرة ومقامة السؤال والجواب ومقامة القصة ، وهذه الثلاثة كانت فيما نعتقد أحسن أنواع المقامات وأقربها إلى نفوس القراء فى تلك العصور .

ويهمنا من هذه المقامات الخطيبية هنا ثلاث هى :

١ — خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف .

٢ — مفاخرات مالقة وسلا .

٣ — معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار .

خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف (١)

هذه المقامة تصف رحلة ابن الخطيب فى رفقة سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف بن نصر (٧٣٣ — ٧٥٥ / ١٣٣٣ — ١٣٥٤) لتفقد أحوال الجانب الشرقى من مملكة غرناطة .

---

(١) اورد الدكتور العبادى فى مقدمة « مشاهدات ابن الخطيب » دراسة وافية لهذه المقامة وتفصيلا عن الأصول التى اعتمد عليها فى نشرها ، وهى المخطوط رقم ٤٧٠ بمكتبة الاسكوريال (ورقة ٥١ — ٦٩) ونصها الوارد فى كتاب « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » (مخطوط بالاسكويال رقم ١٨٢٥ (لوحة ٢٢٠ — ٢٢٧) ، وقد سبق إلى نشرها على أصل الريحانة فقط ماركوس يوسف مولر : Marcus J. Műller, *Beiträge zur Geschichte der westlischen Araber*, I (Műnchen, 1866), 15-40.

بدأت الرحلة من غرناطة فى ١٧ محرم ٧٤٨/٣٠ أبريل ١٣٤٧ واتجهت نحو وادى آش ثم بسطه Baza وبرشانه Purchena ومرت بعد ذلك ببلدة بيرة Vera ، وهى بلد صغير قرب شاطىء البحر الأبيض ، وكانت إذ ذاك آخر حدود مملكة غرناطة شمالا فى هذه الناحية الشرقية ، ولهذا يصفها ابن الخطيب بأنها « الثغر الأقصى ، ومحل الرباط الذى أجر ساكنه لا يحصى » وهى عبارة تدعو إلى العبرة والأسى إذ أن بيرة لا تبعد عن العاصمة غرناطة كثيراً ، ولكن تضاؤل مساحة الأندلس الإسلامى أيام مملكة غرناطة جعلها تبدو فى نظر ابن الخطيب ثغراً أقصى ، ثم عاد الركب عن طريق المرية — وكانت إذ ذاك من أكبر مدن المملكة — وبجانه Pechina ومرشانة Marchena وفنيـانه Fiñana فغرناطة . وقد فرغ ابن الخطيب من تدوين الرحلة فى ٨ صفر ٧٤٨ أى قبل أن تنقضى ثلاثة أسابيع على بدئها ، ويمكن القول بهذا أنها دامت أسبوعين قطع الركب فيها حوالى ٢٠٠ كيلومتراً ، فهى على الحقيقة رحلة صغيرة فى الزمان والمكان .

وقد زادها ابن الخطيب قِصَراً باستعماله السجع فى وصفها ، فضاع معظم الحيز فى سجعات ومترادفات وما لابد منه فى المقامات من مقطعات الشعر ، وفى غمار هذه ضاعت دقة الوصف وصدق التفصيل ، فهو يصل مثلا إلى نهير صغير متفرع من شنيل يسمى فَرْدَس Río Fardes فيقول : « وكان بوادى فردس النزول ، منزل خصيب ومحل له من الحسن نصيب » ، ثم يسترسل فى سجعاته حتى يمر بوادى الحامة ، وهو نهر صغير تقع عليه بلدة الحامة ، حيث قضى الركب ليلته الثانية بعد أن عرض السلطان الجند ونظر فى أحوال البلد ، وكلام ابن الخطيب هنا ذو قيمة تاريخية ، لأنه يصف استقبال الناس للركب ويذكر شيئاً من هيئاتهم ، أما المـادة الجغرافية فقليلة : « فخيمنا ببعض رُباها المطلة ، وسرحنا العيون فى تلك العمالة المغلة ، بالزروع المستغلة ، فحياها الله من بلدة أنيقة الساحة ، رحبة المساحة ، نهرها مطرد ، وطائرها غرد ، يبكى السحاب فيضحك نورها ، ويدندن النسيم فترقص حورها . . » ، وهذا كله

كلام يمكن تلخيصه فى مثل قولنا إن الحامة كانت تقع وسط إقليم خصب وافر المياه غنى بالزروع والحاصلات .

وفى بعض الأحيان يسترسل مع موسيقى السجعات المتشابهة فيغرق فى المبالغة إغراقاً يتلاشى معه كل معنى من معانى الحقيقة الواقعة ، ومن أمثلة ذلك قوله فى الأراضى المحيطة ببلد بسطة :

« وكان ملقى الجران منابت الزعفران بسطة حرسها الله ، وما بسطة ؟ محل خصيب ، وبلدة لهـا من اسمها نصيب ، بحر الطعام ، وينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام . ومعدن ما زُين للناس حبه من الحرث والأنعام . يالها من عقيلة ، صفحتها صقيلة ، وخريدة محاسنها فريدة ، وعشيقة (نزعاتها) رشيقة ، لبست حلى الديباج الموشى ، مفضضة بلجين الضحى . . » .

فهذا كلام كله مبالغات وتهويلات ، ومهما قيل فى غنى الأراضى حول بسطة فإنها لا تصل إلى قريب من ذلك الوصف .

وهنا وهناك ، وعند ما ندقق النظر نعثر على بعض المعلومات ذات القيمة ، ففى كلامه عن بسطة هذه نقرأ أنه كان فيها مسجد يعرف بمسجد الجنة وأن أحد أبوابها كان يسمى باب المسك ، وأن قرية قنالش Canales كانت « كبرى بنات » بسطة ، أى أكبر القرى التابعة لها إدارياً ، وانه كان إلى جانبها سهل فسيح يسمى فحص الأنصار وفيه غابة تسمى المضير قرب حصن شيرون Serón ويلى ذلك نهر يسمى وادى المنصورة ولا يزال يسمى الى الآن Guadalmanzor أو Río de Almanzor وكان يعرف عند العرب كذلك باسم وادى بيرة نسبة إلى مدينة بيرة Vera ، وهنا يبلغ ابن الخطيب فى الاغراق فى زينة اللفظ حداً يصعب معه أن نجد أى حقيقة جغرافية ذات بال . . إليك على سبيل المثال القطعة التالية يصف فيها مرور الركب بنهر المرية ووصوله إلى مرشانة ، قال :

« . . . إلى مرشانة وهى الكوكب الأعلى ، والأشهب المحلىّ ، والصباح إذا تجلى ، والعروس على المنصة تجلى . وبها حلت الغيوم سموطها ، ومدت عنا كب

السحاب خيوطها ، فبتنا وعيون المزن باكية ، والمنازل من توقع فراقنا شاكية واستقبلنا الوادى نجعله دليل تلك الطريق ، ونتبعه فى السعة والضيق ، فكم مخاضة منه عبرنا ، وعلى مشقتهـــا صبرنا ، حتى قطرت الأذيال والأردان ، وشكت أذى الماء الأبدان . . . » .

مفاخرات مالقـــة وسلا

هذه المقامة أغنى مادة وأكبر قيمة من مقامة « رحلة الصيف » ربما لأنها اقتصرت على بلدتين اثنتين واحدة من الأندلس وهى مالقة والأخرى من المغرب وهى سلا ، ولهذا السبب لقيت من عناية الباحثين أكثر مما لقيت سابقتها ، فقد نشرها معاً كل من ماركوس مولر والعبادى فى كتابيهما الآنفى الذكر ، وتناول راينهـــارت دوزى تحقيق مولر بنقد طويل فى مجلة جمعية الاستشراق الألمانية (مجلد ٢٠ ص ٦١٦ وما يليها) ، وعكف على دراستها فرانثيسكو خابيير سيمونيت واستخلص مادتها لكتابه عن صفة مملكة غرناطة ، وانتقى منها دوزى ما حاجه من الألفاظ لذيله المعروف على القواميس العربية ، ثم ترجمها إلى اللغة الإسبانية الأستاذ إميليو غرسية غومس ، وقدم لترجمته بدراسة وعلق عليها شروحاً وافية[١] ، فهى والحالة هذه أسعد ما كتب ابن الخطيب حظاً من النشر والترجمة والدراسة والشروح .

ولا ندرى شيئاً عن السبب الذى حفز ابن الخطيب على إنشاء هذه المقامة ، فهو يقول فى مستهلها أن واحداً من أصحـــابه سأله أن يقوم بهذه المفاضلة ،

---

(١) نشرها العبادى فى « مشاهدات ابن الخطيب » ص ٥٧ — ٦٦ ، أما مقال غرسية غومس فهو :

Emilio García Gómez, *El Parangón entre Málaga y Salé de Ibn al-Jaṭīb,* Al-Andalus, II, 1934 fasc. 1, pp. 183-194.

وقد أورد كلاهما فى مقاله بياناً بالمراجع الخاصة بهذه المقامة .

فاستجاب لما طلب إليه ، ولكن الأغلب أن هذه تعلة لما رمى إليه من تفضيل الأندلس على المغرب فى صورة مفاخرة بين ميناءين : أندلسى هو مالقة ومغربى هو سلا ، نقول هذا لأن المقامة فى الحقيقة ليست مفاضلة وإنما هى تعظيم مبالغ فيه لمالقة وحملة تخلو من الذوق على سلا ، وهى مدينة طالما آوت ابن الخطيب وأحسنت إليه ، ولكن هكذا كان شأن الكثيرين من الأندلسيين مع المغرب — وغير المغرب — من البلاد وخاصة فى العصور المتأخرة ، فهم يزهون عليها جميعاً ، ولا يرون أن فى الدنيا كلها ما يعدل بلدهم ، وهو مذهب مشكور لو أن الأندلسيين أيدوه بالتفانى وبذل الارواح . ولو فعلوا لنجت غرناطة قطعاً من الهلاك .

المهم أن ابن الخطيب قرر قبل البداية أن يميل بالميزان ناحية بلدة مالقة ، وهذا فى ذاته يقتضى التقليل من شأن سلا ، والنتيجة أن المقارنة غير سليمة من أول الأمر ، وقد كنا نتوقع على الأقل ألا يكون هذا مبلغ الحساسية الفنية عند ابن الخطيب ، فإن المقارنة بين الجيد جداً والسىء جداً لا تستقيم ، وتلوين اللوحات بالألوان المتعارضة المتناقضة ليس شأن الفنان الأصيل ، وليست هذه ملاحظة على فن ابن الخطيب بقدر ما هى استلفاتٌ للذهن إلى المبالغة الظاهرة فى كلامه ، فإن قارىء هذه المقامات لا يكاد يصدِّق أنها صدرت عن نفس القلم الذى كتب مقدمتى الإحاطة واللمحة البدرية ، ولكن هذا كان مفهوم الناس للانشاء الأدبى فى ذلك العصر : تهويل ومبالغة وبُعد عن الحقيقة وسعى وراء زينة اللفظ وبهارج الكلام ، فإذا لم يفعلوا هذا لم يكن ما يكتبونه أدباً ، وواضح أن ابن الخطيب عند ما كتب اللمحة والاحاطة لم يتصور أنه يكتب أدباً ، بل جغرافية وتاريخاً ، ومن ثم فقد أراح نفسه من عناء التكلف والتصنع وأرسل قلمه على سجيته ، وما أظن أنه خطر بباله أنه سيجىء زمان ينظر أهله إلى كلامه السهل البسيط هذا على أنه أحسن ما كتب .

غير أن ابن الخطيب بعد ديباجة قصيرة يؤكد فيها ألاَّ وَجْهَ للمقارنة أصلا بين مالقة وسلا — يقول عبارة تعطينا فكرة عن تصوره للمدن ومقاييس أهميتها

وعدم أهميتها ، قال : « فنقول : الأمور التى تتفاضل بها البلدان ، وتتفاخر منها به الاخوان ، وتعرفه حتى الولائد والولدان هى : المنعة والصنعة والبقعة والشنعة ، والمساكن والحضارة والعمارة والامارة والنضارة » وهى عبارة طيبة لولا هذا السجع الذى أفسدها ، فهو يريد بالمِنعـة الموقع الجغرافى ، وكانت أهم خصائص الموقع الجغرافى الجيد عندهم الحصانة والمنعة ، لأن هاتين كانتا أساس الأمان والسلامة من العدوان ، وبدونهما لا تنمو بلدة أو تتحضر ، وأما الصنعة فيريد بها الصناعات وما تشتهر به البلدة منها .

وأما البقعة فيراد بها بقية خصائص الموقع الجغرافى بعد الحصانة ، وليس المراد بها خصوبة الأرض[١] فقط ، بل كل ميزات الموقع الجغرافى وإليك ما يقول عن كل من مالقة وسلا بهذا الخصوص .

مالقـــة :

« خص الله مالقة بما افترق فى سواها ، ونشر بها المحاسن التى طواها إذ جمعت بين رمث الرمال وخصب الجبال ، وقامرة الفلاحة المخصوصة بالاعتدال ، والبحر العديم الصداع ، الميسرة مراسية للحط والاقــلاع ، والصيد العميم الانتفاع ، جبالها لوز وتين ، وسهلهـا قصور وبساتين ، وبحرها حيتان مرتزقة فى كل حين ، ومزارعها المغلة عند اشتداد السنين » .

ســـلا :

« وسلا بلد الرمال ، ومراعى الجمال ، بطيحة لا تنجب السنابل ، وإن عرفت المطر الوابل ، جرد الخارج وبحرها مكفوف بالعتب والمدارج وواديها ملح المذاق ، مستمد من الأجاج الزعاق ، قاطع بالرفاق من الآفاق ، إلى بعد الانفاق ، وتوقع الاغراق . وشابلها مقصور على فصل وكم لشوكه من شبا نصل ، عدمت الفاكهة ، والمتنزهات النابهة » .

(١) ذهب إلى ذلك غرسية غومس فى ترجمته التى سبقت الإشارة إليها ، فقد ترجم لفظ البقعة بعبارة la fertilidad de su tierra

وطريف أن ابن الخطيب لم يشر هنا إلى أهمية المواصلات كجزء أساسى فى الموقع الجغرافى ، وقد كان حريا أن يلاحظ ذلك ، لأن هذه الناحية كانت فى ذلك العصر أكبر ميزات مالقة ، فقد كانت ميناء مملكة غرناطة الأكبر وبابها الأول إلى افريقية والمشرق ، أى باب الأمداد العسكرية والمتاجر والأسفار فى حين أن سلا لم تكن تمتاز من ذلك بشىء ، وإلى ذلك العصر لم يكن لوقوعها على البحر من قيمة إلا أنه جعلها مركزاً لصيد السمك . وقد فاتت هذه الناحية ابن الخطيب ، إذ لو ذكرها لوجد مجال القول فيها ذا سعة .

ثم تأتى بعد ذلك المقارنة بين البلدين من ناحية ما سماه بالشنعة وهو لفظ تكلفه ابن الخطيب حرصاً على السجع ، ولم يكن موفقاً فيه ، فقد أراد به طائفة من المعانى مثل الشهرة والتاريخ والأمجاد والأهمية العسكرية ووفرة الجنود وكثرة الخيل وقوة السلطان . وغموض هذا المعنى هو الذى جعل ماركوس مولر يقرر أنه محرف غير صحيح ، وقد ناقضه دوزى فى ذلك فى نقد تحقيقه لمفاخرة مالقة وسلا فى مجلة جمعية المستشرقين الألمان (ج ٢٠ ص ٦١٦) ، وذهب إلى أن الشنعة لفظ واضح المعنى ، فهو مقابل للشهرة célébrité (راجع ذيل القواميس ، ١ / ٧٩١) وهو ادعاء طويل منه فإن اللفظ مبهم قلق ، وإذا قرأنا ما يذكره ابن الخطيب تحته وجدنا أنه يمكن إيجازه فى قولنا : المكانة التاريخية والأهمية العسكرية .

وزيادة على هذا الإغماض فى التسمية نجد أن ابن الخطيب لا يذكر هنا شيئاً يستحق الذكر ، فقد كنا ننتظر أن يقول لنا بماذا اشتهرت مالقة فى تاريخها وما أساس هذه الشهرة ، ولكنه يقدم كلاماً عاماً تشوبه المبالغات مثل : « إذ مالقة دار الملك فى الروم ، ومثوى المصاعب والقروم ، تشهد بذلك كتب الفتح المعلوم ؛ وذات ملك فى الإسلام ، خافق الأعلام ، غنى بالشهرة عن الإعلام . . » إلى آخر هذا الكلام الواسع غير المحدد .

وكلامه عن فضل مالقة من ناحية الحضارة قريب من هذا فى التعميم وقلة الضبط ، ومن أسف أنه عندما يقارنها بسلا يقسو فى الكلام ويشتد حتى يصل إلى الاهانة والتجريح .

ثم يتكلم عن الامارة كلاماً عاماً يعتمد على اللفظ دون المعنى ، وجدير بالملاحظة أن غرسية غومس قرأ هذا اللفظ « الإثارة » وهى قراءة معقولة يستعملها ابن الخطيب فى معنى الفلاحة والزروع ، ويترجمه غومس بعبارة la vida económica أى الحياة الاقتصادية .

ويؤيد هذا الرأى أن ابن الخطيب يقارن بين البلدين من ناحية ما سماه « النضارة » ، ويريد بذلك جمال المنظر وغزارة النبات ووفرة الأزهار والأضواء ، وقد ترجم غرسية غومس هذا اللفظ بقوله el esplendor أى الفخامة والبهاء ، وهى ترجمة موفقة . وجدير بالملاحظة هنا أن العرب فى أوصافهم للمدن شديدو العناية بما يسمونه الضوء ، فيصفون بعض البلاد — دون بعض — بكثرة الضياء ، وقد اشتهرت بذلك عندهم بلنسية ومالقة ، وهذا المعنى غير واضح لنا تماماً لأن ضوء الشمس الذى يغمر كل البلاد الأندلسية واحد ، فلا يقال مثلا إن قادس أضوأ من شلب ، ولكن الغالب أنهم يريدون ذلك الضوء الروحى الذى يحس به المسلمون فى « المدينة » مثلا ، وهى تلقب لهذا بالمنورة ، وهى صفة تعبر عن احساس نفسى لا عن ضوء حقيقى ملموس ، وهذا واضح من مثل قولنا : فلان وجهه منير ، فالمراد بهذا أنه رجل طاهر القلب صافى النفس نبيل الخلق .

وكنا ننتظر أن يورد ابن الخطيب فى فقرة « المساكن » شيئاً من عمائر مالقة ومنشآتها ومساجدها وحصونها وما إلى ذلك مما يفيد فى التعريف بهذا البلد فى عصوره العربية ، ولكنه لم يذكر شيئاً محدداً غير مبنى سماه « جنة السيد » ويراد بذلك قصر ريفى تحيط به حديقة واسعة بناه أحد أمراء الموحدين .

وربما كانت الكلمات القلائل التى اختص بها سلا أكثر فائدة فى هذا المعنى ، فهو يقول : « وأما سلا وإن كان بها للملك دور وقصور ، ولاهل الخدمة بناء مشهور ، فنهل قليل ، وليس بالجمهور إليه سبيل » .

ولا حاجة بنا إلى عرض بقية المفاضلة ، فهى من هذا القبيل ، والطريف أنه بعد أن يوجه إلى سلا كل مساءة ويجاوز فى ذلك ما نتوسمه فى رجل مثله من اللباقة وحلاوة اللسان والمراعاة لبلدة تربطه بها صلات كثيرة ولها عليه فضل ، نجده يختم الكلام بعبارة فيها بعض الترضية لها ، كأنه أراد أن يخفف بذلك وقع ما سبق من قوله ، قال :

« ولسلا ، الفضل ، لكن على أمثالها ونظرائها من بلاد المغرب وأشكالها إذ لا ينكر فضل اعتدالها ، وأمنُها من الفتن وأهوالها عند زلزالهـــا ، ومدفن الملوك الكرام بجبالها .

ومالقة ، قطر من الأقطار ، ذوات الأقدار والأخطار ، وتحصيل الأوطار .

وسلا ، مصب الأمطار ، ومرعى القطار ، وبادية بكل اعتبار » .

مقامة معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار

هذه المقــامة التى تسمى فى بعض الأحيان كتاباً هى أقرب كتابات ابن الخطيب إلى طريقة المقامات وأسلوبها وروحها ، وإذا كان هناك تجوز فى حسبان القطعتين السالفتين مقامتين فإن « معيار الاختيار » مقامة من الطراز الأصيل الذى نجده عند أساطين ذلك الفن ، وهى تنقسم إلى مجلسين لكل منهما بطل من طراز أبطال المقامات وإن لم يبتكر لهما ابن الخطيب أسماء ، ولكنهما قريبان من أبى زيد السروجى وأبى الفتح الاسكندرانى وعيسى بن هشام : الأول رحالة جواب آفاق ومغامرٌ لا يتردد فى الإلقاء بنفسه فى المخاطر ، والثانى ساحر

طبيب عالم لا يستعصى عليه مُحال أو يُحيِّره مرض أو يعجزه الجواب على سؤال الأول يتحدث عن المدن الأندلسية والثانى يتحدث عن المغربية[١] .

والقيمة الفنية والعلمية لهذه المقامة تزيد كثيراً عن قيمة سابقتيها ، فقد تضمنت السجعات والمترادفات قدراً طيباً من المعلومات الجغرافية ، وهى لهذا جديرة بأن تعد فى أحسن ما كتب العرب من مقامات .

والحق أن ابن الخطيب شأى فى « معيار الاختيار » أحسنَ المستويات التى وصل إليها المقاميون ، ولكنه آذى مادته الجغرافية وأغرقها فى سيل من المترادفات ، وأذل المعانى للألفاظ حتى لا نكاد نستخرج فائدة جغرافية إلا فى جهد ، وتكفى للتدليل على ذلك نماذج قليلة . قال عن جبل الفتح ، أى جبل طارق ، على لسان صاحبه العلامة السواح الجوال : « وفاتحة الكتاب من مصحف ذلك الإقليم (يريد الاندلس) ، ولطيفُه السميعُ العليم ، وقصص المهارق ، وأفق البارق ، ومتحف هذا الوطن المباين للأرض المُفَارِق ، مأهل العقيق وبارق ، ومَحَطّ طارقها بالفتح طارق . إرَمُ البلاد التى لا يخلق مثله فيها ، وذو المناقب التى لا تحصرها الألسنة ولا توفيها . . .[٢] » ويقول عن سُهيل ، وهى قرية صغيرة على شاطىء البحر الأبيض على نحو ٣٥ ك. م. من مالقة ، تسمى اليوم Fuengirola « حصن حصين ، يضيق عن مثله هند وصين ، ويقضى بفضله كل ذى عقل رصين[٣] » ولولا طلب السجعات ما أجاز ابن الخطيب لنفسه — أو لأى رجل ذى عقل رصين ، على حد تعبيره — أن يقول إن قرية مثل سهيل تضيق عن مثلها الهند والصين . وأطرف مثل للانطلاق مع اللفظ دون تحفظ قوله عن مدينة « سلا » التى أزرى بها على أسوأ صورة

---

(١) انظر عن مخطوطات هذه المقامة ونشرها : العبادى ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، ص ١٢ ، وقد حققها تحقيقاً جيداً وعلق حواشيها ، ص ٦٩ — ١٦٥ وعلى هذا التحقيق معولنا هنا .

(٢) معيار الاختار ، ص ٧٤

(٣) نفس المصدر ، ٧٥

عند ما فاضل بينها و بين مالقة : « قلت : فمدينة سلا ؟ قال : العقيلة المفضلة ، والبطيحة المخضلة ، والقاعدة المؤصلة ، والسورة المفصلة ، ذات الوسامة والنضارة ، والجامعة بين البداوة والحضارة ، معدن القطن والكتان ، والمدرسة والمارستان ، والزاوية كأنها البستان ، والوادى المتعدد الأجفان ، والقطر الآمن عند الرجفان ، والقصيد عظيم الشأن ، والاسواق الممتازة حتى برقيق الحبشان ، اكتنفها المسرح والخصب الذى لا يبرح ، والبحر الذى يأسو ويجرح . . .[١] » .

ولكن أطواء هذا الحديث الفضفاض تضم كما قلنا علماً واسعاً بهذه البلاد جميعاً ، ولو أن ابن الخطيب خفف عن نفسه وحط عن كاهله أثقال هذه السجعات لكانت هذه الرسالة ذخراً عظيماً عن جغرافية الأندلس والمغرب ، ومصداق ذلك أن للرجل فى ثنايا هذه الزخارف لمحات تنبىء عن الكثير . ولهذا رأيت أن استخرج أهم ما تضمه بعض الفقرات من مادة ذات قيمة بالنسبة للجغرافى ، وذلك لاظهار القيمة العلمية لهذه الرسالة :

مدينة جبل الفتح (جبل) طارق : حصانتها — الماء يحيط بها من ثلاث جهات — سورها عظيم مرتفع — رباط للعبادة والحراسة — نقاء هوائها — بُعدها عن مصادر الزاد ولابد من تموينها من الخارج — فقيرة فى ذاتها .

اسطبونه Estepona : كانت ذات خير وفير قبل أن يستولى القشتاليون على الجزيرة الخضراء .

مربله Marbella : مركز عظيم لصيد السردين والسمك المختلف الالوان . تمتاز بالعنب الجيد إلا أن أرضها ليست خصبة وحصنها ليس منيعاً .

سُهَيل Fuengirola : — تمتاز بالحصانة وبمزارع الشعير وأشجار التين — غنية بالميـاه وتجود بأرضها الحبوب ووديها وافر السمك ، ولكن سواحلها معرضة للغارات .

---

(١) معيار الاختيار ، ص ١٠٤

مالقة : قصبتها فى غاية الحصانة — مشهورة بصناعـة الفخـار المذهب والاوانى المختلفة الانواع وحلل الديباج المطرزة والنسيج المختلف الاصناف ؛ يزيد فى حصانتها وجود جبل الرحمة خلفها . « دار العجائب المصنوعة والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة » — شوارعها ضيقة غير نظيفة — منطقتها المزروعة صغيرة وخيرها قليل ، وهى مجاورة لأرض الأعداء ومن ثم فهى معرضة للأخطار .

بليش Vélez-Málaga : بلد طيب غزير الامطار حصين الموقع آمن السرب يشتهر بأشجار اللوز والتين . أرضها خصبة عالية الثمن كثيرة الفواكه والحقول ، وفى أخلاق أهلها عنف وشدة .

قُمارِش Comares : حصن كبير قرب غرناطة وافر الماء والزروع والكروم والزيتون واللوز والتين والحبوب ، إلا أن أراضيها سفوح لا يستطيع فلاحتها إلا أهلها .

المنكب Almuñécar : مرفأ كبير مشهور يفد إليه الكثير من سفن بلاد النصرانية . تشتهر بجمال المناظر وحصانة معقلها وجمال مسجدها ، والبلد كله عال مرتفع فيبدو مسجده شاهق العلو ، وأشهر زراعاتها قصب السكر والزبيب . هواؤها غير صحى بسبب ضيق مساحتهـا وتلاصق بيوتها وصغرها . يستورد الزيوت والقمح .

شلوبانية Salobreña : مدينة حصينة أعلا تل تمتاز بعيون ماء ينحدر منها على السفوح — وافرة الأسماك مشهورة بزراعة الخضر — على مقربة منهـا حصن مُتْرَايل Motril . معظم أرضها ملك لسلطان غرناطة ولهذا فكل أهلها زراع فقراء ، وفيها مبان عظيمة يبدو أنها للسلطان ، ويرى ابن الخطيب أن أهلهـا لا يمتازون بجمال .

برجة Berja : بلدة جميلة كثيرة الزروع والزهور ، موقعها حصين آمن ، تشتهر بالعنب وأرضها مرتفعة لا يركبها ماء المطر وهى لهذا أرض أشجار وافرة

المياه ، مزارعها فسيحة تنتثر فيها البيوت ، أهلها مياسير يشتغل الكثيرون منهم بتجارة الحرير ، ونظراً لارتفاعها وعلو أراضيها لا بد من نقل الماء إليهـا ولا تجود فيها الحبوب فلا بد من استقدامها من نواح أخرى .

دلاية Dalías (التى ينسب إليهـا الجغرافى العذرى الدلائى) : بلد وافر الخيرات يشتهر بصناعة الحرير واستخراج الملح ، أرضهـا ذات مراع تشتهر بمنتجات الالبان ، ولكنها معرضة لغارات الاعداء من البحر .

ألمرية : بلد غنى حصين ومركز الأساطيل الحربية لمملكة غرناطة ، أهلها مشهورون بطيب الخلق والشجاعة فى الحرب ذياداً عن دينهم ، والكثيرون منهم يتزهدون ويرابطون . مرفأها واسع أمين معد لإيواء السفن الكبار ، وقصبتها غاية فى الحصانة والسعة بحيث تختزن فيها مقادير عظيمة من الأطعمة . أشهر حاصلاتها العنب والزيتون والكتان ، والرخام وتجارها ذوو رؤوس أموال ضخمة ولكنها شديدة الحر قليلة المطر عمادها على نهرها وحده .

وهذه مجرد أمثلة مما نستطيع استخلاصه من المواد الأندلسية الاربع وثلاثين التى يضمها المجلس الاول من تلك المقامة وهى بعد ما ذكرناه منها : طبرنش Tabernas ، بيرة Vera ، مجاقر Mujácar أو Mohacar ، قنتورية Cantoria ، برشانة Purchena ، أوريـة Oria ، بليش Vélez Rubio ، بسطة Baza ، لورقة Lorca ، أشكر Huéscar ، اندرش Andarax ، شبالش Jubiles ، وادى آش Guadix ، فنيانة Fiñana ، غرناطة ، الحمة Alhama ، صالحة Zalia ، إليرة Illora ، منتفريد Montefrío ، لوشـة Loja ، (بلد ابن الخطيب) ، أرجذونة Archidona ، انتقيره Antequera ، ذكوان Coín ، قرطمة Cártama ، رندة Ronda .

وهذه على وجه التقريب كل مدن مملكة غرناطة فيما بين سنتى ٧٦٠ و ٧٦٣ / ١٣٥٨ — ١٣٦٢ وهى فترة إقامة ابن الخطيب فى المنفى بسلا ، وفى أثنائها كتب هذه المقامة .

وجدير بالملاحظة أن المادة التى يوردها ابن الخطيب عن البلاد المغربية لا تقل قيمة عما تتضمنه المواد الغرناطية ، وهذا إن دل على شىء ، فعلى أن ابن الخطيب كان رجلا طلعة حريصاً على أن يعرف ويدرس ، دقيق الملاحظة متفتح الذهن لا يفوته شىء مما يرى ويسمع ، وسنرى ذلك بوضوح عندما نتكلم عن رحلته ، أى عندما يريحنا من عنـاء السجعات ويرسل نفسه على سجيتها ويتكلم فى نثر طلق مريح .

كتب ابن الخطيب فى المجلس الثانى — أى النصف الخاص بالمغرب، من « معيار الاختيار » — عن ست عشرة مدينة وقرية ، ومواده عنها أطول فى الجملة من مواده عن المدن الأندلسية وأبلغ — بمقياس بلاغة المقامات — منها ، وهو يسرف فيها فى المديح إلى درجة تختلط معها المعانى ويغدو البلد الصغير فى أهمية الكبير لكثرة الكلام وعدم تدقيق ابن الخطيب فيما يقول ، وسبب ذلك واضح ، فقد كتب هذه المقامة وهو فى سلا تحت كنف سلطان المغرب وفى رعاية أهله ، ومن ثم فقد كان حقيقاً بأن يتلطف ويتمدح ويبتكر المحاسن إذا لم يجدها ، ويجوز القول كذلك أن احتمال الاقامة الدائمة فى المغرب كان يراود نفس ابن الخطيب بعد ما رأى من المحن فى الأندلس ، ومن هنا فقد درس أحوال المغرب واستقصى وكتب هذه السطور مستجلباً لمحبة الناس وممهداً للعيش فى أكنافهم .

وفى السطور التالية سنستخلص الحقائق الجغرافية من بعض المواد المغربية من هذه المقامة لكى يستطيع القارىء مقارنتها بالمـادة الأندلسية ، مع ملاحظة أن ما سنذكره مستخلص من كلام كثير جداً معظمه لا ينطوى على معنى ذى بال كقوله عن سبتة : عروس المجلى ، وثنية الصباح الأجلى ، تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر فى المرآة الصقلية ، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة ؛ وإذا قامت بِيضُ أسوارها مقام سوارها ، وكان جبل بنيونش

شمامة أزهارها ، والمنارة منارة شوارها ، كيف لا ترغب النفوس فى جوارها ، وتخيم الخواطر بين انجادها وأغوارها . .[1] » .

وإليك الحقائق الجغرافية التى يمكن استخلاصها من الفقرات :

سبتة : ميناء كبير ترسو فيه سفن كثيرة ؛ حولها غابات ممتدة يؤخذ منها الخشب للوقود ؛ مركز قوافل وتجارة برية ومحطة صيد للأسماك . معتدلة الجو لأنها كما قال « الوسيطة لخامس أقاليم البسيطة » ولكن أمطارها غزيرة ورياحها عنيفة مستمرة ثم إن أهلها معروفون بالتدبير الشديد .

طنجة : مدينة قديمة تقوم فى منطقة وسَطٍ بين الجودة والرداءة ، كان أهلها يفدون على الأندلس ليشتركوا فى الجيوش وكانوا يسمون بالطنجيين أو الطنجاليين . تشتهر بمنارها العالى ومرساها الكبير ، وهى قريبة الشبه من جارتها سبتة ، وفيها عين ماء غزيرة تعرف بعين برقان .

قصر كتامة (المسماة اليوم بالقصر الكبير أو قصر عبد الكريم) : بلدة تقوم فى منطقة غنية بالقمح والمراعى والألبان والفواكه الطيبة وخاصة التفاح ، ويصاد فى مياه المحيط إلى جوارها سمك طيب وافر . وهى محطة قوافل ومركز تجارة مع الجبال المجاورة وخاصة جبال غمارة ، ولكن جوها غير صحى ويكثر بها البعوض .

أصيلا : المادة عن هذا البلد قصيرة عظيمة القيمة ، ولهذا أوردها بتمامها : « كثيرة المرافق ، رافعة الخصب فى اللواء الخافق : العصير[2] الأثير والحوت الكثير ، واللبن الغزير ، والإدام الذى يرمى به من حُكم عليه بالتعزير ، والسفن المترددة ، وفيها الملف (أى الأقمشة) والأبازير (أى الحبوب) . إلا أن حصنها من المتعة برى وساكنها بربرى ، وجارُها من غُمارة جرى » .

---

(١) معيار الاختيار ، ص ١٠١ — ١٠٢ . وبنيونش قرية كانت مجاورة لسبتة لا زالت آثارها باقية إلى اليوم . تعليق للعبادى اعتماداً على دراسة ليفى بروفنسال :

Lévi-Provençal, *las Ciudades y las Instituciones Urbanas del Occidente Musulmán en la Edad Media.* (Tetuán 1950), p. 45.

(٢) العصير هنا هو التين الأخضر .

سلا : بلد حصين يجمع بين البداوة والحضارة يشتهر بالقطن والكتان ، واديه (أى نهره ، ويراد به نهر أبى الرقراق أو بورجرج) واسع تدخله السفن الكبيرة ، والبلد آمن تحيط به المزارع والمراعى .

شالة : بلدة غنية كثيرة الميـاه تقوم فيها مدافن بنى مرين ، مشهورة بسمك الشابل ، ولكن الماء فيها قليل وأسعار الحياة مرتفعة .

أنْفَا (الإسم القديم للدار البيضاء) : ميـنـاء واسع النشاط يكثر توارد السفن إليه ، يكثر حولها حيوان الصيد وطيره ، كثيرة الفواكه والأعناب وافرة موارد الحياة إلا أن مياهها غير صحية ومناخها غير ملائم للصحة ، وتقيم إلى جوارها جماعات من البدو تهدد أمنها .

آزمور : بلد غنى تحيط به أراض واسعـة خصبة ، يمر به نهر غزير المياه ، وله مراع غنية بالمـاشية ، وأهله يتصفون بالحرص الشديد . « ويعدم ببلدهم الماء والملح والفخار » .

وتكفى هذه النماذج من المادة الجغرافية التى تضمها فقرات هذه المقامة . وبقية المدن التى تتكلم عنها هى : تيط ، رباط ، آسفى ، مراكش ، أغمات ، مكناسة ، فاس ، فاس الجديدة ، آقر سلوين ، سجلماسة ، تازة ، غساسة .

وإذن فمجموع المدن التى يتكلم عنها ابن الخطيب فى هذه المقامة ٥٥ مدينة مغربية وأندلسية ، يقدم لنا عن كل منها معلومات طيبة ، ولو جمعناها بعضها إلى بعض لخرجنا بحصيلة لا بـأس بها من العلم بالجغرافية الطبيعية والبشرية لمملكة غرناطة والمغرب الأقصى أيام بنى مرين . وأنه لمن المستعبد أن تتحصل عفواً هذه المعلومات الكثيرة لابن الخطيب عن كل بلد من تلك التى ذكرها ، لأنها معلومات دقيقة لا تجتمع إلا بالالتفات والعناية ، فهو يعرف أرض كل بلد منها وزراعته وحاصلاته وتجارته وشيئاً من عوائد أهله ، وهو يفرق بين خصائص هذا البلد وخصائص ذاك ، بحيث يتجلى بوضوح أنه يتكلم عن أشياء

يعرفها ولا يخلط بين بعضها وبعض . وهذا المستوى من العلم لا يتحصل إلا عن قصد ولا يتأتى إلا لمن صرف إليه البال والاهتمام ، وابن الخطيب من هذه الناحية جغرافى بالطبيعة ، يتبين حقائق ما يراه من الأرضين وما عليها دون مشقة ، ويدفعه الطبع والحرص والولع بالمال والعقار إلى السؤال والاستفسار والنظر فيما يمر بين يديه من أوراق الدولة وما تعرضه من أمور الجباية وشئون المحاصيل ، ويتأمل هذه الحقائق بعين المولع المتذوق قبل أن يدرسها بعين رجل الدولة الادارى .

ابن الخطيب الرحـــالة

لا نقصد بالرحالة فى بحثنا هذا مجردَ السَّفار أو جواب الآفاق ، بل نقصد مَن وَصَف رحلة قام بها أو كتب عنها شيئاً يدخل فى نطاق الجغرافية التى نؤرخ لها فى الأندلس ، لأن الرحالين كثيرون ولكن الذين كتبوا رحلات منهم قليلون ، وما وصلنا من كتابات هذا القليل إنما هو جزء يسير مما كتبوا .

وقد كان ابن الخطيب صاحب رحلات وأسفار ، وكان إلى ذلك مُغْرى بالكتابة يجد فيها لذة كبرى كأنها كانت مراحه ومتنفَّسَ صدره عما كان يثقله من هموم ومتاعب ومخاوف ، ومن مظاهر ذلك أن الرجل كان مصاباً بالأرق لا يكاد ينعس من الليل إلا الوقت القليل ، وهذا الأرق إنما مرده إلى المخاوف والهموم التى تقض المضجع ، فإن ابن الخطيب كان من أولئك الذين ابتلوا بالعيش طول العمر وسيف دِقيانوس معلق بشعرة فوق رءوسهم ، لأن مطامحه فى المال والسلطان كانت واسعة ، وكان نطاق أعدائه لهذا فسيحاً ، ولم تخل حياته لحظة من ناس يدبِّرون مصرعه ويطلبون دمه ، وكانت حياته كلها فراراً من الشراك والأحابيل ولعبا حزيناً مريراً مع الموت المتكالب ، وكان لا بد أن

يدركه المصير المُلاحِق يوماً ما . ولا يخفف الأسى على ما أصاب ابن الخطيب إلا عرفاننا أنه كان أيضاً غريماً مطالباً للكثيرين ، يتعقبهم بكأس الحمام ، وصاحب مثل هذه الحياة الضارية لا يكون قط صاحب نوم هنىء أو حتى أرق هادىء ، وإنما هو أرق الخائف الوجل الذى يتوقع وراء كل قدم تقترب من داره فى سكون الليل طرقَ الباب وهجومَ أعوان الموت . وكان ابن الخطيب يُدافع الروع بالكتابة والتأليف ، فطالت لياليه والسراج موقد وهو بين الكتب ينظر ويُرَوِّى ويكتب فى انتظار غمضة من نعاس مع شعاع نور الصباح ، ولهذا فقد لقب بذى العُمْرَين : عمر بالنهار وآخر بالليل .

وهذا فيما يبدو هو السبب فى ضحالة الكثير مما كتب ابن الخطيب ، فهى ألفاظ تلتقط من مطالعات أو تلتمس فى أركان ذاكرة واعية ، وليست معان تتولد وتجود مع التفكير الطويل الهادىء ، والسجعات فى كثير من الأحيان إنما هى ستار على خلاء المعانى وقلة البضاعة ، وقد رأينا أمثلة من ذلك فيما سلف مما عرضناه من كلام ابن الخطيب وخاصة ما أتينا به من « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف » ، فهذا وصف رحلة قصيرة دامت بضعة أيام ، ومع هذا فقد سماها « رحلة الشتاء والصيف » انسياقاً مع سجعة يسيرة لم يكلفه العثور عليها جهداً .

وفى قطعة الرحلة التى نتحدث عنها الآن لنختم بها الكلام عن ابن الخطيب نلمس هذه الظاهرة بوضوح ، فإن ابن الخطيب كتب هذه الصفحات حول رحلته فى جزء من جبال الأطلس الغربية هو المعروف بجبل هنتاتة نسبة إلى قبيلة مصمودية صنهاجية كبيرة تحمل هذا الإسم ، وكان لها دور عظيم فى تاريخ المغرب أيام الموحدين ، فقد كانت قبيلةَ فصكة بن ومزال الذى سماه محمد بن تومرت بِعُمَر إينْتى أو ينتى أو الهنتاتى ، وكلها صيغ مغربية ومعربة لاسم هذه القبيلة ، وهو الذى تلقب بعد ذلك بأبى حفص وأصبح جد بنى حفص أصحاب

الدولة المعروفة فى تونس(1) وقد كان لهنتاتة بعد ذلك دور كبير فى تأييد دولة بنى مرين ، ومن هنا فقد كانت منازلها موضع عناية ورعاية من سلاطين هذه الأسرة ، خاصة وهذه المنازل تقع على الطريق الرئيسى من مراكش عاصمة الدولة إلى فاس ومكناس وطنجة وغيرها من عواصم الإقليم الشمالى من مُلك بنى مرين ، ولم يكن فى يوم من الأيام مُلكا مستقر القواعد أو شاملا لنواحى البلاد ، إذ هو اعتمد على ولاء بعض القبائل الكبرى ومنها هنتاتة هذه .

ولا ندرى لماذا ذهب ابن الخطيب إلى هذه الناحية ، فقد كان إذ ذاك لاجئاً إلى المغرب مع سلطانه المخلوع محمد الغنى بالله بن الأحمر ، وقد ظل هناك من ٧٦٠ إلى ٧٦٣ (١٣٥٩ إلى ١٣٦٢) ثم عادا إلى ما كانا عليه قبلا فى غرناطة : هذا سلطاناً وذاك وزيراً ، ولم تكن أحوال الدولة النصرية قد تدهورت بعدُ إلى ما صارت إليه عند ما هرب منها ابن الخطيب مرة أخرى سنة ٧٧٣/١٣٧١ فقد كانت الأحوال إذ ذاك قد بلغت — بالنسبة لابن الخطيب على الاقل — إلى درجة اليأس وانقطاع الرجاء ، ومن ثم فقد كان شديد الحرص أثناء إقامته الأخيرة تلك فى المغرب على أن يقتنى الأموال والضياع والارضين تمهيداً للاقامة الدائمة ، فلو أن ابن الخطيب قام برحلته تلك فى هذه الفترة الأخيرة كما كان يُظن لقلنا إنه ذهب يبحث عن أرض يقتنيها أو عقار يضمه إلى أملاكه(2) ولكن عبارة له فى خطاب أورده فى سياق الكلام ربما كشف لنا عن حقيقة الهدف الذى رمى إليه من وراء هذه الرحلة ، فقد قال فى خطاب بعث به قبل رحيله إلى عامر بن محمد بن على الهنتاتى شيخ ذلك

---

(١) انظر عنه التعليق الضافى الحافل بالمراجع بقلم الدكتور محمود على مكى فى حواشيه على نظم الجمان ، الذى نشر جزء منه فى تطوان ١٩٦٤ ، ص ٨٠

(٢) انظر عن تحديد تاريخ هذه الرحلة : العبادى ، مشاهدات ، ص ١٣ — ١٤ . وقد فصل ابن الخطيب الكلام عن أحوال غرناطة أيام هربه الأول مع سلطانه إلى المغرب فى نفاضة الجراب كما قال هو فى اللمحة البدرية ، انظر ص ١١٣

الجبل ووالى القبيلة ومنطقتها : « فلمـــا حُم الواقع وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع وأصبحت ديار الأندلس وهى البلاقع ، وحَسُنَت من استدعائك إياى المواقع ، قوى العزم وإن لم يكن ضعيفاً ، وعرضت على نفسى السفر بسببك فألفيته خفيفاً ، والتمست الاذن حتى لا ترى فى قبلة السداد تحريفاً ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزند العزم مقدوح ، والله يحقق السول » .

ومعنى هذا أن ابن الخطيب سعى إلى أن يستدعيه هذا الشيخ لزيارته فى منازل قبيلته وجبلها ، فلما وصلت إليه الدعوة عجل بتلبيتها أملا فى أن يكسب صداقة هذا الشيخ القوى فيجد فى بلاده حمى ومأمناً من الفتن والمخاوف التى كان يجتازها ، وهو نفسه يشير إلى حال الدولة الأندلسية المحزن إذ ذاك « فلما حم الواقع ، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع » مما يفهم منه أنه كان يلتمس فى واقع الأمر أمنا من خوف وقراراً من فرار ، وربما كشف لنا ابن الخطيب عما كان يساوره من الآمال والمخاوف قوله « والتمست الاذن حتى لا تَرى فى قبلة السداد تحريفاً » ومعنى ذلك أنه يُطَمْئِنُ ذلك الشيخ إلى أنه استأذن السلطان قبل أن ينهض إلى تلك الزيارة حتى لا يساء الظن بدوافع رحلته وحتى لا يحسب الشيخ الهنتاتى أن ابن الخطيب هارب إليه من ذلك السلطـان .

على أى الأحوال لا يسع الإنسان إلا أن يأسى لحال هذا الرجل الموهوب وهو يعانى ما قدَّرَت عليه ظروف حياته النكدة من آلام ومخاوف وتطامُنٍ عن قدره عله يظفر بأمان كان إذ ذاك محالا .

فى ظروف كهذه لا نتطلب من ابن الخطيب التفاتاً إلى خصائص طبيعية أو ظواهر جغرافية ، بل أننا نكلفه شططاً إذا انتظرنا منه أن يصف لنـا فى دقة ما رأى وما شهد ، فقد كتب هذه الصفحات ليعرض على هذا الشيخ مثالا من بلاغته وعلمه الواسع ، ثم لكى يُفْرِغ عليه وعلى قبيلته وأصحابه وكل من يلوذ به مديحاً بالغاً يفتح له قلبه وقلوبهم ويقيم له بينهم مكاناً آمناً ، ومن

ثم فهو يطرى كل شىء اطراجاً يجاوز الحد المقبول ، فالشيخ عامر بن محمد ابن على الهنتاتى : « عميد تلك البقعة وشاه تلك الرقعة ، صدرُ هذه الحدود القصوى ، المتميز بالرجاحة والرأى والسياسة . . . » وقريبُه ومتبوعه وحارس المجاز إلى منازل هنتاته عبد العزيز بن محمد الهنتاتى « صنوه وحافظ شيعته ، وقسيمه فى قعساء عزته ، الحسنُ الوجه ، الراجحُ الوقار ، النبيه المركب ، الملوكى البزة ، الظاهر الحياء . . » والطريق إلى منازل هنتاتة جميل يشرح الصدر رغم صعوبة اجتيازه : « ولما بلغنا درَج الجبل ، وانتحينا طريقه من السفح ، وهى تركب ضفة الوادى الملتف بعادى شجر الحور والطرفاء وشجر الخلاف والدردار ، وأمعنا كابدنا عنتاً فى اقتحام الوادى ذى الجرية الكثيرة الصبب ، المسوقة المد ، العظيمة التيار ، المجهولة المخاض ، ونقتحم منه أزرق شفافاً عن الحصباء ، كثير الجلبات ، أملس الصفاح ، لذاع البرد ، عبرناه نحواً من ثلاثين مرة فى أماكن يتخللها الدّوح ، ويعظم الرَّيْع ، وتَخْضُر الحرباء ، وتسمو عن جانبها الجبال الشم ، والشعبات التى تزل بها العصماء ، وتفضى دروبه إلى أغوار فسيحة ، وأجواء رحيبة ، يكتنفها العمران ، ويموج بها السنبل » .

ومحل سكنى عبد العزيز بن محمد الهنتاتى ومضارب خيامه هى الغاية فى الجمال والرواء : « وصعدنا الجبل إلى حلة سكناه ، المستندة إلى سفح الطَّوْد ، وقد هيأ ببعض السهل الموطأ للاعتمار بين يدينا من المضارب كلَّ سامى العماد ، بعيدِ الطنب ، سوىِّ القامة ، مقدرِ التفاصيل ، بديع النقش والصنعة ، ظاهر الجدة ، مصونٍ عن البذلة ، بِظُلَلٍ من مراتب الوطـاء الرفيع ، ولحف الحرير ومساند الوشي ، وانطاع مزعفر الجلد ما تضيق عنه القصور المحجبة والأبهاء المنضدة » .

ويتصل بهذا المعنى أن ابن الخطيب يصف ما قدم له من الطعام فى تفصيل طويل فيه مبالغة ظاهرة ، فإن من يقرأ هذا الكلام بحسب ابن الخطيب لم يشهد قبل هذا وليمة كهذه أو خواناً من هذا الطراز ، وهذا أمر لا يجوز

فى خلد أحد ، فقد كان الرجل أندلسياً خلا ووزيراً خطيراً ممن سئمت نفوسهم هذه الموائد فضلا عما يقوله من « وقوع البهت » لدى رؤياها .

ويشعر القارىء وهو يتنقــل بين صفحات هذه الرسالة أن ابن الخطيب حقق ما رجاه من كسب ود أولئك السادة الهنتاتيين والاطمئنان إلى أن له مكاناً فى جبلهم « الذى يعصم من الطوفان ، ويواصل أمنه بين النوم والاجفان » كما قال هو بنفسه فى رسالته التى أوردنا طرفاً منها ، فقد انشرحت نفسه بعد ذلك ومضى يصف ما يمر به فى تؤدة وتدقيق ، شأن خلىّ البال صافى النفس ، وهنا — أى بعد الوصول إلى جبل هنتاتة — يبدأ الجزء العظيم القيمة من هذه الرسالة ، ولكنها قيمة تاريخية فى الأغلب ، لأن طريق العودة إلى مراكش كان حافلا بمشاهد العبرة التاريخيه ، فهناك الموضع الذى لجأ إليه السلطان أبى الحسن على بن عثمان بن عبد الحق المرينى ومات فيه بعد ما كابد من أهوال الهزيمة فى الأندلس وقيام ابنه أبى فارس عنان عليه ، وهناك مسجد المهدى بن تومرت وضريحه فى تينملل وما إلى ذلك من المواضع التى تثير شجون الذكريات ، وفى هذا الغمر من العبر اندفع ابن الخطيب مع عباب التاريخ فلم يترك للجغرافية إلا القليل ، ولكن هذا القليل جيّد يعود بنـا إلى فحولة ابن الخطيب فى مقدمتى « الاحاطة » و « اللمحة » . ومن أجود أمثلة ذلك كلامه عن أغمات بجزأيها : أغمات وُريكة أو أوريكة وأغمات هيلانة أو عيلان أو إيلان . وأغمات كما يفهم من السياق لفظ بربرى قديم يراد به سياج المدينة البدائية المعروفة بالكْرَال Kraal وهى أقدم طرز المدن البدائية ، وكانت هاتان الأغماتان (أو السياجان) تقعان إلى جنوبى مراكش كأنهما ربضان أو ضاحيتان لها . وقد زار ابن الخطيب أغمات بعد أن خطت فى سبيل التمدن خطوات فأنشئت فى كل من جزئيها قصبة أى حصن وجامع . وَوَصْفُ ابن الخطيب لهاتين البلدتين فى غاية الأهمية فى هذا الباب ، فهو يرينا نموذجين لبلدتين بدأتا سياجين لقبيلتين ثم سارتا فى طريق التمدن دون أن توفيا على الغاية لسببين

رئيسيين ، الأول عداء ما بين القبيلتين والثانى قربهما من مدينة كبيرة رئيسة هى مراكش ، ولولا تكلف ابن الخطيب فى اختيار الفاظه ورصف عبارته لكان هذا الوصف نموذجاً بديعاً لوصف بلد صغير عند جغرافيينا .

وما دمنا بصدد هذه الفقرة العظيمة الأهمية بالنسبة لمن يدرسون المدن وقيامها وتطور نظمها — وهى دراسة حضارية مشتركة بين الجغرافية والتاريخ والاجتماع والسياسة — فهاهنا فقرة أخرى أوردها ابن الخطيب بعد ذلك يصف لنا مدينة فى طور الكُرّال ، أى فى الطور الأول لنشوئها ، أى وهى مجرد حوز مسوَّر تضع القبيلة داخله حصاد محصولها ونساءها والمضنون به من ماشيتها وسلاحها ويلجأ إليه رجال القبيلة للتحصن به فى أوقات الحروب . وابن الخطيب يستعمل هنـــا مصطلحاً عربياً يقابل الأغمات أو الكُرّال فيقول « السور » أو « المجمع » أو « المجامع » أو « الحلق » وفيما يلى نص هذه الفقرة التى نعتقد أنها فريدة فى بابها بالنسبة لتاريخ المدن :

« ثم سافرنا منه إلى سور موسى من مجامع دُكّالة ، وهو حَلَقٌ ذو شرفات وأبراج ، بادى الانثلام والتشعيث غير حرز الغلق لجهل هذه الأمة المُصْحِرَة بالتحصين ، وهو بعض ما يلجأ إليه أهل هذا الوطن المتكاثف العمارة ، الجم المـــاشية ، المنبت الحلل ، الغاص على انفساح مداه بالراغية والثاغية والصاهلة والناهقة ، البالغ عدد أزواجه لاثارة الأرض ومعالجة الحرث ، ثلاثة آلاف زوج من أزواج الثيران تثير أرضه وتعالج حرثه ، يُتَحَرَّم به عند الغارة الشعواء المصمئلة يطرقهم بها عدوُّهم من بنى الحارث وأحلافهم من سكان السهل والجبل فيسد عندها » .

ونختم الكلام عن هذه الرسالة الفذة لابن الخطيب بعبارة أخرى ذات قيمة خاصة بالنسبة لمن يدرسون تاريخ المدن فى عالمنا الإسلامى ، أنها تدور حول مشروع إنشاء مدينة والأسباب التى حفزت الناس على العمل على إنشائها ولماذا استجاب السلطان لرغبتهم ، والقواعد التى ساروا عليها فى اختيار موضع المدينة

وما إلى ذلك . ويلاحظ أن المدينة لم يتم إنشاؤها بسبب موت السلطان الذى فكر فى اختطاطها ، وهو أبو عنان فارس المرينى المتوفى سنة ٧٥٩/١٣٥٨ ، وهذه فى ذاتها حقيقة تتعلق بتاريخ المدن عندنا ، وهى أنها كانت فى أحيان كثيرة تقوم وتختفى تبعاً لرغبات السلاطين . قال ابن الخطيب :

« وقد كان رُفِع إلى السلطان المُغْرَى بالبناء وتخليد الآثار أبى عنان رحمه الله ، خَبَرُ ما عليه الناس من إخافة عدوهم ، واهتضام عَرْصَتِهم واستهداف عقوتهم ، فأمر بارتياد محل لتأسيس مدينة ، فاختِيرَ على غلوات منهم ، محلٌّ أرضه صخر منطبق على تراب ، يتأتى فيه اتخاذ الخندق غير مثلوم الشفا ، بعيد المَهوى ، يبنى السور بما يخرج منه من الثرى ويصون الأطباق المعدة للاختزان عن أضرار السماء ، ويكون سطح الأرض على خمس قامات من منبع الماء . فشُرِع فى البناء واستُبعد الفضاء ، ومَثُلت الأبواب العديدة ، والأبراج المشيدة . وعاق عن إتمامها هجوم حِمَامِه وانصرام أيامه ، فرغب أهله فى التنبيه على تكميل نقيصته واحتياز حسنته » .

إلى هنا نقف بالكلام عن ابن الخطيب الجغرافى ، وكان ينبغى أن نقف كذلك بالكلام عن الجغرافية فى الأندلس ، فقد كان ابن الخطيب كما قلنا خاتمة الفحول من أهل الفكر فى ذلك البلد ، وجانبُه الجغرافى يعين لنا بالفعل نهاية الفحولة والابتكار والتجويد فى تاريخ العلم الجغرافى هناك ، ولكن لا بد لنا قبل أن نضع القلم من أن نقول كلمتين عن كتاب الجغرافية والتاريخ المجهول المؤلف الذى أشرنا إليه قبل ذلك .

وجماع القول فى سهم ابن الخطيب فى ثروة الجغرافية الأندلسية أنه سهم وافر ساقه الله على لسانه عن غير قصد ، ولكنه أجاد فيه ، بل كانت مقدمتا الاحاطة واللمحة البدرية من أحسن ما كتب ابن الخطيب عموماً ، وفى مقاماته شوارد وأوابد تُجمع بالصبر والتدقيق فى النصوص ، ووصف رحلته دون شك يدخل فى حصاد الجيِّد من أدب الرحلات فى الأندلس .

جغرافية الأندلس وتاريخه لمؤلف مجهول

هذا الكتاب مخطوطٌ محيِّر محفوظ فى الخزانة العامة فى رباط الفتح(١) ، وهو مخطوط جيد لم نجد صعوبة كبيرة فى تحقيق الجزء الجغرافى منه تمهيداً لنشره فى القريب ، ولكننا لم نستطع رغم المطالعة المتصلة أن نصل إلى مؤلفه ، ثم إننا تحيرنا فى عصر هذا المؤلف وأصله ، فإن الإشارات التاريخية الواردة فى صلب مواد القسم الجغرافى منه لا تتخطى عصر الخلافة ، وقسمه التاريخى كذلك يقف عند خلافة هشام المعتد آخر خلفاء بنى أمية فى الأندلس ، ولكن صفحة العنوان تقول بعد البسملة : « ذِكر بلاد الأندلس وفضلها وصفتها وذكر أصقاعها ومدنها وجبالها وأنهارها وعجائبها وما خصت به من الفضائل والبركات والجواهر والمعادن والأشجار والنبات ؛ وذِكر من نزلها من الأمم والملوك من بعد الطوفان إلى أن فتحها الإسلام ؛ ومن وليها من أمراء العرب بعد الفتح ، ومن ملكها من خلفاء الأمويين والحموديين العلويين ، وذكر الدولة العامرية القائمين بدولة هشام المؤيد بها ، وذكر الثوار المتغالبين عليها بعدهم ، ومَن ملكها من ملوك المرابطين والموحدين وبنى مرين وبنى هود وبنى نصر وبنى اشقيلولة ، والله سبحانه المعين لا رب غيره » ، ومعنى هذا أن مؤلف الكتاب عاش فى العصر الغرناطى أو بعده ، وهو أمر لا نجد ما يؤيده فى النص نفسه .

ويهمنا هنا أن نذكر الحقائق الرئيسية المتعلقة بطبيعة هذا الكتاب وبنائه ومادته ، لأن هذا هو الذى يدخل فى نطاق هذا البحث ، وأملنا لا زال قوياً فى التعرف على صاحبه :

---

(١) نحن مدينون فى الحصول على نسخة مصورة من هذا المخطوط القيم لإخواننا المشرفين على الخزانة العامة فى الرباط وخاصة الأستاذين ابراهيم الكتانى وعبد الله الرجراجى ، وهما حقيقان منا بكل شكر . وقد يسر لى الحصول على النسخة المصورة أخى الدكتور محمود على مكى مضيفاً بذلك فضلا جديداً إلى سوابق عوارفه .

١ — أول ما نلاحظه أن مادة الكتاب جغرافية تاريخية ، فهو يجرى إذن من حيث بنائه على تقليد الجمع بين الجغرافية والتاريخ الذى جرى عليه معظم الجغرافيين والمؤرخين الأندلسيين ، ولكن مؤلف الكتاب ارتد إلى القاعدة الأولى التى وضعها أحمد بن محمد الرازى وهى إيراد المادة الجغرافية أولا ثم التاريخية بعد ذلك ، ومن هنا فإن كتابنا هذا ينقسم قسمين منفصل أحدهما عن الآخر تمام الانفصال حتى ليبدو كتابين ، فالجغرافية قائمة بذاتها ويليها التاريخ مرسل فى نسق واحد ، ولا نجد فى القسم الجغرافى إلا أقل الإشارات التاريخية ، وكذلك القسم التاريخى يخلو من الجغرافية تماماً .

وتلك هى الطريقة التى سار عليها أحمد بن محمد الرازى ، فكأن المؤلف احتذاه وصار على طريقه ، وهذا واضح يؤيده النص ، فإن المؤلف لا يزال يقول فى قسمه التاريخى : « قال صاحب التاريخ » فإذا جاء إلى سنة ٣٢٦ هـ. قال : وفى هذه السنة توفى « صاحب التاريخ » فالمراد به إذن الرازى لأنه توفى بالفعل فى تلك السنة (٩٣٨ م) .

وإذن فهذا الكتاب — إلى تلك السنة على الأقل — ملخص لكتاب الرازى ، وهذا واضح تماماً من مادة قسمه الجغرافى ، فهو نقل من الرازى أو اختصار لكلامه مع زيادات كثيرة . ومن أسف أن المخطوط لا يبدأ بصفحات الكتاب الأولى ، وقد كان من الممكن أن تعيننا على معرفة مؤلفه وشىء عن طبيعته .

وهذه العلاقة الوثيقة بين القسم الجغرافى من هذا الكتاب وجغرافية الرازى تجعل له أهمية خاصة ، فهو من الأصول التى نعتمد عليها فى إعادة تكوين هذه الجغرافية الهامة ، وسنوفِّى هذه الناحية حقها فى الدراسة الخاصة التى سنقدمها بين يدى تحقيقنا للنص .

٢ — إن المؤلف ليس مجرد ناقل أو موجز وإنما هو رجل عارف بما يكتب مطلع على أحوال الأندلس ملم بتاريخه ، وعنده تصور سليم لهيأته ،

فهو يقول فى فقرة من الفاتحة مبشورة البداية : « ... ثم طرطوشه ثم برجلونه ثم بجانة ثم [لفظ غير واضح] والمرية ثم غرناطة ثم جيان ثم اسجه ثم لبلة ثم الخضرا ثم مالقة ثم قرطاجنة ثم برجلونة ثم بيونه ثم قشتيله ثم جليقية ثم شلمنكه ثم طبيرة (الأصح هنا طلبيرة) ثم تطلية (تطيلة ؟) ، ومدينة تطلية وهى آخر بلد الأندلس شرقاً على حد بلد الأفرنج ، ومدينة تطيلة وهى آخر بلد طركونة هى آخر ما فتح الإسلام بالأندلس ، وإليها انتهى ملك المسلمين . وأما المدن المتوسطة مثل شريش وقرمونة وبسطة وطلياطة وأُبَّده وبياسة وباجة وكَنْبتُور وأرجونة وقَيْجَاطة وطريف فما يحد عددهم الحصر » . وواضح أن هذه الفقرة تتكلم عن مدن الأندلس وترتبها بحسب الأهمية ، ولا يكتب مثل هذه العبارة إلا من عرف الأندلس معرفة طيبة ، وفى كلام المؤلف بعد ذلك ما يؤيد أنه أندلسى من العصر الغرناطى المتأخر .

٣ — ويعتمد المؤلف فى مقدمات القسم الجغرافى على طائفة كبيرة من المؤلفين مثل ابن خرداذبة وابن بشكوال وابن سيده والحسن بن محمد بن مفرج وغيرهم إلى جانب أحمد بن محمد الرازى وهو مرجعه الأكبر . والفقرات التى ينقلها عن هؤلاء فقرات هامة نجد الكثير منها فى نقول المقرى وغيره ولكنه ينفرد ببقيتها ، ومعنى هذا أنه يقدم لنا مادة تسد فراغات واسعة فيما بين أيدينا مما كتب الأندلسيون عن جغرافية بلادهم .

٤ — وأوفى فصول المقدمات ذلك الذى يدور على « فضل الأندلس وما نُقِل فى شأنها وفضلها من الأحاديث الواردة » وقد نقل المؤلف هذا الفصل كله عن أبى القاسم بن بشكوال وأضاف إليه أشياء قليلة ، وهو يورد لنا ثبتاً كاملا بكل الأحاديث النبوية التى تتحدث عن فضل الأندلس ، وكلها أحاديث موضوعة طبعاً ، ولكنها تعطى فكرة عن نظرة واضعيها إلى بلدهم وفضائله . ومن المعروف أن هذه الأحاديث مشتركة بين الكثير من بلاد الإسلام ، أى أن أهل كل بلد يعدلون الحديث وينسبونه إلى بلادهم ، ولكن الغريب أن

محدثين ناقدين عارفين بالجرح والتعديل مثـل ابن بشكوال يوردون هذه الأحاديث أى يقولون بصحتها وهم أعرف — فيما نحسب — بموقعها من الصحة والسلامة ، ولكن حب الوطن يغلب على قواعد العلم عندهم ، وهى نزعة عاطفية تجعلنا نقرأ مثل هذا الفصل بشعور عميق من التقدير بصرف النظر عن الصحة أو عدمها فى هذه الحالات .

ويدخل فى باب الفضائل هذا ذِكر ما يمتاز به الأندلس من المحاصيل والمعادن والخيرات وما إلى ذلك ، مما يدخل فى صميم المعلومات الجغرافية .

٥ — إن القسم الجغرافى من الكتاب ينتهى بفقرة عمن « نزلها من الأمم والملوك بعد الطوفان إلى أن فتحها الإسلام » . وواضح أن مثـل هذا الفصل يدخل فى باب التاريخ ، ولكن الرازى اعتبر ما وقع من الحوادث قبل الفتح الإسلامى جزء من المقدمات العامة وأدرجه فى الجغرافية على اعتبار أن التاريخ الحق يبدأ مع الإسلام ، وهى ظاهرة جديرة بالملاحظة نجد شبيهاً لها فى موقف العلم الحديث من عصور ما قبل التاريخ ، فهناك من يعتبر دراسة هذه العصور داخلة فى العلم الجغرافى وهناك من يرى أنها من التاريخ ، وهناك من يرون أنها أدخل فى الأركيولوجية أى الآثار ، وعلى هذا الاعتبار نستطيع القول بأن مؤلفينا كانوا يعتبرون ما قبل الإسلام عصرَ ما قبل التاريخ ، وهى حقيقة طريفة جديرة بأن يشار إليها .

٦ — وقد أحصى المؤلف حديث العجائب وجعله كله فى فصل واحد من فصول المقدمات ، وفرغ بهذا للمادة الجغرافية الصرفة بعد ذلك .

٧ — وبعد هذه الفصول التقديميـة يبدأ القسم الجغرافى الحقيقى من الكتاب ، والمؤلف يجعل عنوانه : « الخبر عن بلاد الأندلس على التفصيل مدينة بعد مدينة ، وما اختصت به كل مدينة من الفضائل والمحاسن » ويبدؤه بعبارة يذكر فيها مراجعه أو بعضها : « قال المؤلف عفا الله عنه : ذكر أحمد ابن أبى الفياض والدلائى (أى العذرى) وابن القوطية وابن حيان والرازى

وابن مزين والمزنى وابن الزقاق وغيرهم مما (كذا) عنى بتاريخ الأندلس أن المعمور من الأرض مقسوم على سبعة أقاليم . . . »

وبعد سطور قليلة من التقديم يأخذ فى الكلام عن المدن بادئاً بقرطبة ، والفصل الذى يخصصه لها ولجامعها ولأقاليمها هو دون شك أوفى ما لدينا عن تلك العاصمة الأندلسية الكبرى ، فهو يقع فيما يزيد على سبع ورقات ، ولولا طوله لأوردته هنا على تواليه . ولهذا فسنكتفى الآن بايراد النقط التى يتكون منها هذا الفصل الطويل عن قرطبة ليأخذ القارىء فكرة عن أهميته وقيمته : مقدمة قصيرة عن قدر قرطبة وفضلها — بعض غرائبها — فقرة من كلام الرازى عنها — فقرة من كلام العذرى — فقرة لابن حيان — بعض أبعاد قرطبة — مدة بقائها فى حوزة الإسلام : من ٩٢ هجرية إلى ٢٣ شوال ٦٢٣ — وصفها العام وأرباضها — احصاء دورها ومساجدها وقصور الخلفاء بها — اضمحلالها — وصف جامعها بتفصيل — أقاليم قرطبة .

وهذه المادة الوافرة التى يأتينا بها المؤلف عن عروس مدائن الغرب الإسلامى تستوقف نظرنا من ناحية هامة جديرة بالملاحظة ، وهى أن المؤلف يصف البلد كأنه لا يزال قائماً كاملا كما كان فى أيام أوجه ، مع أن قرطبة فى أيامه كانت قد خرجت من دار الإسلام بعد أن مرت بعصر اضمحلال طويل نتيجة للمحن التى عبرت بها ، ولكن المؤلف لا يذكر عن ذلك شيئاً ، لأن إحساسه بالزمان وفعله قليل ، وما دام ابن بشكوال قال إن قرطبة وصفُها كذا وكذا فلا بد أن يورَد وصفها على هذه الصورة ولو بعد ألف سنة ، وهذا ناشىء من تلاشى البعد الزمنى عند كتاب العصور الوسطى ، فإن الزمن عندهم مفهوم غامض معقد شرير ، فبالنسبة للأحياء يعتبر الزمن هو الموت ، وبالنسبة للتاريخ لا عمل للزمن إلا تخريب ما هو قائم ، فإذا قامت دولة فلا بد أن تبلغ أوجها ثم تنحدر ، لا لأن هذا له أسبابه بل لأنه فعل الزمن الذى لا مفر منه ، وإحساسهم بالأطوال الزمنية قليل فيستوى عندهم القرن والقرنان ، ومن ثم فهم لا يستغربون

حكاية شجرة تزهر وتثمر ويؤكل ثمرها فى ليلة واحدة وهذا موضوع طويل نرجو أن نكتب فيه شيئاً يوماً من الأيام ، والمهم لدينا هنا أن قرطبة بقيت فى أذهان المسلمين فى صورتها أيام عبد الرحمن الناصر بدون تغيير . نعم إنهم يقررون فى بعض الأحيان أن التهدم والتخريب نالا منها ، ولكنهم عند ما يصفونها يصفونها فى صورتها الخالدة التى لم تتغير .

ولا تتضح الأهمية الحقيقية لهذا الفصل إلا إذا نشرناه كاملا مع ما لا بد منه من التعليق والتفصيل ، ولكن يكفى أن نقرر الآن أن مؤلف الكتاب جمع فيه مادة وافرة جداً من كلام ابن الفرضى وابن حيان والعذرى وابن بشكوال ، وهذا الأخير هو معتمده الأكبر عن قرطبة ، وواضح أن المؤلف اعتمد على كتابه الخاص بها الذى أشرنا إليه فى حديثنا عن الجانب الجغرافى من ابن بشكوال .

أما المواد المخصصة للمدن الأندلسية الأخرى فقصيرة فى مجموعها ، ولكنها غنية بالمادة النافعة ، وفى أحيان كثيرة تنفرد بأشياء لا نجدها فى غير هذا الكتاب . وعلى سبيل العلم فحسب نورد أسماء المدن التى يتكلم عنها بعد قرطبة : قبرة ، أبذة ، جيان ، طليطلة ، الأشبونة ، قنطرة السيف ، شنترين ، شلب ، بطليوس ، برتقال ، باجة ، ماردة ، شنتبرية ، كورة مدينة الفرج ووادى الحجارة ، لبلة الحمراء ، اشبيليـة ، مورور ، شذونة ، حصن روطة ، جزيرة قادس ، الجزيرة الخضراء ، ريَّهْ وهى مالقة ، كورة تاكرنا ، مدينة البيرة ، اسجه ، سرقسطة البيضاء ، افراغ ، لاردة ، طرطوشة ، دانية ، مرسية ، طركونة ، برطاقه (كذا) ، بلنسية ، تَطْلِيَـة (؟) ، شاطبة ، بَسطة ، طلياته ، المرية .

وجملة القول فى هذا الكتاب أنه جمع وتأليف من مصادر شتى ، وهو يجرى فى ذلك على سنن التقليديين من الجغرافيين ، أى الذين يأخذون على الدرب المطروق كما بدأه أحمد بن محمد الرازى من تقديم عام لشبه الجزيرة ثم

الكلام عن مدينة مدينة أو كورة كورة مورداً فى كل فقرة ما يتيسر من النقول دون أن يضيف من عند نفسه شيئاً جديداً . وهذا لا يعنى أن الكتاب قليل القيمة إذ الواقع أن نقوله عظيمة الفائدة ، فقد كانت بين يديه مراجع وأصول شتى ضاع الكثير منها .

ولكنه بصورته تلك لا يعيّن تقدمـاً أو تجديداً فى طريقة الدراسة أو أسلوب المعالجة ، ولا نعثر فيه على شىء شخصى ذى قيمة كهذه اللمحات التى وجدنا عند الكثيرين ممن ذكرناهم وآخرهم ابن الخطيب ، وهذا هو الطبيعى والمعقول ، فقد توفى ابن الخطيب سنة ٦٧٧/١٣٧٤ أثناء الحكم الثانى لثامن سلاطين بنى نصر أبى عبد الله محمد الغنى بالله ، وهو — رغم اضطراب أيامه واستمرار تدهور الدولة على عهده — آخر كبار سلاطين بنى نصر ، وليس لدينا بعده إلا حكام صغار ضعاف أسرعت الدولة أيامهم إلى النهاية . ولم يظهر بعد ذلك فى الأندلس من يدانى ابن الخطيب أو يقارب أحداً من الفحول الأول ، وخلال القرن ونيف التى بقيت من عمر الأندلس الإسلامى لا نجد رجال الفكر إلا مقلدين للماضين وطامحين إلى الوصول إلى مستواهم دون توفيق ، وكتاب الجغرافية والتاريخ هذا إنما نموذج من حصاد عصر الاحتضار هذا ، وهو على هذا الاعتبار نهاية مناسبة نقف عندها بالكلام ؟

حسين مؤنس

تم البحث والحمد لله

الثانى : أبو العباس ابن الكماد ، ترجمان السلطان أبى ثابت عامر بن أبى عامر عبد الله بن يوسف المرينى(١) .

الثالث : يحمل اسم « مسعود » ، وقد كان ترجمانا لدى السلطان أبى الحسن المرينى(٢) .

الرابع : عمر بن العجوز كان يقوم بالترجمة لدى السلطان أبى عنان المريني والظاهر أن هذا كان يتمن أكثر من اللغة الإسبانية ، حيث أنه محلى بترجمان الخلافة(٣) .

واللغة البرتغالية — هى الأخرى — كان يتقنها أحد ملوك المغرب فى العهد الوطاسى ، وهو محمد الترتغالى بن محمد الشيخ الوطاسى ، ثانى ملوك هذه الدولة ، والمتوفى سنة ٩٣١هـ/١٥٢٤م ، قال الوزان الفاسى في كتابه : «وصف افريقيا»(٤) فى صدد الحديث عن هذا الملك : « ولقب بالبرتغالى ، لأنه أسره البرتغال أيام أبيه فى أصيلا ، ومكث عندهم سبع سنين ، ولما افتداه أبوه ورجع ، وجد يتقن البرتغالية ، فلقب بالبرتغالى » .

وإذا تخطينا عصر السعديين إلى العهد العلوى ، نجد السلطان اسماعيل بن الشريف ، يتخذ أسيراً اسبانيا « برنار يوسى » لتعليم اللغة الإسبانية لاثنين من أولاده(٥) .

كما أنه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر م برقت — بالمغرب — بارقة للترجمة ، تحت رعاية السلطان محمد الرابع ، ثم على عهد ابنه الحسن الأول ، وقد تناولت تعريب بعض النصوص الأوربية الحديثة(٦) .

---

(١) « مجموعة مراسلات بين الممالك الإسلامية وممالك أراغون وكتالونية » ، طبعة مدريد سنة ١٩٤٠م ص ١٦٢ — ١٦٣

(٢) المصدر الأخير ص ١٩٦ — ١٩٨

(٣) « فيض العباب . . . » لابراهيم ابن الحاج النميرى خ ، نسخة المكتبة الملكية بالرباط ، رقم ٣٢٦٧ ، ص ٣٥٠

(٤) « حياة الوزان الفاسى وآثاره » ص ١٣

(٥) «المنزع اللطيف فى التلميح لمفاخر مولاى اسماعيل بن الشريف» لمؤرخ مكناس عبد الرحمن ابن زيدان ، أثناء الباب الرابع ، خ .

(٦) هذا الموضوع لا يزال بحاجـــة إلى بحث على حدة ، وتوجد نتفة منه فى « مظاهر يقظة المغرب الحديث » مجلة « تطوان » ، سنة ١٩٦١ ، العدد السادس .

وهكذا يتبين من هذا العرض المقتضب ، أن المغاربة اهتموا — قبل العصر السعدى — بدراسة بعض اللغات الأجنبية ، وبالترجمة عنها إلى العربية ولو أن ذلك قليل ، كما يتبين — أيضاً — وجود معلومات — وإن كانت محدودة — عن حركة الترجمة العلمية الواقعة أثناء كل من العصرين الموحدى والعلوى .

وعلى عكس ذلك ، فإن حركة التعريب فى العصر السعدى بقيت غير معروفة ، ومهمة هذا البحث ، هى محاولة الكشف عن هذه الظاهرة السعدية .

ولنذكر ، أولا ، أن مرد هذه الظاهرة يرجع إلى عدة مؤثرات أوجدت هذه الحركة التعريبية .

فهناك الجاليات المدجنة(١) التى توافدت على المغرب بكثرة فى هذه الفترة .

وهناك الأسرى المغاربة وغيرهم ، ممن طالت مدة أسرهم ، حتى تعاموا لغة البلاد المآسورين بها ، ثم عادوا من معتقلاتهم إلى المغرب .

وهناك الاحتكاك الذى تضاعف — آنذاك — بين المغاربة والمسيطرين على بعض المواضع من شواطىء الوطن : من برتغال وإسبان .

وهناك التأثر ببعض الشخصيات المغربية السامية ، مثل السلطان السعدى عبد الملك المعتصم ابن محمد الشيخ : فقد كان يفهم اللغة الإسبانية جيداً ويكتب بها وباللغة الإيطالية(٢) ، ومثل السلطان الوطاسى : محمد البرتغالى آنف الذكر(٣) الذى كان يتقن البرتغاليه .

وسبب خامس وأخير : وهو محاولة المغرب للاستفادة من حركة الانبعاث بأوربا ، والعمل على إسهام مغربى فى بوادر النهضة الأوربية الحديثة .

وهكذا انبثق عن هذه المؤثرات الخمسة ، ظهور حركة تعريبية لمعت من المغرب السعدى ، ومن المؤسف أن لا يستطيع هذا البحث ، أن يقدم سوى

(١) المدجنون هم المسلمون الأندلسيون الذين لبثوا تحت حكم المسيحيين المتغلبين على بلادهم وقد كانوا كثيراً ما يضطرهم تفاقم الاضطهاد عليهم إلى الرحيل لبلاد الإسلام .

(٢) « المغرب الأقصى » مطبعة دار الطباعة الحديثة بمصر ، ص ٣٥ ، مجلة « تطوان » ، العدد السادس ، ص ١٤٦ و ١٥٠

(٣) راجع ص ١ من هذا المقال ، هذا وينبغى أن يذكر بعد الشخصيتين الساميتين : عبد الرحمن القطان الذى كان يتقن الانجليزية والاسبانية ، ويقوم بالترجمة بها فى بلاط المنصور السعدى . راجع مجلة « تطوان » عدد ٨

عدد ضئيل ، لا يتجاوز أربعة من رجال التعريب فى هذا العهد ، قاموا بترجمة أربعة كتب ، ومع تفاهة هذه الكمية ، لا يسع الباحث إلا أن يشيد بها ويتقصى تفاصيلها .

١ – ابو القاسم الغسانى :

هذا أول رجال التعريب الأربعة ، وهو أبو القاسم بن محمد بن ابراهيم الغسانى ، الشهير بالوزير ، الأندلسى ثم الفاسى ، ولد عام ٩٥٥هـ/١٥٤٨م ، وبقى بقيد الحياة إلى ما بعد عام ١٠٠٠هـ/١٥٩٢م ، أما تاريخ وفاته فهو ١٠١٩هـ/١٦١١م[١] ، عالم أديب طبيب ، تفرد بمشيخة الطب بفاس ومراكش ، وتوجد ترجمته بعدة مصادر مغربية[٢] ، ومنها : « روضة الآس ، العاطرة الأنفاس ، فى ذكر من لقيت من أعلام الحضرتين : مراكش وفاس »[٣] وهو اسم رحلة قام بها – فى المدينتين – جامعها أبو العباس أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ، نزل فاس ، والمتوفى بمصر سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١م .

وفى هذه الرحلة يذكر المقرى قصة اشتغال الغسانى بالتعريب ، ويقول :

« وله جملة تآليف رفعها إلى المقام الأحمدى المنصورى العلوى . . . ومنها « مغنى اللبيب ، عن كتب أعداء الحبيب » ، وذلك أنه قدم على أمير المومنين – المنصور السعدى – بعض أكابر الروم ، فأتحفه بهذا الكتاب ، مكتوباً بالقلم الأعجمى ، فعربه الشيخ أبقاه الله ، وجعل له خطبة ، وزاد فيه زيادات وأسماء بما ذكر » .

---

(١) راجع « الاتقان والاحكام ، فى شرح تحفة الحكام » وهو اسم شرح محمد بن أحمد ميارة الفاسى على رجزية ابن عاصم فى أحكام القضاء « التحفة » ج ١ ص ٤٤٢ طبعة فاس سنة ١٢٩٩ هـ .

(٢) راجع على سبيل المثال (ابن القاضى : درة الحجال رقم ١٣٤٧ ونشر المثانى ، ج ٤) .

(٣) نسخة المكتبة الملكية بالرباط رقم ٢٢٠ ، وهى نسخة وحيدة مكتوبة بخط مؤلفها ، وتشتمل على بعض الباب الثانى والباب الثالث من الكتاب ، عدد صفحات الموجود منها ٣٢٦ . وقد تم طبعها أخيراً بالمطبعة الملكية بالرباط .

إن هذه الفقرات ، تفيدنا — بدون التباس — اسم مغربى اشتغل بالتعريب فى هذه الفترة ، وتحدد عنوان الترجمة التى أنجزها ، كما تذكر أنه أضاف للنص الأصلى زيادات ، وهذا قد نستفيد منه بعض جوانب منهج الغسانى فى التعريب .

وفوق هذا فإن هذه الفقرات تؤكد وجود الترجمة الغسانية ، لأنها تذكر أنهـا من جملة التآليف التى رفعها أبو القاسم الغسانى إلى المنصور السعدى .

ثم إن المقرى يزيد القول تأكيداً بقوله :

« وفيه — يقصد « مغنى اللبيب » — يقول — حفظه الله — مخاطباً أمير المؤمنين نصره الله ، ووافق ذلك الزمان ، قدوم البشير بفتح السودان :

هنيئاً لك المنصور دانت لك الدنا	وذلت لك الأملاك ذل الترهب
فضضت ختاماً لم يفض لسابق	بفتح الزنوج والكتاب المعرب

فهذا النص الأخير يزيد واقعية الترجمة الغسانية تأكيداً ، ويحدد تاريخها بعام ١٠٠٠ هـ./١٥٩٢ م. حيث أن هذا هو تاريخ فتح السودان على المنصور السعدى .

هذا ويوجد بالخزانة الملكية ، مخطوط طبى يقع ضمن مجموع ، ويحمل رقم ٢٨٧٧ ، وهو عبارة عن قطعة مبتورة الطرفين ، وتتألف من ٢٦ ص ، ويهمنا من هذه القطعة أنها عند ما تذكر « العشبة الرومية »[١] تختم الحديث عنها بهذه العبارة :

« ونحن وقفنـا عليها مصورة فى الكتاب الرومى المعروف — تصحيف عن المعرب — لمولانا أبى العباس المنصور » .

فهذا الكتاب الرومى المعرب ، لا يبعد أن يكون هو « مغنى اللبيب لأنه » هو الكتاب الوحيد المعروف — لحد الآن — تعريبه برسم أبى العباس المنصور السعدى .

وإذا ترجح هذا فهو يضاعف الأمل فى العثور على الترجمة الغسانية فى يوم ما . كما يفيد أن مادة الكتاب المعرب هى الطب ، ويقرب هذا أن هذه المادة

(١) هى التى صارت تعرف بعد بـ « العشبة الهندية » نسبة للهند المغربية التى كان يقصد بهـا — إذ ذاك — أمريكا ، وهى موضوع الرسالة المعنونة بـ « النفحة الوردية فى العشبة الهندية » تأليف عبد القادر بن العربى بن شقرون المكناسى ، مخطوطة فى بعض الخزائن الخاصة .

هي الفن الذى برز فيه أبو القاسم الغسانى حتى قال فى «روضة الآس» : أنه تفرد بعلم الطب بالحضرتين : «فاس ومراكش» .

ويقرب هذا أيضاً ما سجله أبو القاسم هذا فى افتتاحية «حديقة الأزهار» من أن اهتمام المنصور السعدى بالطب كان فوق كل اهتمام .

وبعد هذا نذكر أن المقرى لم يوضح اللغة التى نقل عنها الكتاب ، واكتفى بالتصريح بأن الأصل مكتوب بالقلم الأعجمى ، وهى كلمة تتسع لأكثر من لغة أجنبية ، على أنه لا يبعد أن يعنى بها احدى اللغتين : البرتغالية أو الإسبانية ، استناداً للمتقدم فى صدر هذا البحث ، من وجود العارفين باللغتين — معا — بالمغرب ، وإذا كان لنا أن نرجح احدى اللغتين فهى البرتغالية ، التى يبدو أنها كانت — آنذاك — أكثر استعمالا بالمغرب .

٢ — ابو محمد المسفيوى :

هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن الحسن المسفيوى المراكشى المولود سنة ٩٦٨ هـ./ ١٥٦٠ م. (١) ، وتاريخ وفاته مجهول .

أديب مشارك مع رسوخ فى الطب حسبما ورد فى «روضة الآس» التى تثبت له «تعريبه لبعض الكتب الطبية» .

إن هذه النفثة من المقرى تفيد — بوضوح — اسم مغربى ثان ، اشتغل بالتعريب — فى هذا العصر — فى مادة الطب ، وبعد هذا لا نستفيد شيئاً آخر عن عمل المعرب فى هذه الترجمة ، فلا نعلم اسم الكتاب المعرب الذى لا يزال فى حكم المفقود ، كما لا نعرف خطته فى الترجمة ، ولا اللغة التى وقع التعريب عنها .

وفى خصوص هذه الملاحظة الأخيرة ، يمكن أن نقول : أن الكتاب عرب عن احدى اللغتين الآنفتى الذكر ، أو البرتغالية بالخصوص ، استناداً على ما ذكر

(١) له ترجمة وجيزة فى « درة الحجال » رقم ٣٠٦ ، وقد خلت في تاريخ وفاته على خلاف « روضة الأس » التى توسعت فى ترجمته ، وأوردت له الكثير الطيب من شعره .

بصدد الترجمة الغسانية ، سيما والمترجم المسفيوى تلميذ للغسانى فى فن الطب ، كما تسجل هذا « روضة الآس » .

٣ — الشهاب احمد الحجرى :

هذا ثالث رجال التعريب فى هذه الفترة ، وهو أندلسى متمغرب ، حيث أنه أقام بالمغرب ما يزيد على ٣٨ سنة .

ولا توجد له ترجمة فى المراجع المعروفة ، وما أكثر أمثاله من الذين ضاعت تراجمهم ، وإنما يعثر بين الفينة والفينة على بعض موضوعاته التى توضح جوانب من حياته ، وهذه هى التى سنستعرضها — قبل الحديث عن عمل الحجرى فى ميدان التعريب — لنحاول أن نستخرج منها ما يلقى بعض النور على ترجمة حياته ، ولهذا سيتسع الحديث عن حياته ، على عكس الواقع فى المعربين السابقين حيث توجد لكل منهما ترجمة — ولو محدودة — فى مراجع متداولة .

إن أول آثار الحجرى ظهوراً ، هى فقرات من رحلته المعنونة بـ « رحلة الشهاب ، إلى لقاء الأحباب » ، وقد وردت هذه الفقرات — كاملة — فى « زهر البستان ، فى نسب أخوال مولانا زيدان »(١) لمحمد العياشى(٢) . وعن هذا المصدر نقلها المؤرخان : السيد عباس بن ابراهيم فى « الإعلام ، بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام »(٣) . مع محمد العبدى الكانونى فى « جواهر الكمال ، فى تراجم الرجال »(٤) ، كما أن اليفرنى فى « نزهة الحادى »(٥) اختصر من تلك الفقرات ما نظمه بالمنى وأورده من حفظه .

(١) توجد منه نسخ متعددة ، ومنه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط ، تقع ضمن مجموع يحمل رقم د ٢١٥٢

(٢) راجع ترجمة له فى (ابن زيدان : اتحاف أعلام الناس ، ج ٤ ص ١٠٠ — ١٠٥) .

(٣) الجزء الثانى ص ٦٩ — ٧٢

(٤) ج ١ ص ٨٧ — ٩٣

(٥) طبع فاس ص ٩٩

الأثر الثانى : قطعة من كتاب وضعه الحجرى فى الرد على المسيحيين واليهود ، وسنتبين أن هذا الكتاب يسمى « ناصر الدين ، على القوم الكافرين » وتوجد كراريس منه فى حوزة الأستاذ المستشرق جورج كولان ، حيث وقف عليها الأستاذ الكبير محمد الفاسى مدير جامعة محمد الخامس ، وقد لخصها تلخيصاً وجيزاً فى موضوعه « الرحالة المغاربة وآثارهم » (١) .

الثالث : ترجمة لكتاب فى فن المدفعية ، قام بها الحجرى وسماها : « كتاب العز والمنافع ، للمجاهدين بالمدافع » ، وسنتحدث عن هذه الترجمة بعد ، بما أنها من صميم موضوعنا ويهمنا الآن منها خاتمتها التى توجد فى نسخة الخزانة العامة بالرباط ج ٨٧ ، وقد كتبها الحجرى بقلمه ، وذيل بها الكتاب المترجم .

وفى هذه الخاتمـــة نظفر بمعلومات قيمة جداً عن حياته ، فإذا أضفناها للمعلومات القليلة التى يمدنا بها الأثران السابقان نكون قد اطلعنا على جوانب مهمة من حياة الحجرى ، وهى التى سنستعرض هنا مشفوعة بالتوضيحات المطلوبة :

إنه يقدم اسمه هكذا : أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجرى الأندلسى (٢) وهو يلقب بشهاب الدين وبآفوقاى (٣) .

أما الجهة التى ينتسب لها من الأندلس فقد تفيد كلمة الحجرى أنها قرية « أجر » الواقعة حوز غرناطه ، وهى التى يعتقد البعض أنها محرفة عن قرية الحجر (٤) .

ولا يعارض هذا ما فى « رحلة الشهاب » من تصريحه بأنه — قبل هجرته للمغرب — كان يسكن باشبيلية ، لأن هذه كانت من بين المدن التى صار إليها بقايا الأندلسيين باسبانيا بعد ما طردوا عن السكنى فى غرناطة وناحيتها (٥) .

---

(١) راجع مجلة « دعوة الحق » السنة الثانية ، العدد الثالث ، ص ٢٢

(٢) راجع كتابه «العز والرفعة» ، ورقة ١١٢ ب .

(٣) فى «زهر البستان» قدم الفقرات التى نقلها عنه هكذا : « فى رحلة شهاب الدين الحجرى الأندلوسى المعروف بآفوقاى » واقتصر فى « الصفوة » على تلقيبه بأفوقاى .

(٤) انظر ابن الخطيب « الاحاطة ، فى أخبار غرناطة » المجلد الأول ص ١٣٤ ، الطبعة الثانية .

(٥) قصة هذا الطرد أشار لها فى خطبة « العز والرفعة » ، ورقة ١ ب .

وفى صدد حياته بالأندلس وهجرته إلى المغرب ، يذكر أن أول ما تكلم به ببلاد الأندلس كان بالعربية ، ولما كانت محاكم التفتيش تعاقب كل من يقرأ العربية ، تعلم اللغة الإسبانية واقتصر فى بادىء الأمر على دراسة ما يحتاج له للمخاطبة والمخالطة ، ثم خطرت له فكرة الهجرة إلى بلاد الإسلام ، ولكنه وجد أن بقايا الأندلسيين كانوا ممنوعين من الوصول للبلاد الشاطئية ، خشية أن يفروا منها إلى البلاد الإسلامية ، وهنا قر عزمه على التعمق فى دراسة الاسبانية ، ليؤثر بثقافته العالية على الإسبانيين حتى يحسبوه إسبانياً أصيلا ، ويمكنه الوصول للبلاد الشاطئية ، وهكذا اعتكف — سنين — على دراسة الإسبانية حتى برز فيها

وقد نجح الحجرى فى تصميمه ، واستطاع أن يصل إلى إحدى بلاد الأندلس الشاطئية التى سافر منها تحت ستار إسبانى إلى بلاد الإسلام[١] .

وكان سفره من مرسى « شنتمرين »[٢] على متن سفينة تحمل القمح للبريجة « مدينة الجديدة الحالية » ومن هذه المدينة فر إلى داخل المغرب الأقصى ، فدخل مدينة آزمور واتصل بقائدها الذى كتب للمنصور الذهبى فى شأنه ورفيقه الذى هاجر معه فأجابه بأن يستحضرها معه فى حضوره لعيد الأضحى الذى كان قريباً ، وهكذا سار الحجرى ورفيقه فى صحبة قائد آزمور حتى وصلوا إلى محلة سلطان المغرب التى كانت مخيمة بتانسيفت بسبب وباء كان بمدينة مراكش ، وقد كان هذا الوباء فى سنة ١٠٠٧ ، ومن هذا نعلم تاريخ اتصاله بالمنصور وسنة هجرته للمغرب[٣] .

أما عن حياته بالمغرب ، فيستفاد من بعض كلامه أنه استوطن مدينة مراكش طيلة مقامه بالمغرب[٤] ، وقد امتدت هذه الإقامة مق أواخر سنة ١٠٠٧ ﻫ حتى سنة ١٠٤٦ ﻫ .

---

(١) العز والرفعة ، ورقة ١١٦ ب ، ١١٧ ا .

(٢) شنتمرية الغرب ، وهى مدينة إسلامية قديمة ، من مدن كورة اكشونبه ، وتقع جنوبى غربى الأندلس ، وقد استولى عليها البرتغاليون نحو سنة ٦٥٢ ﻫ / ١٢٥٣ م ، قال فى الروض المعطار ص ١١٥ : « وشنتمرية على معظم البحر الأعظم ، سورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان فيه المد » .

(٣) راجع : « جواهر الكمال ، فى تراجم الرجال » ج ١ ص ٩٣

(٤) هذا يؤخذ من أول خاتمة « العز والمنافع » ورقة ١١٢ ب .

وهو يذكر — فى اعتزاز — أنه كان ترجماناً لدى السلطان زيدان بن أحمد المنصور السعدى سنين عديدة ، وكان — أيضاً — كاتبه باللسان العجمى « الاسبانى » ثم قام بالترجمة عن السلطانين ولديه[١] الذين لم يسمهما ، ولا شك أنه يقصد أبا مروان عبد الملك بن زيدان ، وأخاه الوليد بن زيدان ، وقد كانت مبايعة عبد الملك بعد وفاة زيدان الواقعة فى المحرم عام ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧ م ، ووفاته فى ٦ شعبان ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠ م ، وفى نفس هذا التاريخ بويع الوليد المتوفى فى ١٤ رمضان ١٠٤٥ هـ / ١٦٣٥ م .

والحجرى يتحدث عن سفارة قام بها إلى فرنسا ، وكانت عن زيدان فيما يظهر ، وقد زار فيها باريس ، وبوردو ، والهافر ، وبعد قضاء مهمته فى فرنسا أبحر إلى هولاندا ، ودخل أمستردام ولايدن ، ثم ذهب إلى لاهاية ، واتصل بأميرها ، فطلب منه هذا الأمير أن يفصل له الكلام على طرد الإسبان للمسلمين من الأندلس ، فأجابه لطلبه .

وفى كل من فرنسا وهولاندا ، جرت له مناقشات دينية ، مع القسيسين والرهبان ، وأحبار اليهود ، وهو فى الرد على هؤلاء — جميعاً — يحتج عليهم بالإنجيل والتوراة ، وقد درس ترجمتهما بأوربا لهذه الغاية ، واستعملها فى مناظراته التى يذكر أنه وفق فيها مراراً عديدة[٢] .

وعدا اتصال الحجرى بملوك المغرب ، فقد كانت له علاقة ببعض علمائه ، حيث يذكر أنه أخذ علم النجوم بمدينة مراكش عن الفقيه أحمد المصيوب الفاسى[٣] ، كما يتحدث عن مجالسته لقاضى الجماعة بنفس المدينة عيسى بن عبد الرحمن السكتى[٤] « السكتانى » .

---

(١) « العز والمنافع » ورقة ١١٢ ب .

(٢) سفارة الحجرى بأوربا وماجرياتها : ورد حديثها فى « العز والمنافع » ورقة ١١٧ ، وفى التلخيص الوجيز لكتاب « ناصر الدين ، على القوم الكافرين » المشار له صدر هذه الترجمة .

(٣) التلخيص الوجيز لكتاب ناصر الدين ، أما أستاذ الحجرى فى التنجيم فتوجد ترجمته فى « صفوة من انتشر » ص ١٠٤ وفى « الأعلام ، بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام » ج ٢ ص ٨٢ — ٨٣ ، وقد سمى فى المصدرين أحمد بن قاسم بن الفقيه معيوب — بالعين — الأندلسى .

(٤) «العز والرفعة» ورقة ١١٧ ، وانظر ترجمة السكتانى فى « نشر المثانى» ج ١ ص ٢٠١

وبعد هذا نذكر أن الحجرى بعد إقامته الطويلة بالمغرب سافر عنه لأداء فريضة الحج فى تاريخ سيحدد بعد ، وهو يذكر عن سفره هذا أنه جاء من مدينة مراكش إلى قصبة سلا ورباطها — على حد تعبيره — وركب البحر هناك فحج وزار السيد الرسول صلوات الله تعالى عليه وعلى آله[١] ، ثم عرج فى إيابه على مصر ، وممن اتصل به هناك عالمها الشيخ على (بن محمد بن عبد الرحمن) الأجهورى[٢] الذى أشار عليه بوضع كتاب عن مناظراته مع المسيحيين واليهود بأوربا ، فجمع تأليفاً فى هذا الموضوع وسماه : « ناصر الدين ، على القوم الكافرين »[٣] وهو الذى توجد كراريس منه لدى المستشرق الفرنسى جورج كولان[٤] ، ويقع كتاب ناصر الدين فى إثنى عشر باباً ، وقد فرغ من تأليفه بمصر يوم الجمعة ٢١ ربيع الثانى سنة ١٠٤٧ هـ/[٥] ١٦٣٧ م .

وهذا التاريخ قد يحدد سنة رحلة الحجرى عن المغرب للحج ، إذا قدرنا أنه عاد من الحرمين الشريفين إلى مصر اثر فراغه من مناسك الحج والزيارة ، وهذا قد يؤيده حديثه عن رحلته للحج ، حيث لم يذكر أنه جاور بالحرمين الشريفين ، كما لم يذكر أنه أطال المقام بمصر ، وبهذا يقدر أنه سافر عن المغرب للحج فى سنة ١٠٤٦ هـ/ ١٦٣٦ م ، ويقرب هذا أن ثالث الملوك السعديين الذى قام بالترجمة عنه وهو الوليد بن زيدان إنما توفى فى ١٤ رمضان سنة ١٠٤٥ هـ/ ١٦٣٥ م ، ثم تبدلت الأحوال السياسية بالمغرب اثر وفاته مما يظهر أن له دخلا فى اتجاه المترجم للبقاع المقدسة .

وهكذا تتوضح سنة رحلة الحجرى عن المغرب ، كما تتبين مدة إقامته

---

(١) « العز والمنافع » ورقة ١١٢ ب ، وهنا نذكر أن الحجرى ينبغى أن يلحق بلائحة « حجاج الأندلس بعد سقوطها » وهو موضوع تناوله الأستاذ الكبير عثمان الكعاك ، وكتب عنه بحثاً فى مجلة « الثريا » السنة الثانية : العددين ١١ و ١٢ وقد تحدث فيه عن الحاج المزونى .

(٢) راجع ترجمة الأجهورى فى « صفة ما انتشر » ص ١٢٦

(٣) « العز والمنافع » ورقة ١١٧ ا ، ب .

(٤) انظر ص ٨ من هذا البحث .

(٥) التلخيص الوجيز لكتاب « ناصر الدين » .

بالمغرب التي تزيد على ٣٨ سنة ، تبتدىء من أواخر عام ١٠٠٧ هـ إلى عام ١٠٤٦ ، ولا شك أنها مدة كافية لمغربة المترجم .

هذا وقد انتقل الحجرى من مصر إلى تونس ، وقد أثار إعجابه بتونس واليها الداى أبو المحاسن مراد ، فتحدث عن سيرته ومنشآته الدفاعية[١] ، وفى مدينة تونس تعرف بأحد المهاجرين الأندلسيين[٢] وهو ابراهيم غانم الشهير بالإسبانية بالرياش بن أحمد غانم الأندلسى ، وأصله من تدلش من إقليم غرناطة ثم انتقل منها إلى جهة قرب مدينة غرناطة ، وهناك نشأ وأقام إلى أن أجلى عنها — ضمن بقايا الموريسكيين — إلى إشبيلية ، ولما أجلى الإسبان هؤلاء من شبه الجزيرة هاجر إلى تونس التى وصلها أخريات أيام الداى عثمان[٣] .

وقد أطلع ابراهيم غانم الحجرىَّ على كتـاب وضعه فى فن المدفعية باللغة الإسبانية ورغب منه أن ينقله إلى اللغة العربية التى يجهلها واضع النص الإسبانى[٤] ، فاستجاب الحجرى لهذه الرغبة الكريمة ، وقام — كما سيذكر — بتعريب الكتاب الذى فرغ منه فى ١٠ ربيع الثانى سنة ١٠٤٨ هـ[٥] .

* * *

تلك هى المعلومات المتصلة بحيـاة الحجرى ، مقتبسة من موضوعاته الثلاثة المشار لها صدر هذه الترجمة ، مع ما انضاف لها من التوضيحات والتعاليق .

ولسوء الحظ فإن هذه المعلومات تنقطع أثناء مقام المترجم بتونس ، وبالضبط من عاشر ربيع الثانى عام ١٠٤٨ هـ ، وبعد هذا لا ندرى هل بقى هذا بتونس ،

---

(١) « العز والمنافع » ورقة ١١٣ ب ، ١١٤ ا ، ب ، والداى مراد هو المعروف بأسطا مراد ، وقد بويع بالولاية على تونس فى ٢٣ رجب ١٠٤٧ هـ. وكانت وفاته ليلة الأحد ١٨ ربيع الأول ١٠٥٠ هـ. ولدولته ذكر فى « الحلل السندسية ، فى الأخبار التونسية » تأليف المؤرخ التونسى محمد الوزير خ . وكذا فى المؤنس لابن أبى دينار ص ١٨٧ — ١٨٨

(٢) « العز والمنافع » ورقة ١١٢ ب .

(٣) المصدر الأخير ، ورقة ١ ب و ١٢ . أما الداى عثمان فقد توفى يوم الأحد ١٣ رجب ١٠١٩ هـ. ودولته مذكورة فى « الحلل السندسية » و « المؤنس » ص ١٨١ ، ١٨٣

(٤) « العز والمنافع » ورقة ١١٢ ب .

(٥) المصدر الأخير ، ورقة ١٠٨ ا .

أو انتقل عنها ؟ وهل عاد إلى المغرب الأقصى ؟ وما هو نشاطه العلمى بعد تعريب الكتاب المذكور ؟ وما هو تاريخ وفاته ؟ وأين توفى ودفن ؟ كل هذه أسئلة ستظل بدون جواب ما دمنا لم نقف على مصدر أو مصادر جديدة عن حياته .

ورغماً عن هذا كله ، فإن المعلومات التى أمدتنا بها موضوعات الحجرى الثلاثة مفيدة جداً عن حياته ، ولولاها لكان فى عداد المجهولين .

ا — كتاب « العز والمنافع » :

والآن وقد قدمنا — حسب الإمكان — حياة الحجرى ننقل الحديث إلى نشاطه فى ميدان الترجمة ، ونذكر أنه قام بتعريب مؤلفين اثنين : أحدهما فى فن المدفعية ، والثانى فى علم التعديل ، ومنهما — فقط — يستفاد اشتغاله بالتعريب العلمى ، وسندرسهما — تباعاً — فيما يلى :

وفاقا لما ذكر آنفاً ، قام الحجرى بترجمة مؤلف ابراهيم غانم فى المدفعية ، من الإسبانية إلى العربية ، ولما أتم هذه الترجمة سماها — باتفاق مع مؤلف الأصل الإسبانى — : « كتاب العز والمنافع ، للمجاهدين بالمدافع »(١) ، ومن حسن الحظ أن أبقى الزمان على هذه الترجمة التى توجد منها نسخ فى المغرب والجزائر وفيينا وفى دار الكتب المصرية بالقاهرة(٢) .

وفى المغرب بالخصوص يعرف منه — حتى الآن — ثلاث نسخ : الأولى بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج ٨٧ ، والثانية بنفس الخزانة وتقع آخر مجموع يحمل رقم د ١٣٤٢ وهى ناقصة من آخرها ، أما النسخة الثالثة فهى محفوظة بالمكتبة الملكية بالرباط ، وتحمل رقم ٢٦٤٦

---

(١) هكذا ورد اسم هذه الترجمة « أثناء الخاتمة » ورقة ١١٥ ا ، أما العنوان الذى وضعه لها أول الكتاب فقد جاء هكذا : « كتاب العز والرفعة والمنافع ، للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع » .

(٢) جاءت الإشارة لهذه النسخ الموجودة خارج المغرب ، فى : « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان ج ٣ ص ٣٣٩

ويأتى فى مقدمة النسخ المغربية : مخطوطة الخزانة العامة التى تحمل رقم ج ٨٧ ، فهى — فيما يظهر — مكتوبة تحت إشراف المعرب نفسه الذى يوجد خطه فى هوامشها بالإلحاق والتصحيح ، وهى — أيضاً — تنفرد بالخاتمة المكتوبة بقلم المعرب نفسه ، وبما يتبعها من الملاحق .

ولهذا ستكون هذه النسخة هى معتمدنا فيما سنحاول من دراسة لهذه الترجمة ، كما كانت — سابقاً — مرجعاً لما اقتبسه منها هذا البحث عن حياة الحجرى .

ان الكتاب يتناول فن المدفعية ، ويشتمل على افتتاحية ، وخمسين باباً ، وخاتمة ، وفى الافتتاحية يقدم معلومات عن حياته بالأندلس وتونس :

فيتحدث عن أسفاره البحرية بين اسبانيا وأمريكا ، ومخالطته — أثناء هذه الأسفار — للمدفعيين الاسبان ، وحضوره مداولاتهم المدفعية التى كانوا — فى بعض الأوقات — يرجعون فيها إلى الكتب المؤلفة فى هذا الفن ، وقد كان المؤلف يحفظ بعض ما يتفقون عليه ، ويباشر بيده العمل المدفعى .

ثم يذكر خروجه من الأندلس واستقراره بتونس ، حيث توظف مع الداى عثمان[١] فى البحرية التونسية ، وترأس على فرقة قوامها ٢٠٠ من الأندلسيين الذين صار يسافر بهم للجهاد فى البحر ، وقد أسر فى ثانية سفرة ، واستمر فى الأسر سبع سنوات ، عاد بعدها إلى تونس ، فى أيام الداى يوسف[٢] ، وهو الذى أمره بالجلوس فى حصن حلق الوادى[٣] ، فاشتغل بمباشرة العمل فى المدافع بيده ، وبدراسة الكتب الموضوعة فى هذا الفن ، وهكذا اكتملت ثقافته المدفعية التى باشر دراستها قراءة وتطبيقاً .

---

(١) انظر عنه ص ٦ . تعليق ٨

(٢) صار على رأس الولاية التونسية إثر وفاة الداى عثمان ، وتوفى ليلة الجمعة ٢٣ رجب ١٠٤٧ هـ. ودولته مذكورة فى « الحلل السندسية » و « المؤنس » ص ١٨٣ — ١٨٧

(٣) بنفس المكان الذى يوجد به رباط الأمير المؤسس على عهد الأغالبة ، وعلى بضعة أميال من دار الصناعة التى أسسها حسان بن النعمان فى القرن الأول ، وعلى كثب من القوطون دار الصناعة الفينيقية « مراكز الثقافة فى المغرب » محاضرات الأستاذ عثمان الكعاك ص ٩٨

وحينما عاين أن المدفعيين التونسيين لا خبرة لهم بهذا الفن ، حفزته غيرة إسلامية إلى وضع كتاب فى فن المدفعية لتوجيه هؤلاء ، وإرشاد رؤسائهم ، وقد وضعه باللغة الاسبانية التى لا يعرف سواها ، وترجى أن يتم نقله للعربية ، حتى يتمكن من توزيع نسخ منه على بعض الممالك الاسلامية(١) .

وهنا ينتقل المؤلف إلى الباب الأول الذى هو كمدخل لموضوع الكتاب : فيذكر تاريخ اختراع البارود ، ويصحح أنه إنما وقع سنة ٧٦٨ هـ/١٣٦٦ م ، كما يذكر تنظيمات فرق المدفعيين بأوربا وأمريكا .

وبعد هذا يصل إلى صميم موضوع التأليف فيتناول المواضيع التالية موزعة على بقية أبواب الكتاب من ٢ إلى ٥٠ :

شرح ما تتركب منه الآلات البارودية المعدنية أى أنواع المدافع الثلاثة ، وهى : النارية ، ومدافع التهديم ، ورميها يكون بكور من حديد ، ثم المدافع الحجارة التى ترمى بكور من حجـــارة ، مسائل تتعلق بالمدافع غير الحجرية ، السبب الموجب لكون المدافع النارية على الحالة التى هى عليها فى طولها وعرضها وعمارتها ، الرمى بالقياس ، وما يحتاجه المدفعى لهذه العملية من آلات هندسية ومعرفة عمل السرائر والعجلات للمدافع ، مسائل عن المدافع الحجارة ، معادن أنواع المدافع ، اختبار الآلات الجديدة الخـارجة من معمل التذويب ، ذكر الهواء الذى يكون لكل كورة ، عملية استخراج الكورة الناشبة فى داخل المدفع ، عملية نزع المسمار الذى يضعه العدو فى بخش المدفع ، كيفية تبريد المدافع ، المسطرة العددية التى يعرف بواسطتها ما تزن كل كورة ، وهذا المبحث مؤكداته

---

(١) يفيد هذا المصدر الأخير ص ٩٨ أن ابن غانم كان يعلم المماليك ببقطاشية حلق الوادى ، وجند زواوة ببشيريه المكان « سيدى الشريف البشرى » كما يذكر أنه ترجم عن الإسبانية كتاب « المان » وهو أعظم كتاب فى الحساب والجبر والهندسة .

وقد وقع للاستاذ الكعاك سبق قلم حيث سمى المذكور بمحمد بن غانم فى حين أن هذا المؤلف فى افتتاحية كتاب « العز والمنافع » يسمى نفسه « ابراهيم غانم » ، كما أن ما نسبه للمذكور فى ترجمـــة كتاب « المان » بعيد — إن كان يقصد الترجمة العربية — حيث أن إبراهيم غانم يصرح فى افتتاحية كتاب « العز والمنافع » : أنه لا يعرف العربية ، وقد يكون الذى قام بترجمة هذا الكتاب هو الحجرى رفيقه ومترجم كتاب « العز والمنافع » .

من أسرار المهنة ، طريقة معرفـة البعد أو الارتفاع ، اختبار البارود لتعرف جودته أو رداءته ، كيفية عمل البارود ، طريقة إصلاح البارود الفاسد ، طريقة استخراج ملح البارود ، مع ذكر المواضع التى يوجد بها ، علاوة على الأماكن المشهورة ، اختبار ملح البارود لمعرفة خلوصه وكيفية تخليصه ، الكور المدبرة بالنيران ، التراكيب التى توضع فى هذه الكور ، المواضع الصالحة للمدافع ، صفة عمل السلال التى يتستر بهـا المدفعيون من رمى الأعداء ، طريقة معرفة العدو المحاصر هل ينقب تحت الأرض ؟ حيل لتركيب المدافع ، كيفية السفر بالمدافع فى البر ، عمل القناطر على الأودية ، سر فرقعة ودوى البارود ، ما يحتاجه المدفعى للسفر فى البر والبحر بآلات البارود ، كيفية استخراج ملح البارود من التراب وطريقة تخليصه ، طريقة جديدة لعمل البارود حسب آخر ابتكار لصنعه .

هذه أهم الموضوعات الرئيسية للكتاب الذى وضحه المؤلف برسوم تحمل طابعاً إسبانياً ، وتبلغ ٧٠ رسماً لأشكال المدافع وتوابعها .

وقد جاء فى آخر الباب ٤٨ : أن المؤلف ابتدأ كتابة النص الإسبانى — فى حصن حلق الوادى من مدينة تونس — عام ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣٠ م ثم أكمله فى ٢٢ ربيع النبوى عام ١٠٤٢ هـ/١٦٣٢ م(١) .

أما أسلوب الترجمة فواضح سهل ، تتخلله تعابير عامية ، ومن حسن الحظ أن هذه الترجمة تمت بتعاون بين المؤلف والمعرب الذى كان مهما أشكل عليه شىء فى النص الاسبانى ، يرجع إلى المؤلف ليستوضحه ، ثم يثبت الترجمـة طبق تفسيره(٢) .

والكتاب مذيل بخاتمة من وضع المعرب ، وهى مما انفردت به النسخة التى اعتمدها هذا البحث ، وهى — أيضاً — أهم مراجعنا عن حياة الحجرى وقد تحدث فيها عن جوانب من حياته بالأندلس والمغرب ، وذكر رحلته للمشرق وتونس التى تعرف فيها بمؤلف الكتاب المترجم ، وقد قص حديث

---

(١) « العز والمنافع » ورقة ١٠٨ ا .
(٢) نفس المصدر ورقة ١١٤ ب .

ترجمته لهذا الكتاب وخطته فيها ، كما سجل إعجابه بوالى تونس الداى أبى المحاسن مراد « أسطا مراد » وأسهب فى ذكر سيرته ومنشآته الدفاعية ، وسوى هذا ، فإن الخاتمة تلم ببعض مظاهر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين آنذاك .

ولقد وقع الفراغ من الترجمة وخاتمتها فى ١٠ ربيع الثانى عام ١٠٤٨هـ/ (١) ١٦٣٨م وعدد أوراق مجموع الترجمة والخاتمة : ١١٧ (٢) ، مسطرة ٢٢ مقياس ٣٠٠/٢١٠ خط أندلسى يميل للتونسى ، وهو خط جميل واضح ملون مصحح .

ويوجد — بعد الخاتمة — ملحق يشتمل على ثلاثة تنويهات بالكتاب : الأول صادر عن المفتى الحنفى بالديار التونسية السيد أحمد الشريف الحنفى (٣) ، ومكتوب بخطه الشرقى ، وفيه يشهد بأنه طالع الكتاب — برغبة من معربه — فوجد فيه نفعاً للمسلمين ، وإرشاداً للمعلمين والمتعلمين ، من أهل صناعة المدافع ورماة المسلمين .

الثانى عبارة عن قصيدة دالية من بحر البسيط ، تقع فى ١١ بيتاً ، وهى من شعر الاديب التونسى عبد الرحمن بن مسعود الجبالى الذى ذيل بها التنويه الأول ، وكتبها بخطه التونسى ، وفيها يمدح الكتاب ومؤلفه ابراهيم غانم ، ويقول فى مطلعها :

هذا المدافع عنا كل مهلكة ... من العدو إذا ما أمنا وعدا
أهدى لنا حكما تبدى لملتنا ... نهج الحروب على شكل وما عهدا

الثالث كتبه بخطه التونسى محمد بن عثمان الحشاشى الشريف (٤) متفقد خزائن الكتب بالجامع الاعظم والمكلف بتراتيبها .

---

(١) نفس المصدر السابق ورقة ١٠٨ ا .

(٢) تبتدىء الخاتمة أثناء ورقة ١١٢ ب وتنتهى أثناء الورقة ١١٧ ب .

(٣) تركى ولد بتونس ودرس بها ، وله ترجمة فى « شرح الرجزية الموضوعة فى المفتين الحنفية بتونس » النظم والشرح لمحمد بيرم الثانى التونسى : ص ١١٧ — ١٢٠ من المجموع الذى يشتمل على هذا الشرح ، والمحفوظ بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك ١١٠٢ . وتوجد ترجمته أيضاً فى « الذيل لكتاب بشائر أهل الايمان » ص ٧٥ — ٧٦

(٤) له ترجمة فى « الأعلام » لخير الدين الزركلى ج ٧ ص ١٤٦ ، وفى « معجم المؤلفين » لعمر رضا كحالة ج ١٠ ص ٢٨٢

وهو متأخر عن التنبيهين السابقين ، حيث أن هذا إنما كتب فى ٢ محرم سنة ١٣٢٠ هـ/١٩٠٢ م وفيه يعرف بقيمة الكتاب ، ويردد ما قاله المعرب : من أن هذه الترجمة أول كتاب ظهر بالعربية فى هذا الفن ، كما يسجل أن بواسطته تعلمت ملوك تونس أعمال المدافع والبارود وآلات الحرب .

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن هذه النسخة التى ندرسها مصدرة بفهرس موسع للأبواب ، كما يوجد على أولها ملكية بخط شرقى ، تحمل اسم : « محمود باكير » .

* * *

وتتجلى قيمة الكتاب فى جدة الدراسات التى قام بها عن الآلات المدفعية وتوابعها ، وفى تصنيف هذه الدراسات ، برسم العالم الإسلامى الذى كان — إذ ذاك — فى حاجة ماسة لها .

ويزيد فى أهمية الكتاب أن تكون مواده مقتبسة من معارف دولة كانت — آنذاك — تعد فى مصاف الدول الطليعة فى الميدان المدفعى ، فإن المعلومات التى دونها المؤلف فى كتابه ، إنما استمدها من مخالطته للمدفعيين الإسبانيين ، ومن مباشرته للعمل المدفعى تحت أنظارهم ، ومن دراسته لكتب مدفعية إسبانية .

وبهذا يقدم الكتاب آخر ما وصل إليه تطور الفن المدفعى فى أوربا أوائل عصر النهضة .

وهكذا يكون فى ترجمته للعربية إفادة ثمينة للعالم الإسلامى ، وفى صدد هذه الافادة يقول المعرب عن الترجمة العربية : « وظهر لى أنه أول كتاب ألف بالعربية فى هذا الفن »(١) .

ومما يدل لتطلع الملوك المسلمين — آنذاك — للاستفادة من مثل هذا الكتاب ما ذكره المعرب عن الملك المغربى زيدان السعدى من أنه كان يبذل تشجيعات سخية لمسيحى أطلعه على بعض أسرار الفن المدفعى ، على حين أن

---

(١) « العز والمنافع » ورقة ١١٤ ب .

هذا السر لا يعدو أن يكون مسألة واحدة بين الموضوعات المدفعية الكثيرة التي درسها هذا الكتاب[1] .

وإلى جانب المعلومات المدفعية فان مقدمة وخاتمة الكتاب تقدمان معلومات نادرة عن حياة كل من المؤلف والمعرب ، مع بعض أحوال الأندلس والمغرب وتونس حينئذ .

كما أن الباب الأول من الكتاب ، يتحدث عن تاريخ اختراع البارود ، ويدقق أنه إنما وقع اكتشاف سره سنة ٧٦٨ هـ/١٣٦٦ م ، كما يصحح أنه فيما قبل هذا التاريخ لم تعرف آلات بارودية وإنما كانت حيل على وجوه عديدة نارية وغيرها[2] .

أما أثر هذه الترجمة فقد ظهر في تونس بالخصوص ، فقد سجل محمد بن عثمان الحشاشي التونسي فى تقريظه المشار له آنفاً : أنه واسطة هذا الكتاب تعلمت ملوك تونس أعمال المدافع والبارود وآلات الحرب .

وبالنسبة للمغرب وغيره من الدول الاسلامية الأخرى فإن موضوع تأثير الكتاب بها لا يزال بحاجة إلى دراسة ، على أنه من المحقق أن هذا الكتاب كان معروفاً بالمغرب فى عهد قريب من تاريخ ترجمته ، وكان قد وقف عليه أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ/ ١٦٨٥ م ، فإن هذا نقل عن كتاب « العز والمنافع » أواخر شرحه على النظم الذى وضعه فى العمليات الفاسية ، وذلك لما تعرض لمسألة عمل الرصاص فى الذكاة ، فقد ذكر فى هذا الموضع ما نصه :

« . . . لحدوث الرمى بهذه المدافع بحدوث البارود حسبما ذكر بعضهم فى

---

(١) نفس المصدر ، ورقة ١١٦ ب .

(٢) تاريخ اختراع بارود المدافع ، وتعيين مخترعه : مسألة شغلت بال طائفة من الباحثين ، وبالخصوص رجال الاستشراق ، الذين يذكر منهم على سبيل المثال : يوسف أشباخ فى « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » : الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٨ و ٢٤٦ – ٢٤٧ ، وسيديو فى « تاريخ العرب العام » الترجمة العربية ، ص ٤٨٩ — ٤٩٠ ، وغوستاف لوبون فى « حضارة العرب » الترجمة العربية ص ٥٧٦ — ٥٨٠ ، وانظر « الاستقصا » ج ٢ ص ١٨ ، الطبعة الأولى . و « تاريخ التمدن الاسلامى » لجرجى زيدان ج ١ ص ١٨٠ ، أحمد مختار العبادى : دراسة حول كتاب البارود والأسلحة النارية لدافيد أيالون ، مجلة هسبريس ١٩٥٩

تأليف له فى الجهاد وقتال العدو بالمدافع ، وأنه استخرجه حكيم كان يستعمل الكيميا ، ففرقع له ، فأعاده فأعجبه ، فاستخرج منه البارود سنة . . . وستين وثلاثمائة وألف عجمية ، ويوافقه فى العربى سنة ثمان وستين وسبعمائة » .

فهذه الفقرات تلخيص واضح لما ذكره كتاب « العز والمنافع » فى الباب الأول عن اكتشاف البارود[١] .

وبهذا يتضح أن هذا الكتاب عرف بالمغرب فى زمن قريب من عهد ترجمته .

ب — ترجمة الرسالة الزكوطية :

إلى جانب ترجمة كتاب « العز والمنافع » — وهو فى فن المدفعية — قام الحجرى بتعريب مؤلف فى علم التعديل ، وهو رسالة زيج زكوط .

توجد نسخة من هذه الرسالة بالمكتبة الملكية بالرباط ، وتقع ضمن مجموع يحمل رقم ١٤٣٣ ، ومنها يستفاد قيام الحجرى بهذه الترجمة ، كما يوجد بنفس المجموع جداول متصلة بالرسالة ، وهى نفس الزيج المنسوب لزكوط .

ان زكوط هذا أو أزكوط كما يلقبه البعض[٢] : هو إسرائيلى يسمى ابراهيم[٣] ، وينتسب إلى مدينة أندلسية هى مدينة سلمنكة[٤] التى وضع الزيج على طولها[٥] ، وكان يعيش فى القرن التاسع الهجرى ، وبالضبط كان يكتب زيج رسالته سنة ٨٧٧ هـ/١٤٧٢ م[٦] .

---

(١) ورقة ٣ ب .

(٢) هو المعدل عبد الكريم أغبال فى رسالته الآتية .

(٣) نفس المصدر .

(٤) الرسالة الزكوطية ، التى تصف سلمنكة بأنها مدينة العلوم ببلاد الأندلس ، وهذه المدينة هى المعروفة عند العرب بـ «شلمنقة» وهى قصبة الولاية الاسبانية المعروفة بالاسم نفسه ، موقعها على الضفة اليمنى لنهر تورمس ، على بعد ١٧٢ ميلا بالسكة الحديدية شمال غربى مدريد ، اشتهرت بجامعتها التى أسسها الفونسو التاسع ملك ليون سنة ١٢٢٠ م واستمرت حتى سنة ١٨١٢ م ارجع إلى « دائرة المعارف الاسلامية » ، الترجمة العربية ج ١٣ ص ٣٥٦ — ٣٥٧

(٥) الرسالة الزكوطية .

(٦) نفس المصدر .

أما الزيج فهو الجداول المذيلة بها الرسالة ، والموضوعة لتعديل الكواكب ، وقد بلغ عددها ٢٤٨ جدولا موزعة على ٢٤٨ صفحة ، حيث ينقسم كل جدول — طولا وعرضاً — إلى مربعات . يرسم بداخلها الأعداد المعنية بالأمر .

ووظيفة هذه الجداول : أن يستخرج — بواسطتها — الحركات الطولية والعرضية ، للكواكب المرصودة ، حتى يعرف موضع الكوكب المرصود فى دائرة فلك البروج لأى وقت فرض ، كما يعرف منها — أيضاً — زمن حصول الكسوف للشمس . والخسوف للقمر ، وما إلى ذلك .

هذا هو الزيج الزكوطى ، وهو — أيضاً — مدلول سائر الزيجات الفلكية .

أما رسالة الزيج فهى مدخل إرشادى يوضح خطة العمل فى الجداول ، وهى التى قام الحجرى بترجمتها إلى العربية[1] وقد جاءت هذه الترجمة — حسب النسخة الوحيدة التى نعتمدها — خالية من الخطبة التى قد تشرح باعث الترجمة ومنهجها وزمنها ومكانها ، وفى آخرها ورد اسم المعرب هكذا : « أحمد بن قاسم بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجر (تصحيف الحجرى) الأندلسى » .

وهذا يصحح نسبة هذه الترجمة للحجرى ، وقد تأكد هذا فى خطبة « تحفة المحتاج » فى علم التعديل بالأزياج وهو مؤلف سنتحدث عنه بعد .

وكلا المصدرين يقرأون الرسالة الزكوطية حررها مصنفها بالعبرانية ، ومنها نقلت إلى اللغة اللاطينية ، ثم نقلت عنها إلى الاسبانية ، وهى اللغة التى قام الحجرى بالترجمة منها إلى العربية .

تشتمل هذه الترجمة على ٢٤ باباً معنونة هكذا :

الباب الأول فى معرفة الطالع وتسوية البيوت الاثنى عشر على أقرب وجه ، الباب الثانى فى معرفة موضع الشمس من البروج ، الباب الثالث فى معرفة دخول الشمس بأوائل البروج الاثنى عشر ، الباب الرابع فى معرفة موضع القمر من البروج ، الباب الخامس فى تعديل رأس التنين ، الباب السابع فى معرفة حركة القمر ، الباب الثامن فى معرفة الاجتماعات والاستقبالات ، الباب التاسع

(١) لم ندر ما إذا كان الحجرى هو الذى قام بتعريب أسماء الجداول وما فيها من الألفاظ ، حيث إن محتويات هذه الجداول منقولة — أيضاً — إلى العربية .

فى الكسوفات ، الباب العاشر فى تعديل موضع زحل المحقق ، الباب الحادى عشر فى معرفة حركة زحل لكل يوم ، الباب الثانى عشر فى معرفة عرض زحل ، الباب الثالث عشر فى تعديل المركز والحصة بعد مضى الدور الاول ، الباب الرابع عشر فى معرفة حركة موضع المشترى ، الباب الخامس عشر فى معرفة حركة عرض المشترى ، الباب السادس عشر فى معرفة الحركة المحققة للمشترى ، الباب السابع عشر فى معرفة موضع المريخ بالتحقيق ، الباب الثامن عشر فى معرفة حركة المريخ فى كل يوم ، الباب التاسع عشر فى معرفة حركة العرض للمريخ ، الباب الموفى عشرين فى معرفة الموضع المحقق للزهرة ، الباب الحادى رالعشرون فى معرفة الحركة المحققة لعرض الزهرة ، الباب الثانى والعشرون فى الموضع المحقق للكاتب ، الباب الثالث والعشرون فى معرفة حركة عطارد ، الباب الرابع والعشرون فى معرفة النمودار : وهو معرفة السنة المحققة التى كان فيها ميلاد بطلميوس .

هذه أبواب رسالة الزيج الزكوطى المعربة طبق ما وردت بها ، مع تعديلات توضيحية يسيرة مقتبسة من بعض الرسائل المؤلفة حول هذا الزيج[١] .

أما لغة الترجمة فهى واضحة سهلة فى الأكثر ، ويقع فى بعض تعابيرها تعقيد ، وتوجد هذه الترجمة مع الجداول المتصلة بها ضمن مجموع المكتبة الملكية الآنف الذكر ، عدد صفحات الرسالة ١٠ ، مسطرتها مختلفة ، خطها مغربى متوسط ملون مجدول به تصحيف يسير ، وعدد صفحات الجداول ٢٤٨ حجم الجميع ٢٩٠ / ٢٠٥

وتبدو قيمة ترجمة هذه الرسالة ، فى تمكينها لقراء اللغة العربية من الاستفادة من الزيج الزكوطى ، وهو قد قرب الأعمال التعديلية أكثر من زيج ابن البنا[٢] ، الذى شاع — فى المغرب بصفة خاصة — منذ تأليفه ، وصار مرجعاً

---

(١) يتعلق الأمر برسالتين سيتناولهما هذا البحث بعد ، وهما « تحفة المحتاج ، فى علم التعديل والأزياج » مع « رسالة الأنوار ، فى التعديل بالأدوار » .

(٢) هو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى المراكشى المتوفى عام ٧٢١هـ / ١٣٢١م ، وزيجه هو : «منهاج الطالب ، لتعديل الكواكب» مخطوط محفوظ فى عدة خزائن خاصة وعامة .

لدراسة تعديل الكواكب ، حتى إذا ظهر هذا الزيج الزكوطى أخذ يزاحمه ، لما كان لا يحتاج لكثرة الأعمال الحسابية التى يحتاجها زيج ابن البنا .

* * *

أما أثر هذه الرسالة المعربة ، فقد كان بارزاً فى المغرب الأقصى بالخصوص ، فإن المغاربة هم واضعوا المؤلفات التى كتبت لتكميل الرسالة الزكوطية وتوضيحها وهذه المؤلفات تدل — بدورها — على مدى اشتغال المغاربة بهذه الرسالة وزيجها ، وقد تدل — أيضاً — على أن الحجرى إنما عرب تلك الرسالة أثناء وجوده بالمغرب ، بما أنها اشتهرت به دون سواه من الأقطار .

هذا ، ولكى يتأكد من فعالية الرسالة الزكوطية وزيجها بالمغرب ، نستعرض طائفة من المؤلفات المغربية المشار لها ، وأولها : رسالة ألفها عبد الله أصناك المراكشى (١) على الجداول الزكوطية ثانيا : تعاليق وضعها عبد الله بن عبد القادر أبى شيخ اللخمى القصرى (٢) ، وهمش بها على الرسالة الزكوطية وعلى رسالة أصناك المراكشى المذكورة أولا ، وقد ورد ذكرهما معاً فى مراجع « تحفة المحتاج » التالية الذكر ولم أقف عليهما .

(١) لم أقف على ذكره إلا عند مؤلف « تحفة المحتاج » الذى يصفه بالفقيه المعدل .

(٢) ورد ذكره فى خطبة كل من « تحفة المحتاج » و « كنز الأسرار » وهما — معاً — مما ستدرسه هذه العجالة ، ويزيد المصدر الثانى فى وصف أبى شيخ بأنه أحد شراح « روضة الأزهار ، فى علم وقت الليل والنهار » للجادرى . وله — أيضاً — زيج سماه : « كتاب العلم المخزون المعظم ، والدر المشرق بالنور المنظم ، فى معرفة أوقات الصلوات الخمس فى كل يوم من الشهر من شهور العجم » وهو مصدر برسالة تشتمل على ٢٤ باباً ، وقع الفراغ من تأليفها ضحوة الاثنين ٢٢ جمادى الثانية عام ١١٠١ هـ ومن مصادرها زيج ابن البنا : « منهاج الطالب » و « الزيج القويم » لابن الرقام ، وزيج ابن جندوز ، وفى آخر الرسالة سمى المؤلف نفسه هكذا : عبد الله بن عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد الواحد بن عبد الرحمن بن ابراهيم أبى شيخ اللخمى .

توجد من هذه الرسالة نسخة خاصة بها بتر فى أولها ، وتبتدىء أثناء الباب الأول ، يقع الموجود منها فى ٣٢ صفحة عدى بعض الجداول .

أما شرح أبى شيخ على روضة الأزهار فهو مؤلف بسيط فى موضوعه ، يقع فى جزأين ثانيهما يوجد منه نسخة خاصة .

الثالثة : « تحفة المحتاج ، فى علم التعديل والأزياج » كتبها مؤلف مغربى لم يذكر اسمه ، وضمنها تكميلات وتوضيحات للرسالة الزكوطية ، ورتبها على ثمانية أبواب ، مصدرة بخطبة أبانت عن قيمة الزيج ومنهاج العمل فى تحفة المحتاج ، وهذا أهم ما جاء فى الخطبة :

« . . . وبعد : فاعلم — رعاك الله وحفظك — أنى لما رأيت (تصحيف أردت) الشروع فى علم التعديل والأخذ فيه ، ووقفت على بعض الأزياج التى ألفها زكو (ط) ، فرأيتها سهلة المأخذ ، لا تحتاج إلى كثرة الأعمال الحسابية ، كما يحتاجها زيج ابن البنا . . . وقد كنت اطلعت على رسالة الزيج التى ألفها مصنفها باللسان العبرانى ثم حولت إلى لغة اللتين ، ومن اللتين حولت إلى لسان الزمنض ، إلى لغة العرب (كذا) عبد الله . . . أحمد بن قاسم بن حمود بن الفقيه قاسم الجمدرى (تصحيف الحجرى) الأندلسى . . . هكذا وجدته بخط سيدى عبد الله بن عبد القادر أبى شيخ اللخمى رحمه الله تعالى ، فرأيت هذه الرسالة ، قد أخلت بكثير من الأبواب المهمة ، المحتاج إليها فى كثير من الجداول . . . إلى أن وقفت على رسالة ألفها الفقيه المعدل ، سيدى عبد الله أصناك المراكشى على الجداول المذكورة ، قد اشتملت على كثير من الأبواب التى خلت منها رسالة المؤلف المذكور ، غير أنها — أيضاً — قد خلت من بعض الأبواب المهمة التى يتوقف على معرفتها العمل ، ويحصل بها الأمل ، فرأيت — لأجل ذلك — أن أجمع رسالة تشتمل على كلتا الرسالتين ، وأثبت فيها جملة الأبواب المهمة ، وأضيف إلى ذلك ما يتوصل به إلى إدراك تاريخ المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، لأن الأعمال كلها متوقفة عليها (كذا) ، فهو من الأمور الواجبة ، لا بد منه لكل طالب ، فمن لم يعرف التاريخ المذكور ، لا يستقيم له فى هذه الأزياج عمل ، وأثبت فيها أيضاً ما وجدت من الطرر مكتوباً على الرسالتين ، بخط سيدى عبد الله أبى شيخ ، زيادة فى الإيضاح والبيان ، كما ستقف على ذلك كله ، إن شاء الله تعالى ، وجعلت فيه من الأبواب ثمانية . . . » .

هذا أهم ما ورد فى افتتاحية « تحفة المحتاج ، فى علم التعديل والأزياج » .

توجد نسخة منها أول مجموع المكتبة الملكية الآنف الذكر ، والذى يحمل رقم ١٤٣٣ ، خطها مغربى متوسط ملون مجدول ، به بعض تصحيف ، مسطرة مختلفة ، مقياس ٢٩٠/٢٠٥ ، عدد الصفحات ٧

الرسالة الرابعة : « رسالة الأنوار ، فى التعديل بالأدوار » تأليف أبى الربيع سليمان بن أحمد الفشتالى الفاسى[١] المتوفى سنة ١٢٠٨ هـ/١٧٩٣ م .

قال فى خطبتها : « وبعد : فلما كانت صناعة الزيجات ، من أجل ما توصل به لأحوال الخنس والمستقيمات ، وكان كتاب ضوابط الأدوار فى الحركات لزكوط ، فى ذلك وحيداً كفيلا بالغايات ، رأيت أن أتحف طالبه بما يلح به على المخدرات ، متحرياً هجنة المترجم ، مع فوائد وزيادات فى هذه الرسالة .

عدد أبوابها سبعة عشر ، ومنها نسخة بالخزانة العامة بالرباط آخر مجموع يحمل رقم ك ١٤٦٨ ، من ص ٢٧٨ إلى ص ٣٠٣ ، خط مغربى متوسط ملون ، مسطرة ٢٥ ، مقياس ٢٠٠ / ١٥٠

فهذه أربع رسائل شاهدة للأثر الذى أثرته — بالمغرب — الرسالة الزكوطية المعربة وزيجها .

٤ — المعلم يوسف الأندلسى :

ان هذا ينسب له البعض تعريب الرسالة الزكوطية ، ويعنى بهذا البعض : المعدل عبد الكريم بن على أغبال فى « رسالته » التى وضعها على زيج زكوط ، فقد ذكر أن المعلم يوسف الأندلسى ترجم الرسالة الزكوطية من الإسبانية إلى العربية بمدينة مراكش ، وأنه أول من قام بهذه الترجمة .

فهل هذا يتعارض مع ما أسلفته هذه العجالة من نسبة تلك الترجمة للحجرى ، نسبة مستقاة من نفس هذه الترجمة الأخيرة ، ومن بعض الذين كتبوا حولها ؟

(١) له ترجمة فى « السلوة » ج ٣ ص ١١٥ ١١٦

يبدو أنه لا يوجد تعارض فى ذلك ، وأن هناك ترجمتين اثنتين للرسالة الزكوطية : الترجمة الحجرية ، مع هذه التى قام بها المعلم يوسف ، ويؤيد هذا ما ذكره أغبال : من وصف هذا المعلم بأنه أول من قام بتعريب الرسالة الزكوطية ، فإن هذه الأولية توذن بترجمة أخرى لهذه الرسالة بعد ذلك ، وهى الترجمة الحجرية ، وعلى هذا نستفيد أن تلك الرسالة عربت مرتين ، كما نستفيد إسماً جديداً ورابعاً لأحد رجال التعريب بالمغرب ، وهو المعلم يوسف الأندلسى نزيل مراكش ، والذى لم يحدد المصدر الذى أورده : تاريخ قيامه بهذه الترجمة .

على أنا إذا حاولنا معرفة هذا التاريخ - ولو على جهة التقريب — ينبغى أن نتذكر أن تعريب الرسالة الزكوطية وقع بعد سنة ٨٧٧ هـ/١٤٧٢ م ، وهى تاريخ كتابة الزيج ، ونتذكر — أيضاً — أن هذه الرسالة وضعت باللغة العبرانية ثم ترجمت عنها إلى اللاتينية ، ثم من هذه اللغة إلى الإسبانية ، وهى التى وقع النقل عنها إلى العربية ، وبديهى أن هذه الترجمات الثلاث لم تقع فى أزمنة متصلة ، وإنما وقعت فى فترات متقاطعة ، يدل لهذه قول رسالة أغبال عن الرسالة الزكوطية : «وكانت أولا مكتوبة بالقلم العبرانى ، ثم كتب بخط اللطين ، ثم نقلت منه بخط روم إسبانية . . . » .

فهذا التعبير بثم يفيد أن التعريب وقع بعد تاريخ النص العبرانى بزمن ليس باليسير .

كما ينبغى أن نتذكر — مع ذلك — أن هذه الترجمة سابقة على الترجمة الحجرية التى يقدر أنها وقعت خلال النصف الأول من القرن ١١ هـ .

وهكذا يستنتج من هذه التقديرات أن ترجمة المعلم يوسف وقعت فى القرن العاشر أو أوائل القرن ١١ هـ ، أى قرب العصر السعدى أو فى نفس هذا العصر الذى يبتدىء حدود سنة ٩٣٠ هـ فى مدينة مراكش البلد الذى كانت فيه الترجمة .

أما نص هذه الترجمة فلم أقف عليه ، وإنما أشارت له الرسالة الأغبالية ، التى ذكرت أن المعلم يوسف الأندلسى لم يقم بترجمة الرسالة الزكوطية بكاملها ، وإنما عرب منها ما قدمته الرسالة الأغبالية فى تسعة عشر باباً هكذا :

الباب الأول فى معرفة الطالع وتسوية البيوت الإثنا عشر ، الباب الثانى فى معرفة موضع الشمس ومعرفة دورها وتعديلها ، الباب الثالث فى معرفة ميل الشمس وحقيقته ، وهل هو شمالى أو جنوبى ، الباب الرابع فى معرفة حلول الشمس بأوائل البروج ودوره وتعديله ، الباب الخامس فى معرفة موضع القمر ودوره وتعديله ، الباب السادس فى معرفة الاجتماعات والاستقبالات ودورها وتعديلها ، الباب السابع فى معرفة تحقيق ساعات الاجتماع والاستقبالات ، الباب الثامن فى معرفة عرض القمر ، الباب التاسع فى معرفة استخراج حصة القمر ودورها وتعديلها ، الباب العاشر فى معرفة حركة الجوزهر (١) ودوره وتعديله ، الباب الحادى عشر فى معرفة بعد الشمس عن الجوزهر ، الباب الثانى عشر فى معرفة كسوف الشمس ، الباب الثالث عشر فى معرفة حدود خسوف القمر ، الباب الرابع عشر فى معرفة موضع زحل ودوره وتعديله واستقـامته ووقوفه ورجوعه ومعرفة مركزه وحصته وعرضه ، الباب الخامس عشر فى معرفة موضع المشترى ودوره واستقامته ووقوفه ورجوعه ومعرفة مركزه وحصته وعرضه الباب السادس عشر فى معرفة موضع المريخ ودوره واستوائه فى البروج واستقامته ووقوفه ورجوعه ومعرفة مركزه وحصته وعرضه ، الباب السابع عشر فى معرفة موضع الزهرة ودورها وتعديلها واستقامتها ووقوفها ورجوعها ومعرفة مركزها وحصتها وعرضها ، الباب الثامن عشر فى معرفة موضع عطارد ودوره وتعديله واستقامته ووقوفه ورجوعه ومعرفة مركزه وحصته وعرضه ، الباب التاسع عشر فى معرفة المطالع الاستوائية .

* * *

وإذا حاولنا أن نتعرف الأثر الذى أثرته هذه الترجمة ، فلا نعدم أصداء لها — بدورها — فى بعض الموضوعات المغربية .

---

(١) الجوزهر هو النقطتان اللتان تتقاطع عليهما الدائرتان من الأفلاك اللتان تسميان العقدتين ، وهى كلمة فارسية بمعنى صورة الجوز أو صورة الكرة « صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد » مجلد ٦ ص ٢٣

وأول ذلك رسالة المعدل أغبال[(١)] المتكررة الذكر ، وقد عنيت بدراسة الأبواب ١٩ الآنفة الذكر ، بعد ما مهدت لهذه الدراسة بافتتاحية عن أصداء « الرسالة الزكوطية » وعن مصادر ومنهج المؤلف ، وهى التى نقتطف منها ما يـــلى :

قال كاتبه ومؤلفه : عبد الكريم بن على أغبال ، رحمه الله . . . وبعد : فهذه رسالة فائقة لطيفة ، فى كيفية التعديل بالزيج الذى وضعه ابراهيم اليهودى المعروف بأزكوط . . .

وهذه الرسالة قد جمعتها من رسائل عديدة ، وكلها فى غاية ما يكون من الاختصار ، حتى أن من تمسك بالبعض منها لم يحصل على طائل ، وهى كلها مأخوذة من رسالة مؤلف الزيج ، وكانت — أولا — مكتوبة بالقلم العبرانى ، ثم كتبت بخط اللطين ، ثم نقلت منه بخط روم سبانيا ، ووجدت بيد نصرانى اسمه زمنض ، وأخذها من عنده المعلم يوسف الأندلسى ، وهو أول من ترجمها بالعربية فى مدينة مراكش ، فأخذ الناس منها ما قدروا على أخذه ، لصعوبة لفظها ، واختصروها غاية الاختصار ، حتى أجحفوا بالكثير من عملها ، وها نحن الآن — بعون الله وقوته — جمعنا ما فى تلك الرسائل ، ولفقنا بعضها لبعض ، بعد مشورة من أخذنا عنه هذا العلم ، وموافقته على ذلك ، وقد بذلنا المجهود فى بيان معانيها ، وترتيب أبوابها : الأول فالأول .

تقع هذه الرسالة ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٢٠١٤ من ص ١ إلى ص ٥٥ ، مسطرة ١٨ ، مقياس ١٥٠/١٩٠ خط مغربى مستحسن ملون مجدول .

الرسالة الثانية : « كنز الأسرار ، وفيض الأنوار فى تعديل النيرين والخمسة المتحيرة بالأدوار » تأليف محمد المعطى بن أحمد الطيب بن محمد مرين الرباطى الأندلسى[(٢)] المتوفى سنة ١٢٢٣ هـ/١٨٠٨ م .

وهى — بدون شك — موضوعة على هذه الترجمة المتحدث عنها ، وسنرى

(١) لم أقف على ترجمته .
(٢) له ترجمة فى « الاغتباط ، بتراجم أعلام الرباط » خ .

— فى خطبة هذه الرسالة — أنها تحـادى — كثيراً — افتتاحية الرسالة الأغبالية الآنفة الذكر ، والموضوعة بخصوص تلك الترجمة .

ألفها استجابة لرغبة الفقيه المشارك السيد التهامى بن العلامة الشهير سيدى على بن أحمد الوزانى اليملحى الحسنى(١) الذى طلب منه أن يضع رسالة على الزيج الزكوطى ، تكون جامعة لمعانيه ، ضابطة لقواعده ومبانيه .

تشتمل هذه الرسالة على ١٨ باباً ، مصدرة بافتتاحية عن منهج المؤلف وقيمة هذه الترجمة ، ومما جاء فيها :

« . . . ولفقت هذه الرسالة ، بعد أن طـالعت على هذا الزيج رسائل عديدة ، غير أنها فى غاية ما يكون من الاختصار ، حتى أن من تمسك بالبعض منها أو كلها ، ربما لم يحصل على طائل ، لأنها مأخوذة من رسالة مؤلف الزيج فأخذ الناس ما قدروا عليه منها لصعوبة لفظها ، فوضعوا على هذا الزيج تلك الرسائل مختصرة جداً حتى جحفوا بالكثير من عملها ، فمنها رسالة الإمام الجيانى الأندلسى ، وهى أجلها ، ورسالة الإمام البركة سيدى عبد الرحمن الفاسى ، ورسالة سيدى عبد الله بن سيدى عبد القادر أبى شيخ اللخمى القمرى ، شارح « روضة الأزهار ، فى علم وقت الليل والنهار » ، ورسالة الفقيه المعدل سيدى عبد الكريم المعروف بأغبال ، رحم الله الجميع بمنه آمين ، وليس ذلك جهلا منهم — رضى الله عنهم — وإنمـا ذلك من عدم تبيين المترجم عن رسالة المؤلف ، لأن نقل التأليف من لغة إلى لغة صعب جداً ، لا سيما إذا لم يكن المعرب عارفاً بالألسن وقد زعم كثير من الناس ، أن هذا الزيج سهل عمله ، وقريب مهمه ، وليس كما زعم ، ثم انى لم أثبت — فى هذه الرسالة — عملا إلا بعد أن امتحنه ، « وثبتت لدى صحته » .

قال فى آخر الرسالة : « وافق الفراغ من جمعها بزاوية وزان — كلأها الله بمنه — وذلك بعد غروب الشمس بنصف ساعة معتدلة ، من ليلة الأحد الثانى من ذى الحجة الحرام بحساب العلامة ، الأول منه بحساب الرؤية ، من

(١) له ترجمة فى « الكوكب الأسعد » المطبوع بفاس ، بهامش « تحفة الاخوان » ص ١٨٥ — ١٨٦

عام أحد عشر ومائتين وألف ، من سنى الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، الموافق للسابع عشرة مايه من سنة سبعة وتسعين وسبعمائة وألف ، من تاريخ السيد المسيح ، عليه السلام » .

تقع ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط ، تحت رقم د ٢٠٢٧ من ص ٨٣ إلى ص ١١٨ ، مسطرة ٢٣ ، مقياس ٢٢٠ / ١٧٥ ، خط مغربى متوسط به تصحيف .

وهكذا نتبين — مرة ثانية — الآثار التى كانت لهذه الترجمة الأخرى للرسالة الزكوطية .

* * *

هذا وستكون خاتمة حديث « الزيج الزكوطى » . وخاتمة هذا البحث أيضاً : ما جاء فى بعض « مقيدات »[١] العلامة الكبير أبى إسحاق إبراهيم بن محمد التادلى الرباطى[٢] ، المتوفى سنة ١٣١١ هـ / ١٨٩٤ م ، فقد ذكر أنه درس أحد أبواب « الزيج الزكوطى » على بعض علماء « الرباط » : وهو « محمد الرطل » الطبيب ، المعدل الموسيقى ، الذى أخذ عنه تعديل القمر ، بطريقة هذا الزيج .

وهو لم يبين الترجمة العربية التى اعتمدها فى هذه الدراسة ، ولم يوضح هل هى الترجمة الحجرية ، أو ترجمة المعلم يوسف الأندلسى ، وأياً ما كان ، فإن هذا يدل على أن الترجمة العربية للزيج الزكوطى ورسالته ، امتدت دراستها بالمغرب ، حتى النصف الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى ، والله — سبحانه — ولى التوفيق .

محمد المنونى

(١) توجد ضمن كناش بمكتبة العلامة الجليل محمد بن بوبكر التطوانى بسلا . حيث وقفت عليه أثناء سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥ م .

(٢) من مصادر ترجمته : « الاغتباط ، بتراجم أعلام الرباط » .

من عمره منتمياً إليهم جاهداً فى إظهار الإخلاص لهم تمهيداً للهجرة النهائية إلى المغرب يأساً من صلاح الحال فى الأندلس .

وقد قدم الدكتور العبادى للنص بمقدمتين ، الأولى عن كتاب أعلام الأعلام والثانية عن ابن الخطيب وصلته السياسية والعلمية بالمغرب ، والاثنتان من أحسن ما قرأنا عن ابن الخطيب وأعماله ، وخاصة الثانية التى تتضمن دراسة ببليوغرافية لأعمال ابن الخطيب ، وهى تضيف مادة جديدة إلى ما نشره من قبل فى نفس الموضوع فى مجلة هيسبريس سنة ١٩٥٩

والنص نفسه عظيم القيمة وإن كان لا يسمو إلى قيمة الجزء الخاص بالأندلس من أعمال الأعلام ، والصفحات الأولى منه السابقة على بنى الأغلب عرض سريع لم يكلف ابن الخطيب نفسه عناء فى كتابته ، ومادته أقل بكثير مما عند ابن الأثير وابن عذارى ، ولا تقارن بحال بما أورده ابن الأبار فى الحلة عن شخصيات أمراء إفريقية قبل بنى الأغلب . وربما كان مرجع ذلك إلى العجلة ، فإن هذا الجزء كله من أعمال الأعلام قليل التدقيق إلى أول دولة المرابطين بصورة خاصة (انظر مثلا كلامه عن الفاطميين ، يسميهم ملوك الشيعة ص ٤٦— ٦٠) ، وكلامه عن بنى زيرى الصنهاجيين أشبه بجدول تاريخى (٦١—١٠٠) .

ويبدأ القسم ذو القيمة الحقيقية من الكتاب فى ص ١٠١ من النص المطبوع عند ما يتكلم عن صقلية ، فهذه القطعة دون شك من أحسن ما لدينا عن تاريخ المسلمين فى هذه الجزيرة الكبيرة ، وقد سبق إلى نشره أمارى فى المكتبة الصقلية ، ولكن نص الأستاذين العبادى والكتانى أوفى وأصح خاصة إذا نظرنا فى التعليقات الضافية التى علقاها على حواشى الكتاب ، وقد كان بودنا أن نعرف شيئاً عن المقدمة الجغرافية التى قبسها ابن الخطيب عن كتاب لأبى محمد عبد الله ابن على الرشاطى الأندلسى المتوفى سنة ٥٤٢/١١٤٢ ، فنحن لا نعرف لهـذا الرجل كتاباً فى الجغرافية والتاريخ إلا إشارات يسيرة أوردها فى كتابه عن أنساب الصحابة . ولا ندرى من أين أخذ ابن الخطيب هذه المادة الغنية عن صقلية ، ولو عرفنا مراجعه فى هذا الجزء كله لكان ذلك أعون على تقدير هذه القطعة قدرها الصحيح .

ومادة ابن الخطيب عن الفصول التاليــة من هذا القسم — خاصة بملوك القبلة أى جنوبى المغرب فى منطقة سجلماسة ، وبيان ابن الخطيب عمن توالى على حكم هذه النواحى من المسلمين يعتبر جديداً من كل ناحية ، وخاصة عند ما يتكلم عن دولة أبى القاسم سمعون بن يزيلان الصفراوى المعروف بالمدرار (أو مدرار) وبنيه وتنسب الدولة أحياناً إلى ثالث أمراء هذا البيت أبى المنتصر اليسع ، فيقال بنى اليسع بن مدرار ، أو بنى اليسع المدراريين وهذا هو اسمهم الشائع فى الكتب . وكلام ابن الخطيب عنهم يصحح كل معلوماتنا عنهم ويضيف جديداً إلى قائمة أمرائهم التى أوردها زامباور فى كتابه المعروف . ونحس ونحن نقرأ ابن الخطيب أنه اعتمد على نفس المراجع التى رجع إليها ابن خلدون فى الكلام عن هذه الاسرة وما يشبهها من الاسر المغربية الخالصة الاخرى التى يتحدث عنها بعد ذكره . ونخص بالذكر كلامه عن المرابطين وأوليائهم قبل يوسف بن تاشفين ، فقد أورد ابن الخطيب هنا معلومات لم يوردها مؤرخ آخر فيما نذكر وإن كان التشابه شديداً جداً بين مادة أعمال الأعلام ومادة كتاب الحلل الموشية فى هذا الجزء .

وقد أضاف الناشران إلى النص تعليقات تبلغ فى الحجم أضعاف الأصل ولا تقل عنه فى القيمة ، فهى مجموع وفير من المعلومات عن كل علم ورد فى الكتاب ، ولا شك أنهما بذلا فى ذلك جهداً شاقاً ، ونحن إذ نحمد لهما سلامة النشر واستيفاءه أشراط الدقة والامانة وحسن التقدير فى القراءات ، فإننا نحمد لهما مرة ثانية ذلك الجهد الذى تكلفاه خدمة للقراء ، فإن تاريخ المغرب فى حاجة إلى من يخدمه بالعزم والإخلاص والعلم ، وقد أوتى الاستاذان مختار العبادى وابراهيم الكتانى من هذه كلها النصيب الأوفى .

ديوان ابن شهيد الأندلسى : عنى بجمعه الأستــاذ
شارل بللا ، دار الكشوف ، بيروت ، ديسمبر ١٩٦٣

أحسن الأستاذ شارل بللا بإهداء المكتبة العربية هذا الديوان النفيس ، وهى مأثرة جديدة من مآثره على الأدب العربى وتاريخه ، ومن حسن الحظ أن

ذلك المستشرق النابه يصرف جزءً من وقته فى الأندلسيات ، ولا ننسى له ترجمة رسالة ابن حزم فى فضل الأندلس إلى الفرنسية وما زود هذه الترجمة به من تعليقات وشروح وفهارس زادت من قيمة الرسالة نفسها ، ونحن اليوم لا نرجع إلى تلك الرسالة القيمة دون ترجمة بللا معها ، مما يدل على عظيم فضله وجهده فى عملها .

وقد فاتنى أن أعتذر عن رسم لقب الأستاذ بيللا على هذا الشكل — بياء ولامين — فالحق أن رسم لقبه بالعربية رسماً دقيقاً أمر عسير ، وقد تجنب هو رسم الاسم فكتبه على عنوان الكتاب بالفرنسية ، وهو تخلص ذكى ، ولكنه فيما يبدو غير منسجم ، إذ كيف يرسم الإسم هكذا بالافرنجية وسط صفحة عنوان عربية ؟

وقد قدم للكتاب الدكتور بطرس البستانى بمقدمة نعتقد أنها غير موفقة فقد بدأها بالقول بأن أدباء المشرق لم يعرفوا فضل أدب المغاربة (يريد الأندلسيين أيضاً) حتى نشر الشيخ فيليب قعدان الخازن كتاب « العذارى المائسات فى الأزجال والموشحات » ، وان نفح الطيب للمقرى لم ينل اهتماماً كبيراً مع أنه نشر فى مصر سنة ١٣٠٢ (١٨٨٤) وأن أدباء المشارقة لم يهتموا بالأندلس إلا قبيل الحرب العالمية الثانية ، فأخذوا يلتفتون إليه ويخصونه بالدراسات أسوة بالمستشرقين الذين تقدموهم أشواطاً فى هذا المضمار ، وهذا كلام كأنما صيغ توسلا إلى مزيد من رضى المحقق الأستاذ بيللا ، لأن الثابت أن اهتمام المشارقة بالأندلس وتاريخه لا يرجع قط إلى كتاب فيليب قعدان الخازن ، وان المستشرقين — مع تقديرنا العظيم لجهودهم — لم يسبقونا إلى تقدير الأدب الأندلسى لا شوطاً ولا أشواطـاً ، فإن نفح الطيب كان فى مقدمة ما عنيت بطبعه مطبعة بولاق ، ونفدت نسخه لأول ظهوره وأعيد طبعه فى القاهرة على طبعة بولاق مراراً ، ودواوين كبار الأندلسيين طبعت فى القاهرة قبل الحرب العالمية الأولى وأسماء ابن خفاجة وابن حمديس وابن عباد وابن عمار كانت دائماً على كل لسان . وبعد الحرب العالمية الأولى أصدر أحمد ضيف كتابه عن بلاغة العرب فى الأندلس وهو قطعاً أبعد أثراً فى تعريف الناس بأدب الاندلس من كتاب قعدان الخازن وفى ذلك الوقت أيضاً طـاف محمد لبيب البتانونى بالاندلس وكتب رحلته التى

كان لها دوى بعيد ، وزار أحمد زكى (باشا) شيخ العروبة الاندلس وكتب عنه كثيراً بل شارك فى مجلد تكريم فرانثيسكو كوديرا الذى صدر سنة ١٩٠٤ ، ووفد شوقى على الاندلس وقال فيه قصائده التى حركت أشجان العرب ، وحاضر المرحوم عبد الحميد العبادى فى الجامعة عن تاريخ الاندلس ، ودعا إليه طه حسين دعوة عريضة ، وألف شوقى مسرحيته المعروفة بغادة الاندلس ، وكل هذا لا يراه الاستاذ بطرس البستانى شيئاً ، وكل ما يذكره كتاب فيلب قعدان وسبق المستشرقين علينا فى ذلك المضمار ، ومن الثابت أنه لم يهتم بالادب الاندلسى من المستشرقين قبل غرسية غومس إلا البارون فون شاك ومارتن هارتمان . وغرسية غومس من معاصرينا وهو تلميذ أحمد زكى شيخ العروبة وتلميذ طه حسين ، ولهذا كله فإننى آذن لنفسى فى أن آخذ على الاستاذ البستانى هذه الشنشنة التى فرغنا منها من زمن طويل ، فإن الاعتراف بفضل فيلب قعدان واجب ، وتقدير جهود المستشرقين واجب وكذلك تقدير فضل الأخوة من المواطنين العرب واجب أيضاً . وأحسب أن هذا كلام لا يغضب البستانى لان قوله واجب علينا كذلك ، ونرجو أن يكون شبيهاً فى سعة الصدر بسميه بطرس وسليمان طيب الله ثراهما فقد كانا بستانيين إسماً ومعنى .

أما مقدمة شارل بيللا فدراسة عظيمة القيمة ككل ما يكتبه ، وناحيتها البيليوغرافية ذات فائدة واضحة وستكون منذ الآن من المواد الاساسية للكتابة عن ابن شهيد والأدب الأندلسى بصورة عامة .

وأورد شارل بيللا (ص ١٢—١٣) ثبتاً بمراجعه . وقرر فى نهاية المقدمة أنه لن يبدى رأياً فى الناحية الجمالية من الاشعار التى سيوردها مكتفياً ببيان الأبيات التى استحسنها النقاد ذاهباً إلى « أن مثل هذه الابيات لو لم يقل ابن شهيد غيرها لكفت دليلا على نبوغه وسبباً لتخليد ذكراه » وهى عبارة تدل على تقدير عظيم لذلك الشاعر الاندلسى المجيد ، وكنا نود لو أتحفنا بيللا برأيه ، فهذا هو المهم هنا ، لان أهم ما نعنى به من كلام المستشرقين فى أدبنا هى آراؤهم فيه من الناحية الفنية ، لانهم ينظرون إلى الآثار الفنية من زوايا خاصة ويقيسونها بمقاييس لم نتدرب نحن بعد على استعمالها ، أما تحقيق النصوص وجمع

الدواوين وتخريج أبياتها فما لا يعسر علينا عمله ، وفى الوقت الذى أكتب فيه هذه السطور يطبعون فى القاهرة جمعاً جديداً لديوان ابن شهيد قام به صديقنا الاستاذ جيمس ديكى أو يعقوب زكى .

وقد ضبطت الابيات ضبطاً دقيقاً ، وأشير فى آخر كل قطعة إلى مصادر تخريجها وروايات ما تكررت روايته منها فى كتب أخرى ثم شروح قيمة تضاف إليها فى أحيان كثيرة مقابلات فرنسية تزيد معنى الألفاظ وضوحاً .

وقصائد الديوان مرتبة على حروف المعجم بحسب قوافيها على طريقة العرب فى ترتيب الدواوين . وعدد القطع الواردة فى الديوان خمس وسبعون — ونستطيع القول الآن أن لدينا ديواناً جديداً من عيون الشعر الاندلسى يعيننا فى درسه وتقديره ، وهو فضل كبير لا بد أن نقدره للمستشرق الكبير ، ونرجو أن يتفضل إخواننا المتخصصون فى الأدبيات أن يقيموا عليه دراسة تكمل ما قاله الأستاذ بطرس البستانى في دراسته القيمة لرسالة الزوابع والتوابع لأبي عامر ابن شهيد أيضاً ، ومثل الدراسة المستفيضة التى قدم بها الدكتور محمود على مكى لتحقيقه لديوان ابن دراج القسطلى .

أبو على حسين بن القطان الكتامى : نظم الجمان ، الجزء السادس ، بتحقيق الدكتور محمود على مكى ، بمساهمة المركز الجامعى للبحث العلمى ، تحت إشراف معهد مولاى الحسن ، المطبعة المهدية ، (تطوان المغرب) بدون تاريخ .

مما يسعد دارس الأندلسيات والمغربيات فى هذه السنوات أن نصوصها الأساسية تخرج إلى النور محققة على أيدى أساتذة عارفين قدر هذه الأصول ومتمكنين من قواعد التحقيق المنهجى ، وقد تناولنا فى هذا الباب جزءًا من أعمال الأعلام لابن الخطيب وكتاب المن والإمامة لأبى مروان ابن صاحب الصلاة ، وهذا أصل ثالث يهديه إلينا الأستاذ الدكتور محمود على مكى وكيل هذا المعهد .

هذا الأصل هو الجزء السادس من كتاب نظم الجمان لابن القطان ، وهو نص عظيم القيمة عن تاريخ المرابطين فى إمارة على بن يوسف وما تلاها وقيام

دولة الموحدين وخاصة ما كان بين الدولتين من صراع انتهى بزوال الأولى وثبات أقدام الثانية .

والنص يقص ذلك بتفصيل كبير يسد فراغاً واسعاً كنا نحس به ، لأن أخبار الدولة المرابطية عندنا ناقصة إذ أننا لم نجد كتاب الأنوار الجلية لابن الصيرفى ، وهو فيما نعتقد الكتاب الوحيد الذى يمكن أن يعرفنا بأمور المرابطين تعريفاً صحيحاً ، حتى نص ابن عذارى لا يغنى عنه كثيراً ، لأن كل من كتب عن المرابطين أيام الموحدين أو بعدهم غاب عنه فضلهم وحقيقة الدور الجليل الذى قاموا به فى تاريخ المغرب والاندلس ، لان الغالبية العظمى من مؤرخى المغرب من أيام الموحدين فصاعدا كانوا من طبقة كتاب الدواوين ، فهم يكتبون التاريخ ليمدحوا سلاطينهم وربما أضافوا إلى هذه التواريخ المدحية فصولا عما سبق أيام سلاطينهم السعيدة (ولا يمكن إلا أن تكون كلها أعياداً) وهم ينقلون هذه الفصول عما سبقهم من التواريخ دون تكلف نقد أو إيضاح ، وما دام مؤرخو الدولة الموحدية قد سوءوا سمعة المرابطين متابعة لآراء ابن تومرت وبقية الموحدين فيهم فقد أصبحت هذه الإساءة هى الصورة الغالبة على ما كتب عن المرابطين فى المغرب ومن حسن الحظ أن أخبار المرابطين وصلت إلى المشرق فى أيامهم وسجلها بعض مؤرخيه ، واطلع نفر منهم على كتاب الأنوار الجلية ، فصارت للمرابطين صورة أخرى فى كتب المشارقة هى أصح مما نجده فى كتب المغاربة ، ومثال ذلك ما نجده عند ابن الأثير والنويرى من مادة طيبة عظيمة القيمة عن هذه الدولة الإسلامية المغربية التي خدمت المغرب والأندلس أكثر مما خدمته أى دولة أخرى إلى آخر العصور الوسطى على الأقل .

والمخطوط الذى نحن بصدده وقع فى يدى فى شتاء ١٩٥٩ ضمن مجموعة طيبة من المخطوطات تخلفت من تركة الاستاذ ليفى بروفنسال ، فاشتريتها لمعهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، وعكفنا على تحقيقها ، فكانت هذه القطعة من نظم الجمان من نصيب الدكتور محمود على مكى ، فأفرغ فى تحقيقها ما لديه من علم غزير وخبرة طويلة بشئون النشر والتحقيق فأحالها من أوراق متناثرة سيئة الترتيب حافلة بالأغلاط إلى نص تاريخى من الطراز الأول ، وقد بلغ به الاجتهاد

أن أعاد ترتيب الورقات الأولى حسب السنين ، وتمكن من ضبط عشرات الأسماء المغربية الخالصة وهو أمر غاية فى الصعوبة فى مخطوط كهذا يكتب « اجد » مكان « اجداى » عامل قرطبة و « يكر » مكان « بكو » و« دكان » مكان « دكالة » و « يخشتون » مكان « غشتون » وهكذا ، وقد نبه الدكتور مكى على ذلك كله فى مواضعه .

وقد أضاف الدكتور مكى إلى النص تعليقات ضافية ضاعفت من قيمة الكتاب ، فما من علم فيه سواء أكان أندلسياً أو مغربياً أو إسبانياً إلا قومه أولا ثم عرف به التعريف الكامل على قدر ما تسمح به المراجع ، ومن هنا فإنى أعتقد أن تعليقات هذا الكتاب ستصبح من الآن مرجعاً أساسياً لكل المشتغلين منا بتاريخ المغرب والأندلس ، وخاصة فيما يتصل برجال الدولتين المرابطية والموحدية ومن عاصرهم من رجال الممالك النصرانية فى شمال شبه الجزيرة ، ومن حسن الحظ أن أمبروسيو أويثى فى تاريخه المفصل للموحدين قد حقق الكثير جداً من هذه الاعلام وتتبع تاريخ حياة أمراء الموحدين ورجالهم جميعاً على نحو يدعو إلى الإعجاب ويقتضى الشكر ، فقد يسر عملنا جميعاً فى هذا الباب تيسيراً عظيما .

وفهرس الاعلام فى آخر الكتاب مفصل دقيق شامل ، وربما كان من المستحسن أن يتبع ذلك بفهرس للمحتويات ، فإن ذلك ضرورى ، وربما كان السبب فى خلو الكتاب من ذلك الفهرس أن الدكتور مكى شغل بإحصاء الاغلاط المطبعية التى حفل بها الكتاب ، ولا يد له فيها فإن المشرفين على الطباعة لم يعنوا بمراجعة تصويباته لتجارب الطبع ، وسهو أحياناً عن إرسالها إليه ، فكانت النتيجة ست صفحات من التصويبات لا بد أن نقرأها أولا وتدخل تصويباتها على النص قبل أن نقرأ .

اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، القسم الأول ، نقله من الروسية إلى العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم . مختارات الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية . القاهرة ١٩٦١

يعتبر ظهور هذا الكتاب فى اللغة العربية حدثاً جديراً بالتسجيل لأكثر من سبب ، فإن كراتشكوفسكى من أعلام المستشرقين وأصدقهم خدمة للفكر العربى ، وهو دون شك كبير المستشرقين الروس ، وكان لا بد أن يقرأ العرب شيئاً مما كتب ، وهذا الكتاب هو غرة مؤلفاته ، وهو عنوان على الاستشراق الروسى فى أحسن صوره ، لأن كراتشكوفسكى كان إلى جانب مكانته كعلامة إنساناً ممتازاً يعرف الناس له كتابه الطريف ، مع الكتب والمخطوطات العربية وهو من أجمل ما يقرأ الإنسان حول الاستشراق وأهله والمخطوطات العربية والمنقبين عنها . وكتابه عن تاريخ الجغرافية عند العرب يسد فراغاً ضخما فى تاريخنا الفكرى ، فقد كان القارىء العربى فى حاجة إلى كتاب جامع يعرفه بجهود العرب فى هذا الميدان بعد أن ترجم الأستاذ محمد فتحى عثمان كتاب الأستاذ نفيس أحمد عن جهود العرب فى الجغرافية ، وهو أشبه بمقدمة صغيرة لتاريخ هذا العلم عند العرب ، وهو مجرد فتح للطريق ، ثم تجىء الترجمة العربية لكتاب كراتشكوفسكى فتقدم للعرب زاداً غنياً وتفتح أمام الباحثين آفاقاً واسعة فى ذلك المجال . أضف إلى ذلك أن هذا الكتاب أول مؤلف روسى ينقل إلى العربية من الروسية مباشرة وناقله شاب عربى سودانى من أهل العلم والعزم والإحساس العربى الصادق ، فإن إنساناً يتكلف الجهد المضنى فى نقل مثل هذا الكتاب لا بد أن يكون ذا قلب كبير وإحساس كريم .

والكتاب فى ذاته عظيم القيمة ، هذا واضح من مجرد القراءة السريعة ، وقد أتيحت لى خلال السنوات الأخيرة فرصة الاطلاع الواسع على الادب الجغرافى العربى لمناسبة بحثى عن الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس ، ولم تصل إلى الترجمة العربية لكتاب كراتشكوفسكى إلا بعد أن فرغت من الجزء الثانى من هذا البحث عن الإدريسى ، فأخذت منه فيما بعده ، وتبينت بالفعل أنه كتاب

جيد بمعنى الكلمة ، قرأ له صاحبه قراءة واسعة جداً وقضى سنوات يجمع مادته فى صبر . ويبدو اجتهاد المؤلف بصفة خاصة فى المدخل والفصول الأربعة الأولى فقد أعطى فى المدخل نظرة عامة عن الانتاج الجغرافى العربى فى مجموعه وذكر حسناته ووجوه نقصه العامة وأصوله والمراحل الحاسمة فى تاريخ العلم الجغرافى عند العرب ، وللمؤلف فى أثناء ذلك كله ملاحظات غاية فى الحصافة وإن كنا نستدرك عليه أشياء كثيرة ، وبديهى أننا إذ نرفض قبول رأى لكراتشكوفسكى ونقترح غيره لا نؤكد أنه هو المخطىء ونحن على الصواب ، فقد يكون العكس هو الصحيح ، ولكننا نتبادل الرأى فى الموضوع معه ، والقارىء والزمان بعد ذلك هما الحكمان اللذان يقرران مصائر الآراء وأصحابها . ومن قبيل ما نستدرك عليه فى هذا المدخل قوله أن التأليف الجغرافى العربى « تغلب عليه النزعة إلى الوصف الشامل بدلا من العرض المفصل العميق للمناطق المعروفة على أساس الملاحظة المباشرة » (ص ٢٤) ، فالواقع أن العرب جمعوا بين الإثنين ، والمؤلفات الكبرى فى وصف مدينة واحدة بأكبر قدر من التفصيل كثيرة كأوصاف مكة والمدينة وبغداد والقاهرة وغرناطة للأزرقى والسمهودى وأبى طاهر طيفور وتقى الدين المقريزى ولسان الدين بن الخطيب على الترتيب . وهذه كلها (عدا وصف غرناطة للسان الدين بن الخطيب) كانت بين يدى المؤلف وتكلم عنها فى دقة فى مواضعها فى كتابه ، ولكنه أغفل حسابها عند التقدير العام .

ولكن المؤلف أصاب عند ما نقد أصحاب الجغرافية العربية « لخضوعهم للنظريات العلمية الموروثة عن الأوائل بالرغم من أن تجارب العرب العلمية كثيراً ما أدت إلى استكمال تلك النظريات وتعديلها ، بل حتى إلى صرف النظر عنها » (ص ٢٣) ، وهذا من أغرب ما يدهش له دارس الجغرافية العربية فإنك ترى الواحد منهم ينقل عن اليونان قولهم بأن سكنى البشر جنوب خط الاستواء مستحيلة جنوبى خط العرض الأول ، ثم يوردون بعد ذلك أوصاف أقاليم واسعة جنوبى ذلك الخط آهلة بالسكان مثل مدغشقر وموزمبيق . وقد ناقشنا ذلك فى مواضع شتي من تاريخنا للجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، وقلنا إن أقوال

اليونان أفسدت مذهب العرب الأصيل فى الجغرافية ، وهو مذهب يقوم على المشاهدة والرحلة كما نرى عند المسالكيين .

وقد أجاد المؤلف إجادة تدعو إلى الإعجاب فيما كتب عن الجغرافية عند المشارقة وخاصة أهل القرنين العاشر والحادى عشر ، ولكن فاتته فى الأندلس فصول هامة مثل ترجمة جغرافية هروشيش وهي أساس التأليف فى الجغرافية فى الأندلس ، وفاته كذلك الرازى الأندلسي ، وهو أمر يستغرب منه لأن جغرافية الرازى فى ترجمتها الإسبانية المشوهة معروفة من أكثر من قرن ، ولم يكتب كذلك شيئاً عن ابن الخطيب الجغرافى . وأهمل الجغرافيين المصريين من القضاعى إلى المقريزى مع عظيم غنائهم .

وهذا كله شيء قليل بالنسبة لما فى هذا الكتاب من وجوه الإجادة التى تملأ النفس بهجة ، فأنت مهما تقرأ فى هذا الكتاب فأنت مع آراء جيدة وملاحظات دقيقة وأحكام سليمة ، وأنت على الجملة مع عالم حق عرف معنى العلم وقام بما ينبغى له عن كفاية ودراية .

وربما كان من الأسباب الرئيسية لإعجابى بذلك الكتاب سلامة الأسلوب العربى الذى صاغ الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ترجمته فيه ، فهو أسلوب جميل صاف خلا من عيوب الترجمة وما يضطر صاحبها إليه أحياناً من الركاكة والعجمة . ومن هنا فإن جهد الأستاذ صلاح هاشم جدير بالتقدير الكبير ، وأمام عمل كهذا لا نرجو إلا أن يتفضل الأستاذ المترجم فيتم فضله بإتحافنا بالجزء الثانى من ذلك الكتاب النفيس .

أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ، نشر دار الكتاب ، البليدة (الجزائر) طبع دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٦٣

هذا أول كتاب عربى جيد عن الجزائر قرأته بعد ابن خلدون ، والطريف أن الشعور الذى يساور نفوسنا ونحن نقرأه هو نفس شعورنا ونحن نقرأ أجزاء تاريخ ابن خلدون الخاصة بالمغرب ، وهو شعور حزن وخوف على المصير نتيجة

للحروب والفتن التى تتوالى فى فصول تاريخ ابن خلدون ، وهنا أيضاً يساور النفس القلق على المصير ، فقد أُلف هذا الكتاب وطبع طبعته الأولى سنة ١٩٣١ ، والقطر الجزائرى المجيد يئن تحت وطـأة الاستعمار الفرنسى الذى كان قد خلف وراءه إذ ذاك قرناً من عمره وشرع فى قرنه الثانى . وفى تلك الأيام كانت الطرق بيننا وبين الجزائر مقطوعة تماماً حتى لكنا إذا فكرنا فيه كان يبدو لنا وكأنها فى كوكب آخر لا يوصل إليه ولا يدرك .

ولكنك يسرّى عنك عندما تذكر أنك تقرأ الطبعة الثانية لذلك الكتاب ، طبعة خرجت والجزائر بحمد الله بلد عربى حر عظيم يقف على أقدامه ثابتاً فى مجمع الأمم ، وقد كسب رجاله استقلاله وكسبوا احترام الدنيا كلها .

ومن بين أولئك الرجال مؤلف هذا الكتاب الأستاذ أحمد توفيق المدنى المجاهد الباسل والمفكر الجليل والوزير القدير والأديب ذو القلم السيال والعربى الأصيل الذى تشبث بعروبة الجزائر وقضى بأيمانه على التيارات الخطرة والنوازع المضلة كما يقول أبو بكر بن العربى ، وإذا كنا نسعد اليوم بالجزائر العربية التى ارتدت إلى معدنها العربى الإسلامى الأصيل فينبغى أن نذكر أن أحمد توفيق المدنى فى طليعة صناع هذا الوطن العظيم ، وهو من بناة العروبة ورجالها ومن أعلام الحرية فى عالمنا العربى وأبطالها .

ومن حسن الحظ أنه أعاد طبع هذا الكتاب بنفس صورته التى صدر بها فى الجزائر ، لأنه بهذه الصورة وثيقة ينبغى أن تبقى كما هى ، فإذا أراد أحد أن يكتب عن الجزائر اليوم فليكتب كتاباً آخر ، وليدع هذا فهو ذخيرة فى ذاته .

الكتاب حافل بمادة قيمة عن الجزائر وهى مادة متنوعة فيها تاريخ وجغرافية وتكوين بشرى وأوصاف مدن ونظام إدارى واجتماعى . فهو على هذا صورة عامة لذلك القطر العظيم أيام الاحتلال . وإن الإنسان ليدهش من غزارة المادة التى حشدت فى قرابة ٣٨٠ صفحة ، ولا أذكر أننى قرأت من زمن كتاباً فى هذا الحيز غنى بالمادة على هذه الصورة .

وقد أعجبنى القسم الخاص بالتاريخ لأن هذه هى أول مرة أقرأ فيها تاريخ الجزائر بقلم جزائرى ، لأن ما قرأنا إلى الآن من تواريخ هذا القطر كتبها

فرنسيون باستثناء كتاب نيفل باربر عن المغرب كله ، وقد قرأنا منذ عام الجزء الأول من كتاب شارل أندريه جوليان عن تاريخ الجزائر وهو كتاب جيد معتدل ينظر إلى الجزائر على أنهـا بلد مستقل ووطن له شخصيته ومركزه فى الماضى والحاضر ، ولكن تاريخ الجزائر كما يقصه أحمد توفيق المدنى تاريخ مشرق غزير المادة يصحح ما كنا نقوله من أن الشعب الجزائرى شغل بعمل تاريخ المغرب وتونس حتى نسى أن يصنع تاريخ نفسه ، وقد كتبتُ بعض صفحات هذا التاريخ من خمس وعشرين سنة عند ما خصصت للمغرب فصلا فى كتابى « الشرق الإسلامى فى العصر الحديث » .

وأطرف ما قرأت فى الكتاب على الإطلاق هو القسم الرابع الخاص بالعنصر البربرى ، فهو فصل غاية فى الأهمية عن ذلك الشعب الجزائرى الأصيل وصفاته وخصائصه ، واستوقف نظرى تشبيهه بأهل الصعيد فى مصر ، فالحق أن الشبه حقيق وقائم ، وإن كنا فى بلدنا لا نسمى الصعيدى بربرياً ، ولفظ بربرى فى اللهجة المصرية مبهم غامض يطلق على النوبيين أحياناً وعلى الزنوج أحياناً أخرى ولكنه يرتبط فى أذهاننا بصورة إنسان كريم طيب القلب . وصورة « على الكسار بربرى مصر الوحيد » صورة جميلة فى الأدب الشعبى المصرى المعاصر .

وفى القسم الخامس يحدثنا عن العنصر العربى ويدخل فيه الاتراك المعروفين بالقرا أو غلية ، وأعتقد أن الجزائر المستقلة لم تعد تعرف هذا التقسيم إلى بربر وعرب ، فهذا كان من صنع الفرنسيين . وأنه لما يدعو إلى الإعجاب أن الجزائر خرجت من محنة الاستعمار سليمة كاملة كما يخرج المعدن الأصيل صافياً من النار وقد وقفت طويلا أمام ملاحظته عن بلاد الجرجرة أو بلاد القبائل الكبرى وخوفه على اسلام أهلها وعروبتهـا ، وأرجو أن يكون هذا الخطر قد زال وتوقفت على الأقل جهود المبشرين والمدارس العلمانية الفرنسية فى إخراج هذه المناطق الواسعة من نطاق العروبة والإسلام .

هذا كتاب جيد نقرأه لنستفيد ونتعلم ونتعظ ، وكانت فائدته تكون أعود لو زود بخرائط شتى للجزائر فقد استعنت فى تتبع مادته بأكثر من خريطة

لذلك القطر الكبير ، ولو أضيف إليه فهرس أبجدى بالأعلام لأعان ذلك على زيادة الفائدة منه .

وشيء آخر قبل أن أختم الكلام عن ذلك المؤلف القيم : هو أسلوبه العربى الجميل ، فإن أحمد توفيق المدنى يكتب فى أسلوب أدبى علمى فى غاية الصفاء والجمال ، وهذه ملكة ينبغى أن نقدرها عنده ، وهى صادرة فيما أحسب عن شعوره العربى الاسلامى العميق .

عبد الملك بن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين . السفر الثانى ، بتحقيق الأستاذ عبد الهادى التازى . دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٤

لنا سنوات فى انتظار هذا الكتاب القيم الذى يعتبر المرجع الرئيسى عن تاريخ إحدى دول الاسلام الكبرى وهى دولة الموحدين وقد كان معولنا فى الانتفاع به على صور شمسية لمخطوطة أكسفورد ، وهى الوحيدة التى نسيتها غوائل المخطوطات ، وهى لا تضم مع ذلك إلا السفر الثانى الذى يبدأ أثناء حوادث ٥٥٤/١١٥٩ فى أواخر خلافة عبد المؤمن بن على (٥٢٢ — ٥٥٨/١١٢٨ — ١١٦٣) وينتهى أثناء حوادث شعبان ٥٦٨/مارس ١١٧٣ على وجه التقريب فى منتصف خلافة أبى يعقوب يوسف المنصور ثالث خلفاء الموحدين (٥٥٨ — ٥٨٠/١١٦٣ — ١١٨٤) ، أى أن هذا السفر يغطى أربع سنوات فحسب من تاريخ الموحدين ، فتأمل والله مقدار الناقص منه ، والمفروض أن المؤلف بدأه من أيام المرابطين واستمر به إلى قريب من وفاته فيما بين ٥٩٤ و ٦٠٠/١١٩٧ — ١٢٠٣ وحتى لو فرضنا أنه بدأه بحوادث سنة ٥٠٠/١١٠٧ وهى سنة ولاياة يوسف بن تاشفين ووقف عند حوادث ٥٩٥/١١٩٨—١١٩٩ وهى سنة وفاة أبى يوسف يعقوب المنصور وولاية ابنه محمد الناصر بالله رابع خلفاء الموحدين ، تبينا أن كتاب المن والإمامة كان يغطى قرابة القرن من تاريخ المغرب ، وهو القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى وهو دون شك عصره الذهبى حقاً ، فقد بدأ بإمارة يوسف بن تاشفين وانتهى بعد موت أبى

يوسف يعقوب المنصور . ومن كل هذا ليس لدينا إلا حوادث سنوات أربع ، وهذه حقيقة تكاد تكون كالرمز على نسبة ما ضاع إلى ما بقى من تراث الأندلس العزيز .

وربما نكون قد أسرفنا فى الحساب ، فابن صاحب الصلاة لم يفصل فى أيام المرابطين تفصيله فى أيام الموحدين ، ولكنه على أى حال استصفى تاريخ الأولين من هؤلاء ، وهو أمر ما أشد حاجتنا إليه .

ولكننا نتعزى عما ضاع بأن تحقيق ما بقى من كتاب المن بالإمامة كان من نصيب شاب من خيرة من يرتجيه المغرب العربى لحاضره ومستقبله ، وهو الأستاذ عبد الهـادى التازى مدير العلاقات الخارجية بوزارة التعليم المغربية أولا وسفير المغرب فى بغداد بعد ذلك . وقد احتفل التازى بهذا العمل احتفالا عظيما ، فقرأ المخطوط قراءة جيدة وخرَّج نصه تخريجاً صحيحاً ، ثم حقق حوادثه وأعلامه تحقيقاً بالغ الدقة والاستفاضة ، ودرس بعد ذلك حياة ابن صاحب الصلاة دراسة مستفيضة وقدم للنص بمقدمة زادت على المائة صفحة هى وحدها دراسة جديرة بكل تقدير .

وقد جرى التازى فى ذلك العمل كله على أوسع مذاهب تحقيق النصوص فاستبحر فى التقديم واستبحر فى التعليق نخدم النص خدمة صادقة وخدم القارىء خدمة جليلة ، وقد جرت مدرستنا على هذا المذهب من سنوات ، من يوم نشرنا الجزء الأول من رياض النفوس للمالكى حتى حققنا الحلة السيراء ، وجرى عليه محمود على مكى وأحمد مختار العبادى وبقية الآخذين بالمأخذ الصعب فى العمل وهو مذهب يراه البعض تكلفاً وشططاً ، ولكنهم دون ريب يسعدون إذا تناولوا نصاً منشوراً تبعاً لقواعده وينهلون من المقدمات والتعليقات بكلتا اليدين .

التحقيق هنا ممتاز وإن كنا نفتقد شكل الأعلام بين حين وحين ونتمنى لو ضبط لنا مستعيناً بالعارفين بالبربرية ألفاظاً مثل تيجيت وسيدارى (يكتبها سيد رأى) وما إليها بدلا من التعريف بقرطبة فى سطر ونصف (١١٦ هـ — ٣) وإشبيلية فى سطرين ونصف (١١٧ هـ — ٤) وهذا من أيسر الملاحظـات . وجدير بالذكر هنا أننا فى نقدنا للنصوص المحققة نقدر الجهد المضنى — غير

الشكور — الذى ينفق فيها ونستطرد عن تصحيح القراءات واقتراح التعديلات والتعالم على المحققين وتكليفهم الشطط ومطالبتهم بالعسير كأنهم غرماء ، وكل ذنبهم أنهم ناس عملوا وتعبوا فى حين لم يعمل غيرهم ولم يتعب ، وإنما اكتفى بالجلوس على السور كما يقولون والتحكم فى عباد الله العاملين .

هذا عمل جيد مستوفى من كل وجه ، أضاف إليه الناشر تعليقات ضاعفت قدره وحجمه ، وذيله بفهارس ضافية هى أكبر معين على الإفادة منه ووضع كذلك خريطة جيدة جداً للأندلس والمغرب الأقصى . إننا نشكر الأستاذ التازى إهداءنا هذا النص القيم ، ونرجو ألا تشغله الدبلوماسية عن مواصلة الجهد فى خدمة وطنه فى ميدان العلم ، فهو مؤهل له معان عليه ، كتب الله له التوفيق فى كل طلب من الخير .

الدكتور حكمت على الأوسى : القواعد الأساسية للغة الاسبانية ، مطبوعات جامعة بغداد ، ديسمبر ١٩٦٤

الدكتور حكمة على الأوسى من شباب العراق الذين درسوا فى اسبانيا بنجاح وقد شهدناه يعمل فى جد سنوات متوالية فى جامعة مدريد حتى حصل على شهادة الدكتوراه فى التاريخ من كلية الآداب بجامعة مدريد .

وهو يعمل الآن معاوناً لعميد معهد اللغات العالى التابع لجامعة بغداد ، وهو معهد يقابل مدرسة الألسن العليا فى القاهرة ، ولا شك أن الدكتور الأوسى يقوم بتدريس الإسبانية هناك ، وهذا فى الأغلب هو دافعه إلى تأليف هذا الكتاب .

وتأليف الكتب العربية لتعليم اللغات الأخرى أمر نحن فى أشد الحاجة إليه ، وربما كان من الغريب أننا لا نملك إلى الآن كتاباً صغيراً جامعاً يعلم الناس الفرنسية أو الانجليزية . نعم هناك كتب مدرسية كثيرة ، ولكن فرق كبير بين كتب تعليم اللغات للتلاميذ وكتب تعليمها للكبار ، وهذا هو الذى نحن بحاجة إليه ، ونحن نعرف كذلك أن هناك بعض الكتب فى تعليم اللغات فى

لبنان ، ولكننا نرجو نوعاً آخر من هذه الكتب ، نوعــاً يمثله هذا الكتاب الذى أعرضه الآن .

ولا بد أن أقرر منذ البداية أن هذا الكتاب جيد ، وأنه على صغر حجمه مستوف للقواعد الأساسية التى يحتاجها المبتدىء لدراسة هذه اللغة ، مع قدر صالح من المفردات ومقابلاتها . ولا شك فى أن الدكتور حكمة قد تعب كثيراً فى العثور على مقابلات لمصطلح القواعد الإسبانى والأوربى بصفة عامة ، فإن لهم فى الأفعال بالذات أحوال وصيغ وتركيبات يعسر أن نجد ما يقابلها فى العربية ، فللماضى أربع صيغ أو خمسة ، ومثلها للمستقبل ، وهم يفرقون تفريقاً واضحاً بين الفعل التقريرى indicativo والاحتمالى subjuntivo والشرطى condicional . ولاسم الفاعل el gerundio فى الإسبانية أهمية كبرى ، وهو يدخل عندهم تحت الأفعال كما هو الحال فى الانجليزية واللغات المشتقة من اللاتينية .

وهذا كله استطــاع حكمة الأوسى أن يذلله ويبتكر له المقابلات العربية ، وابتكاراته فى هذا المجال قد نخالفه فيها ، ولكنها تمثل رأيه ، ولم يقل أحد أن رأى الناقد لابد أن يكون أصح من رأى المؤلف ، ولهذا فإننا نترك تسمياته ومصطلحاته كما هى ، فهى فى مجموعها تمثل رأيه ووجهة نظره ، وعليهــا بنى الكتاب . ولكل كتاب من هذه منطق فى التأليف وترتيب الموضوعات .

المهم أن لدينا الآن كتاب عربى جيد يستطيع أن يعتمد عليه من يريد أن يدرس الاسبانية ، ونحن نذكره هنا مقدرين لصاحبه جهده شاكرين له حسن تأليفه لهذا الكتاب .

الأصول المطبوعة التى تحييها مكتبة المثنى ببغداد :

ليس هناك باحث لم يتعرض لصعوبة الحصول على أصول عربية طبعت من خمسين أو ستين — وربما مائة — سنة وأصبحت نسخها اليوم أعز على الوجود من أندر المخطوطات . وقد لجــأنا منذ حين إلى تصوير هذه الكتب ، وفى مكتبتى مصورات لصفة افريقية للبكرى الذى نشره دى سلان فى الجزائر سنة

١٨٥٧ وجزء نزهة المشتاق للادريسى الخاص بالمغرب والأندلس الذى نشره دوزى ودى خويه سنة ١٨٩٧ وغير ذلك كثير مما تكلف الكثير .

وقد تنبه السيد قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى فى بغداد إلى هذه الصعوبة فتجرد لتذليلها ، والسيد الرجب من أجلاء الكتبيين فى شرقنا العربى ، وقد خطر ببالى أن موضوع الوراقة والوراقين (تجارة الكتب وأصحابهـا) موضوع طريف يستحق أن يدور عليه كتاب ، نظراً لما أسهم به الكتبيون من نصيب كبير فى تاريخ الثقافة العربية . وجدير بالملاحظة هنا أن الأندلسيين كانوا يفرقون بين الوراق ، وهو تاجر الكتب والرقاق ، وهو تاجر الأدوات الكتابية كما نقول اليوم ، وكان فى قرطبة شارع خاص للوراقين فى حى الأسواق شرقى الجامع وشارع آخر للرقاقين فى الربض الغربى على مقربة من أحد أبواب قصر الخلفاء .

تنبه قاسم الرجب إذن إلى ضرورة إعادة طبع ما يتيسر إحياؤه من الكتب النافدة ، وهو يقوم بذلك بطريقة التصوير والطباعة المعروفة بالأوفست ، وقد نبهت على فائدة اللجوء إلى هذه الطريقة فى إحياء المطبوعات القديمة من عشر سنوات أيام كنت فى إدارة الثقافة ، وقدمت للمطبعة فعلا قاموس تاج العروس ، فقالوا ولم لا نعيد تحقيقه ونشره ؟ وانقضت على ذلك سنوات عشر أسمع بعدها أنهم ينشرونه اليوم بالأوفست فى القاهرة .

وفضيلة مطبوعات مكتبة المثنى أنها تشمل الكتب كاملة : المقدمة — بأى لغة كانت — وصفحة العنوان والفهرس وما إلى ذلك ، وهذا أمر عظيم الأهمية ، فإن كتاب صورة الأرض الذى استخرجه محمد بن موسى الخوارزمى من كتاب جغرافيا لبطلميوس لا يفهم أصلا بدون المقدمة الألمانية التى كتبها له هانس فون مزيك ، لأن الكتاب لا يستعمل للأطوال والعروض أرقاماً بل حروفاً ذات قيم عددية وصفها الخوارزمى نفسه ، وقد استخرج فون مزيك هذه القيم بعد البحث الطويل وشرح ذلك فى مقدمته ، ولولاها ما استطعنا استفتاح مغاليق ذلك الكتاب .

ويصرف النظر عن هذه الحالات فإن مقدمات المستشرقين لما نشروا حافلة

دائماً بالمادة والنفع ، وخاصة ما كتب منها من أوائل هذا القرن إلى سنة ١٩٣٠ تقريباً ، فقد كانوا يكتبون مقدمات هى فى الواقع دراسات ، ولا معنى إذن لاقتطاعها وحرمان القارىء منها . وسأذكر هنا ما يخص الأندلس والمغرب من هذه النصوص ، وما يتضمن مادة أساسية بالنسبة للباحث فى دراستها ، تاركاً الباقى للفهرس الخاص الذى أعدته المكتبة لهذه السلسلة القيمة :

المعجم فى أخبـار أبى على الصدفى لأبى بكر ابن الأبار بتحقيق كوديرا ، مدريد ١٨٨٦

تقويم البلدان لأبى الفدا ، تحقيق دى سلان ، باريس ١٨٤٠

المسالك والممالك لابن خرداذبه ومعه قطعة من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر بتحقيق دى خويه . لايدن ١٨٨٩

مؤلفات صغيرة لابن عربى (إنشاء الدوائر وعقـلة المستوفز والتدبيرات الإلهية ، بتحقيق نيبرج ، لايدن ١٩١٩

الأعلاق النفيسة لابن رشته ، بتحقيق دى خويه . لايدن ١٨٩٢

طبقات الأطباء والحكماء لسليمان بن جلجل ، بتحقيق فؤاد السيد ، القاهرة ١٩٥٥

المشترك وضعاً لياقوت ، بتحقيق فستنفلد ، جوتنجن ١٨٤٦

علم الفلك وتاريخه فى القرون الوسطى بقلم كارلو نالينو ، روما ١٩١١

أحسن التقاسيم للمقدسى بتحقيق دى خويه ، لايدن ١٩٠٥

بغية الملتمس لأحمد بن يحيى بن عميرة الضبى ، بتحقيق كوديرا ، مدريد ١٨٨٨

الفصل فى الأهواء والملل لابن حزم . القاهرة ١٩٠٣

فهرسة ابن خير ، بتحقيق كوديرا وريبرا ، مدريد ١٨٩٣

ديوان ابن عربى ، طبعة بولاق ، سنة ١٨٥٥

كتاب صورة الأرض للخوارزمى بتحقيق هانس فون مجيك ، لايبسك ١٩٢٦
الجامع لمفردات الأدوية لابن البيطار ، طبعة بولاق ١٨٧٤
صفة المغرب لأبى عبيد البكرى ، بتحقيق دى سلان ، باريس ١٨٥٧

محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس . القسم الثانى عصر الموحدين وانهيـــار الأندلس الكبرى ، القاهرة ١٩٦٤ عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، وهو العصر الثالث من كتاب دولة الاسلام

بهذا المجلد الضخم يختم الأستاذ محمد عبد الله عنان التاريخ العام للأندلس الذى يتولاه عن كفاية وجدارة منذ قرابة السنين العشر .

وهذا المجلد هو أضخم أجزاء تلك الموسوعة التاريخية الكبرى عن الأندلس فهو يقع فى نيف وثمانمائة صفحة من القطع الكبير ، والصفحات مثقلة بالسطور والكلمات ، فلو أنك بسطت هذا الكتاب على النحو الذى نجرى عليه فى عامة كتبنا لجاوز الألف بكثير .

وهذا القدر الضخم من الصفحات كله علم غزير حصله الأستاذ عنان بالصبر الطويل والإخلاص البالغ للعلم . فمنذ أن قرر إنشاء هذا التاريخ وأخذ فى ترتيب محصوله الغزير من المعلومات عن الأندلس ليشرع فى الكتابة لم يسترح أبداً ، ولقد رحل إلى اسبانيا المرة بعد الأخرى ، وجاب أرجاءها جميعاً وعاين الآثار والمشاهد والمواقع ، ولم يدع مكان معركة إلا أتاه ، ولا غادر موضع حادث هام إلا عاينه ، ولا سمع بمخطوط أو وثيقة فى مكان من جبال البرانس إلى الصحراء الإفريقية جنوب المغرب إلا خف إلى موضعه ، حتى أنفق فى ذلك عمراً طويلا ومالا جسيما ، ولكنه خلف بعد ذلك صرحاً ضخما يعتبر من أعظم الأعمـــال العلميـــة التى حققها مؤرخ مصرى معاصر ، وإن الإنسان ليشعر نحو عنان بالتجلة والاحترام ، ويطمئن على مستقبل المدرسة المصرية من المؤرخين ، فلا زالت بخير ما دام فيها مثل عنان ، ولا عجب أن يكون من بين مؤلفاته الكثيرة كتاب : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية (القاهرة ١٩٣١) ،

فإن عناناً يشعر فيما بينه وبين نفسه أنه مواصل لعمل المقريزى وابن حجر وأبى المحاسن وابن إياس والجبرتى ومحمد شفيق غربال وعبد الرحمن الرافعى ، نعم إنه ليس صاحب حوليات ولم يقصر جهوده على مصر كما فعل رجال المدرسة المصرية حتى الجبرتى ، ولكن النظر إلى التاريخ قد تغير اليوم ، وعنان فى هذه الناحية ابن عصره ، عصر الدرس والبحث والصبر والنظر إلى التاريخ من الزاوية الإنسانية ثم العربية ، وقد اجتذبت الناحية الأندلسية عبد الله عنان من زمن بعيد فقصر عليها كل جهده تقريباً ، فاستطاع التجويد بل الإبداع .

والكتاب الذى نتحدث عنه الآن يغطى عصر الموحدين كله فيما عدا حياة ابن تومرت وعبد المؤمن بن على ، فهذان تحدث عنهما فى القسم الأول من العصر الثالث من تاريخ الأندلس على تقسيمه . وقد غنيت المكتبة العربية وغير العربية بالمراجع والأصول عن هذا العصر ، فوجد عنان بين يديه مادة وافرة استطاع أن يرتبها وينظمها وينتفع بها على خير وجه . وأعانه على ذلك إتقانه للاسبانية خاصة إلى جانب الفرنسية والإنجليزية والألمانية والبرتغالية ، فاقتدر فى غير صعوبة أن يغوص فى الكتب ومجموعات الوثائق ويستخرج أحسن ما فيها .

وقد عرف عنان كيف يعالج الفترة العصيبة التى بدأت بخلافة أبى محمد عبد الواحد المعروف بالمخلوع وما كان من ثورة البياسى عليه ثم قيام أبى العلا إدريس المأمون صاحب إشبيلية وأخذه معظم جند الأندلس من الموحدين والعبور بهم إلى المغرب لطلب الخلافة ، وما كان بعد ذلك من انهيار جهة الوادى الكبير فى الأندلس وبدء التصفية المحزنة التى لم يوقفها إلا تماسك محمد بن نصر بن الأحمر بجبال غرناطة وثباته فيها وإنشائه مملكة غرناطة التى انسأت فى عمر الأندلس قرنين ونصف تقريباً ، مما أرخ له عنان عن اقتدار كبير فى آخر أجزاء تاريخه العام للأندلس وهو المسمى : « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨) .

وقد حرص عنان فى تاريخه كله على أن يدرس اسبانيا النصرانية بنفس العناية التى درس بها الاندلس الاسلامى ، وفى هذا الجزء بالذات — وفى أثنائه بلغت الممالك النصرانية مبلغاً خطيراً من القوة والثبات — طالت فصول عنان

عن هذه الناحية وحفلت بالمادة القيمة ، وليس ذلك بغريب عليه فقد سبق له أن ترجم إلى العربية كتاب يوسف أشباخ عن المرابطين والموحدين ، وهو كتاب قيم يولى الناحية النصرانية عناية كبرى ، وإلى زمن قريب لم يكن لدينا غيره مما يعتمد عليه حقاً ، حتى نهض الإسبان للعناية بتاريخهم وأصدروا تواريخ عامة ودراسات عن عصور معينة فى غاية الجودة ، فسهلت علينا هذه الناحية بعض الشيء ، وإن كانت قد اتسعت آفاقها واستلزمت الوقت الطويل فى الإلمام بما فيها .

وقد ذيل عبد الله عنان كتابه بمجموعة من الوثائق على عهده فى كل جزء ، ووثائق هذا الجزء أصيلة عظيمة القيمة تكمل ما أورده فى تاريخه الطويل .

وبعد فلا يسعنا إلا أن نهنىء الاستاذ عنان بفراغه من هذا العمل العظيم ، لقد أدى لنا خدمة لا تقدر وأنصف الاندلس وتاريخه إنصافاً يجزيه الله عليه خير الجزاء . وهو من كل ناحية جدير منا بكل تقدير وتبجيل ، فهذا رجل عمل وأجاد وصدق ونصح ووعد ووفى وأضاف إلى المكتبة العربية صرحاً هو تشريف لتاريخ العلم فى مصر والعروبة . وسيظـــل اسم عنان مقترناً بأحسن المستويات التى وصل العرب إليها فى علم التاريخ .

إيرنست ن. ماك كاروس وعادل يعقوب بالاشتراك مع فردريك ويوسف قدورة : قراءات من العربية المعاصرة ، أربعة مجلدات ، جامعة ميشيجان ، آن آربر ، ميشيجان ، ١٩٦٣

Ernest N. Mc Carus and Adil Yacub, *Contemporany Arabic Reander*, Ann Arbor, The University of Michigan Press, 1963.

وصلنا هذا الكتاب الضخم فى دوره التجريبى ، فهو مطبوع بطريقة شبيهة بالرونيو لا طباعة عادية على المطبعة ، ومن ثم فقد استقر فى ذهننا أنهـا طبعة تجريبية محدودة النسخ حتى إذا تبث الكتاب فى صورته الأخيرة طبع على المطبعة .

والكتاب يعتبر أضخم محاولة فى تصنيف نصوص مما يسمى بالعربية المعاصرة ليدرسها طلاب يعدون فى المكان الأول للعمل فى البلاد العربية لا للبحث والدراسة ، وفى يدنا نموذج آخر من هذه الكتب هو الذى ألفه فرجوسن ومختار العاتى الأستاذان بجامعة جورجتاون بواشنطون فى الولايات المتحدة .

وقد قدم المؤلفون لكتابهم بمقدمة كتبها إيرنست ماك ـ كاروس ، وهو اختصاصى ضليع له صوته فى كل ما يتصل بتعليم العربية للكبار من غير العرب ، وتجربته فى الميدان طويلة ، ومن ثم فإن كلامه حجة لهـا قدرها عندنا ، وإذا كان يقرر فى المقدمة أن دروسة تلك تعتبر خطوات بعد دروس فرجوسن والعانى فإننا نستنتج أن هذا الكتاب يمثل تجارب أولئك الأساتذة الأربعة ، وهى إذن تجارب لها قيمتها فى ميدان لا يبذل فيه جهداً جاداً اليوم مثل الأمريكيين . ولا نقول هذا تقليلا من افضال غيرهم ، ولكن الواقع أنهم مواصلون الجهود فى حين أن غيرهم — مع امتيازه — سار خطوة أو خطوتين ثم توقف أو تلكأ .

المختارات كلها مما يسمى بالعربية المعاصرة ، ويراد بها لغة الصحف والإذاعة وكتب الأدب الجارى بما فيها القصص ، وتدريس هذه اللغة أو هذا الطراز من التعبير بالعربية يقوم على حدين أدنيين من القواعد والمفردات ، ولا بأس بالحد الأدنى من النحو فإن الحقيقة أن نحو اللغة العربية هو فى الواقع حد أدنى إذا قيس إلى غيره ، وأما الحد الأدنى من المفردات فقد افترض أنه ٣٠٠٠ كلمة ، ألف منها تدرس فى المرحلة الاولى وألفان فى الثانية ، وفى حالة السير على طريقة «فرجوسن — العانى — ماك كاروس — يعقوب» لا تخرج هذه المفردات عما تستعمله الصحف فى أقسام الاخبار والمقالات الإخبارية أو السياسية منها . وقد جربنا نحن فى معهد الدراسات الإسلامية هذه الطريقة ، فنجحت معنا إلى حد بعيد ، فجودناها وزدنا عليها ، ولكننا لاحظنا بعد زمن أن الطالب يفهم هذه السطور ويحفظ مفرداتها ويستطيع أن يقرأ شيئاً من الصحف بها ولكنه يظل بعد ذلك غريباً عن العرب وما يدور فى أذهانهم ، لأن ألفاظ الأخبار السياسية سطحية ولها معان اضطرارية وغير طبيعية ، فكل المعانى السياسية التى تستعمل فيها ألفاظ مثل أعلن واعترف ورشح وأجرى وتحدث معان مفتعلة ، ويصدق هذا على أسماء مثل انتخاب وتشكيل وشيخ واعتبار وأغلبية وجلسة وما إليها ، كلها مفتعلة ابتكرت استعمالاتها الحالية تحت ضغط الحاجة ، ولكنها غير صحيحة ، وستصبح صحيحة بالاستعمال ومضى الزمن ، ولكن عند ما نصل إلى ذلك نكون أمام عصر جديد من تاريخ اللغة العربية .

وقد رأيت بعد تجربة طويلة أننا لا بد أن نخلط بهذه المادة الصحفية السياسية شيئاً من النصوص العربية الأدبية الصرفة ، بل أدخلت بعض الشعر وهو أحسن وسيلة للاحساس بروح العربية ونبض قلوب العرب ، وأنا هنا لا أعود إلى المتنبي أو البحترى أو أبي تمام ، وإنما تخير الشعر الذى نستطيع ربطه بالحاضر وظروفه مثل قول حفنى ناصف يرجو رئيس الوزراء حسين رشدى مد خدمته ، وهى دعابة شاعرية لطيفة .

صاحبَ الدولة ياشيخ الوزارة حاجتى إن شِئت تُقضى بإشارة
نالها قبلى ألوفٌ لم أكن دونهم علماً ولا أدنى إدارة
ناهز الستين عمرى إنما لم أزل جمَّ القوى جمَّ الجدارة

وأعتقد أن بيتين من الشعر لمثل محمود سامى البارودى يعينان على إيصال الطالب بروح اللغة العربية وأهلها ، خذ مثلا قوله :

ردوا على الصبا من عهدى الخالى وهل يعود سواد اللمة البالى
ماض من العيش ما لاحت مخايله فى صفحة الفكر إلا هاج بلبالى

ففى مثل ذلك الشعر مفردات جديدة قليلة وقواعده النحوية لا تتخطى الحد الأدنى ، ولكنها تخرج الطالب بعض الوقت من جمل جامدة عديمة الروح مثل : « اجتمع رئيس الوزراء » و « أعلن الوزير أن قرارات هامة ستصدر بعد أيام . . . » وما إليها .

إننا نعلم اللغة لأبنائنا لكى يفهموا الشعوب لا لكى يراقبونها مراقبة الغريم ، فعلينا أن نعطيهم مفتاح القلوب لا مفتاح الشفرة . نعم إن الكتاب يخصص الجزء الرابع للقصص ، ولكننى أسأل أين الأدب — عربياً كان أم غير عربى — فى قول سعيد تقى الدين فى فاتحة قصة له اختارها له المؤلفون : رأيت معدما يأكل قملة من جوعه وأبصرت أُمَّا تشهد كلاب البحر تنهش طفلتها حية إذا سقطت من باخرة ، وتطلعت إلى أبوين يريان أطفالها يحترقون فى بناية تلتهب ، ولكنى لم أر شخصاً أحق بالشفقة من ذلك الذى يقرأ الجريدة من أولها إلى آخرها ؟

أرجو أن يتأكد الأصدقاء والأعزاء أصحاب هذا الكتاب أن هذا ليس نقداً بقدر ما هو دعوة للتفكير وإعادة النظر وفتحاً لباب الحوار حول موضوع تعليم العربية لغير العرب . إننى أجرى فى تدريس اللغة فى نفس الاتجـاه ، ولكن آن الأوان لأن نضع هذا الاتجاه نفسه موضع المناقشة .

طه حسين ، مجلد تكريم مهدى من مدرسة المستشرقين الإيطاليين إلى عميد الفكر العربى المعاصر لمناسبة ميلاده الخامس والسبعين ، المعهد الجامعى الشرقى بمدينة نابولى ، ١٩٦٤

Ṭaha Ḥusein, *Omaggio degli Arabisti Italiani a Ṭaha Ḥusein di occasione del Settantocinquesimo Compleanno*. Instituto Universitario Orientale, Napoli, 1964.

هذا المجلد تكريم لطه حسين ، ولكنه أيضاً تكريم لمدرسة الاستشراق الإيطالية ، فإن التفكير فى أصدار هذا المجلد تكريمـاً للمفكر العربى الجليل يدل على شرف نفس وعرفان جميل ، وليس هذا بغريب على الاستشراق الإيطـالى فقبل خمسين سنة ختم المستشرق الإيطـالى الجليل كارلو الفونسو نالينو سلسلة محاضراته التى ألقاها فى الجامعة المصرية القديمة سنة ١٩١٠ عن علم الفلك عند العرب بعبارة تحية وشكر هى من أنبل ما قرأناه لاستاذ غربى يخاطب شرقيين .

الكتاب مجموعة دراسات عن طه حسين وترجمات لبعض آثاره اشترك فيها كل المستشرقين الإيطاليين من الشيوخ — من طبقة جيورجيو ليفى دلا فيدا ولاورا فيتشيا فاليرى وفرانشيسكو جابرييلى — إلى الشباب المحدث من أمثال كليليا سارنيلى تشيركوا وبنيتو فولبى ، وصاحب فكرة الكتاب هو الصديق أومبرتو ريزيتانو زميلنا فى جامعة القاهرة فيما مضى وأستاذ الدراسات العربية بجامعة نابولى حالياً ، وأشرف عليه المستشرق الضليع فرانشيسكو جابرييلى .

ويبدأ الكتاب بعبارة تحية لطه حسين كتبهـا جابرييلى ، وقد سبق أن ترجمها ونشرت نصها فى « الأهرام » لأنها تعبير عن عاطفة أخوة نبيلة ، ثم يلى ذلك عرض شامل لحياة طه حسين وأعماله بقلم أومبرتو ريزيتانو .

والكتاب بعد ذلك مقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى هى :

١ — دراسات نقدية :

جيورجيو ليفى دلا فيدا : أعمال طه حسين فى ميدان التاريخ .
فرانشيسكو جابريلى : طه حسين الناقد .
أومبرتو رزيتانو : طه حسين القصاص .
ماريا نالينو : طه حسين وإيطاليا .
مارتينو ماريو مورينو : طه حسين والإسلام .
باولو مينجانتى : طه حسين والتعليم فى الأزهر .

٢ — عرض لبعض أعمال طه حسين :

لاورا فيتشيا فاليرى } القصر المسحور .
روبرتو روبينانشى }
كليليا سارنيلى تشيركو : أديب .
جويسيبى بلفيورى : شجرة البؤس .

٣ — مختارات من مؤلفاته مترجمة إلى الإيطالية :

قارئا الشعر العربى القديم : ترجمة فرانشيسكو جابريلى .
من كتاب الأيام (جـ ٦ ص ٦ — ٤٢) ترجمة أومبرتو رزيتانو .
من كتاب الأيام (جـ ٢ ص ١ — ٢٦) ترجمة أومبرتو رزيتانو .
الحرية فوق كل شىء : ترجمة ريتا روز دى ميليو .
مدرسة الـ Mogli : « ماريا تيريسا بيتى سوما .
حوار حول موضوع أدبى : « فانا كريمونيسى .
زيارة الاكروبوليس : « جينو بالدوتشى .
الخطوة الثانية : « بينيتو فولبى .
الدولة الإسلامية أيام الرسول والخلفاء الراشدين ، ترجمة ماريا تيريسا بيتى سوما .
شخصية عمر وخلفه : ترجمة فانا كريمونيسى .

الديوان ووظيفته : ترجمة فانا كريمونيسى .
المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن الفتوحات :
ترجمة نيلا جاناكونى .
الشعور الإسلامى فى مواجهة معاوية : ترجمة جيوفانى أومان .

والقطع الخمس الأخيرة فصول وفقرات من كتابى طه حسين عن الفتنة الكبرى ، وهما من أحسن وأقيم ما كتب أستاذنا الأكبر طه حسين ، مد الله فى عمره وألبسه ثياب العافية بقدر ما خدم العرب والعروبة والإسلام وأهله .

راو ا. لندسى : المدارس الأمريكية فى بلاد الشام فى القرن التاسع عشر . سلسلة منشورات جامعة ميشيجان فى التعليم المقارن رقم ٥

Rao A. Lindsay, *Nineteenth Centary American Schools in the Levant.* University of Michigan Comparative Education Series

هذا كتاب يهم كل المشتغلين بتاريخ العرب فى العصور الحديثة ، فهو دراسة أصيلة قائمة على الوثائق لناحية هامة من نواحى النهضة الفكرية المعاصرة فى بلادنا ، وهى ناحية التعليم الأجنبى : أهدافه ونظمه والنتائج الحقيقية التى يمكن أن يؤدى إليها . والموضوع فى ذاته رئيسى ، والكثير من البلاد العربية يواجهه وخاصة فى أقطار المغرب ولبنان ، فلا زال التعليم الأجنبى — ونريد به هنا الأوروبى والأمريكى — يحتل مكاناً رئيسياً فى النظام التعليمى العام للبلاد .

الكتاب يدور حول المدارس الأمريكية فى بلاد الشام فى القرن التاسع عشر وقد ترجمت لفظ Levant هنا ببلاد الشام ، لا لأن هذه هى الترجمة الدقيقة للفظ بل لأن هذا هو الذى عناه المؤلف به ، بل ربما كان من الاوفق أن نقول لبنان ، لان هذا القطر العربى هو المعنى حقيقة بهذه الدراسة ، وهو الذى تركزت فيه جهود الامريكيين والفرنسيين عند ما بدأوا فى إنشاء مدارسهم فى الشرق فى القرن التاسع عشر . فى ذلك الحين كان الشام لا يزال قطراً واحداً يشمل سوريا وفلسطين والاردن ولبنان ، وكان رجال الإرساليات يفضلون إنشاء

مراكز التبشير والتعليم فى الجزء الساحلى من الشام ، أى ما يعرف الآن بلبنان وفلسطين ، فأما لبنان فتحول خلال القرن التاسع عشر إلى منطقة تنافس بين الأمريكيين والفرنسيين ، وأما فلسطين فأصبحت أواخر القرن منطقة نفوذ للمدارس الإنجليزية وحدها ، وهذه كلها نتائج لضعف الدولة العثمانية وتدهورها السياسى ووقوعها تحت سلطان القوى الغربية التى كانت تزعم فى ذلك الحين أنها تحميها من روسيا ، والحقيقة أنها كانت تمهد لتقاسمها فيما بينها عند ما تسنح الفرصة ، وهذا ما وقع بالفعل .

ويقرر لندسى فى كتابه — ربما دون قصد — أن التعليم الامريكى فى بلاد الشام كان غزواً ثقافياً يمهد لغزو دينى ، ومن النصوص التى ينشرها نرى بوضوح أن الهيئة الامريكية التى كانت قائمة بشئون التعليم الامريكى فى الشام وهى : The American Board of Commissioners for Foreign Missions كانت ترى أن المدارس هى الطعم والتنصير هو الصنارة ، وهذا واضح فى كل ما كتب المستر دانييل بليس Daniel Bliss — وكان من كبار نظار هذه المدارس فى تقرير نشره فى سنة ١٨٥٨ فى مجلة The Missionary Herald وهى لسان حال المجلس الأمريكى لبعثات التبشير الذى أشرنا إليه : « ولدينا بعد الصلاة تمرين فى الحساب ، وهذا بوضوح هو الطعم the bait الذى يجتذب أولئك الناس ويجعلهم فى متناول الكتاب المقدس ، وعند ما يفقد هذا الطعم (يريد به درس الحساب) جاذبيته ، سنجرب شيئاً آخر ، لعلنا نصل بأى طريقة إلى اصطياد بعضهم » .

وقد اعتمد لندسى فى دراسته على التقارير الرسمية التى قدمت لهذا المجلس الأمريكى للمشرفين على البعثات التبشيرية فى الخارج ويرمز إليه بحروف ABCFM أو الدراسات التى صدرت عنه والمقالات التى نشرت فى مجلة « ذى ميشنرى هيرالد » التى ذكرناها ، واعتمد على مقالات نشرت فى صحف أمريكية أخرى وكتب الفت فى الموضوع وما إلى ذلك . وعلى أساس هذه المادة يقسم لندسى تاريخ الأهداف التعليمية الأمريكية فى الشام إلى ثلاث مراحل ، فالمدارس الأولى التى أنشأها المجلس المذكور فى بلاد الشام وسعت أفق مهمتها فقصدت إلى التثقيف العام

وتنوير الأذهان « للقضاء على الأفكار المتحجرة والخرافات السائدة فى مهد الحضارة المسيحية ، وذلك لتتفتح العقول والقلوب للتنصير الذى يتلو ذلك » كما يقول لندسى ، وهذه النظرة تجعل التنصير الهدف النهائى للتعليم ولكنها اعتبرت نشر العلم غاية فى ذاته « فى نفس الوقت الذى اعتبرته وسيلة لهدف أخير...» .

ويقول لندسى أنه من منتصف ١٨٤٠ إلى منتصف ١٨٦٠ سادت سياسة التعليم الأمريكى فى بلاد الشام نظرة أضيق ، فقد اعتبر التعليم مجرد وسيلة للتنصير ، وكان الحكم عليه يقوم على نتائجه من هذه الناحية فقط ، ويضيف : « ان مدارس المبشرين التى صرفت إلى الطعم the bait جانباً من الاهتمام أكبر بكثير مما حرفت إلى الصنارة the hook كانت تفقد عطف مجلس المشرفين وتأييده ، وكان هذا المجلس هو مورد العون المادى الوحيد من الولايات المتحدة . وهو يرى أن نوع التعليم الذى كانت المدارس الامريكية تقدمه فى هذه الفترة تدهور وفقد جاذبيته للناس ، ويرى لندسى — وهو ينظر فى كتابه إلى الصالح الامريكى وحده — أن المدارس الامريكية فقدت نتيجة لذلك فرصة ذهبية كان من الممكن أن تفيد منها خلال السنوات القلائل التى تلت سنة ١٨٦٠ عند ما تداعى بناء المجتمع اللبنانى نتيجة للفتنة بين الدروز والمسيحيين وتدخل الفرنسيين العسكرى وتمهد الطريق لعصر جديد فى تاريخ لبنان ، فقد تطلب هذا العصر الجديد تعليما حديثاً ، وكان من الممكن أن تقدمه المدارس الأمريكية . لقد تنبه الأمريكيون إلى هذه الحقيقة بعد فوات الأوان ، وأقبلوا أواخر القرن التاسع عشر على إنشاء مدارس مدنية هدفها الرئيسى التعليم والتثقيف ، وكان لهذه المدارس أثر كبير فيما بعد ، ولكن الفرصة الذهبية كانت قد ضاعت . ويتعزى لندسى بالقول بأن اللبنانيين شهدوا آخر الأمر بأن الأمريكيين كانوا أقل أنانية من رجال التعليم الأوروبيين ، وكانت تجربتهم أوسع وأشمل على الرغم من أن مجلس التبشير ظل متعلقاً بهدف التنصير المباشر وبخل بالمال على المدارس رغم ما بذله رجال مثل دانييل بليس ، الذى ظل ينادى زمناً طويلا بأنه لا خير فى صنارة بدون طعم .

ويرى لندسى أنه نتيجة لعجز مجلس التبشير الأمريكى عن مد مدارس البعثات

بالتأييد الكافى دخلت دول أوربية تمــلأ الفراغ ، وخاصة فرنسا . ويرى أيضاً أن نظام التعليم اللبنانى المتنافر إلى درجة كبيرة يرجع إلى هذه الفترة .

Lebanon's highly heterogeneous educational pattern stems from this period.

وهو يعتقد أنه كان الأفضل للبنان أن يسير على نظام تعليمى واحد متجانس وخاصة إذا كان هذا النظـام هو الأمريكى ، ولو أن الولايات المتحدة عرفت كيف تفيد من هذه الفرصة لكان ذلك أعون على خدمة المصالح الأمريكية .

ونتيجة لفشل مجلس التبشير الأمريكى فى تأييد مدارس المبشرين انفصل عنه دانييل بليس وزملاؤه وأنشأوا المدرسة الثانوية البروتستنية السورية The Syrian Protestant College مستقلين بأمرها تماماً . ومن تاريخ إنشاء هذه المدرسة فى ستينات القرن الماضى سار التعليم الأمريكى فى بلاد الشام مقارباً الطريقة المطلوبة وموفياً بالغرض المرجو منه ، ولكن الفرصة الذهبية كانت قد افلتت .

ويؤرخ لندسى فى كتابه لكل مدرسة أمريكية أنشئت فى الشام فى القرن الماضى ، وهو يقسمها كذلك إلى أنواع : مدارس عادية ، مدارس بنات ، مدارس داخلية وهكذا ويحاول أن يتعرف مقدار نجاح كل نوع ، وهو يرى بصورة عامة أن الحرص الشديد على استعمال المدارس كوسيلة للتبشير أدى إلى فشلها ، إذ أثار رد فعل قوى ، وقامت الهيئات الدينية المحلية ، وخاصة الإسلامية ، بإنشاء مدارس مضادة ، وذلك بدوره أدى إلى تخلى المدارس الأمريكية والفرنسية التبشرية عن الظاهر التبشيرى الذى كان يخيف الناس ، وهذا كله أدى إلى تحسن نوع التعليم الأمريكى فى بلاد الشام .

وهذا بعض ما يتناوله هذا الكتاب الذى يعتبر شيئاً فريداً بين ما يصلنا من الكتب ، فهو يتيح لقارئه فرصة الوقوف على ناحية من دخائل سياسة دولة غربية كبرى حيال العالم العربى .

أبو الحسين هلال بن المحسن الصابى : رسوم دار الخلافة بتحقيق ميخائيل عواد ، بغداد ١٩٦٤

لا يزال الباحث العربى كلما تناول بحثاً عن حضارة الإسلام على عهد العباسيين يذكر ميخائيل عواد وأخاه كوركيس ، هذين الفاضلين الذين وهبا نفسهما للبحث والدرس وإحياء تراث العرب ، وقدما لنا بذلك من الخدمات ما يسعد كل عربى أن يذكره ويشكره .

والكتاب الذى أقدمه اليوم فضل من أفضال ميخائيل ، فإن النص الذى يتضمنه نص أصيل كنا ننتظر بفروغ صبر أن يصل إلى أيدينا لنعتمد عليه فى دراسة النظم الإسلامية ، ومؤلفه أبو الحسين هلال الصابى كبير آل الصابى ، وهو بيت من أهل السياسة والعلم نشأوا صابئة ثم أسلموا وكان لهم دور عظيم فى تاريخ الثقافة الاسلامية فى العراق . وقد أحسن ميخائيل عواد إذ قدم للنص بدراسة مستفيضة عن الصابئة ومكانهم فى المجتمع العراقى أيام العباسيين ثم عن آل زرهون بن حيون الصابئين الحرانيين وخاصة هلال منهم ، فهو واسطة عقدهم وأكبر من نبغ منهم . والفت النظر بصورة خاصة إلى جدولى نسبهم الواردين فى ص ٣٨ — ٣٩ من المقدمة ، ثم إلى الطريقة الغريبة التى اتبعها الناسخ فى كتابة بعض ألفاظ الكتاب ، وهى طريقة تبدو وكأنها الغاز ، ولكن ميخائيل عواد استطاع أن يحل مشكلها ويرسلها فى نثر عربى مبين .

والنص نفسه هو أطول ما لدينا عن نظام العمل والحياة فى قصور الخلافة العباسية ، وجدير بالذكر أن هذا هو النص الوحيد الذى نملكه عن هذه الناحية الهامة من نظم الدول الاسلامية ، ولدينا بعد ذلك نصوص أقل قيمة عن نظم الدولة الفاطمية ورسوم قصورها إلى جانب المعلومات الضافية التى أتانا بهـــا الموسوعيون فى مسالك الأبصار وصبح الأعشى ونهـاية الأرب . ونص هلال الصابى على هذا وثيقة ثمينة لا يستغنى عنها باحث فى تاريخ الاسلام ، وقيمتها لا تقتصر على تعريفنا بنظـــام القصور ، بل هى تلق ضوءً كاشفاً على الحياة السياسية والاجتماعية أيام العباسيين . ومن حسن الحظ أن هلالا الصابى أورد خلال نصه حكايات قصيرة هى أدل على حقائق التاريخ من كل إسهاب ، ومثال

ذلك حكاية منصور بن القاسم القفانى لما جرى بينه وبين على بن عيسى الوزير ومازوك التركى ، وهى حكاية تكشف عما كان الناس فيه من هم وخوف وقلق على المعاش ، وما كان بين كبار رجال الدولة من تصنع وتظاهر .

ويقص هلال كذلك حكايات عن زيارات شخصيات كبيرة لخلفاء العباسيين وما كان يعد لهم من عظيم الاحتفال ، وهذا بدوره يكشف عن الكثير من أسرار علاقات العباسيين بالبيزنطيين وغيرهم . وقد تكفل ميخائيل عواد بشرح الغامض وتفسير الموجز وحل الرموز بصورة تدعو إلى الاعجاب حقاً .

هذا كتاب جليل لهلال الصابى ، أضاف إليه ميخائيل عواد ثروة من العلم فى تعليقاته وشروحه ومقدماته ، وهو من هنا حقيق منا بالشكر المضاعف : شكر لتحقيق النص وتيسيره للناس وشكر على تعليقاته وشروحه ، وهي فى ذاتها ذخيرة تجل عن كل تقدير .

ب. م. هولت : تاريخ السودان فى العصر الحديث . سلسلة فايدنفلد ونيكولسون لآسيا وإفريقية ، الطبعة الثانية ، لندن ١٩٦٣

P. M. Holt, *A modern history of the Sudan*. The Weidenfeld and Nicolson Series. 2ª ed. London 1963.

تحتاج مكتبتنا العربية إلى مثل هذا الكتاب عن بلد عربى عزيز على قلب كل عربى هو السودان . وسيبادر بعضنا إلى ترجمته (وهو أمر ضرورى) ولكن ليس هذا هو ما أقصده ، لأن المرجو هو أن يكتب واحد منا مثل هذا الكتاب من وجهة النظر السودانية العربية ، وليس معنى هذا أن الكتاب ليس معتدل النظرة ، فالواقع أن المستر هولت بذل جهداً كبيراً ليقص تاريخ السودان بأقصى ما ننتظر من مثله من اعتدال .

والميزة الكبرى لهذا الكتاب هو إيجازه مع ضخامة الموضوع الذى تعرض له ، فإن تاريخ السودان منذ سنة ١٨٢٠ دخل فى تيار خطر متدفق لم يزل يدفعه حتى استقر بعد مآس وأهوال على شاطىء الأمان مع الاستقلال ابتداء من ١٢ فبراير ١٩٥٣ ، أى منذ اليوم الذى استطاعت فيه مصر والسودان أن يعبرا

عن رأيها الصحيح فى نوع العلاقات التى يريدان أن تقوم بينهما : علاقات أخوة وتعاون فى نطاق الاستقلال الكامل لكل واحد منهما فى حدوده . وفى ذلك اليوم وقعت الاتفاقية التى خرجت انجلترا بمقتضاها من ميدان العلاقات السودانية المصرية جملة .

والكتاب مكتوب بعناية تدل على فهم ودراسة ، ويكفى أن نقرأ الفصل الأول عن أرض السودان وأهلها لنتبين الجهد الذى بذل فى الجمع والإيجاز ، وإذا كان الوصف الجغرافى للسودان بسيطاً فإن الوصف البشرى او السكانى فى غاية الصعوبة ، لأن الوحدات البشرية — قبلية أو غير قبلية — كثيرة جداً وهى متداخلة فى أصولها ومناطق نفوذها وأنسابها ، ومنذ التدخل المصرى فى سنة ١٨٢٠ زاد هذا الاختلاط وخاصة فى أواخر أيام محمد على ثم فى أيام محمد سعيد واسماعيل ، وعندما نصل إلى الثورة المهدية تشعر وكأن قبائل السودان قد أصبحت موجاً متلاطماً لا يستقر على حال . وقد عرف المؤلف كيف يتتبع الخيوط المعقدة فى صبر طويل ويعرضها فى وضوح لا أعتقد أن أحداً وصل إلى مثله قبله .

والفصل الثانى يقص تاريخ الإسلام والعروبة فى السودان حتى التدخل المصرى ، وواضح أن عماده الرئيسى فى هذا الفصل على كتاب تريمنجهام عن الإسلام فى السودان ، ولكنه اعتمد كذلك على مصادر أخرى ورد ذكرها فى عرضه للببليوغرافية السودانية (ص ٢٢٧ وما بعدها) ، والحقيقة أن تاريخ السودان مخدوم جيداً من ناحية الببليوغرافية ، فهناك كتاب ريتشارد ل. هيل وهو يتناول المراجع عن السودان إلى سنة ١٩٣٧ ثم كتاب عبد الرحمن الناصرى وهو يصل بالمراجع إلى سنة ١٩٦٢ ، وأعتقد أن دراسة المراجع الواردة فى نهاية الكتاب الذى نعرضه تعتبر من أحسن ما قرأناه فى الموضوع ، وإن كنت ينبغى أن أضيف إليها مجموعة رسائل مهدى السودان التى نشرتها فى القاهرة سنة ١٩٥٢

والفصول التالية عن التدخل التركى المصرى حتى ثورة المهدى وما يلى ذلك حتى استيلاء الفريق ابراهيم عبود على الحكم فى السودان تقص قصة نعرفها جميعاً فى مصر ، وقد شعرت وأنا أقرأها اليوم أن رابطة التاريخ بين السودان ومصر أقوى وأعمق بكثير مما تتصور ، فكل ما مر على السودان من أحداث

ومحن مر علينا أيضاً ، وكل ما قاساه السودانيون قاسينا مثله . قاسينا معاً من محمد على وانتفعنا به كذلك ، وشقينا أيام اسماعيل وانتفعنا فى نفس الوقت بما أدخل من مظاهر العصر الحديث ، بل انتفع السودان أكثر لأن جرأة اسماعيل وتهوره هما اللذان مدا حدود السودان إلى خط الاستواء ، ولولا ذلك لما تخطت حدود السودان الجنوبية قاشودة على الأكثر ، فإن مصر اسماعيل هى التى وصلت بالسودان إلى خط الاستواء وأنشأت مديرية خط الاستواء (اكواتوريا) وجعلت للسودان هذا الملك العريض الذى يطرب له قلب كل عربى .

وقد قص المؤلف حوادث السودان أثناء الثورة المهدية وهى معروفة له تماماً إذ أن له فيها كتاب مستقل ، واستمر فى رواية الأحداث حتى استقلال السودان ، ولم يبخل على مصر بحقها فى هذا العرض ، وهو أمر يحمد عليه .

إن الرابطة بين مصر والسودان رابطة دين وثقافة واشتراك فى نهر عظيم واحد ، وهى فى نفس الوقت رابطة تاريخ من سنة ١٨٢٠ إلى اليوم ، وهو تاريخ حزين إلى فبراير ١٩٥٣ ، وروابط الآلام بين الشعوب وشائج وأنساب ، وقد كان أكثر ما ربط أجزاء روسيا بعضها إلى بعض قبل الثورة اللينينية هو اشتراك شعوب روسيا فى الآلام ، وهذا الاشتراك هو الذى ولد القوة فيما بعد . لقد استقلت مصر والسودان فى وقت واحد وأعلن استقلالها فى بلد واحد هو القاهرة ، وسيشتركان بإذن الله فى تاريخ مقبل كله رخاء وأخوة وسلام للشعبين .

جيوفانى أومان : نبذة ببليوغرافية عن الجغرافى العربى الادريسى (القرن الثانى عشر) ومؤلفاته . فصلة من حوليات المعهد الجامعى الشرقى بمدينة نابلى . السلسلة الجديدة . مجلد ١١ روما ١٩٦١

Giovanni Oman, *Noticie bibliografiche sul geografo arabo al-Idrisi (XII secole) e sulle sue opere.* Estratto dagli, *Annali dell' Instituto Universitario Orientali di Napoli.* Nuova serie, volume XI, Roma 1961.

هذه دراسة قصيرة عن مؤلفات الشريف الإدريسى ولكنها من أقيم ما قرأناه من دراسات المستشرقين فى باب الببليوغرافية ، وأعتقد أنها نموذج جميل جداً لما ينبغى أن تكون عليه مثل هذه الدراسات .

وجيوفانى أومان مستشرق إيطـــالى ممتاز يدهش الإنسان لاتقانه العربية واطلاعه الواسع على التراث العربى ، وقد انصرف من سنوات إلى الدراسات الإدريسية وتولى كذلك سكرتارية اللجنه القائمـــة اليوم بنشر مؤلفات أكبر الجغرافيين العرب وهو مشروع جليل نرجو أن يتحقق ويرى النور . وقد أخذت من هذه الدراسة الببليوغرافية فائدة كبرى فى الفصل الخاص بالإدريسى من تاريخ الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس ، ورأيت لزاماً على أن أنبه الدارسين العرب إلى فضل هذه الرسالة وصاحبها .

والدراسة مختصرة تقع فى ٣٧ صفحة ، ولكنهـــا ذخيرة لا يستغنى عنها دارس للادريسى وقد قسمها أومان تقسيما دقيقاً يدل على تفكير منهجى سليم ، وفيما يلى هذا التقسيم :

١ — بيانات ببليوغرافية .

٢ — نبذة عن حياة الإدريسى .

٣ — ملاحظات عامة على أعمال الإدريسى .

٤ — أعماله :

ا — كتاب نزهة المشتاق .

١ — المشكلة الخاصة بتحريره .

٢ — النشرات الجزئية للنص العربى ، ترجماته إلى لغات أخرى . الدراسات الخاصة بأسماء المواضع .

٣ — طبعة آل ميديتشى .

٤ — كتاب جنى الأزهار .

٥ — دراسات مختلفة .

ب — كتاب روض الأنس ونزهة النفس .

١ — مختصره .

٢ — ترجماته .

ج — كتاب جامع أشتات النبات .

٥ — الخرائط .

١ — المشاكل المتعلقة بها .

٢ — دراسات خاصة .

وقد أتيح لى أن أعرف كل نقطة من هذه فى بحثى عن الإدريسى وخاصة فيما يتصل بكتاب جنى الأزهار الذى كان يظن أنه مختصر لكتاب الروض المعطار لمحمد بن عبد المنعم الحميرى عمله المقريزى .

إن مجموعة كبيرة من العلماء ما بين غربيين ومشارقة تعمل الآن فى إحياء نزهة المشتاق للادريسى ، ويتولى جيوفانى أومان تنظيم هذا العمل الكبير ، وهى خدمة تشهد بما لهذا العلامة الإيطالى من فضل لا بد أن يذكره له كل مشتغل بالعلم من العرب .

حسين مؤنس

عددهم فى الفصل الثانى ٢١ طالبـاً ، وقد ذهب إلى مصر على منحة دراسية مصرية واحد من طلابنا الذين تعلموا اللغة العربية فى هذا المعهد وهو السيد سنتياجو جونثالث بلاثيوس .

المحاضرات التى ألقيت فى دار المعهد

ألقيت فى ذلك العام بدار المعهد سلسلة محاضرات عرضناها كلها عرضاً وافياً فى تقاريرنا الشهرية ، وفيما يلى بيان هذه المحاضرات ونبذة عن كل منها :

الدكتور حسين مؤنس : الاشتراكية العربية ، ٣١ مارس ١٩٦٣

ألقيت هذه المحاضرة فى جامعة الكالا دى إينارس وهى جامعة دينيـــة قديمة يرجع انشاؤها إلى القرن الخامس عشر الميلادى . وبلدة الكالا دى إيناريس تقع على بعد ٣١ ك. م. شمالى شرقى مدريد وكانت أيام العرب قلعة مشهورة تسمى قلعة عبد السلام ، وقد احتفظت التسمية الإسبانية لهذه المدينة بعد ذلك بالكلمة العربية الكالا أى القلعة .

وقد تناول الأستاذ المحاضر بالشرح والتحليل المفهوم الاشتراكى العام للدولة الإسلامية منذ أيام الرسول (صلعم) ثم استطرد بعد ذلك إلى الكلام على دواعى الاتجاه الاشتراكى العربى الجديد والضرورات التى دفعت إلى السير فيه سواء أكانت ضرورات نابعة من طبيعة الاسلام والتفكير العربى الخالص أو ناتجة عن ظروف العرب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مبيناً أنها اشتراكية للخير العام للمواطنين جميعاً .

الأستاذ محمد عبد الله عنان : الحسن الوزان ، ٢٨ مارس ١٩٦٣

ألقى سيادته هذه المحاضرة باللغة الإسبانية ، وتناول فيها حيـــاة الحسن الوزان وأعماله بالتفصيل . فذكر أن هذا الرحالة الأندلسى المغربى قد ولد فى

غرناطة ثم رحل عنها إلى المغرب مع أسرته قبيل سقوطها فى يد الاسبان سنة ١٤٩٢ م .

وقام برحلات واسعة فى بلاد المغرب ثم انتقل إلى تونس ومن هناك عبر إلى صقلية ثم إلى إيطاليا حيث عاش هناك مدة طويلة اتصل خلالها بالرهبان والأحبار ، وقد تأثر الحسن الوزان بهذا الاتصال تأثراً كبيراً إلى درجة أنه ارتد عن الإسلام وتنصر على يد البابا واتخذ اسماً مسيحياً هو ليون الافريقى .

وفى إيطاليا كتب ليون الافريقى كتاباً باللغة اللاتينية فى وصف افريقيا وصحرائها الكبرى . وقد ترجم هذا الكتاب فيما بعد إلى اللغات الانجليزية والفرنسية والايطالية والاسبانية وصار من أهم المراجع التى لا يستغنى عنها أحد ممن يدرسون تاريخ افريقيا وأحوال أهلها خلال العصور الوسطى .

وقد أكد المحاضر فى ختام محاضرته بأن الحسن الوزان قد عاد فى أواخر حياته إلى المغرب واعتنق الإسلام أيضاً فكفر بذلك عن خطيئته الكبرى ومسح عن نفسه ذلك العار .

الأستاذ محمد عبد الله عنان : الشريف الإدريسى ، ٩ ابريل ١٩٦٣

هذه هى المحاضرة الثانيـــة التى القاها فى دار المعهد الأستاذ محمد عبد الله عنان أثناء رحلته العلمية فى اسبانيا خلال سنة ١٩٦٣ وقد تناول المحاضر هذه المرة شخصية الجغرافى العربى المشهور أبا عبد الله محمد بن محمد بن على ابن إدريس المعروف بالشريف الإدريسى وهو من مواليد سبتة سنة ٤٩٣ هـ/١٠٩٩ م واتجهت دراسته منذ أول الأمر نحو الجغرافية والطب والنباتات الطبية ثم رحل إلى المشرق فى شبابه وزار مصر والشام والعراق والحجاز وآسيا الصغرى ثم عاد إلى المغرب . وفى طريقه مر بصقلية وكان النورمان قد استولوا عليها من المسلمين وقام على حكمها روجر الأول ثم ابنه روجر الثانى وكان من المهتمين بالجغرافية والطب ، فوجد فى الإدريسى عالماً فذاً يستطيع أن يحقق له ما كان

يفكر فيه من عمل خريطة شاملة للأرض . ثم دعاه إلى المقام عنده والعمل معه فقبـل الإدريسى ذلك العرض واستقر فى بلاطه فى بلرم وعمل له صورة للأرض على صفائح من الفضة أثبت فيها كل ما لديه وما حصل عليه من معلومات . وبعد ذلك كتب كتاباً كبيراً فى شرح هذه الخريطة ، وهذا الشرح هو الذى عرف باسم نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق وهو يعتبر من أعظم الكتب التى تناولت جغرافية العـالم إلى مطلع العصر الحديث . وقد توفى الإدريسى حوالى سنة ٥٦٠ هـ/١١٦٥ م ولا يعرف إن كان قد توفى فى المغرب أو فى صقلية .

الدكتور أنطونيو الماجرو دياث : التصوير والعمارة فى العالم الإسلامى ، ١٧ ابريل ١٩٦٣

الأستاذ أنطونيو الماجرو دياث من علماء تاريخ الفن البارزين فى اسبانيا ، ومن أصدقاء المعهد القدماء وقد سبق أن حاضر كثيراً فى معهدنا فى الأعوام السابقة وله نظريات بديعة مبتكرة أهمها أن مصر هى أصل حضارة الغرب ومهدها . وفى هذه المحاضرة تناول الأستاذ المـاجرو موضوع الفن الإسلامى من ناحيته الجماليـة لا من ناحية تطوره التاريخى أو خصائصه الإقليمية على أساس أن هذه محاضرة عامة أشبه ما تكون بمقدمة الغرض منها لفت أنظار الناس إلى نواحى الجمال التى تتجلى فى الفن الإسلامى وتجعل له فى مجموعه اتجاهاً متميزاً بشخصيته بين اتجاهات الفن العالمى .

وقد أيد المحاضر كلامه بعرض مجموعة كبيرة من صور المساجد والقصور الإسلامية التى تمثـل كل بلاد الإسلام من الهند شرقاً إلى المغرب غرباً ومن روسيا شمالا إلى قلب افريقيا جنوباً ، مرتباً تلك الصور على حسب عناصر الجمال الفنى التى وجدها فيها ، ثم مضى يشرحها ويعلق عليها مجتهداً فى الربط بينها ما أمكنه ذلك . وختم المحاضر كلامه بوقفة طويلة عند مسجد قرطبة الجامع ، فتحدث عن اصالته وروعته وكيف أنه يمثل جلال الإمارة ثم الخلافة

الأمويتين ، وقال إن هذا المسجد فن اسبانى أصيل يقوم على تقليد معمارى إيبيرى وأنه بهذه الصفة يعتبر أقدم وأعظم أثر معمارى بنته أوربا خلال العصور الوسطى .

الدكتور أنطونيو الماجرو دياث : من الشرق إلى الغرب ،
فن الجريكو بين التطور والثورة ، ١٩ أبريل ١٩٦٣

بدأ الأستاذ أنطونيو الماجرو محاضرته بالكلام عن نظرياته عن الأصل المصرى للفنون المعمارية فى اسبانيا ، وقال أن هذه المؤثرات الفنية المصرية وصلت إلى اسبانيا فى العصور القديمة عن طريق الشمال الإفريقى حيث تركزت فى قفصة بنواحى تونس الحالية ونشأت هناك حضارة خاصة تعرف بالحضارة القفصية وهى فى أساسها مصرية امتزجت بها عناصر محلية قليلة . ومن قفصة انتقلت إلى صقلية وإلى المغرب الأقصى وشبه جزيرة إيبيريا . وهناك توطنت وأخذت الطابع المحلى وتكونت لها أصول ومميزات جعلتها أساساً لكل انتاج فنى ظهر فى اسبانيا بعد ذلك .

ثم تتبع المحاضر تاريخ هذا الفن الايبيرى من عصر ما قبل التاريخ إلى اليوم ووقف طويلا عند الفن الايبيرى الإسلامى وقال بأنه قد ظهر بأجلى صوره فى الفن المدجنى وهو فن كامل لم يقتصر على العمارة بل تعداها إلى التصوير والنحت . ومن آرائه أن الأصول التى تكون منها الفن الرومانى فى القرن العاشر الميلادى والفن القوطى فى القرن الثانى عشر ما هى إلا من ابتكارات أهل الفن المدجنى .

ثم تناول المحاضر أخيراً فن المصور دومينكو تيوتوكوبولوس الذى عرف باسم الجريكو أى اليونانى لأنه ولد ونشأ فى بلاد اليونان ودرس فى إيطـاليا ثم وفد على اسبانيا وعاش فيها حتى وفاته . وقد كانت لوحات هذا الفنان فى بادئ الأمر ذات طابع ايطالى ثم لم تلبث أن أخذت الطابع الاسبانى والروح الاسبانية الخالصة . ثم تتبع المحاضر تطور فن الجريكو كفنان اسبانى كما تكلم عن الخصائص الاسبانية لفنه وكيف أن بعض لوحاته تبدو وكأنها بعث للفن

المصرى القديم وبعضها الآخر يبدو وكأنه استمرار لرسوم الفن المدجنى ، وختم كلامه قائلا بأننا لا يمكن أن نفهم فن الجريكو ومن جاء بعده من مصورى اسبانيا حتى جويا إلا إذا عرفنا الأصول المصرية والإسلامية للفن الاسبانى عامة .

الدكتور أنطونيو الماجرو دياث : جولة قصيرة فى الزمان والمكان ،
طرشيش والأندلس واقليم اندالوثيا الحالى ، ٢٤ أبريل ١٩٦٣

هذه هى ثالثة المحاضرات من تلك السلسلة التى نظمناها لكى يعرض فيها الأستاذ الماجرو آراءه حول الفن الإسلامى عامة والأندلسى خاصة ، وفى هذه المحاضرة أراد الأستاذ الماجرو أن يظهر كيف أن كل العناصر الفنية والطرز المعمارية التى ذكرها فى محاضرتيه السابقتين باقية مستمرة إلى اليوم ، وقد دعم رأيه بعرض مجموعة كبيرة من الأفلام الثابتة الملونة (سلايدز) تمثل جولة كبيرة فى نواحى الأندلس الحالى بما فى ذلك القرى والضياع والمدن والكنائس والقصور والآثار والمبانى العادية وبيوت الفلاحين مبيناً العناصر الإيبيرية والمصرية القديمة والإسلامية فى كل منها .

محاضرات ألقيت فى خارج دار المعهد خلال سنة ١٩٦٣

سلسلة من أربع محاضرات للتعريف بالجمهورية العربية المتحدة :

قام السيد الأستاذ عبد الحميد عوض المستشار الصحفى بالسفارة بتنظيم سلسلة من أربع محاضرات للتعريف ببلادنا بالاشتراك مع المكتب السياحى ومعهد الدراسات الإسلامية .

وقد ألقيت هذه المحاضرات فى مدريد بدار اللجنة القوميـة للشباب Delegación Nacional de Juventudes وهى فرع من فروع منظمة الكتائب الاسبانية (الفلانخ) كما أنها تتبع أيضاً لنقابة الطلاب الجامعيين (السيو S.E.U.) .

ولم يقتصر الأمر على المحاضرات ، بل قدمت بعد كل محاضرة عروض سينمائية عرضت فيها أفلام ثقافية عن بلادنا ووزعت كذلك نشرات دعائية . وعلى أساس المعلومات التى تضمنتها المحاضرات والأفلام والنشرات ، نظمت مسابقة صغيرة بين الجمهور الذى حضرها وهى عبارة عن أسئلة يراد منها حث الشباب الإسبانى على الاهتمام بشئون مصر وقراءة بعض الكتب عنها . وقد ألقيت هذه المحاضرات بعد ظهر أيام السبت على النحو التالى :

الأستاذ عبد الحميد عوض : ما هى مصر ؟ ، ١٢ يناير ١٩٦٣

الدكتور محمود على مكى : معالم تاريخ مصر الحديث ، ١٩ يناير ١٩٦٣

السيدة بلانكا تييرا فييرا : آثار النوبه ، ٢٦ يناير ١٩٦٣

الدكتور حسين مؤنس : مشاكلنا وكيف نعالجها ؟ ٢ فبراير ١٩٦٣

أسبوع محاضرات عن مصر القديمة

ألقى هذه المحاضرات نفر من كبار المتخصصين والأساتذة الإسبان وذلك فى القاعة الكبرى للأتنيو وكان الغرض من تنظيم هذه السلسلة إعطاء فكرة كاملة عن حضارة مصر القديمة وتاريخها منتهزين فى ذلك فرصة صدور كتاب قيم عن مصر القديمة باللغة الإسبانية للمؤرخ البلجيكى الكبير جاك بيرين . وفيما يلى بيان هذه المحاضرات وتواريخ القائها :

١ — الدكتور حسين مؤنس : مصر ودورها فى تواريخ الحضارة العالمية ، ٢٤ أكتوبر ١٩٦٣

٢ — الدكتور مارتين الماجرو : تكوين الشعب المصرى ، ٢٤ اكتوبر ١٩٦٣

٣ — الأستاذ رودولفو خيل بن أمية : مصر واسبانيا بين الماضى والحاضر ، ٢٥ اكتوبر ١٩٦٣

٤ — الأب بنيتو ثيلادا : مكان علم المصريات القديمة بين الانسانيات ، ٢٦ اكتوبر ١٩٦٣

٥ — الدكتور أنطونيو الماجرو دياث : أصول حضارة الغرب وثقافته ، ٢٨ اكتوبر ١٩٦٣

٦ — الدكتور سنتياجو مونتيرو دياث : الثورات الثلاث فى تاريخ مصر القديمة ، ٣٠ اكتوبر ١٩٦٣

٧ — الأستاذ انريكى بيريث كومندادور : المثال خرفاسيو دى نوريا الإشبيلى فى مصر .

سلسلة محاضرات عن الأدب العربى المعاصر

ألقى هذه المحاضرات اثنان من خيرة شباب المستشرقين الاسبان وهما : الدكتور بدرو منتابث الأستاذ بكليـة الآداب بجامعة مدريد والآنسة ماريا اوخينيا جالبث ، وكلاهما عاش ودرس بالقاهرة بضع سنوات كما اشتغل كل منهما بترجمة بعض عيون الأدب العربى المعاصر . وقد القيت هذه المحاضرات فى قاعة اللاأتنيو بمدريد وفيما يلى بيان بهما :

١ — بدرو مونتابث : القومية العربية كنتيجة من نتائج الحرب العالميـة الأولى وكموجِّه أساسى للأدب العربى المعاصر ، ١١ ديسمبر ١٩٦٣

٢ — بدرو مونتابث : القيم الأدبية والانسانية فى انتاج شعراء المهجر ، ١٨ ديسمبر ١٩٦٣

٣ — ماريا اوخينيا جالبث : النثر العربى قبل الحرب العالمية الأولى — جيل أدباء النهضة ٨ يناير ١٩٦٤

٤ — بدرو مونتابث : الشعر العربى قبـل الحرب العالمية الأولى — محاولات التجديد فى المواضيع والأوزان ، ١٥ يناير ١٩٦٤

٥ — ماريا ايوخينيا جالبث : المسرح ، ميدان جديد فى الأدب العربى — توفيق الحكيم وانتاجه المسرحى ، ٢٢ يناير ١٩٦٤

٦ — بدرو مونتابث : من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥٢ ما بين التقليدية والاتجاه الاشتراكى فى الأدب العربى ، ٢٩ يناير ١٩٦٤

٧ — بدرو مونتابث : أدب الثورة العربية — اتجاهات جديدة فى شعر الشباب — الشعر الغنائى الوطنى ، ٥ فبراير ١٩٦٤

٨ — بدرو مونتابث : اتجاهات جديدة فى شعر الشباب — الواقعيــة الاجتماعية ، ١٢ فبراير ١٩٦٤

٩ — بدرو مونتابث : اتجاهات جديدة فى شعر الشباب — الشعر الغنائى وطابع الرومانسية الجديدة ، ١٩ فبراير ١٩٦٤

١٠ — ماريا ايوخينيا جالبث : الرواية فى الأدب العربى من سنة ١٩٥٢ حتى الوقت الحاضر ، ٢٦ فبراير ١٩٦٤

١١ — ماريا ايوخينيا جالبث : الاقصوصة فى الأدب العربى من سنة ١٩٥٢ حتى الوقت الحاضر ٤ مارس ١٩٦٤

١٢ — ماريا ايوخينيا جالبث : المسرح العربى من سنة ١٩٥٢ حتى الوقت الحاضر ، فن أدبى جديد فى مفترق الطرق ، ١١ مارس ١٩٦٤

١٣ — ماريا ايوخينيا جالبث : تحرير المقالة الصحفية كفن جديد من فنون الأدب العربى ، ١٣ مارس ١٩٦٤

١٤ — بدرو مونتابث : الشعر العربى الشعبى فى القرن العشرين — الزجالون المعاصرون ، ١٨ مارس ١٩٦٤

كتب ومطبوعات

أنجز المعهد خلال شهر أبريل سنة ١٩٦٣ طبع الجزء الخاص بجغرافية وتاريخ الأندلس من كتاب : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان فى

غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، لأحمد بن عمر بن أنس العذرى الذى حققه الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى . ويعتبر هذا الكتاب من أحسن ما أخرجه المعهد من مطبوعات . وبهذه المناسبة نشير إلى أن الكتاب الذى استحق عليه الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى جائزة الدولة التشجيعية فى الفلسفة لسنة ١٩٦٣ وهو كتاب مختار الحكم ومحاسن الكلم للمبشر بن فاتك ، هو أيضاً من منشورات هذا المعهد .

الاحتفال بالذكرى المئوية التاسعة لوفاة العالم الأندلسى ابن حزم

يعتبر أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم فى طليعة من أنجب الفكر الإسلامى فى ميادين الفقه والتاريخ والأدب ، وهو دون شك واحد من ثلاثة أو أربعة هم أعظم من أخرجتهم قرطبة من المفكرين ، ولا زال كتابه « الفصل فى الملل والنحل » أحسن ما أخرجته العصور الوسطى فى الشرق والغرب فى تاريخ الأديان المقارن ، وكتابه « طوق الحمامة » درة من درر الأدب العربى فى تحليل عاطفة الحب وعلاماته . وكذلك بقية كتبه ، كل منها يعد فريداً فى بابه . وقد توفى ابن حزم فى ١٥ شعبان سنة ٤٥٦ ﻫ (يوليو ١٠٦٣ م) .

وكان هذا المعهد قد سعى فى تنبيه السلطات الاسبانية إلى ضرورة الاحتفال بهذه الذكرى وتحدث مع المسئولين فى قرطبة فى ذلك منذ بداية هذه السنة فأيدوا الفكرة على أن يكون الاحتفال باسم معهد الدراسات الإسلامية وأكاديمية العلوم فى قرطبة ومدرستى الدراسات العربية فى مدريد وغرناطة .

وفى نفس الوقت أرادت بلدية قرطبة أن تحيط هذا الاحتفـال بأكبر مظاهر الدعاية فأبدت رغبتها فى عمل تمثال لابن حزم واقامته فى قرطبة . وقد كلف بهذا العمل مثال ممتـاز هو السنيور أماريو رويث أولموس أستاذ النحت فى مدرسة الفنون والصناعة فى قرطبة . ونظراً لعدم وجود أى نص تاريخى

فى وصف ملامح ابن حزم وهيئته فقد اضطررنا إلى أن نستشف ذلك من كتاباته وأقوال معاصريه فيه . وقد جاء التمثال مطابقاً للوصف الذى قدمناه للمثال المذكور : ملامح رجل وسيم مهيب الهيأة عصبى المزاج ، طويل التأمل ، عميق التفكير ، ملابسه ملابس رجل ثرى يعيش فى سعة من العيش كما كانت حال ابن حزم . والتمثال بالحجم الطبيعى لرجل وقد أقيم التمثال فى قرطبة عند باب اشبيلية الذى كان يعرف على أيام العرب باسم العطارين . وقد احتفل بازاحة الستار عن هذا التمثال فى اليوم الأول من المهرجان أى فى حفـــل الافتتاح الذى أقيم فى صباح الأحد ١٢ مايو سنة ١٩٦٣

ولقد استمر مهرجان ابن حزم ثمانية أيام من الأحد ١٢ إلى السبت ١٨ مايو سنة ١٩٦٣ وكان البرنامج فيه على النحو التالى :

١ — جلسة علمية يومية تبدأ من الساعة العاشرة صباحاً وتستمر حتى الساعة ١٢ ظهراً وتلقى فى أثنائها ثلاث محاضرات وذلك فى احدى قاعات نادى الصداقة فى قرطبة .

٢ — جلسة شعرية تعقد عقب كل جلسة علمية وتستمر حتى الساعة الثانية ظهراً . وقد خصص يوم لكل بلد عربى ، يقدم فيه وفد هذا البلد منتخبات من شعر شعراء بلاده أو من الشعر الأندلسى أو من الشعر العربى عامة .

٣ — زيارة معالم قرطبة الأثرية وحضور الحفلات الرسمية وما إلى ذلك بعد الظهر .

الجلسات العلمية وما ألقى فيها من المحاضرات فى هذا المهرجان

الجلسة العلمية الأولى ، الاثنين ١٣ مايو سنة ١٩٦٣

١ — الأستاذ سعيد الأفغانى : نظرات فى اللغة عند ابن حزم .

٢ — الدكتور محمود على مكى : ابن حزم وعمل قرطبة الفقهى .
٣ — الدكتور روجيه أرنالديز : ابن حزم وعلم الكلام فى الإسلام .
٤ — الأستاذ محمد عبد الله عنان : ابن حزم والمجتمع الأندلسى فى عصر الطوائف .

الجلسة العلمية الثانية ، الثلاثاء ١٤ مايو سنة ١٩٦٣

١ — الدكتور خوان بيرنيت : العلماء الرياضيون فى الأندلس فى كتب ابن حزم .
٢ — الدكتور شارل بلا : ابن حزم وابن شهيد والشعر العربى .
٣ — الدكتور مانويل أوكانيا خيمينث : ملاحظات حول قرطبة فى عصر ابن حزم .

الجلسة العلمية الثالثة ، الأربعاء ١٥ مايو سنة ١٩٦٣

١ — الدكتور بوسك بيلا : ابن حزم النسابه .
٢ — الدكتور فرناندو دى لاجرانخا : السوابق المشرقية لموضوع « علامات الحب » .

الجلسة العلمية الرابعة ، الخميس ١٦ مايو سنة ١٩٦٣

١ — الدكتور الأب داريو كابانيلاس : ابن حزم ومناهج التعليم فى الأندلس .
٢ — الدكتور بدرو مارتينث مونتابث : قرطبة والأندلس فى الشعر العربى المعاصر .
٣ — الدكتور الياس تيريس سادابا : أخبار عن حياة ابن حزم فى كتاب تلميذه الحميدى .

الجلسة العلمية الخامسة ، الجمعة **١٧** مايو سنة **١٩٦٣**

١ — الدكتور دافيد جونثالث مايسو : مجادلة دينيـة بين ابن حزم وابن النغرالة .

٢ — الدكتور ميجيل كروث ايرناندث : تفكير ابن حزم والثقافـة الأندلسية فى عصر الخلافة .

٣ — الدكتور خايمى أوليفر أسين : طوق الحمامة وأثره فى الأدب الاسبانى .

الجلسة العلمية السادسة ، السبت **١٨** مايو سنة **١٩٦٣**

١ — الدكتور هنرى تيراس : فن العمارة الاسلامى فى أواخر القرن العاشر وأوائل الحادى عشر .

٢ — الدكتور نافع النجارى : ابن حزم المفكر الأديب المتكلم الجدلى .

٣ — الدكتور حسين مؤنس : مراتب العلوم عند ابن حزم .

٤ — الأستاذ أنطونيو كارلوس بيدال : الحميدى الميورقى تلميذ ابن حزم .

٥ — الدكتور لويس سيكو دى لوثينا : ملاحظات حول كتاب نقط العروس لابن حزم .

الجلسات الشعرية فى هذا المهرجان

أقيمت أيضاً فى القاعة الكبرى فى نادى الصداقة بقرطبة وذلك عقب الجلسات العلمية وقد خصص يوم لكل بلد عربى على النحو التالى :

الجلسة الشعرية الأولى ، الاثنين ١٣/٥/١٩٦٣ : سوريا

« « الثانية ، الثلاثاء ١٤/٥/١٩٦٣ : لبنان وليبيا

« « الثالثة ، الأربعاء ١٥/٥/١٩٦٣ : الجمهورية العربيـة المتحدة

الجلسة الشعرية الرابعة ، الخميس ١٦/٥/١٩٦٣ : المملكة العربيـة السعودية
« « الخامسة ، الجمعة ١٧/٥/١٩٦٣ : الباكستان
« « السادسة ، السبت ١٨/٥/١٩٦٣ : المملكة المغربية

وإلى جانب هذه الجلسات العلمية والشعرية ، حفل هذا الأسبوع أيضاً بنواحى نشاط أخرى نجملها فيما يلى :

١ — تمثيل ثلاث مسرحيات للأستاذ توفيق الحكيم وهى بيت النمـل وأغنية الموت وشهر زاد وذلك فى مساء يومى ١٤ ، ١٦ مايو سنة ١٩٦٣ على مسرح نادى الصداقة بقرطبة ، وقد مثلث هذه المسرحيات باللغة الاسبانية وهى من ترجمة المستشرق الاسبانى بدرو مونتابث .

٢ — إقامة معرض للفنون والصناعة التقليدية المصرية القديمة والإسلامية فى إحدى قاعات نادى الصداقة بقرطبة وقد ظل هذا المعرض مفتوحاً حتى أوائل يونيو سنة ١٩٦٣

٣ — اشترك الزميـل الفنان محمد صبرى فى هذا المهرجان بمجموعة من لوحاته تصور مناظر مصرية وأندلسية وذلك فى صالون المعارض الرسمى التابع لبلدية قرطبة .

٤ — إلقاء محاضرة عن الجمهورية العربية المتحدة ، أعدها وألقاها الأستاذ عبد الحميد عوض المستشار الصحفى فى سفارتنا وذلك فى مساء الأربعاء ١٥ مايو سنة ١٩٦٣ فى إحدى قاعات نادى الصداقة بقرطبة .

شئون البعثات والمنح والاجازات الدراسية المصرية

أشرف المعهد خلال هذه السنة ١٩٦٣ على الطلبة المصريين الآتية أسماؤهم :

السيدة فاطمة أحمد حسن : حصلت على إجازة دراسية لمدة سنة لمرافقـة زوجها الدكتور أحمد عز الدين نعيم ثم لاستكمال دراستها فى اسبانيا .

الدكتور أحمد عز الدين نعيم : طبيب الرمد بوزارة الصحة ، حصل على بعثة دراسية لمدة سنة فى اسبانيا ابتداء من أكتوبر سنة ١٩٦٣ للتخصص فى الكيروبلاستيكا أى ترقيع القرنيه ، وقد التحق بمعهد الدكتور براكير فى برشلونه وقام بدراسته هناك .

الدكتور مصطفى كمال حجازى : وصل إلى اسبانيا فى فبراير سنة ١٩٦٣ قادماً من هولاندا بناء على توصية أساتذته هناك الذين نصحوا بأن يخصص الشهور الأخيرة من بعثته للدراسة فى اسبانيا . وقد التحق منذ وصوله بمعهد دراسة الموالح فى مدينة بلنسية ، وسارت دراسته سيراً منتظماً هناك .

الآنسة مارى إلين بول كلوناريس : درست فن التصوير تحت إشراف المعهد منذ سنة ١٩٦٣ والتحقت بكلية سان فرناندو للفنون الجميلة فى مدريد وكانت منتظمة فى دراستها .

الآنسة آمال أحمد كامل : حاصلة على شهادة إتمام الدراسة الثانوية من القاهرة ووفدت على اسبانيا لدراسة فن التصوير فى كلية سان فرناندو للفنون الجميلة فى مدريد وذلك فى ٤ مايو سنة ١٩٦٣ وقد التحقت بهذه الكلية وبدأت دراستها فيها .

الآنسة عفاف أحمد كامل : حاصلة على دبلوم الفنون الجميلة قسم التصوير من القاهرة وقد وفدت على اسبانيا فى مايو ١٩٦٣ لاستكمال دراستها فى التصوير فى كلية سان فرناندو للفنون الجميلة وقد التحقت بهذه الكلية وسارت فى دراستها سيراً طبيعياً .

الآنسة ماجدة أحمد نجيب : طالبة كفيفة وفدت على اسبانيا فى سبتمبر سنة ١٦٩١ على منحة خاصة من رئيس الدولة الإسبانية للدراسة فى معهد الكفيفات فى مدريد ، وكانت تدرس فى القاهرة فى معهد النور فى الزيتون وهى حاصلة على الشهادة الابتدائية . والمعهد الذى درست فيه معهد داخلى يعطى شهادة

تعادل الاعدادية عندنا . وقد يسر لها المعهد إلى جانب ذلك دروساً منتظمة فى العزف على الاكورديون نظراً لميلها إلى الموسيقى .

السيد أحمد عبد الحميد يونس : طالب كفيف أرسله والده الدكتور عبد الحميد يونس إلى اسبانيا فى اكتوبر سنة ١٩٦٣ ليحصل على البكالوريا الاسبانية ويواصل دراسته فى الجامعة بعد ذلك .

المعارض والنواحى الفنية

— فى ١٤ مارس ١٩٦٣ تم افتتاح قسم جديد للفنون الشرقية بمتحف الآثار البلدى بمدريد وقد احتوى هذا القسم على تماثيل وأوانى خزفية وآلات بدوية تمثل حضارات ما قبل التاريخ كالمصرية والبابلية والاشورية والفارسية .. الخ . وهى من إهداء العالم الأثرى الاسبانى مارتينث سانتا أولايا .

— أقيم فى هذا الشهر أيضاً المعرض السنوى الرابع والثلاثون للفنون الجميلة بقصر الرتيرو بمدريد . وقد اشترك فى هذا المعرض أكثر من أربعمائة فنان على اختلاف مدارسهم . وقد تقدم السيد الزميل الفنان محمد صبرى إلى هذا المعرض بلوحتين باستيل نالتا تقدير لجان التحكيم فمنحته الميدالية الثانية فى التصوير وكان فى العام الماضى قد حاز المدالية الثالثة . وقد ظهرت اللوحات الفائزة فى التلفزيون وأذيعت من جميع محطات الاذاعة ونشرتها الصحف .

ابن حزم القرطبي . وقد عقد الأستاذ هونرباخ بعد ذلك مقارنة بين هذا الكتاب ومنتخب أدبي آخر ألف في نفس عصره وهو كتاب البديع في وصف الربيع لأبي الوليد اسماعيل الحميري الذي نشره الباحث الفرنسي هنري بيريس سنة ١٩٤٠ وقد بين المحاضر أن نزعة هذين الكتابين متشابهة ولو أن كتاب ابن الكتاني أوسع بكثير إذ هو لا يكتفي بجميع التشبيهات الغريبة النادرة الخاصة بالرياض والزهور كما فعل الحميري بل يشمل ما وضعه الشعراء من مرثيات .

وقد ألقيت هذه المحاضرة بدار المعهد في مساء ٢٧ أبريل سنة ١٩٦٤

— محاضرة عن التشريع الإسلامي في الباكستان الحالية للدكتور خالد إسحاق الأستاذ بالمعهد المركزي للبحوث الإسلامية في كراتشي .

وقد ألقى سيادته هذه المحاضرة بدار المعهد في مساء ٢٧ اكتوبر ١٩٦٤

— محاضرة للأستاذ شار بيلا ، الأستاذ بجامعة باريس عن ملاحم البطولة الفرنسية الأولى والإسلام .

وقد القيت هذه المحاضرة بدار المعهد في مساء ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦٤

محاضرات ألقيت خارج دار المعهد

— محاضرة للمستشرق الإسباني الكبير غرسية غومس سفير اسبانيا في تركيا عن « آراء حول الخرجات المستعربية » وذلك في مساء ٢٩ يناير ١٩٦٤ بدعوة من جمعية الدراسات والمنشورات . وهذه الجمعيـــة هي التي تتولى طبع كتاب له حول الموشحات الأندلسية والخرجات .

ثلاث محاضرة عن ابن حزم الأندلسي

ألقيت هذه المحاضرات الثلاث في معهد لويس بيبس للفلسفة (١٢٧ شارع سيرانو

بمدريد) وذلك فى ٤ أبريل سنة ١٩٦٤ ، وقد ألقى المحاضرة الأولى الأستاذ ميجيل كروث إيرناندث أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعــة سلمنكا ومحافظ البسيط Albacete الإسبانية ، وألقى المحاضرة الثانية الدكتور خواكين لومبــا الأستاذ المساعد فى قسم الدراسات السامية فى جامعة سرقسطة أما المحاضرة الثالثة فقد ألقاها الأب سلفادور نوجالس عميد كلية الفلسفة فى جامعة الكالا دى إينارس . وفيما يلى عناوين هذه المحاضرة الثلاث :

الأولى ابن حزم والثقافة الأندلسية فى القرن الحادى عشر .

الثانية التفكير الجمالى عند ابن حزم .

الثالثة المكونات الميتافيزيقية للإنية عند ابن حزم .

سلسلة محاضرات عن الحضارة المصرية القديمة فى مدينة سانتاندير

تقع مدينة سانتاندير فى أقصى شمال اسبانيا على ساحل المحيط وهى تعتبر من مصايف اسبانيا الكبرى ، ولهذا السبب فضل المعهد أن يكون موعد هذه المحاضرات فى موسم الصيف من ٣ إلى ٣١ أغسطس ١٩٦٤ وقد ألقيت فى متحف ما قبل التاريخ والآثار فى سانتاندير على النحو التالى :

المحاضرة الأولى : الدكتور ميجيل انخل جارثيا جينيا :

وادى النيل فيما قبل التاريخ ، ٣ أغسطس ١٩٦٤

المحاضرة الثانية : الأب خواكين جونثالث اتشيجاراى :

نظرة تاريخية على الحضارة المصرية ، ٥ أغسطس ١٩٦٤

المحاضرة الثالثة : الأستاذ حسين وهبى أبو العز :

الأهرامات الخالدة ، ٧ أغسطس ١٩٦٤

المحاضرة الرابعة : الأستاذ مانويل كاريون أيرون :
العمارة فى عصر الدولة القديمة ، ١٠ أغسطس ١٩٦٤

المحاضرة الخامسة : الدكتور ميجيل أنخل جارثيا جينيا :
النحت والتصوير فى الدولة القديمـة ، ١٢ أغسطس ١٩٦٤

المحاضرة السادسة : الدكتور ميجيل جارثيا جينيا :
الفن فى عصر الدولة الوسطى ، ١٧ أغسطس ١٩٦٤

المحاضرة السابعة : الأستاذ مانويل كاريون ايرون :
العمارة فى عصر الدولة الحديثة ، ١٩ أغسطس ١٩٦٤

المحاضرة الثامنة : الأب خواكين اتشيجاراى :
النحت والتصوير فى الدولة الحديثة ، ٤٢ أغسطس ١٩٦٤

المحاضرة التاسعة : الدكتور ميجيل أنخل جارثيا جينيا :
الفن فى العصرين الصاوى والبطلمى ، ٢٦ أغسطس ١٩٦٤

المحاضرة العاشرة : الدكتور ميجيل أنخل جارثيا جينيا :
الآراء الدينية للمصريين القدماء ومعتقداتهم ، ٢٨ أغسطس

المحاضرة الحادية عشرة : الدكتور حسين مؤنس :
ميلاد مصر الحديثة ، ٣١ أغسطس ١٩٦٤

وقد تخلل هذه المحاضرات عرض أفلام دعائية عن مصر قام بعرضها المكتب السياحى بسفارتنا فى مدريد .

ست محاضرات عن الحضارة العربية فى مدينة مرسية

ألقيت هذه المحاضرات خلال شهر اكتوبر ١٩٦٤ فى نادى كراو الثقافى بمدينة مرسية فى شرق اسبانيا . وفيما يلى برنامج هذه المحاضرات :

١ — الدكتور أنطونيو دى أويوس :
لمحـات عن الحضارة العربية فى اسبانيا ، ٥ أكتوبر ١٩٦٤

٢ — الدكتور حسين مؤنس :
نهضة مصر المعاصرة ، ٧ أكتوبر ١٩٦٤

٣ — الدكتور خوسيه ريكيامى سالار :
ابن هود ، ملك مرسية ، ٧ أكتوبر ١٩٦٤

٤ — الدكتور بسكوال مارين بيريث :
الاصلاح الزراعى فى الجمهورية العربية المتحدة ، ٢٠ أكتوبر ١٩٦٤

٥ — الدكتور خوسيه ريكيامى سالار :
أثر الإسلام فى حضارة الغرب ، دراسة عن حياة ابن عربى المرسى ، ٢١ أكتوبر

٦ — الأستاذ خوسيه بايستر :
صور من الحياة فى مرسية الإسلامية ، ٢٦ أكتوبر ١٩٦٤

وقد تخلل هذه المحاضرات عرض أفلام ثقـافية عن مصر وبعض البلاد العربية الشقيقة وذلك فى قاعة سينما ركس ، وهى أكبر دور السينما فى مرسية . وفيما يلى بيان الأفلام التى عرضت :

الأربعاء ٧ أكتوبر ١٩٦٤ : نداء الأهرام — الشتاء فى مصر — دير سانت كاترين — إجازة فى مصر

الجمعة ١٦ أكتوبر ١٩٦٤ : المثال مختار — الأردن التاريخى والدينى والسياحى والاقتصادى .

الاثنين ١٩ أكتوبر ١٩٦٤ : العراق — زيارة وزير الاعـــلام الاسبانى للجمهورية العربية المتحدة — إنقاذ آثار النوبة

الدورة الثالثة للجلسات العلمية الأندلسية فى مدريد

فى خلال شهر نوفمبر من هذه السنة تم عقد الدورة السنوية الثـالثة للجلسات العلمية الأندلسية وقد أقيمت هذه المرة فى مدينة مدريد فى القاعة الكبرى بدار المجلس الأعلى للأبحـاث العلمية رقم ٤ شارع مديناثيلى . وقد اقتصرت هذه الدورة على الجانب العلمى أى المحاضرات والزيارات العلمية ، وفيما يلى بيان ما تم فى هذه المناسبة :

حفل الافتتاح : أقيم هذا الحفل صباح الاثنين ٢٣ نوفمبر ١٩٦٤ ، ورأسه وزير التعليم الدكتور مانويل لورا تمـايو والسيد خوسيه ماريا الباريدا ايريرا سكرتير عام المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، والمدير العام للتعليم الجامعى بوزارة التعليم ، ومديرا مدرستى الأبحـاث العربية فى مدريد وغرناطة ، ومدير معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد . وبدأ الحفل بخطاب عظيم الأهمية من الأستاذ لويس سيكو دى لوثينـا مدير مدرسة الأبحاث العربية فى غرناطة ، وقد دار هذا الخطاب حول نقطة رئيسية هى أن العصور الإسلامية من تاريخ اسبانيا حلقات من التاريخ القومى الإسبانى وأبطالها أبطال قوميون جديرون بكل تمجيد وتعظيم ، وتراثها السياسى والحضارى تراث عظيم يقارن بأعظم ما وصلت إليه اسبانيا فى عصورها المسيحية .

وتحدث بعد ذلك وزير التعليم الدكتور لورا تمايو فأيد هذا الكلام وقال أن تاريخ العرب فى اسبانيا يعتبر فترة قومية مجيدة من تاريخها ثم اطرى فكرة هذه الجلسات العلمية الأندلسية باعتبارها طريقاً لتوكيد علاقات الصداقة مع العالم العربى الناهض .

ثم ألقى السيد مدير المعهد محاضرة الافتتاح وهى المحاضرة الأولى فى سلسلة محاضرات هذه الدورة وبيانها كما يلى :

المحاضرة الأولى : الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد : آراء حول عصر ملوك الطوائف ، صباح ٢٣ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة الثانية : الدكتور فرناندو دى لاجرانخا الأستاذ بجامعة سرقسطة : حياة أبى مروان اليحانسى وكراماته ، مساء ٢٣ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة الثالثة : الأستاذ هنرى تيراس مدير المعهد الثقــافى الفرنسى فى مدريد المعروف باسم « دار بلاسكث » : الفن الأندلسى ، اكتشافات واتجاهات جديدة ، مساء ٢٣ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة الرابعة : الأب الدكتور فيلكس باريخا :
الشطرنج الأندلسى ، مساء ١٣ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة الخامسة : الدكتورة سوليداد خيبيرت :
الأديب الشاعر أبو البركات البلفيقى ، مساء ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة السادسة : الدكتور خاثنتو بوسك بيلا الأستاذ بجامعة غرناطة : علم الانساب والنسابون فى الأندلس ، مساء ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة السابعة : الدكتور أحمد مختار العبادى :
الأعياد فى مملكة غرناطة ، مساء ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة الثامنة : الأستاذ ميجيل كروث ايرناندث الأستاذ بجامعة سلمنكة : اعادة النظر فى الدرسات الخاصة بابن رشد ، مساء ٢٥ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة التاسعة : الدكتور خوسيه باسكث رويث الأستاذ بالمعهد الاسبانى فى طنجة : مؤلفات مخطوطــة لابن الأحمر الأمير المؤرخ ، مساء ٢٥ نوفمبر .

المحاضرة العاشرة : الأستاذ نيفل باربر :
السعديون ملوك المغرب وموقفهم من المغرب ، مساء ٢٥ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة الحادية عشرة : الدكتور خوان بيرنيت خينس الأستاذ بجامعـة برشلونة : دراسات حديثة حول تاريخ العلوم عند العرب ، مساء ٢٦ نوفمبر .

المحاضرة الثانية عشرة : دافيد جونثالو مايسو الأستاذ بجامعـة غرناطة : ملحمة السيد والإسلام ، مساء ٢٦ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة الثالثة عشرة : بدرو مارتينث مونتابث الأستاذ المساعد بجامعة مدريد : دراسة عن التجارة الأندلسية فى العصر الوسيط ، مساء ٢٦ نوفمبر .

المحاضرة الرابعة عشرة : خواكين بالبيه الأستاذ المساعد بجامعة مدريد : دراسة حول الاعلام الجغرافية فى اقليم مالقة الإسلامية ، مساء ٢٧ نوفمبر .

المحاضرة الخامسة عشرة : الأب داريو كابانيلاس الأستاذ بجامعة غرناطة : الموريسكى الونسو دل كاستيليو وترجمته للكتابات المنقوشة فى قصر الحمراء ، ٢٧ نوفمبر .

المحاضرة السادسة عشرة : الدكتورة كليليا سارنيلى الأستاذة بالمعهد الشرقى بجامعة نابلى : شخصية مجاهد العامرى وجهـاده فى الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط ، مساء ٢٧ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة السابعة عشرة : الدكتور شارل بيـلا الأستاذ بجامعة باريس : حول ابن وهبون ، مساء ٢٧ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة الثامنة عشرة : الدكتور إلياس تيريس سادابا الأستاذ بجامعة مدريد : بيتان مروانيان أندلسيان ، مساء ٢٨ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة التاسعة عشرة : الدكتور خايمى أوليفر آسين مدير مدرسة الأبحاث العربية بمدريد : مسائل لغوية أندلسية ، مساء ٢٩ نوفمبر ١٩٦٤ .

المحاضرة العشرون : الدكتور لويس سيكو دى لوثينا مدير مدرسة الأبحاث العربية فى غرناطة : اكتشاف وثائق عربية غرناطية ، مساء ٢٨ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة الحادية والعشرون : الأب سلفــادور جومس نوجالس الأستاذ بجامعة الكالا دى ايناريس : شخصية ابن عربى همزة وصل بين العالم العربى والثقافة الغربية صباح ٢٩ نوفمبر ١٩٦٤

المحاضرة الثانية والعشرون : الدكتور محمود على مكى وكيل معهد الدراسات الإسلامية بمدريد : ابن حيان ونشأة الممالك المسيحية ، صباح ٢٩ نوفمبر .

كتب ومطبوعات خلال سنة ١٩٦٤

— نشر المعهد الإسبانى العربى للثقافة فى مدريد خلال هذه السنة ترجمة اسبانية للقصة العربية « قرية ظالمة » للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين وذلك ضمن سلسلة « مؤلفين عرب معاصرين » وقد قام بترجمة هذه القصة إلى اللغة الإسبانية المستشرق الإسبانى الشاب خوسيه ماريا فورنياس الأستاذ بالمعهد الإسبانى فى سبتة ، وقد سبق أنه درس فى مصر مدة سنتين على منحة من الإدارة العامة للثقافة .

— نشر معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد خلال ١٩٦٤ كتاباً بالاسبانية عن القصة المصرية المعاصرة بعنوان Siete cuentistas egipcios contemporáneos أى سبعة قصاصين مصريين معاصرين وهم : نجيب محفوظ ، يحيى حقى ، محمد عبد الحليم عبد الله ، يوسف الشارونى ، يوسف ادريس ، مصطفى محمود ، حسين مؤنس .

ومؤلف هذا الكتاب هو الدكتور بدرو مارتينث مونتابث الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة مدريد . وقد اختار هذا المؤلف سبعة نمـــاذج قصصية لهؤلاء القصاصين وترجمها إلى الاسبانية مع دراسة عامة عن القصة فى الأدب العربى المعاصر . ويقع الكتاب فى ١٢٠ صفحة .

— نشر معهدنا أيضاً فى خلال هذه السنة كتيبا بالاسبانية فى ٣٢ صفحة عن الاصلاح الزراعى فى الجمهورية العربية المتحدة ومقارنته بجهود اسبانيا فى هذا السبيل للأستاذ الدكتور بسكوال مارين بيرث .

وهذا الكتاب عبارة عن دراسة قانونية للاصلاح الزراعى فى بلادنا مع بيان الأسس القانونية والقومية التى دفعت الحكومة المصرية إلى إصدار هذا القانون الاشتراكى ثم مزاياه التى يمكن للاصلاح الزراعى الاسبانى أن يفيد منها .

معارض نظمها المعهد أو اشترك فى إقامتها خلال سنة ١٩٦٤

— اشترك الفنان المصرى الاستاذ محمد صبرى فى المعرض السنوى الخامس والثلاثين للتصوير والفنون التشكيلية فى مدريد بلوحتين من لوحاته . وقد سبق لسيادته أن اشترك فى العام الماضى والذى قبله ونال فى الأول ميدالية برونزية وفى الثانى ميدالية فضية وفى هذا العـــام استطاع الحصول على الجائزة الأولى وميدالية ذهبية وهو نصر كبير حققه لنا هذا المصور الممتاز .

— اشترك كذلك السيد الزميل محمد صبرى بلوحتين من لوحاته فى المعرض السنوى الثامن والخمسين لجمعية الباستيل فى لندن خلال شهرى يوليو وأغسطس .

— أقام المعهد والمكتب السياحى بالسفارة فى مدينة سانتاندير شمالى اسبانيا معرضاً سياحياً مصرياً يعبر عن حاضر بلادنا وماضيها وذلك فى شهر أغسطس .

— أقام المعهد فى شهر اكتوبر ١٩٦٤ فى مدينة مرسية شرقى اسبانيا ثلاثة معارض هى :

١ — معرض الفنون المصرية القديمـة فى قاعة المتحف الاركيولوجى .

٢ — معرض لوحات السيد محمد صبرى فى قاعة المعارض بكازينو مرسية .

٣ — معرض اللوحات السياحية والصور الفوتوغرافية فى نادى كراو .

وقد افتتحت هذه المعارض الثلاثة فى ٥ اكتوبر واستمرت مفتوحة إلى ٣١ منه .

ورأي أئمــة الأندلس فى تكفير أصحابها ، فى حين أن الأمويين نظروا إلى الاستفادة من تلك الحركات الخارجية المعارضة للعباسيين وكسب أصحابها إلى جانبهم ، ومثال ذلك موقفهم من بنى رستم الأباضيين أصحاب تاهرت ، وأضاف أن الأباضية انتقلت إلى الأندلس فى حدود ضيقة عن طريق مهاجرة البربر إلى هذه البلاد ، وضرب أمثلة على ذلك .

وتكلم بعد ذلك عن أثر العراق فى الحياة الاجتماعية وفى النظم الادارية فى الأندلس ، فقال ان عبد الرحمن الأوسط هو صاحب الفضل فى فتح الباب للحضارة العباسية لدخول الأندلس إذ هو الذى « رتب رسوم المملكة وكسا الخلافة أبهة الجلالة » كما يقول المؤرخون ، وقد اتخذ نظم العباسيين أساساً لهذا الترتيب ، وفصَّل الكلام عما دخل الأندلس من معالم الترتيب الإدارى العباسى ونظم المجتمع العراقى ، فتحدث عن زرياب وما يعزى إليه ، وعن دخول الاحتفال بالنيروز والمهرجان فى الأندلس وما إلى ذلك .

ووقف طويلا عند المذاهب الفقهية التى نشأت فى العراق وكيف انتقلت إلى الأندلس فتحدث بتفصيل عن الحنفية خاصة فيه .

وذكر بعد ذلك مدرسة الحديث ، فتتبع أولا تطور الدراسات الفقهية فى الأندلس منذ البداية ، واقتضى منه ذلك دراسة تاريخ علم الحديث فى المشرق مع إشارات طويلة إلى أعلام مدرسة الحديث من المشارقة ، وانتقل علم الحديث بعد ذلك إلى الأندلس وكان له فيه تاريخ طويل قصه الدكتور مكى ووقف عند أعلامه من أمثال محمد بن وضاح وبقى بن مخلد ، وتكلم كذلك على تقارب مدرسة الفقه ومدرسة الحديث وائتلافهما فى مدرسة كبار شيوخ الأندلس خلال القرن الهجرى الثالث من أمثال أحمد بن دحيم بن خليل وقاسم بن أصبغ البيانى وأحمد بن سعيد ابن حزم .

وبعد أن مر سريعاً بدخول المذهب الظاهرى الأندلس تكلم عن المدرسة المالكية فى العراق وأثرها فى الأندلس وأعقب ذلك بدراسة عن الاعتزال فى ذلك البلد ووقف عند هذا المذهب وقفة طويلة ، وضم هذا الباب بحثـــاً عن ثبات أركان المذهب المالكى فى الأندلس وغلبته على غيره من المذاهب .

ثم انتقل إلى الحيـاة الأدبية فتكلم أولا عن التجديد الأدبى فى المشرق سواء أكان ذلك فى الشعر أم فى النثر ، ودرس كيف انتقلت تيارات التجديد تلك إلى الأندلس وخاصة الاتجاه الكلاسى المحدث ، وهو الاتجاه الذى غلب على الأدب الأندلسى كله بعد ذلك ، ولهذا وقف د. مكى عنده وقفة طويلة شملت بقية الكتاب .

وفى الختام أتى المؤلف بقائمة من المراجع وقد استغرقت احدى وعشرين صفحة من المقال .

د. خوان بيرنيت خينس : ألقاب اسبانية ذات أصل عربي
في شرق الأندلس . دراسة منهجية (ص ١٤١ — ١٤٧)

فى هذا البحث القصير عن الأصول العربية لكثير من اسمـاء الأعلام الأندلسية يلجأ د. خوان بيرنيت أستاذ الدراسات العربية بجامعة برشلونة إلى احصاء هذه الأسماء أولا عن طريق قوائم جارية للأسماء ذات طابع تجارى أو مهنى أو علمى ، ومن هنا لا يلتفت الناس إليها فى مجال الأبحاث العلمية ، وقد اعتمد هنا على اثنين من هذه ، الأول هو الدليل السنوى العام لاسبانيا Anuario General de España ثم أدلة التليفونات Anuarios Telefónicos الخاصة بإقليم قطلونيـة وبلنسية ومرسية ، وهى أدلة كثيرة جداً إذ أن لكل بلد كبير أو عاصمة محافظة أو مركز قضائى دليـل باشتراكات التليفون فيه ، أما الدليل

السنوى العام فليس دليلا احصائياً ، ولكنه دليـــل تنشره إحدى الشركات كل سنة ولا تنشر فيه بطبيعة الحال إلا أسماء من يشتركون فيه ويؤدون الاشتراك .

فى هذه النشرات الاحصائية ترد الأسماء مرتبة حسب الألقاب على الطريقة الأوروبية ، وهذا هو المهم ، لأن الأصول العربية لا تبدو فى الأسماء وإنمـــا فى الالقاب ، لأن الاسماء فى العـــادة مسيحية ، أما الالقاب فاسماء عائلات قديمة أو مواضع قديمـــة أو حديثة ، وهى ترجع فى العادة إلى أجيال كثيرة سابقة ، ومن ثم فهى تقودنا إلى أصولها .

ويرى د. بيرنيت أن هناك ألقاباً واضحة الطابع العربى مثل Abda و Abden و Albacar و Atalaja ولكن هنـــاك أخرى تحتاج إلى دراسة وتتبع تاريخى وصرفى (فيلولوجى) . وقال أن النتائج التى تخرج بها من دراسة مثل هذه الأدلة تخص باالضرورة طوائف معينة من الاسبان ، وهى طوائف المياسير بين أوساط وأغنياء وكبار الموظفين ، فهؤلاء هم الذين ترد أسماؤهم فى دفاتر التليفونات وسجلات الضرائب والأدلة العامة وتبقى بعد ذلك ملايين كثيرة من الاسبان لهم ألقاب ذات دلالات لغوية كبرى ، ومن هنا فإن الاحصاء الذى بنى عليه د. بيرنيت هذه الدراسة احصاء نسبى .

وعلى هذا الأساس أحصى الألقاب ذات الأصل العربى فى بلاد المرية ومرسية ولقنت وبالمـــا (ميورقة) وبلنسية وقسطليون وطركونه ولاردة ووشقة فكانت نسبتها إلى بقية الألقاب الواردة فى الأدلة والسجلات التى اعتمد عليها تتراوح بين ٥,١ ٪ (المرية) و ١,١ ٪ (فى مدينة لاردة) وقد حرص المؤلف على أن يورد الأرقام الاحصائية الخاصة بالمحافظات إلى جانب نسب المدن .

وبعد أن أتى بجدول مقارن شامل للأرقام أورد أهم الاستنتاجات التى يخرج بها من تلك الأرقام وأهمها :

١ — إن نسبة الألقاب العربية تزداد كلما سرنا من الشمال إلى الجنوب فيما عدا محافظتى لقنت ومرسية .

٢ — فى كل المحافظات المذكورة تزداد نسبة الألقاب العربية الأصل فى الأرياف عنها فى المدن ، فيما عدا بلنسية والبليار ورجح أن السبب فى هذا الاستثناء هو أن نسبة التليفونات إلى السكان فى هاتين المحافظتين أعلا من مثيلاتها فى بقية المحافظات التى درسها ، فهى فى البليار ١ : ١٥ وفى بلنسية ١ : ١٦

٣ — تزداد نسبة تلك الألقاب فى وشقة عنها فى ماردة وذلك لأن عدد أسماء المواضع فى وشقة أعلا منه فى لاردة .

ثم تساءل فى نهاية المقــال عما إذا كانت تلك الألقاب العربية ترجع حقيقة إلى أصول عربية أو بربرية أو مدجنية أو مدريشلية ، ورجح أن يكون ذلك هو الواقع وأتى بأدلة ذلك فى إيجاز معتمداً على دراسات سابقة لباحثين سابقين عليه مثل فادال وجيرالث .

أمبروزيو أويثى ميراندا : ابن جحاف قاضى بلنسية الذى أحرقه السيد حيــاً . إعادة نظر فى الموضوع (ص ١٤٩ — ١٦٧)

فى هذا المقال يحاول الأستاذ أمبروزيو أويثى أن يعيد النظر فى موقف الاستشراق الاسبانى بالذات فى قضية القاضى أبى جعفر أحمد بن جحاف الذى أحرقه السيد القمبيطور أثناء فترة استبداده بأمر بلنسية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى . وقد اقتضاه ذلك ترديد النظر من جديد فى كل ما قام به السيد من أفعال فى بلنسية .

والموضوع قديم يرجع إلى أواخر القرن الماضى عندما اكتشف دوزى نص ابن بسام الذى يدور على السيد ونشره مع مقــال ضاف عن السيد كشف فيه

النقاب عن أعماله ووصفه بأنه محارب مرتزق عمل مع المسلمين وعليهم ثم ، عندما استولى على بلنسية أذاق أهلها الويلات وأحرق القاضى ابن جحاف ونفراً من أهل بلنسية انتقاماً منهم على معارضتهم إياه . ثم جاء العلامة اللغوى الاسبانى مننذذ بيدال فرفع السيد إلى مقـــام الأبطال المثاليين ونفى عنه كل شبهة تهمة أو خطأ ، وقد بهر مننذذ بيدال الناس بعلمه وسعة اطلاعه وحماسه فغلبت نظرته وشاعت بين الناس وأصبحت وجهة النظر هذه هى السائدة على دراسة السيد داخل اسبانيا وخارجها .

وبطبيعة الحال لم تكن الحقيقة كلها عند دوزى أو مننذذ بيدال ، فلم يكن السيد من أهل الحرابة السفاكين كما وصفه دوزى ولا كان هو البطل المثالى الذى صوره العلامة الاسبانى ، بل كان محارباً ماهراً جريئاً ذكياً استطاع أن يبهر عيون الجماهير بأعمال رنانة جعلته بطلا أسطورياً عند القصاصين الشعبيين ، ومن هنا فقد اشتد مع خصومه وجاوز الحد فى معاملتهم فى بلنسية ، وهذا ما قاله ليفى بروفنسال فى مقـــال عن السيد كما يراه التاريخ وما أكدناه نحن فى دراسة عنه نشرناها فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية سنة ١٩٥٠

وأمبروزيو أويثى مؤرخ الموحدين أتيحت له الفرصة للاطلاع على وثائق جديدة ، أهمها الورقات التى عثرنا عليها من كلام ابن عذارى عن المرابطين ، وقد نشرها ليفى بروفنسال فى مقال مشهور عن استيلاء السيد على بلنسية نشره فى مجلة الأندلس . ولكن أويثى فى دراسته هنا يسلك مسلكاً جديداً ويقول إن ابن جحاف كان الرئيس الشرعى لأهل بلنسية ، فقد انتخبه أهلها ووكلوا إليه أمرها فى ظروف تلاشت معها سلطة الدولة العامة ، وإذن فقد كان من واجبه الدفاع عن البلد حتى تظهر سلطة شرعية عامة أخرى تتولى الأمر عنه . وهنا لا نتعرض لمسألة كفاية ابن جحاف أو عدم كفايته ، فهذا موضوع آخر ولا نتعرض كذلك لتصرفاته ، لأن الذى يهمنا هنا هو حقيقة مركز الرجل .

والسيد فى هذه الحالة معتد على بلنسية فليس له أى حق فى الاستيلاء عليها ، فهو لم يكن أميراً ولا ملكاً ولا صاحب حق ، وإنما هو محارب يستغل ما لديه من قوة عسكرية فى أخذ ما ليس له حق فيه ، ثم أنه كان على خلاف مع ملك قشتالة وهذا لا يجعل له أى سبيل إلى الاستيلاء على بلاد وحكمها .

وتتبع الأستاذ أويثى علاقات السيد بابن جحاف ودلل على أن المحارب القشتالى خدع هذا الشيخ المسكين واستغل ضعفه وافتقاره إلى قوة عسكرية تسنده لكى يحصل منه على ما يريد خاصة وقد تأخر المرابطون عن إغاثته .

وقد تناول أمبروزيو أويثى الأساطير التى قبلها مننذ بيدال ليزيد من عظمة السيد مثل عقد زبيدة الذى يقال أنه وصل إلى السيد ولبسته زوجته شيمانه . وختم مقاله بخلاصة أوجز فيها رأيه الذى ذكرناه فى الموضوع .

دافيد جنذالو مايسو : العرب أساتذة اليهود فى
اسبانيا فى العصور الوسطى (ص ١٦٩ — ١٧٩)

ألقى د. جنذالو مايسو أستاذ الدراسات العبرية بجامعة غرناطة هذه المحاضرة فى الدورة الأولى للجلسات العلمية الأندلسية فى غرناطة سنة ١٩٦٢ وهو لهذا يبدأ بتحية العلماء المشتركين فى هذه الدورة ثم انتقل إلى موضوعه فبدأ بعبارة لمننذ بيلايو تشير إلى فضل العرب على العلوم وعلى النهضة الأوروبية بصورة ملتوية تدلنا بوضوح على موقف هذا العلامة الاسبانى من العرب وحضارتهم وهو موقف تشدد وانكار . وفى هذه العبارة تقرير لدور اليهود فى نقل حضارة العرب إلى غيرهم من الأمم .

ومن هنا ينتقل جنذالو مايسو إلى الأدب العبرى فيقول أنه أدب غزير يتكون تياره من روافد متعددة ، وأعظم هذه الروافد هو العربى ، بل أن العصر الذهبى الحق للأدب العبرى كان على أيام العرب وفى الأندلس بالذات ، ومن هنا كان العرب — أساتذة اليهود — بالفعل أساتذة اليهود قاطبة .

ويبدو فضل العرب على اليهود أولا فى اللغة والبلاغة ثم فى الشعر ، فقد كتب اليهود فى الأندلس نحو لغتهم وبلاغتهم على مثال النحو العربى وعلم البلاغة العربية . ووضعوا كذلك أوزان شعرهم على بحور الشعر العربى ، وألفوا كتباً فى الأدب يحاكون فيها مؤلفات العرب فى الأدب . ثم أتى بنص أورده موسى ابن عزرا فى كتابه المسمى « المحاضرة والمذاكرة » ولا زال مخطوطـاً بمكتبة أوكسفورد يعترف فيه بأن اليهود تعاموا على أيدى العرب وقلدوا قوالبهم الفنية وساروا على أثر خطاهم فى ميدان العلوم .

ثم تكلم عن حسداى بن شبروط اليهودى الأندلسى العربى الذى كان وزيراً لعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم وما قام به للنهوض بالآداب العبرية فى الأندلس وأتى بترجمة أبيـات من شعر المديح وجهها إليه موسى بن عزرا فيقول فيها أن حسداى أيقظ الفكر العبرى بعد طول سبات . وعلق جنذالو مايسو على ذلك بقوله إن ذلك السبات طال مئات السنين إذ أنه بدأ بعد عهد النبى سليمان فى القرن العاشر قبل الميلاد . فكان العرب هم أصحاب الفضل الوحيد فى انهاض الفكر اليهودى ثم أورد بعد ذلك فقرة أخرى لموسى بن عزرا فقرر امتياز العرب وعبقرية لغتهم وتفوقهم الفكرى فى كل ميدان .

ثم قال إن الفكر اليهودى عندما استيقظ بعد طول ركود كان عاجزاً عن إحياء اللغة العبرية لأنها لم تعد صالحة لمطالب الحياة فى العصور الوسطى ، ولهذا فقد كانت المشكلة التى واجهت يهود الأندلس هى : هل يعملون على بعث لغتهم أو يتركوها ويتخذوا العربية . وقد اتبع اليهود السبل الأولى أولا ثم

الثانية ، وفى بعض الأحيـان ساروا عليهما معاً . وخلال قرون كثيرة كانت العربية اللغة الرسمية لليهود فى اسبانيا والشرق كله ولا غرابة فى ذلك فقد استعربوا تماماً .

وليس معنى ذلك أن اللغة العبرية كانت قد نسيت تماماً ولكنها كانت قد انزوت منذ الأسر البابلى فى القرن السادس قبل الميـلاد وحلت محلها الآرامية . وفى أيام العرب انتعشت بعض الشيء ولكنها ظلت قاصرة على بيوت العبادة .

وقد بدأت حركة إحياء العبرية باحيـاء نحوها ، وهى ظاهرة غريبة لأن العادة أن يبدأ الاحياء والنهوض بالشعر والنثر ، ثم يكون وضع النحو بعد ذلك .

ثم تتبع حركة نهوض العبرية والفكر اليهودى الأندلسى بفضل العرب وتسامحهم وعلومهم ، وهو تاريخ معروف قصه الأستاذ جونذالو مايسو بتفصيل فى كتابه عن تاريخ الفكر العبرى وأوردناه كذلك فى تاريخ الفكر الأندلسى . ووقف طويلا بمؤلفات اليهود فى باب الأدب لأنهـا كلها تسير على نفس طريقة كتب الأدب العربى مثـل الكامل للمبرد او العقد لابن عبد ربه وكذلك فن المقامات وقد أجاد فيها سلومون الحريزى مترجم مقامات الحريرى إلى العبرية .

وختم المقال قائلا إنه لولا الفكر العربى ما كان هناك شىء يسمى الفكر اليهودى ، ولولا رجال مثـل أبى بكر الزبيدى والأعلم الشنتمرى وأبى على الشلوبين ما كان هناك أمثال مناحم بن سروق أو دوناس بن لبراط ولا أبى زكريا داوود حيوج ولا يوحنا بن جناح أو ابراهيم بن عزرا أو مبذ القمحى . ولولا ابن رشد وابن طفيل ما كان هناك موسى بن ميمون الذى لا يكف اليهود عن الفخر به .

خادو سلاف ستتكيفتش : مشاكل النثر العربى
الحديث وظواهره (ص ١٨١ — ٢٠٨)

بعد مدخل عن نشأة النثر فى الأدب العالمى بصورة عامة ومناقشة الآراء الخاصة بسبق الشعر عليه فى الظهور ، ومن بينها آراء فى هذا المعنى لطه حسين واعتراض عمر الدسوقى عليها تحدث ستتكيفتش عن نشأة النثر فى الأدب العربى وأتى برأى قال به أحمد أمين فى فجر الإسلام عن غلبة الملكة اللغوية على الملكة التفكيرية عند العرب وولع العرب بجرس اللغة ورنينها دون ما تضمه من المعانى والأفكار . وأشار إلى القرآن الكريم كأول صورة لدينا من النثر العربى وتحدث عن مفهوم بلاغة القرآن : واعجاز القرآن عند مؤرخى الأدب العربى وقال إن أولئك المؤرخين لم يتبينوا من هاتين الناحيتين إلا ما يتصل بالبلاغة اللفظية والصور الفنية المفردة ، وقال إن الكتاب الكريم لم يصبح مصدر الهام أدبى وفنى إلا فى العصر الحديث فظهرت كتب مثل الأدب القصصى عند العرب لموسى سليمان (بيروت ١٩٥٦) والفن القصصى فى القرآن الكريم لمحمد أحمد خلف الله واقتبس توفيق الحكيم أهل الكهف من السورة القرآنية المعروفة .

ثم تساءل بعد ذلك : ما هو أصل النثر العربى الحديث وأجاب أن الأصل هو الصحافة والترجمة ومطالب الحياة الحديثة ، وأن النثر الحديث لهذا صنع صنعاً كأنما ركب فى معمل . وهذا المعمل كان صحافة القرن التاسع عشر ، وأن هذا القرن لم يظهر فيه ناثر عربى واحد عبقرى يستطيع أن يعطى هذا النثر الوليد طابعه المميز مرة واحدة ، وفى هذا المجال نلاحظ أثر الصحافة . فقد اجتذبت أهل الفكر والأدب بسرعة صدور من يكتب فيها وتداوله . لقد اشتغل فيها أدباء العربية المحدثون جميعاً ، ولهذا فقد سميناها المعمل الذى تطورت فيه اللغة ، ونرى مثالا واضحاً من أثرها عند الشدياق وصحيفته الجوائب .

وهذا الأدب الصحفي هو الذى قضى على القوالب القديمـــة من سجع ومحسنات ، لأن ذلك لا يتفق مع طبيعة النثر الصحفي . وقد التفت الكتاب فى أثناء ذلك إلى النماذج الدقيقة للأدب العربى القديم من أمثال ترجمة كليلة ودمنة وكتاب البخلاء للجاحظ ومقدمة ابن خلدون . وقال أن ابن المقفع اجتذب الناس لأنه اشتهر كمترجم وكانت الترجمة من النواحى الهامة للنشاط الفكرى والتفتوا إلى الجاحظ فى الانشاء البليغ وإلى ابن خلدون ككاتب اجتماعى يكتب عن قضايا مماثلة لما كان الناس يعالجونه إذ ذاك .

ثم عرض الكاتب مشكلة الفصحى والعامية وما دار من نقاش بين الكتاب من أوائل القرن إلى ما بين الحربين واعتمد هنا على كتاب معروف لمحمود تيمور عنوانه مشكلة اللغة العربية وأشار إلى ما نزع إليه بعض الكتاب إلى العامية مثل يعقوب صنوع وعثمان جلال وتحدث عن الفارق البعيد فى رأيه بين الفصيحة والعامية وشرح صعوبة الكتابة الفصحى سواء فى القصص أو المسرح .

وتكلم بعد ذلك عن الترجمة فى القصص خاصة وتحدث عن عثمان جلال وطريقته فى الترجمة وذكر ما ترجم من اسكندر دوماس ووالتر سكوت وذكر لهذه المناسبة نجيب الحداد وسليمان البستانى .

وتحدث على الأسلوب القصصى بادئاً بالكلام على قصة زينب وعرض آراء محمود حامد شوكت فى كتابه عن الفن القصصى فى الأدب المصرى الحديث وآراء اسماعيل أدهم فى كتابه عن توفيق الحكيم ومحمود تيمور فى كتابه المسمى فن القصص وتوفيق الحكيم فى كتابه تحت شمس الفكر .

وبعد ذلك عاد إلى الوراء ليتبع تطور النثر بعد ما درس مشاكله فتكلم عن أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ — ١٨٨٧) وقال إن شخصيته تطغى على النثر العربى فى القرن التاسع عشر وتحدث عنه فى تفصيل وكذلك فعل مع جورجى زيدان وخصائصه كقصاص وجبران خليل جبران (١٨٨٣ — ١٩٣١) ومحمد

حسين هيكل وذكر بعد ذلك طه حسين وعباس محمود العقاد وميخائيل نعيمة ووقف طويلا عند عودة الروح ويوميات نائب فى الأرياف .

وتكلم كذلك على أدب المقالة الصحفية وغير الصحفية وهنـا أيضاً تحدث عن محمد حسين هيكل بسبب كتابه المسمى ثورة الأدب بصفة خاصة وتكلم عن مؤلفات أخرى له مثـل « جان جاك روسو » و «أوقات الفراغ» الذى يتحدث عن تطور الأدب العربى الحديث من أيام الثورة العرابية وكذلك ذكر كتب طـه حسين الخاصة بالنقد الأدبى أو تاريخ الآداب مثل « من حديث الشعر والنثر وحديث الأربعاء » وكذلك فعـل مع المازنى فتكلم عن صندوق الدنيا وقبض الريح وخيوط العنكبوت ، ثم انتقـل إلى عباس محمود العقاد وميخائل نعيمه وتوفيق الحكيم وذكر بصفة خاصة كتاب التعادلية ومذهبى فى الحياة والفن ، ولطفى السيد وأحمد أمين ومارون عبود .

وبذلك تكون هذه المقالة عرضاً عاماً ممتعاً وشاملا لنشوء النثر العربى وتطوره فى العصر الحديث .

الدكتور أحمد مختار العبـادى : محمد الغنى بالله ملك غرناطة (ص ٢٠٩ — ٣٢٧)

يعتبر عهد محمد الخامس ، العهد الذى بلغت فيه الدولة النصرية أوج قوتها ، والحضارة الغرناطية أبهى مظاهرها وقد ترك لنـا ابن الخطيب معاون هذا السلطان ومعاصره عنه فى مؤلفاته أخبـاراً ومعلومات كثيرة ، وكذلك فعل المؤلفون اللاحقون القريبون من عصره .

وهو خامس السلاطين الذين يحملون اسم محمد . وقد ولد فى ٢٢ جمادى الثانية سنة ٧٣٩ هـ/١٣٣٨ م. وجلس على العرش بعد أبيه أبى الحجاج يوسف .

وعزل لأول مرة فى سنة ١٣٥٩ م. وعاد من منفاه بالمغرب إلى ولاية العرش فى سنة ١٣٦٢ ، ثم توفى فى سنة ٧٩٣ هـ/١٣٩١ م.

ولم يكن «الغنى بالله» لقبه منذ البداية ، ولكنه اتخذه عقب انتصاراته الحربية فى سنة ٧٦٨ هـ/١٣٦٧ م وكانت شبه الجزيرة الاسبانية تنقسم فى عهده إلى خمس ممالك هى قشتالة وأراجون ونبره والبرتغال وغرناطة ويحدثنا المؤلف بعد ذلك عن نشأة مملكة قشتالة ومعالمها الجغرافية ، ثم عن أراجون ونبرة والبرتغال . ثم يعطف على مملكة غرناطة ، وما كان من نزوح أهل الأندلس إليها ، وشعورهم بالقلق وعدم الاستقرار ، وما كان يتنبأ به مفكرون مثل ابن خلدون وابن الخطيب عن مصير غرناطة المحتوم .

وكانت قشتالة ألد وأقوى أعداء غرناطة ، وكانت غرناطة فى سبيل المحافظة على حياتها ووجودها تخضع لمطالب قشتالة من دفع الجزية وغيرها ، وكانت من جهة أخرى تلجأ إلى الاستنصار بابناء الشواطئ المغربية ، والى محالفة بنى مرين .

الحوادث التاريخية التى سبقت حكم محمد الخامس

كانت موقعة العقاب (١٢١٢ م.) ضربة قاصمة لسلطان الموحدين فى شبه الجزيرة ، وقد فتحت لخلفاء الفونسو الثامن أبواب الأندلس من ناحية الوادى الكبير ، فعكفوا على التقدم إلى داخلها دون صعاب .

ولما انهار سلطان الموحدين بالأندلس ، قامت حكومات أندلسية مستقلة جديدة ، وغلب محمد بن الأحمر على بسطة ووادى آش وغرناطة ، ثم نقل مقر حكمه إلى غرناطة فى سنة ١٢٣٨ م. وقامت بذلك مملكة غرناطة .

وشغل القشتاليون عن غرناطة مدى حين ، فتوطدت قوتها ، وتحالفت مع بنى مرين ملوك المغرب ، فكان ذلك عاملا فى ثباتها وتأخير دور انحلالها .

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن أخبار خلفاء محمد بن الأحمر ، منذ محمد الثانى الملقب بالفقيه ، وعن الحرب الأهلية التى نشبت فى المغرب بين أمراء بنى مرين ، وعن محاولة أراجون وقشتالة غزو المرية والجزيرة . ثم يحدثنا عن محمد الثالث ، وأحداث عهده ، وعن فشل الأرجونيين والقشتاليين فى الاستيلاء على المرية والجزيرة ، وما عقد عندئذ من علائق السلم بين غرناطة وأراجون . ويتناول بعد ذلك عهد السلطان أبى الوليد اسماعيل ، وما وقع فيه من هزيمة ساحقة للقشتاليين ومصرع الوصيين على الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة ، واضطرار قشتالة إلى عقد الصلح مع غرناطة وما حدث بعد ذلك داخل قشتالة من نزاع على مسألة الوصاية ، وانتهاز السلطان اسماعيل هذه الفرصة لافتتـاح عدة مواقع فى مناطق بسطة واشكر ومرتش . وينوه المؤلف بمـا حدث فى حصار أشكر من استعمال المسلمين لآلة تشبه المدفع ، وذلك حسبما يحدثنا ابن الخطيب ، وهو أقدم تاريخ ينسب إلى استعمال هذه الآلات القاذفة .

وتوفى السلطان اسماعيل قتيلا فى سنة ١٣٢٥ م. وخلفه ولده محمد الرابع ، ثم توفى قتيـلا بعد أحداث حربية عديدة ، وخلفه ولده أبو الحجاج يوسف الأول فى سنة ٧٣٣ هـ/١٣٣٧ م.

وفى عهد السلطان أبى الحجاج جددت علائق السلم مع أراجون ، وعقد بين المملكتين معاهدة صداقة وسلام . وهنا يحدثنا المؤلف عن موقعة طريف البحرية التى وقعت بين قشتالة وغرناطة وحليفهما السلطان أبى الحسن المرينى ، وما أصاب المسلمين فيها من هزيمة شديدة ، وذلك فى سنة ٧٤١ هـ/١٣٤٠ م. ويورد لنا ما يقوله ابن الخطيب فى شرح أسباب هذه الهزيمة ، وما تلا ذلك من استيلاء القشتاليين على ثغر الجزيرة الخضراء ، وذلك فى سنة ٧٤٣ هـ/١٣٤٣ م. وعلى ذلك عقد الفريقان السلم والهدنة مرة أخرى . ولكن الفونسو التاسع ملك قشتالة قام بالرغم من ذلك بمحاصرة جبل طارق يريد الاستيلاء عليها ، ولكنه توفى تحت أسوارها بالوباء ، ورفع الحصار (٧٥١ هـ/١٣٢٠ م) .

وحدث بعد ذلك أن ساءت العلائق بين يوسف سلطان غرناطة ، وبين أبى عنان سلطان المغرب وذلك لحماية السلطان يوسف لاخوة السلطان أبى عنان اللاجئين إلى الأندلس ، وترتب على ذلك أن حاول كل فريق أن يحالف قشتالة ضد الآخر ، وتوفى السلطان أبو الحجاج يوسف قتيـــلا فى يوم عيد الفطر سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٤ م. فخلفه ولده أبو عبد الله محمد خامس السلاطين بهذا الاسم .

الحقبة الأولى من حكم محمد الخامس

بدأ محمد الخامس حكمه ، والأحوال فى قشتالة غير مستقرة ، وفى أراجون تدور الحرب الأهلية وقضى خمسة أعوام فى سلم وهدوء بمعاونة وزيره الحاجب رضوان النصرى ، ومعاونه الوزير ابن الخطيب ، وقد حظى بثقته ، وآثره بالمشاركة فى تدبير شئون الملك ، ومن ذلك الحين تدخل مملكة غرناطة فى مرحلة توطد ورخاء .

وعقد الغنى بالله معاهدة صداقة ومهادنة مع كل من قشتالة وأراجون ، وبعث وزيره ابن الخطيب سفيراً عنه إلى السلطان أبى عنان . والقى الخطيب بين يدى السلطان قصيدته المشهورة — وحظى باعجابه وعطفه — ووعده بتحقيق مطالب سلطانه .

ولكن العلائق لم تكن مع ذلك على صفائها بين غرناطة وأبى عنان ، إذ كان بلاط غرناطة يشك فى اطماع أبى عنان فى ملك الأندلس ؛ وعلى أى حال فان مثل هذه المشاريع تحطمت بوفاة السلطان أبى عنان فى سنة ٧٥٩ هـ/١٣٥٨ م. وقامت على أثر وفاته حرب أهلية حول العرش ، وانتهى الأمر بجلوس أخيه السلطان أبى سالم على العرش ، وذلك فى سنة ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ م. وفى الحال بعث أبو سالم سفراء إلى غرناطة لتجديد علائق المودة والصداقة ، وعقدت بذلك بين المملكتين أواصر صداقة متينة .

ووقعت فى هذه الاثناء حرب بين قشتالة وأراجون ، وساعد فيها الغنى بالله ملك قشتالة بثلاث سفن مسلحة برجالها وعتادها .

ولم يمض قليـــل على ذلك حتى وقعت فى غرناطة مؤامرة دبرها اسماعيل أخو السلطان بمساعدة الرئيس أبى سعيد لانتزاع العرش . ونجح المشروع ، وفى ليلة من ليالى رمضان سنة ٧٦٠ هـ. استطاع المتآمرون الاستيلاء على قصر الحمراء وقتلوا الحاجب رضوان وآله ، واعلنوا اسماعيل ملكاً مكان أخيه ، وكان محمد غائبـاً عن القصر يقيم على مقربة من الحمراء فى قصر جنة العريف ، فلما علم بما حدث فر ناجياً بحياته إلى وادى آش ، وحاول عبثاً أن يستنجد بملك قشتالة فاتجه عندئذ إلى الضفة الأخرى من البحر . وكان السلطان أبو سالم قبـــل جلوسه على عرش المغرب ، يقيم منفياً فى غرناطة تحت كنف محمد ورعايته ، فرعى له عندئذ حق الصداقة ، وبعث إلى غرناطة سفيراً ليسعى فى إجازة الملك المخلوع ، ووزيره ابن الخطيب ، وكان معتقلا فأفرج عنه ، وانضم إلى مليكه فى وادى آش . وعبر محمد ووزيره البحر إلى المغرب ، ووصلا إلى فاس فى المحرم سنة ٧٦١ هـ/ اكتوبر ١٣٥٩ م ، واستقبلهما السلطان أبو سالم فى حفل مشهود ، وأنشد ابن الخطيب بين يديه قصيدة عصماء يلتمس فيها نصرة سلطانه .

وفى أثناء ذلك ، كانت الأحوال فى غرناطة فى ظل الحكم الجديد قد اضطربت ، وفر كثير من الأكابر والرؤساء ، وعبر بعضهم الحدود إلى قشتالة ، وعبر البعض الآخر البحر إلى المغرب . وكذلك غادر غرناطة كثير من الأدباء والكتاب الذين لم يرق لهم الحكم الجديد .

وعكف ابن الخطيب فى منفـــاه على الكتابة . وكتب خلال هذه الفترة عدة من كتبه . فكتب كتاب « اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية » وكتاب « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » ، وفيه يقص علينا أخبار طوافه بمدن المغرب ، ثم إقامته بسلا ، كما يقص علينا حادث وفاة زوجته ، وما أصابه من جراء ذلك من الألم والأسى .

وكتب ابن الخطيب غير ذلك عدة كتب ورسائل أخرى ، يذكرها المؤلف ويتناولها بالوصف والتفصيل .

أما السلطان محمد فقد لبث فى منفاه يدبر الخطط لاسترداد عرشه ، ويتابع الأحوال فى غرناطة . ولم يمضى سوى قليل حتى تمخضت الأحداث فى الأندلس عن تحرك ملك قشتالة ضد غرناطة ، وذلك تنفيذاً لما عاهد عليه محمد الخامس من مساعدته على استرداد عرشه . واعتزم محمد عندئذ مغادرة فاس ، وخرج منها فى ركب فخم شيعه السلطان أبو سالم ، وعبر من سبتة إلى جبل طارق ، وسار إلى مقابلة بيدرو الأول ملك قشتالة ومعه بعض كبرائه ، فاستقبله بترحاب ، وزاده بالمال ، وكرر وعده بمعاونته على استرداد عرشه دون أية مطالب يفرضها عليه . فعاد محمد إلى رندة ، وزوده السلطان أبو سالم وملك قشتالة كل بعدة من السفن لتحرس شواطئ غرناطة ، ثم خرج محمد من رندة فى صحبته واستولى فى طريقه على انتقيرة ، وهنالك وصلته الأنباء بمصرع السلطان أبى سالم وتلقت السفن المغربية أوامر العودة إلى قواعدها .

ولكن محمد استمر فى جهوده ، واستولى على مالقة أهم ثغور غرناطة ، وفى أثناء ذلك شعر سلطان غرناطة المغتصب باعراض الثورة تضطرم ، وبملك قشتالة يرهقه بالزحف على أراضى غرناطة ، ففر منها وقصد إلى بيدرو الأول ملك قشتالة يلتمس إليه الانضواء تحت حمايته ، ولكن ملك قشتالة أمر باعتقاله وقتله ، فقتل فى طلياطة ، وفى أثناء ذلك دخل محمد الخامس غرناطة ، واستقر على عرشها مرة أخرى ، وكان ذلك فى ٢٠ جمادى الثانية سنة ٧٩٣ الموافق مارس سنة ١٣٦٢

الحقبة الثانية من حكم محمد الخامس

كانت خطة محمد الخامس حين عوده إلى العرش أن يعمل لعقد الصداقة مع قشتالة . وأن يخضع علائقه مع أراجون لسير العلائق بين قشالة وأراجون ،

وأن يقوى أسطوله لكى يحتاط ضد أى غزو يحاوله ملك المغرب الجديد ، وأن يوطد صداقته مع أمير تلمسان ، وأن يقيم العلائق مع تونس ومصر .

وأبدى محمد الخامس ، منذ بداية حكمه الجديد ، صداقته نحو قشتالة فى سائر تصرفاته ، ولكنه اتخذ موقف التريث نحو أراجون . وفى هذه السنة بالذات (سنة ١٣٦٢) قامت الحرب بين قشتالة وأراجون ، وذلك لأن هنرى دى ترāستمارا وهو الأخ غير الشرعى لملك قشتالة بيدرو الأول ، عبر أراجون لمحاربة أخيه ، وعقد بيدرو حلفا مع انجلترا ونبره لمقاومة الأخ الدعى ، وتحالف ملك أراجون مع أمير تلمسان ، وأرسل إليه هذا الأمير ألف فارس ؛ وحاول فى نفس الوقت أن يتقرب من غرناطة والمغرب . ولكن محاولته لم تفلح لدى غرناطة ، لمـا كان يربط محمد الخامس ، بقشتالة والمغرب من أواصر الصداقة والتحالف . ولمـا نشبت الحرب بين أراجون وقشتالة بعث محمد الخامس بفرقة قوامها ستمائة فارس لمعاونة بيدرو الأول واشتركت هذه الفرقة فى حصار طرسونة وفى حصار بلنسية وذلك فى سنة ١٣٦٣

ويتحدث المؤلف بعد ذلك طويلا عن أحداث الحرب التى نشبت بين ملك قشتالة بيدرو الأول وأخيه هنرى (انريكى) دى ترāستمارا . وكان هنرى قد جمع جيشاً من المتطوعة الانجليز والفرنسيين والألمان وغيرهم . وعاد محمد الخامس فأرسل إلى بيدرو فرقة الستمائة فارس معاونة له ، ولكن الدائرة كانت على بيدرو ، وشعر أنه عاجز عن مقاومة خصومه ، ففر إلى البرتغال ، ويقص علينا ابن الخطيب حوادث هذه الحرب الأهلية بين ملك قشتالة وأخيه فى تفصيل دقيق .

وكان محمد الخامس يدرك عواقب هذه التطورات بالنسبة لمصير غرناطة . وقد بعث إلى ملوك المغرب يشرح له خطة البـابا «كبير النصرانية» فى حشد القوات للمحاربة مع هنرى دى ترāستمارا ، حتى إذا تم له الاستيلاء على قشتالة اتحد مع أراجون على غزو مملكة غرناطة . وبادر محمد كذلك باعلام شعبه ،

وحثه على يد وزيره ابن الخطيب على النهوض والمبـادرة إلى الجهاد ضد النصارى . وبعث إلى زملائه ملوك المغرب يطلب العون والانجاد ، وقد اسعفه أمير تلمسان بارسال الأموال ، ووعد فاس بمعاونة أسطوله . وقام محمد فى الوقت نفسه بالزحف على أراضى قشتالة ، لينتزع بعض المواقع الاستراتيجية (سنة ٧٦٧ هـ/١٣٦٦ م) ، واستولى على حصن اللوز بعد معركة عنيفة ، ثم استولى بعد ذلك على بلدة السهل قرب جبل طارق بيد أن محمد الخامس رأى أن يتقى الخطر بالتفاهم مع ملك قشتالة الجديد ومسالمته ، فبعث إليه يطلب المهادنة ، فأجابه الملك هنرى إلى رغبته . ومن جهة أخرى فقد سعى محمد إلى عقد الهدنة مع بيدرو الرابع ملك أراجون ، وعقدت بالفعل بينهما الهدنة لمدة أربعة أعوام (مارس سنة ١٣٦٧) ، ولكنها لم تنفذ بين البلدين بما يجب من الدقة ، وكان رعايا كل منهما يرتكب ضد الآخر بعض أعمال القرصنة .

وعقد بيدرو الأول ملك قشتالة المعزول حلفـاً مع ولى عهد انجلترا الملقب بالأمير الأسود ، وقاد معه حملة خلال نبرة ، وحارب أخيه هنرى مرة أخرى ، وهزمه فى موقعة ناجدة ، وذلك فى ابريل سنة ١٣٦٧ ، وفى خلال ذلك انتهز محمد الفرصة وغزا بلدة اطريرة على مقربة من اشبيليـة ، وعات فى أحوازها ، وأسر جموعاً كبيرة من أهلها .

ولما عاد بيدرو الأول على العرش بانتصاره على أخيه سعى لدى محمد إلى عقد التحالف القديم ؛ ورأى محمد أن يجيبه إلى طلبه خوفاً من تحالف القوى النصرانية ضده ، وهكذا عادت الصداقة بين الملكين . وكتب ملك قشتالة بهذه المناسبة خطاباً إلى الوزير ابن الخطيب يشرح له تفاصيل نصره ، فرد عليه ابن الخطيب بكتاب ينصحه فيه بأن يحذر دسائس بطانته ومن حوله ، احتفاظاً بالسكينة والسلم ، وابن الخطيب يقص علينا فى الواقع تفاصيل معركة ناجدة بدقة شاهد العيان .

وعاد هنرى دى ترا ستمارا إلى استئناف الصراع مع جيش من حلفائه الفرنسيين ومحاربة أخيه مرة أخرى ، واضطربت الأحوال فى قشتالة ، وثارت معظم المدن فى وجه بيدرو ، فبعث إلى محمد الخامس يطلب العون ، ولكن محمد رأى بالعكس أن ينتهز الفرصة للأغارة على أراضى قشتالة ، وتكررت جهوده فى هذا السبيل ، وكان يقود قواته بنفسه فى كل مرة . ووقعت هذه الغارات على جيان وأبدة وباغاة . وعلى أثر هذه الوقائع ، اتخذ محمد لقب « الغالب بالله » .

واستمرت الحرب بين هنرى وأخيه . وطلب بيدرو من محمد أن يعاونه على افتتاح قرطبة ، وفى بعض الروايات أن ملك قشتالة وعده بامتلاكها إذا فتحت . فنزل محمد عند هذه الرغبة ، وقاد حملة قوية إلى عاصمة الخلافة القديمة ، يقدرها البعض بنحو خمسة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل . ويقدرها البعض الآخر بأكثر من ذلك . وهاجمت القوات المشتركة قرطبة ، ووقعت بينها وبين القرطبين معركة دامية ، ردوا على أثرها عن المدينة (سنة ١٣٦٨) . وتعلل الرواية ارتداد القوات الغرناطية عن قرطبة بشدة المقاومة ، وهطل الأمطار الغزيرة ، وفيظان النهر . وهاجم محمد خلال عود قلعة اندوجر القريبة . ومن المفهوم أن كل هذه الغارات القوية التى شنها محمد الخامس على أراضى قشتالة كانت بموافقة بيدرو الأول .

وحدثت بعد ذلك تطورات جديدة حاسمة فى الحرب بين بيدرو الأول وأخيه هنرى ، فقد قاد هنرى جيشه صوب طليطلة ، وحاول بيدرو لقاءه ، وعاونه محمد بفرقة كبيرة من فرسانه ، ولكن رجحت كفة هنرى ، وهزم بيدرو أمام حصن مونتيل ، وأسر وقتل وذلك فى يوم ٢٢ مارس سنة ١٣٦٩

وكان مصرع بيدرو الأول ضربة لمحمد الخامس ، لما كان بينهما من صداقة وتحالف ، ولكن محمدا لم يرعه تطور الأحوال على هذا النحو ، بل انتهز فرصة انشغال الملك الجديد ، وقام بعدة غارات جديدة فى أراضى قشتالة ،

لكى ينتزع من ورائها بعض النقط والمواقع الاستراتيجية (ابريل سنة ١٣٦٩) وفضلا عن ذلك فإن ملك قشتالة الجديد هنرى (انريكى) الثانى قد شغل نفسه بالحرب مع نبرة وأراجون والبرتغال ، وحاول هنرى أن يعقد الهدنة والحلف مع محمد ، ولكن محمدا آثر أن يتجه إلى محالفة أعداء قشتالة ، أراجون والبرتغال ، فعقد مع كل منهما حلفاً ، صادق عليه ، وشارك فيه ملك المغرب المرينى .

وفى أثناء ذلك غزا محمد ثغر الجزيرة بمعاونة ملك البرتغال ، وشاركت السفن المرينية فى حصار الجزيرة ، وسقط الثغر فى يد المسلمين فى ٢٣ ذى الحجة سنة ٧٧٠ هـ (٢٨ يوليو سنة ١٣٦٩) ، وقام محمد بتخريب هذا الثغر تخريباً تاماً ، حتى إذا وقع ثانية فى يد أعدائه ، لم يترتب على سقوطه اذى .

وعاد محمد فغزا أشونة من أحواز اشبيلية لكى يرغم القشتاليين على ترك حصار قرمونة التى كان يمتنع بها أبناء صديقه الملك بيدرو المتوفى ، ثم غزا من بعدها مرشانة ، وحصل على غنائم لا تحصى .

وجدد التحالف بين أراجون وغرناطة وفاس بمعاهدة جديدة ، اتفق الجميع فيها على أن لا يقدم منهم أية معاونة إلى ملك قشتالة . واتجه هنرى ملك قشتالة من جهة أخرى إلى عقد الصلح والتهادن مع غرناطة ، وبعث رسله إلى محمد ، وانتهى الأمر بعقد هدنة بين غرناطة وفاس وقشتالة امدها ثمانية أعوام .

وعلى أثر ذلك ، شعر الوزير ابن الخطيب أنه قد تم بذلك تأمين غرناطة من خطر أعدائها ، واعتزم مغادرة البلاد ، فغادر الأندلس فى سنة ٧٧٣ هـ إلى المغرب . وهنالك ، وبعد ثلاثة أعوام فقط توفى قتيـلا بعد أحداث وتطورات جمة . وكان فقد ابن الخطيب على هذا النحو خسارة فادحة ، إذ انقطعت بموته أصول المصدر العربى الوحيد لدراسة عهد محمد الخامس ودراسة العلاقات القشتالية الغرناطية .

وتوفى هنرى الثانى ملك قشتالة فى سنة ١٣٧٩ ، والظاهر أن الهدنة التى كانت معقودة بين قشتالة وغرناطة ، قد نقضت على أثر موته ، إذ أن بعض السرايا الغرناطية قد اغارت على بلدة قيجاطة ، وحصلت على اسرى واسرابا من الماشية ، واغارت القوات القشتالية من جهة أخرى ، على الأراضى الغرناطية على أن هذا القطع فى علائق البلدين لم يدم طويلا ، لأن ملك قشتالة الجديد خوان الأول ، رأى لانشغاله بالحرب ضد انجلترا والبرتغال ، أن يعقد السلم مع غرناطة ، وانتهز ملك غرناطة فرصة الهدوء والسلم ، فعكف على تحصين أطراف بلاده ، سواء فى البر أو البحر .

وفيما يتعلق بالعلائق بين غرناطة وأراجون ، فإنه بالرغم من المعاهدات المعقودة بينهما ، كانت أعمال القرصنة من الجانبين ، تحدث من آن لاخر ، وقد تبادل الملكان فى ذلك مراسلات عديدة تحتفظ بها محفوظات التاج الأرجونى وانتهى الأمر بأن عقدا معاهدة جديدة فى شهر يونيو سنة ١٣٧٥ ، ثم جرت المفاوضات بينهما ثانية لعقد معاهدة سلم جديدة ، وبعد مفاوضات طويلة ، عقدت المعـاهدة ، المنشودة ، وذلك فى شهر مايو سنة ١٣٧٦ ، ومدتها خمسة أعوام . وبعد انتهائها فى سنة ١٣٨٢ ، تم تجديدها لمـدة خمسة أعوام أخرى .

ولما توفى بيدرو الرابع فى ٥ يناير سنة ١٣٨٧ ، بعث محمد الخامس إلى ولده وخلفه خوان الأول ، يعزيه ، ويهنئه فى نفس الوقت بارتقاء العرش ، وبعث خوان إلى سلطان غرناطة يؤكد له أنه سوف يسير على سياسة والده السلمية .

سياسة محمد الخامس الافريقية

كانت سياسة بنى مرين قائمـة على الاستمرار فى انجاد جزيرة الأندلس ونصرتها ضد النصارى ، جارياً على سنن المرابطين والموحدين من قبلهم ، وترتب

على سياسة بنى مرين فى المشاركة فى شئون الأندلس ، أن سيطروا على مضيق جبل طارق ، وذلك باحتلال بعض المواقع الثغور الجنوبية مثل رندة وجبـل طارق وطريف والجزيرة .

وكان بنو الأحمر من جانبهم يخشون عواقب هذا التدخل من جانب بنى مرين . وبالرغم من رغبتهم وترحيبهم بالمعاونة العسكرية التى كان يقوم بها بنو مرين ، فانهم لاتقـــاء مطامعهم فى شبه الجزيرة ، كانوا يقومون أحياناً بمحالفة قشتالة وأراجون على رد خطر المرينيين ، وأحياناً يطلقون الأمراء المرينيين المأسورين لديهم للقيام بحركات ثورية ضد عرش فاس ، وأحياناً بالاستيلاء على بعض أراضى عدوة المغرب الشمالية .

وأما محمد الخامس فكانت أطماعه تمتد إلى السيطرة على المضيق ، ولما عزل لأول مرة ولجأ إلى بلاط السلطان أبى سالم ، كان أبو سالم يريد فيما بعد أن يمنعه من العبور إلى شبه الجزيرة لاسترداد عرشه ، لولا تدخل بيدرو الثالث ملك قشتالة ، وعندئذ اضطر أبو سالم أن يتركه وشأنه ، بل وقام بمعاونته ، وقبل أن يرد إليه رند ليتخذها قاعدة لمسيره إلى غرناطة .

وكانت العلائق بين بنى الأحمر وبنى مرين ودية طيبـــة حتى فرار ابن الخطيب من الأندلس فى سنة ٧٧٣ هـ . وكان من أدلة توثقها أن السلطان عبد العزيز المرينى ساعد باسطوله فى حصار الجزيرة حينما هاجمها محمد الخامس .

ولكن هذه العلائق ساءت منذ وفود ابن الخطيب على بلاط السلطان عبد العزيز بتلمسان . ويعلل لنـا ابن خلدون ذلك بقوله أن ابن الخطيب ، لبغضه لمحمد الخامس ، كان يغرى السلطان عبد العزيز بملك الأندلس ، ويحرضه على غزوها . ومن ذلك الحين تبدو الدولة المرينية خطراً على مملكة غرناطة ، وكان من آثار هذا الريب المتبادل ان ساءت العلائق بين البلاطين ، ولما توفى السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل ، أخذ محمد الخامس يعمل للتدخل فى

شئون المغرب ، ويحرض بعض أفراد الأسرة المرينية على انتزاع العرش من ولد عبد العزيز الطفل والقائمين بأمره ، وقام بالفعل بمعاونة بعضهم بفرق من جيشه . ونجحت المحاولة ، واستطاع الأمير أبو العباس أحمد ، ولد السلطان أبى سالم بعد أحداث وتطورات جمة أن ينتزع العرش بمعاونة محمد ، وذلك فى المحرم سنة ٨٧٦ هـ . وكان فى مقدمة مطالب السلطان محمد الاستيلاء على جبل طارق ، واسلم ابن الخطيب ، وقد تم استيلاءه بالفعل على الجبل ، وقبض على ابن الخطيب وقتل فى محبسه ، وتحقق بذلك ما يبغيه محمد من الانتقام من وزيره السابق .

وأما سياسة غرناطة نحو مملكة تلمسان ، فقد كانت سياسة مودة وتحالف ، وكانت العلائق وطيدة بين البلدين ، وبالأخص أيام الأمير أبى حمو آخر ملوكها المستقلين . وكان أبو حمو يتصل بغرناطة بعلائق ودية وثيقة ، وكان محمد يقدر صفات هذا الأمير أبى حمو وشهامته ونجدته . وكان يتبادل معه السفارات والهدايا الفخمة .